عقبات في طريق الهداية

وسبل الوقاية منها

عقبات في طريق الهداية

وسبل الوقاية منها

الكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا
مِن حيث التعريف و بيان الخطر والتربية الوقائية والعلاج

الجزء الثاني

الدكتور
عبد القادر محمد المعتصم دهمان

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٣٩ هـ / ٢٠١٨ م

رقم الإيداع: ١٧٩٠٨ / ٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٦١٨-٥٠-٣

العقبة الحادية والثلاثون

فَقْد محبَّة الله ﷻ ورسوله ﷺ أو ضعفها أو تأخُّرها

أولًا: تعريف المحبة:

الحُبُّ: نقيضُ البُغض. تقول: أحببت الشَّيء فأنا مُحِبٌّ، وهو مُحَبٌّ. وأحبَّه الله ﷻ فهو محبوبٌ. و(الحِبُّ) و(الحِبَّةُ) بمنزلة: الحبيب والحبيبة.

و(الحُبُّ) –بضم الحاء المهملة-: الوداد والمحبة، وكذلك: (الحِبُّ) بالكسر.

و(الحِبُّ) بالكسر: المحبوب. وكان زيد بن حارثة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يدعى: حِبَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والأنثى بالهاء. وفي الحديث: ((**ومن يجترئ على ذلك إلا أسامة، حِبُّ رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))(١)، أي: محبوبه، وكان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحبه كثيرًا.

فالحِبُّ بالكسر: المحْبوب، والأنثى: حِبَّةٌ. وجمع الحِبِّ: أحْبابٌ، وحِبَّانٌ، وحُبُوبٌ، وحِببَةٌ.

و(أَحَبَّ الزَّرْع): بدا حبه. ويقال: (أحب الزَّرْع وألب): صار ذا حب ولب. و(حابَّه محابة وحبابًا): واده وصادقه. و(حبب الزَّرْع): بدا حبه والشَّيء إليه جعله يُحِبهُ. و(تحابُّوا): أحب بعضهم بعضًا. و(تحبب إليه): تودد. و(استحبَّه): آثره. ويقال: استحبه عليه. وفي التَّنزيل العزيز: ﴿اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ﴾ [التوبة:٢٣]. و(الحُبَاب): طرائق تظهر على وجه الماء تصنعها الرِّيح والفقاقيع على وجه الماء. ويقال: طفا الحباب على الشَّراب. والطل يصبح على النَّبات.

و(الحَبُّ): ما يكون في السنبل والأكمام كالقمح والشعير والبزر، وما يشبه الحبِّ في شكله، فيقال: حبات العقد، وحب الغمام، وحب المزن، وحب قر البرد. واحدته: حبَّة (ج): حبوب.

و(عند الفلاسفة): ميل إلى الأشخاص أو الأشياء العزيزة أو الجذابة أو النافعة.

و(الحَبَّة): واحدة الحَبِّ، ومن الشَّيء: جزؤه. ومن الأوزان: قدر شعيرتين وسطيين. وحبة القلب: مهجته وسويداؤه.

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

و(المستحبُّ): ما رغَّب فِيه الشَّارع ولم يوجبه[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا تحد المحبة بحد أوضح منها، فالحدود لا تزيدها إلَّا خفاء وجفاء، فحدها وجودها.

ولا توصف المحبة بوصف أظهر من المحبة، وإنما يتكلم الناس في أسبابها وموجباتها، وعلاماتها وشواهدها، وثمراتها وأحكامها، فحدودهم ورسومهم دارت على هذه الستة، وتنوعت بهم العبارات، وكثرت الإشارات، بحسب إدراك الشخص ومقامه وحاله، وملكه للعبارة.

وهذه المادة تدور في اللغة على خمسة أشياء:

أحدها: الصفاء والبياض. ومنه قولهم لصفاء بياض الأسنان ونضارتها: حبب الأسنان.

الثاني: العلو والظهور. ومنه حبب الماء وحبابه، وهو ما يعلوه عند المطر الشديد، وحبب الكأس منه[2].

الثالث: اللزوم والثبات. ومنه: حب البعير وأحب، إذا برك ولم يقم[3].

الرابع: اللب. ومنه: حبة القلب، للبه وداخله. ومنه الحبة لواحدة الحبوب؛ إذ هي أصل الشيء ومادته وقوامه[4].

الخامس: الحفظ والإمساك. ومنه: حب الماء للوعاء الذي يحفظ فيه ويمسكه، وفيه معنى الثبوت أيضًا.

---

(١) انظر: العين، مادة: (حب) (٣١/٣)، تهذيب اللغة (٨/٤)، لسان العرب (٢٨٩/١)، المعجم الوسيط (١٥٠/١)، وانظر: الكليات (ص:٣٩٨)، المفردات في غريب القرآن (ص:٢١٤- ٢١٥).

(٢) فكأنَّ غليان القلب وثورانه عند الاضطرام والاهتياج إلى لقاء المحبوب يُشبه ذلك.

(٣) فكأن المحب قد لزم قلبه محبوبه فلم يرم عنه انتقالًا. وقيل: بل هي مأخوذة من القلق والاضطراب. ومنه سمي القرط: حبًّا؛ لقلقه في الأذن واضطرابه.

(٤) لأن القلب أصل كيان الإنسان ولُبّه، ومستودع الحُبِّ ومكمنه.

ولا ريب أن هذه الخمسة من لوازم المحبة؛ فإنها صفاء المودة، وهيجان إرادات القلب للمحبوب. وعلوها وظهورها منه؛ لتعلقها بالمحبوب المراد. وثبوت إرادة القلب للمحبوب. ولزومها لزوما لا تفارقه، ولإعطاء المحب محبوبه لبه، وأشرف ما عنده. وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإراداته وهمومه على محبوبه. فاجتمعت فيها المعاني الخمسة[1].

وقيل: الحب: انجذاب النفس إلى الشيء الذي ترغب فيه[2].

وقد أورد ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المدراج) ثلاثين تعريفًا مما قيل: إنه حد المحبة[3]، منها:

أولًا: الميل الدائم بالقلب الهائم.

ثانيًا: إيثار المحبوب، على جميع المصحوب..

ثالثًا: موافقة الحبيب، في المشهد والمغيب.

رابعًا: مواطأة القلب لمرادات المحبوب.

خامسًا: سقوط كل محبة من القلب إلَّا محبة الحبيب.

سادسًا: ميلك للشيء بكليتك، ثم إيثارك له على نفسك، وروحك، ومالك، ثم موافقتك له سرًّا، وجهرًا، ثم علمك بتقصيرك في حبه.

سابعًا: الدخول تحت رق المحبوب وعبوديته، والحرية من استرقاق ما سواه.

ثامنًا: أن تهب كلك لمن أحببت فلا يبقى لك منك شيء.

تاسعًا: أن تمحو من القلب ما سوى المحبوب.

عاشرًا: سفرُ القلب في طلب المحبوب، ولهجُ اللسان بذكره على الدوام.

الحادي عشر: المحبة أن يكون كُلُّكَ بالمحبوب مشغولًا، وذلُّك له مبذولًا.

---

(١) مدراج السالكين (٣/١١)، وانظر: روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:١٧)، الرسالة القشيرية (٢/٤٨٦)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي (١/٢٩٢).

(٢) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف، للعلامة المناوي (ص:٨١).

(٣) انظر: مدارج السالكين (٣/١٣- ١٨)، وانظر: روضة المحبين (ص:١٩).

الثاني عشر: نار في القلب، تحرق ما سوى مراد المحبوب[(١)].

وقد استحسن ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأخير، وقال: "وهذا الحد صحيح: وقائله إنما أراد: أنها تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب الديني الأمري، الذي يحبه ويرضاه، لا المراد الذي قدره وقضاه"[(٢)]اهـ.

والحقيقة أن ما تقدم إنما هو من فيض المعنى أو لازمه، أو أثر من آثاره.

ثانيًا: فَقْد محبَّة الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو تأخرها عقبة مضلة:

إنَّ الدافع الأقوى للاتباع هو المحبة، فهي التي تثمر ثباتًا واستقامة على طاعة الله ﷻ، وطمأنينة وأمنًا؛ فإن المحبة من وسائل الاقتناع والرضا النفسي، تحرك القلب والعاطفة، وهي من محفزات الاتباع، بل هي أسماها، وبالتالي فإن فَقْدَ المحبة لله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو ضعفها أو تأخرها من أسباب السقوط في أودية الضلال.

والمحبة الفاترة سببٌ في هزال المواقف، وضعفِ الاتِّباع.

وقد بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ أساس الاتباع: المحبة، فقال ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

وهذه المحبة من شروط الإيمان؛ لقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾

---

(١) انظر: مدارج السالكين (١٦/٣)، وانظر: روضة المحبين (ص:٤٠٨)، وذكره القشيري في (الرسالة ٤٠٨/٢).

(٢) مدارج السالكين (١٦/٣).

[المائدة:٥٤]؛ ولقول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده**))(١).

إنَّ محبة الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليست مجرد الاتباع، بل هي أساس الاتباع وباعثه، وهي واجب من الواجبات.

والآية التي تختبر حبَّ الإنسان لله ﷻ هي قوله ﷻ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤] حيث جاءت هذه الآية تفضح كذب المدعين.

فقوله في هذه الأشياء إذا كانت: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يدل على أن محبة هذه الأشياء في الأصل لا حرج فيها، فالإنسان يحب والده، ويحب ولده، ويحب أخاه، ويحب قبيلته، ويحب ماله، ويحب تجارته، ويحب مسكنه. فأصل المحبة لهذه الأشياء مباح؛ لأنه من المحبة الطبيعية، لكن إنما يأتي اللوم إذا قدَّم محبة هذه الأشياء على محبة الله ﷻ فأخَّرته هذه الأشياء عن طاعة الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعن الهجرة إلى الله ورسوله.

وقد دل قوله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ على أن فَقْد المحبَّة لله ﷻ ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ضعفها أو تأخُّرها موقع في الضلال، وصارف عن الهداية.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ في بيان لزوم محبة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على التزام محبته ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ إذ قرع الله ﷻ من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله

---

(١) صحيح البخاري [١٤، ١٥]، انظر: إحياء علوم الدين (٤/٢٩٤)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٦-١٨٧).

وأوعدهم بقوله ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فانظر إلى هذا الوعيد الشديد الذي قد توعد الله ﷻ به من كان أهله وماله أحب إليه من الله ورسوله، وجهاد في سبيله. فعلم أنه يجب أن يكون الله ورسوله والجهاد في سبيله أحب إلى المؤمن من الأهل والمال والمساكن والمتاجر والأصحاب والإخوان، وإلَّا لم يكن مؤمنًا حقًّا"(٢).

وقد بيَّن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن مقياس الإيمان بالله ﷻ امتلاء القلب بمحبة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحيث تغدو متغلبة على محبة الولد والوالد والناس أجمعين، فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**لا يؤمن أحدكم، حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**)). وهذا يقتضي أن الإنسان يقدِّم طاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طاعة غيره: فإذا أمرك الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأمر وأمرك والدك أو ولدك أو أحد من النَّاس بأمر يخالف أمر الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يجب عليك معصية هذا الآمر، وطاعة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(٣).

وقال عبد الله بن هشام: كنَّا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلَّا من نفسي، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا، والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك**)) فقال له عمر: فإنَّه الآن، والله، لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الآن يا عمر**))(٤).

---

(١) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٤٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٧٥٠- ٧٥١)، الزهد والورع والعبادة (ص:١٧٩).

(٣) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، صالح الفوزان (٢/٤١- ٤٢).

(٤) صحيح البخاري [٦٦٣٢]، مسلم [١٤٠٠]. قال الخطابي في (أعلام الحديث) (٤/٢٢٨٢): "حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله لعمر حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه. يقول: لا تصدق في حبي حتى تفني في=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من أشد أمتي لي حُبًّا، ناس يكونون بعدي، يود أحدهم لو رآني بأهله وماله))**(١).

وفَقْد محبَّة الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ضعفها أو تأخُّرها أو ضعفها أو تأخرها سبب للفتور عن طلب الحق، والنفور من أهله.

قال ابن عقيل رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإذا نفرت النفوس عميت القلوب، وخمدت الخواطر، وانسدت أبواب الفوائد"(٢).

والحاصل أن المحبة من أعظم أسباب الهداية والاستقامة، وأن محبة الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فوق كل محبة، وأن فقدها أو تأخرها مورث للضلال والغواية، وصارف عن الحق والهداية.

ثالثًا: سبل الوقاية من آفات فَقْد محبَّة الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو تأخرها والعلاج:

١ – أن يفقهَ المكلَّفُ المحِبُّ الأسبابَ الجالبة لمحبة الله ﷻ:

أما الأسباب الجالبة لمحبة الله ﷻ فهي على النحو التالي:

أ. قراءة القرآن بالتدبر، والتفهم لمعانيه وما أريد به.

ب. التقرب إلى الله ﷻ بالنوافل بعد الفرائض.

=طاعتي نفسك، وتؤثر رضاي على هواك، وإن كان فيه هلاكك". وقال الحافظ في (الفتح) (٥٢٨/١١): "فعلى هذا فجواب عمر أوَّلًا كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار؛ ولذلك حصل الجواب بقوله: ((الآن يا عمر))، أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب. وانظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٥/٢)، طرح التثريب في شرح التقريب (٢٢٨/٦-٢٢٩).

(١) صحيح مسلم [٢٨٣٢].

(٢) الواضح في أصول الفقه (٥٢٨/١).

ج. دوام ذكره على كل حال: باللسان والقلب، والعمل والحال.

د. إيثار محابه على محابك عند غلبة الهوى، والتسنم[1] إلى محابه، وإن صعب المرتقى.

هـ. مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها ومعرفتها. وتقلبه في رياض هذه المعرفة ومباديها. فمن عرف الله ﷻ بأسمائه وصفاته وأفعاله: أحبه لا محالة.

و. مشاهدة بره وإحسانه وآلائه، ونعمه الباطنة والظاهرة؛ فإنها داعية إلى محبته.

وقد جبلت القلوب على محبة من أحسن إليها، وذلك من شكر المنعم على نعمه، والشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح.

ز. انكسار القلب بين يدي الله ﷻ.

ح. الخلوة وقت النزول الإلهي، لمناجاة الله ﷻ، وتلاوة كلامه، والوقوف بالقلب والتأدب بأدب العبودية بين يديه. ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة.

ففي الأسحار نسمات ينالها المقربون، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا مضى شطر الليل، أو ثلثاه، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا، فيقول: هل من سائل يعطى؟ هل من داع يستجاب له؟ هل من مستغفر يغفر له؟ حتى ينفجر الصبح**))[2]، قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٦﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران:١٦-١٧]، وقال ﷻ: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الذاريات:١٧-١٨].

ط. مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم كما ينتقى أطايب الثمر.

---

(١) يقال: تسنمت الحائط: علوته. وفلان قد تسنم ذروة الشرف. ورجل سنيم: عالي القدر.

(٢) صحيح مسلم [٧٥٨].

ي. مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ[1].

ك. التفكر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وتدبر آياته.

ل. الصدق والإخلاص، ومخالفة الهوى؛ فإن ذلك سبب لفضل الله ﷻ على عبده وأن يمنحه محبته.

م. معرفة ما أعده الله ﷻ لعباده الصالحين في الآخرة من النظر إلى وجهه الكريم، وتأمل نصوص الكتاب وصحيح السنة في بيان أحوال أهل الجنة. قال الله ﷻ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝٢٢ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝٢٣﴾ [القيامة:٢٢-٢٣]. وفي الحديث عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله ﷻ: ((**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرءوا إن شئتم:** ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة:١٧]))[2]. فأي جزاء أعظم من هذا؟!

٢ - أن يفقه المكلَّفُ المحِبُّ الأسبابَ الجالبة لمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أما الأسباب الجالبة لمحبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهي على النحو التالي:

أ. التفقه في الدين.

ب. الإكثار من ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصلاة والسلام عليه.

ج. الرجوع إلى هديه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعظيم سنته، وفقه سيرته.

د. معرفة فضل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الناس.

هـ. معرفة خصائصه وخصاله.

و. محبة الله ﷻ وكتابه وشرعه.

ز. محبة أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأهل بيته، ومن سار على هديه.

ح. إجلال العاملين بالسنة وتقديرهم وتوقيرهم، وخاصة العلماء منهم.

---

(١) بتصرف عن (مدارج السالكين) (٣/١٨-١٩).

(٢) صحيح البخاري [٣٢٤٤، ٤٧٧٩، ٤٧٨٠، ٧٤٩٨]، مسلم [٢٨٢٤، ٢٨٢٤، ٢٨٢٤، ٢٨٢٥].

ط. معرفة نعم الله ﷻ على عباده:

ومن هذه النعم: إرساله الرسول ﷺ إلى الناس؛ ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وليهديهم إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم، وليصلح أحوال الناس، فبلَّغ الرِّسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وأوذي وعودي، وأُخْرِج من بلده في سبيل ذلك، فلا يقابل ذلك الإحسان إلا بالإحسان والمحبة. والنفس مجبولة على حبِّ من أحسن إليها مرَّة أو مرتين، فكيف بمن كانت حياته كلها نصحًا لأمته؛ تهذيبًا للنفوس، وتزكية لها، ودلالة على الخير، وتحذيرًا من الشر؟!

ي. معرفة شفقته ﷺ على أمته، ونصحه لهم، وسعيه في مصالحهم، ورفع المضار عنهم.

وقد جاء بيان ذلك مفصلًا في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها)[1].

---

(١) المحبة صورها وأحكامها، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وقد طبع لأول مرة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]، وقد أعيد طبع الكتاب في (دار اللؤلؤة) في (مصر) بإصلاحات وإضافات جديدة، ثم أعيد النشر في (مكتبة العبيكان) في (السعودية) بصياغة جديدة.

العقبة الثانية والثلاثون

الرضا عن النفس

أولًا: المراد من الرضا عن النفس من حيث كونه عقبة:

إن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من الآفات التي تصيب النفس بالعجب والغرور؛ لأنَّ الرِّضا عن النفس يعني: الانقياد والإذعان لما تحبه وترضاه، وذلك يوجب تغطية عيوبها ومساوئها وقبائحها، ولا بدَّ أن تورد صاحبها عندئذ المهالك، وأول هذه المهالك: إعجابه بنفسه الأمارة بالسوء، وقد قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف:٥٣]، وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٤٩]؛ لأنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عالم بخفيات النفوس وكمائنها، وما انطوت عليه من قبيح أو حسن، فيزكي من يستحق التزكية، ويفضح المدَّعين، ولا يظلم أحدًا.

كما أن الشعور بالكمال والرضا عن النفس من أسباب الكبر والعجب وغرور العلم، وهو مما يصرف عن الحق، كما قال الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣].

ونقل الثعالبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن صاحب (الكلم الفارقية)(١) قوله: "أعرف الناس بنفسه أشدهم إيقاعًا للتهمة بها في كل ما يبدو ويظهر له منها، وأجهلهم بمعرفتها وخفايا آفاتها وكوامن مكرها من زكاها، وأحسن ظنه بها؛ لأنها مقبلة على عاجل حظوظها، معرضة عن الاستعداد لآخرتها" انتهى(٢).

---

(١) الكلم الفارقية في الحكم الحقيقية، محمد بن عبد الملك الفارقي، ولد سنة سبع وثمانين وأربعمائة، وتوفي في رجب سنة أربع وستين وخمسمائة. انظر: إيضاح المكنون (٣٧٩/٤)، العبر في خبر من غبر (٤٤/٣)، سير أعلام النبلاء (٢١٥/١٥)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي (٢٠٨/٣٩)، تاريخ بغداد، للخطيب (٣٩/١٥)، تاريخ إربل (٢٩٩/٢)، الوافي بالوفيات (٣٤/٤)، طبقات الشافعية الكبرى (١٣٦/٦).

(٢) الجواهر الحسان في تفسير القرآن، للثعالبي (٣٢٩/٥).

قال بعض أهل العلم: اصحب من ينهضك حاله إلى الكمال، ويدلك على الله مقاله، واحذر من صحبة من يرضى عن نفسه، ويتبع هواه؛ لأن الصاحب ساحب، والمرء على دين خليله.

قال ابن عطاء الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل كل معصية وغفلة وشهوة: الرضا عن النفس، وأصل كل طاعة ويقظة وعفة: عدم الرضا منك عنها. ولأن تصحب جاهلًا لا يرضى عن نفسه خير لك من أن تصحب عالما يرضى عن نفسه، فأي علم لعالمٍ يرضى عن نفسه؟ وأي جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه؟ اهـ"[(١)]؛ لأن الجاهل الذي لا يرضى عن حاله لا يبقى جاهلًا، بل يبحث وينقب ويجتهد إلى أن يتحرر من الجهل. والعالم الذي يرضى عن نفسه لا يبقى عالما.

وقال: "الرضا عن النفس أصل جميع الصفات المذمومة، وعدم الرضا عنها أصل الصفات المحمودة، وقد اتفق على هذا جميع العارفين، وأرباب القلوب؛ وذلك لأن الرضا عن النفس يوجب تغطية عيوبها ومساويها، ويصيِّرُ قبيحها حسنًا، كما قيل:

وعَينُ الرضا عن كُلِّ عيبٍ كليلةٌ***[(٢)]

وعدم الرضا عن النفس على عكس هذا؛ لأنَّ العبد إذ ذاك يتهم نفسه، ويتطلب عيوبها، ولا يغتر بما يظهر من الطاعة والانقياد، كما قيل في الشطر الأخير:

***كما أنَّ عينَ السّخط تبدي المساويا[(٣)]

فمن رضي عن نفسه استحسن حالها، وسكن إليها، ومن استحسن حال نفسه، وسكن إليها استولت عليه الغفلة، وبالغفلة ينصرف قلبه عن التفقد والمراعاة لخواطره،

---

(١) انظر: تفسير الثعالبي (٣٢٩/٥)، شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣)، البحر المديد (٥١٢/١).

(٢) البيت ينسب لعبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر. انظر: ديوان عبد الله بن معاوية (ص:٩٠)، الحيوان (٢٣٦/٣)، عيون الأخبار (١٦/٣)، العقد الفريد (١٩٤/٢)، الأمثال المولدة (ص:٤٠٤)، الحماسة المغربية (١٢٤٠/٢- ١٢٤١)، الحماسة البصرية (٥٥/٢)، الأغاني (٢١٤/١٢، ٢٣٣). ونسب في (التمثيل والمحاضرة) (ص:٣١٠) إلى المتنبي.

(٣) والشطر الأول منه: "وعين الرضا عن كل عيب كليلة" كما تقدم.

فتثور حينئذ دواعي الشهوة على العبد، وليس عنده من المراقبة والتذكير ما يدفعها ويقهرها، فتصير الشهوة غالبة له بسبب ذلك. ومن غلبته شهوته وقع في المعاصي لا محالة. وأصل ذلك رضاه عن نفسه، ومن لم يرض عن نفسه لم يستحسن حالها، ولم يسكن إليها"(١).

قال الشاعر:

إذا ما أطعتَ النَّفْسَ في كل لذة نُسِبْتَ إلى غير الحِجَا والتَّكَرُّمِ
إذا ما أجبتَ النَّفْسَ في كل دعوة دَعَتْكَ إلى الأمر القبيح المحرَّمِ(٢)

ومن آثار الرضا عن النفس أنه يورد صاحبه المهالك، فيضل عن الحق كما حكى الله ﷻ عن الكفار أنهم قالوا للمستضعفين: ﴿أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣]، أي: بشرف الإيمان، مع أن الشرفاء على زعمهم، أولى بكل شرف، فلو كان شرفًا لانعكس الأمر، فهو إنكار لأن يخص هؤلاء من بينهم بإصابة الحق، والسبق إلى الخير، وكقوله ﷻ مخبرًا عن آفة ضلالهم: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ [مريم:٧٣].

وقال قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]، وحكى عن كفار قريش أنهم قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف:١١].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعنون بلالًا وعمارًا وصهيبًا وخبابًا وأشباههم وأقرانهم من المستضعفين والعبيد والإماء، وما ذاك إلا لأنهم عند أنفسهم يعتقدون أن لهم عند الله ﷻ وجاهة، وله بهم عناية. وقد غلطوا في ذلك غلطًا فاحشًا، وأخطأوا خطأً بينًا، كما

---

(١) شرح ابن عباد على الحكم (ص:١٧٣- ١٧٤).

(٢) قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخبرنا عبد الله بن محمد، قال: أنبأنا أحمد بن علي بن ثابت، قال: أنشدني أبو عبد الله محمد بن أحمد الشيرازي الواعظ: إذا ما أطعت النفس..الخ" ذم الهوى (ص:٥٢)، وانظر: البداية والنهاية (١٥/٧٠٤)، تاريخ بغداد (١/٣٧٧)، تاريخ دمشق (٥١/١٤٠).

قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣]، أي: يتعجبون: كيف اهتدى هؤلاء دوننا؛ ولهذا قالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١]. وأما أهل السنة والجماعة فيقولون في كل فعل وقول لم يثبت عن الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: هو بدعة؛ لأنه لو كان خيرًا لسبقونا إليه؛ لأنهم لم يتركوا خصلة من خصال الخير إلا وقد بادروا إليها.

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ﴾، أي: بالقرآن، ﴿فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ﴾، أي: كذب، ﴿قَدِيمٌ﴾، أي: مأثور عن الأقدمين، فينتقصون القرآن وأهله، وهذا هو الكبر الذي قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بَطَرُ الحق، وَغَمْطُ الناس**))[1].

"قالوا: لَوْ كانَ ما جاء به محمد من القرآن والدين خيرًا ما سبقونا إليه؛ فإن معالي الأمور لا تنالها أيدي الأراذل؛ فإنَّ عامتهم فقراء وموالٍ ورُعاة، قالوه زعمًا منهم أن الرئاسة الدينية مما تُنال بأسباب دنيوية، كما قالوا: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف:٣١]، وضلَّ عنهم أنها منوطة بكمالات نفسانية، وملكات روحانية، مبناها: الإعراض عن زخارف الدنيا، والإقبال على الله ﷻ بالكلية، وأنَّ مَن فاز بها حازها بحذافيرها، ومن حرمها فما له عند الله ﷻ من خلاق. والحاصل: أن هذه المقالة سببها: الرضا عن النَّفس، وهو أصل كل معصيةٍ وغفلة"[2].

ثانيًا: إجمال أسباب الوقاية من آفة الرضا عن النفس والعلاج:

١ - رسوخ العقيدة السليمة في النفس:

إنَّ العقيدةَ السليمة تكبحُ جماح النَّفس عن الاسترسال في الشَّهوات، وتحملُها على ما فيه صلاحُها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وتنهضُ بها إلى المعالي.

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ٢٧٨- ٢٧٩)، صحيح مسلم [٩١]. و(بطر الحق) يعني: رده، و(غمط الناس) يعني: احتقارهم وازدراءهم.

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد (٥/٣٣٠).

٢ – صيانة النفس عمّا يضرُّ في الآخرة:

وتكونُ صيانةُ النفس بالتزام تقوى الله ﷻ، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله ﷻ الذي فيه صلاحها وسعادتها. قال الله ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

٣ – معرفة النفس وآفاتها:

إنَّ معرفةَ آفات النفس، والتنقيب عن عيوبها يعين في توصيف العلاج، واتخاذ أسباب السلامة والوقاية من أخطارها.

٤ – تزكية بالنفس، وتأديبها، وتدريبها على الأخلاق الفاضلة:

ويكون بتهذيبها وتأديبها ومخالفتها واتهامها، وأن يقودها لا أن تقوده، فمن لم يتنصر على نفسه وشهواتها كيف سينتصر على عدوه؟ وكيف سيصل إلى هدف هو أسمى من مُتَعٍ ولذّاتٍ آنيّةٍ فانية؟!

وقد قيل: مخالفة النفس رأس العبادة، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها بمهلكاتها، كالكبر والعجب والحسد وطول الأمل. وكيف يصح لعاقل الرضا عن النفس والله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣]؟![(١)].

وقد بين الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن محاسبة النفس تكون لمستقبَل الأعمال ولمستدبرها. فقال: المحاسبة في مستقبل الأعمال: "النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم. والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال، وقد نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة"[(٢)].

فمن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله ﷻ القويم، وشرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان

---

(١) انظر: المنفرجتان (ص:٧٥-٧٦)، الرسالة القشيرية (٢٨٣/١)، بريقة محمودية، للخادمي (٧٢/٢).

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله) (ص:٤٨-٥٥).

الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخنا -يعني: ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ- يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم"(١). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٢).

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩]. فالهداية لا تكون إلَّا بالانتصار على النفس. قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الذين جاهدوا بسلوك طريق المعاملة، لنهدينهم سبل الصبر على الاستقامة"(٣).

والحاصل أن الفلاح والهداية والاستقامة رهن بصلاح النفس، وصلاحها رهن بمجاهدتها كما قال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا ۝١٠﴾ [الشمس:٧-١٠]، وقال سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

والتزكية تطهر النفس من الصفات والأخلاق الذميمة، وتُنمي في النفس القيم الأخلاقية السامية والمحفزة على الخير.

وإنَّ إصلاح النفوس والسعي إلى تزكيتها بالإيمان والعمل الصالح، وتنقيتها من أدران الشرك والمعاصي والصفات المذمومة، والارتقاء بها في مدارج الكمال الإيماني، وسلَّم السمو الأخلاقي والسلوكي من أهم ما ينبغي أن يسعى إلى تحقيقه المربون، وينتبه إلى أهميته المصلحون؛ إذ القيام بهذه المهمة عنوان الفلاح، ومفتاح النصر، والسبيل نحو العزة والريادة.

وقد بيَّن الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أهمية تهذيب النفس، وأوضح أنَّ الإنسان مركب من كثيرٍ من الصفات التي هي على طرفي نقيض بين الخير والشر، فلا يعلم الحسن من

---

(١) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

(٣) لطائف الإشارات (١٧٧/٢).

القبيح بالتفويض المطلق إلى العقل، أو العرف والعادة، فلا بد من الشرع؛ فإن العقيدة هي التي توجه الإنسان إلى الصفات الحميدة، والميول الخيرة. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن أغفل تأديبها تفويضًا إلى العقل أو توكلًا على أن تنقاد إلى الأحسن بالطبع أعدمه التفويض درك المجتهدين، وأعقبه التوكل ندم الخائبين، فصار من الأدب عاطلًا، وفي صورة الجهل داخلًا؛ لأن الأدب مكتسب بالتجربة، أو مستحسن بالعادة، ولكل قوم مُوَاضَعَةٌ[1].

وذلك لا ينال بتوقيف العقل، ولا بالانقياد للطبع حتى يكتسب بالتجربة والمعاناة، ويستفاد بالدُّرْبَة[2] وَالْمُعَاطَاة. ثم يكون العقلُ عليه قَيِّمًا، وَزَكِيُّ الطَّبْع إليه مُسَلِّمًا. ولو كان العقلُ مُغْنِيًا عن الأدب لكان أنبياء الله ﷺ عن أدبه مستغنين، وبعقولهم مكتفين. وقد جاء في الحديث: عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**))"[3].

٥ – التبصر بآفات الرضا عن النفس والشعور بالكمال وعواقبه في الدنيا والآخرة.

٦ – مطالعة سير السَّلف الصالح، وموقفهم الوسط من الدنيا بين الإفراط والتفريط، وريادتهم في كافة المجالات العلمية والصناعية والطبية والدينية، وهضمهم للنفس، وتواضعهم وأخلاقهم.

---

(١) أي: توافق على أمور يعدونها حسنة وأخرى يعدونها قبيحة، ويتناقض مع ما يتوافق عليه آخرون.

(٢) الدربة: العادة. يقال درب بالشيء، إذا لزمه، ولصق به. ومن هذا الباب تسميتهم العادة والتجربة: دربة. انظر: مقاييس اللغة، مادة: (درب) (٢/٢٧٤).

(٣) أدب الدنيا والدين (ص:٢٣١). والحديث أخرجه أحمد [٨٩٥٢]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٢٧٣]، والبزار [٨٩٤٩]، والخرائطي [١]، والحاكم [٤٢٢١]، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه تمام [٢٧٦]، والشهاب [١١٦٥]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٨٢]، وفي (شعب الإيمان) [٧٦٠٩]. قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٨/ ١٨٨): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

٧ – أن يتذكر الإنسان حقيقة الدنيا وأنها زائلة، وأنها ليست غاية أو هدفًا، وإنما هي وسيلة لغاية وهدف.

٨ – أن يتذكر الإنسان حقيقة النَّفس ومدى ضعفها.

٩ – مراقبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سائر الأحوال.

العقبة الثالثة والثلاثون

التعصب

أولًا: تعريف التعصب:

١ - **التعصب لغة**: من العصبية. والعصبية: أن يدعو الرجل إلى نصرة عصبته، والتألب معهم، على من يناويهم، ظالمين كانوا أو مظلومين. والعَصَبِيُّ هو الذي يغضب لعَصَبتِه، ويحامي عنهم. والعَصَبة: الأقارب من جهة الأب؛ لأنهم يُعَصِّبونه، ويَعْتَصِبُ، أي: يحيطون به، ويَشْتَدُّ بهم.

والعَصَبِيَّة والتَّعَصُّب: المحاماةُ والمدافعةُ. وتَعَصَّبْنا له ومعه: نصرناه. وعَصَبة الرجل: قومه الذين يَتَعَصَّبونَ له[1].

٢ - **التعصب في الاصطلاح**: أما تعريف التعصب في الاصطلاح فلا يخرج عن المعنى اللغوي فهو عدم قبول الحق عند ظهور دليله[2]. وهو من آفات النفس التي تحمل الإنسان على التمسك بالباطل، وتعظيم النفس، واحتقار الآخر. وينعكس أثرها على السلوك والمواقف.

وللتعصب أشكال مختلفة قد يرتبط بعضها ببعض: منها: التعصب الديني، والسياسي، والاجتماعي، والقبلي، والعرقي، والطائفي، والمذهبي، والفكري، والقومي، والنوعي.

والتعصب ظاهرة قديمة حديثة ترتبط بها العديد من المفاهيم كالتمييز العنصري، والديني، والطائفي، والجنسي، والطبقي.

ومن استقرأ تاريخ الأمم وأسباب الصراعات يعلم أن كثيرًا منها كان سببه: التعصب للدين أو العرق أو اللون، وما زالت هذه الظاهرة تتجدد باستمرار في عصرنا الحالي، وتشكل آفة تدمر الشعوب.

---

(١) انظر: لسان العرب، مادة: (عصب) (٦٠٦/١)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٢٤٦/٣)، المعجم الوسيط (٦٠٤/٢).

(٢) دستور العلماء (٢١٨/١).

ثانيًا: مساوئ التعصب من حيث كونه عقبة:

إنَّ التعصب بجميع أشكاله عقبة في وجه التفكير العلمي الموضوعي، فالتعصب يلغي التفكير الحر، والقدرة على التساؤل والنقد، ويشجع قيم الخضوع والطاعة والاندماج. والتعصب يلقى في زماننا رواجًا وانتشارًا واسعًا، كما كان في أزمنة خلت.

وعندما يثور عجاج التعصب فإنه يشوِّش الخواطر، ويعمى البصائر، ويمنع من الروية، ويؤدي إلى الخلط في القول، فيُفْتَقد الإنصاف، ويكثر الاعتساف.

ولكن لماذا ينتشر التعصب إلى هذا الحد؟!

إنَّ التعصب يمثل حاجة للبعض من حيث الركون إلى رأي يحتمي به، ويعفي نفسه من التفكير في ظله.

والواقع أن الحماية متبادلة، فالرأي الذي نتعصب له يحمينا؛ لأنه يؤدي إلى نوع من الهدوء أو الاستقرار النفسي، ويضع حدًّا لتلك المعركة القلقة التي تنشب في نفوسنا حين نستخدم عقولنا بطريقة نقدية، ولكننا من جهة أخرى نضمن الحماية لهذا الرأي ذاته عن طريق رفض كل رأي مخالف ومهاجمته بعنف، والسعي إلى تصفيته، وإذن فكل من المتعصب ورأيه أو عقيدته يحمي الآخر، ولكنها حماية خادعة مضللة، أشبه ما تكون بالمخدر؛ لأنها تركز أساسًا على تخدير العقل وإبطاله.

وبالتعصب ينصر الأفراد الشخص، وينصرون أفكاره ومبادئه ومفاهيمه، ولو كانت باطلة أو ظالمة آثمة، ولو كانت تجلب شرًّا وضرًّا للمجتمع البشري، وتتقاتل الجماعات بسبب تلك الولاءات المختلفة، وتسفك الدماء، فأي ضرر فوق هذا؟!

"فهاهنا تسكب العبرات بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر، لا بسنَّةٍ ولا قرآن، ولا لبيان من الله ﷻ ولا لبرهان، بل لما غلت مراجل العصبية في الدين، تمكن الشيطان من تفريق كلمة المسلمين:

يأبى الفتى إلّا اتبـــاع الهوى ومنهـج الحـق له واضح[1]

مع أن الله ﷻ أمر بالجماعة والائتلاف. ونهى عن الفرقة والاختلاف. فقال ﷻ: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران:١٠٣]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران:١٠٥]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]. وقد امتاز أهل الحق، من هذه الأمة بالسنة والجماعة، عن أهل الباطل الذين يزعمون أنهم يتبعون الكتاب ويعرضون عن سنَّة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وعما مضت عليه جماعة المسلمين"[2].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا أن التعصب من أسباب الضلال والكفر: "وأما التعصب لأمر من الأمور بلا هدى من الله ﷻ فهو من عمل الجاهلية. ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]"[3]. فقوله: (بلا هدى) أي: بلا تبصر، وما يقابله: التَّمسك بالحقِّ الواضح المبنيِّ على الحجَّة والبرهان، ولا سيما عند تلاطم الفتن، والتباس الحق عند كثير من الناس، فالواجب على العلماء الراسخين: البيان والإعلاء للحق؛ حتى يتميز عن الباطل عند أولئك.

وقال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ﴾ [السجدة:١٠]: "لو كانت لهم ذرَّة من العرفان، وشمَّة من الاشتياق، ونسمة من المحبة لما تعصَّبوا كلَّ هذا التعصب في إنكار جواز الرجوع إلى الله ﷻ"[4].

---

(١) البيت من (السريع)، لأبي نُوَاس الحسن بن هانئ، وهو في (ديوانه) (ص:٦١٨)، وانظر: تاريخ بغداد (٤٤٢/٧)، البيان والتبيين (٣/ ١٣٥)، الحماسة المغربية (١٤١٤/٢).

(٢) تفسير القاسمي (٣٧٧/١)، السيل الجرار، للشوكاني (ص:٩٨١).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/١١).

(٤) لطائف الإشارات (١٤٠/٣).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "والمتعصب وإن كان بصره صحيحًا فبصيرته عمياء، وأذنه عن سماع الحق صماء، يدفع الحق وهو يظن أنه ما دفع غير الباطل، ويحسب أن ما نشأ عليه هو الحق غفلة منه وجهلًا بما أوجبه الله ﷻ عليه من النظر الصحيح، وتلقِّي ما جاء به الكتاب والسنة بالإذعان والتسليم، وما أقل المنصفين بعد ظهور هذه المذاهب في الأصول والفروع، فإنه صار بها باب الحق مرتجًا، وطريق الإنصاف مستوعرة، والأمر لله سبحانه، والهداية منه"(١).

والتعصب من أسباب الجمود الفكري، وهو من الغلو المذموم في تعظيم أقوال الأئمة بحيث تقدم على النصوص الواضحة الصريحة، وفيه: إلغاء جهود الآخرين ولو كانت في كثير من المسائل أكثر دقة.

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان خطورة التعصب: "التعصب سببٌ يرسخ العقائد في النفوس، وهو من آفات علماء السوء"(٢). وأوضح أن غلبة التعصب تحجب الباحث عن الحق، قال: "فإن غلب عليه التعصب لمعتقده، ولم يبق في نفسه متسع لغيره، صار ذلك قيدًا له وحجابًا"(٣).

وقال الشيخ صالح الفلاني: "ومن جملة أسباب تسليط الفرنج على بعض بلاد المغرب، والتتر على بلاد المشرق: كثرة التعصب والتفرق والفتن بينهم في المذاهب وغيرها، وكل ذلك من اتباع الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى"(٤).

قال الشيخ محمد الحسن الددو: "إن التعصب مقيت مذموم، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لم يتعبدنا باتباع أحدٍ غير رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد جعله أسوة حسنة لنا، وأما من دونه من غير المعصومين فلم يأمرنا بلزوم طريقه مائة بالمائة، بل المعصوم وحده هو الذي لا

(١) تفسير فتح القدير (٢/٢٧٧).
(٢) إحياء علوم الدين (١/٤٠).
(٣) المصدر السابق (٣/ ٧٥).
(٤) إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:٥٤).

يقع منه الخطأ، أو لا يقر عليه، وأما من سواه فيمكن أن يقع منه الخطأ، ولذلك ففعل غير المعصوم ليس بحجة إجماعًا.

ومن هنا: فإن التعصب لغير المعصوم مخالف لمقتضى الشرع ومخالف لمقتضى العقل؛ لأن التعصب له إما أن يكون في حق، وإما أن يكون في باطل، فإن كان في حق فعليك أن تتعصب للحق نفسه، والتعصب له بمعنى: التزامه والأخذ به، وليس معناه أن ترد حقًّا محتملًا آخر، بل أن تعلم أن الحق أولى بالاتباع، وإن كان على باطل فلا يحل التعصب له، بل يجوز التماس العذر له إن علم منه الصلاح، كأئمة المسلمين وفقهائهم وعلمائهم، فهؤلاء إذا علمت أن أحدًا منهم أخطأ في اجتهاد فعليك أن تلتمس له العذر، وأن تعلم أن سابقته في الإسلام، وما عرف عنه من الصلاح، وما عرف من حاله من الاستقامة مدعاة لأن يلتمس له العذر، وأن يظن به أحسن الظنون.

ولكن ليس هذا داعيًا لأن يتعصب لهم أبدًا، بل لا يجوز أن يقال: إن مذهبًا من المذاهب صواب مائة بالمائة، أو أن مذهبًا من المذاهب خطأ مائة بالمائة، ولم يرَ هذا أئمة الاجتهاد، ولا أحد ممن سواهم؛ ولذلك قال الشافعي ﵀: رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب. والمقصود عندما يتعين حصول الخلاف المتناقض في مسألة من المسائل فالنقيضان لا يمكن أن يجتمعا، ولا يمكن أن يرتفعا، النقيضان الشيء وغيره، لا يمكن أن يرتفعا؛ لأنهما لا بد أن يكون أحدهما سلبًا للآخر، ولا يمكن أن يجتمعا كذلك، مثل إذا قيل: هذا الحكم واجب، وقيل: هذا الحكم غير واجب مثلًا، فهذان نقيضان، فيقول الشافعي ﵀ هنا: عند حصول الخلاف من هذا النوع، رأيي صواب؛ لأن المسألة لا تحتمل صوابين، لا بد أن يكون فيها صواب واحد، وخطأ واحد، رأيي صواب معناه: في نظري أنا، يحتمل الخطأ؛ لأنه ليس وحيًا مُنزَّلًا، وإنما هو نتاج لعقلي أنا، ورأي غيري معناه: الرأي المقابل لرأيي خطأ، معناه: في رأيي أنا يحتمل الصواب، معناه: من المحتمل أيضًا أن يكون صحيحًا؛ لأنه إنتاج عقل مثل عقلي.

وهذا هو الذي ينفي التعصب، وبالأخص عندما يعلم الإنسان مآخذ أهل العلم، ومن أين أخذوا، وعلى أي شيء اعتمدوا، فلم يأتِ أحد منهم بقول أراد به مخالفة كتاب الله أو مخالفة سنة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولم يريدوا أبدًا تحريف الكلم عن مواضعه، ولم يقل أحد منهم: اتركوا كلام رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وخذوا كلامي، بل قالوا خلاف ذلك جميعًا، فإذا كان الأمر كذلك فلو وجدت قولًا لأحدهم ووجدت قولًا لآخر يخالفه، ووجدت الدليل مع أحدهم أقوى، فإنك لا ينبغي أن تقول: إن هذا الذي دل الدليل على صحة مذهبه معصوم، وأن ما قاله هو الصواب مائة بالمائة، وليس لك أيضًا أن تتهجم على الآخر الذي لم تجد دليله، أو لم تطلع عليه، أو عرفت أن الدليل يخالفه، بل تقول: إن رأيه ضعيف في هذه المسألة، ولا ينقص ذلك من قدره، ولا يقلل من شأنه، كما أن صواب الآخر في تلك المسألة لا يقتضي أنه معصوم، ولا أن ترفعه عن حجمه الطبيعي، فهو إنسان اجتهد وبذل الجهد، ووفقه الله تعالى لأمر إن أصاب فيه فهو مأجور، وإن أخطأ فخطؤه مغفور"(١).

والحاصل أنَّ التَّعصب يُضلُّ الباحثَ عن الحقِّ، وينحرف بالغاية والقصد، فلا يرى المتعصب الواقعَ على حقيقته، وبالتالي لا يصلُ إلى نتائجَ سليمة، كما أنه يذكّي النزاعات والشِّقاق، فيطولُ الجدلُ والاختلاف، مما يؤثر في نفسه من حيث ما يصيبه من التوتر والقلق والغضب والحسد، وهي آفاتٌ نفسية تُفضِي إلى الدَّنف والتَّلف، وتُشوِّشُ الفكرَ، وتُفْسِدُ النَّظر.

كما يؤثر في الآخرين من حيث سوء التبليغ، وانحراف القصد، وعدم الالتزام بآداب البحث والجدل والمناظرة، والبعد عن الأخلاق الحميدة، فيحرم الفرد والمجتمع من التقدم والرقي، وهو من أسباب سوء العاقبة.

(١) نقلًا عن موقع فضيلة الشيخ محمد الحسن الددو الشنقيطي: [٢/محرم/١٤٣٨هـ].

ثالثًا: الوقاية من آفات التعصب والعلاج:

١ - البحث والتتبع وتمييز الصحيح عن الضعيف والقوي عن غيره، والعمل بما ثبت صحته، وقوي دليله:

قال الشيخ صالح الفلاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحاصل أن العمل بالحديث بحسب ما بدا لصاحب الفهم المستقيم من المصلحة الدينية هو المذهب عند الكل. وهذا الإمام الهمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ كان يفتي ويقول: هذا ما قدرنا عليه في العلم، فمن وجد أوضح منه فهو أولى بالصواب، كذا في (تنبيه المغترين)[(١)].

وعنه أنه قال: لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعرف مأخذه من الكتاب والسنة أو إجماع الأمة أو القياس الجلي في المسألة"[(٢)].

٢ — الاحتراز عن التقليد المذموم، وعن ظاهرة التقديس وتجاوز الحدِّ في التعظيم:

قال الشيخ حسن العطار رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته): "لا تكن أسير التقليد، ولا ممن يحمله التعصب على ما ليس بسديد"[(٣)]. وقال: "لا تكن أسير التقليد وانظر لما قال لا لمن قال"[(٤)].

٣ - الإنصاف في الحكم:

والإنصاف من الأخلاق الفاضلة الحميدة، وهو شأن الباحث عن الحق. وأكرم بالإنصاف من فضيلة، فصاحب الخلق الحسن يأبى عليه خلقه الحسن من التعصب المقيت، والانتصار للنفس؛ لأنَّ ذلك يحمل على الاعتساف، وازدراء الآخرين، ويسيء إلى الشخص وإلى ما يدعو إليه.

---

(١) انظر: تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، لعبد الوهاب الشعراني (ص:١٣).

(٢) إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:٥٤).

(٣) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١/١٩٩).

(٤) المصدر السابق (١/ ٢٩٢).

٤ – التبصر والتبين والنظر إلى المآلات:

إن من أسباب الوقاية من آفات: التبصر والتبين وإعمال العقل، والنظر إلى المآلات؛ لأن التعصب يطمس البصائر. فاطرح التعصب، واتبع الحق، وانظر بعين الإنصاف ينور الله ﷻ قلبك بنور الإيمان والعرفان.

العقبة الرابعة والثلاثون

العشق

أولًا: تعريف العشق:

"العشق: فرط الحب[1]. وفي اشتقاقه قولان. أحدهما: أنه من الْعَشَقَة -محركة-، وهي نبت أصفر يلتوي على الشجر[2]، فشبه به العاشق. والثاني: أنه من الإفراط"[3].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العشق هو الإفراط في الحب، حتى يزيد على القصد الواجب، فإذا أفرط كان مذمومًا فاسدًا مفسدًا للقلب والجسم"[4].

فالعشق هو الحب المفرط الذي يخاف على صاحبه منه.

ولا يوصف به الرب ﷻ، ولا العبد في محبة ربه، فلا يقال: إن الله يعشق، ولا عشقه عبده؛ لأن العشق مذموم مطلقًا لا يمدح لا في محبة الخالق ولا المخلوق؛ لأنه المحبة المفرطة الزائدة على الحد المحمود؛ ولأن العشق محبة مع شهوة[5]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلفوا في سبب المنع على ثلاثة أقوال، أحدها: عدم التوقيف بخلاف المحبة. الثاني: أن العشق إفراط المحبة، ولا يمكن ذلك في حق الرب ﷻ؛ فإن الله ﷻ لا يوصف بالإفراط

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عشق) (٤/١٥٢٥).

(٢) قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسمي العاشق عاشقًا؛ لأنه يذبل من شدة الهوى، كما تذبل العشقة إذا قطعت". تهذيب اللغة (١/١١٨)، ونحوه في (لسان العرب) مادة: (عشق) (١٠/٢٥٢)، و(تاج العروس) (٢٦/١٥٩). **أقول**: ولعل الأقرب أن سبب التسمية أن العشقة، وهي شجرة يقال لها: اللبلابة، تخضر ثم تدق ثم تصفر، وهي تلتوي على الشجرة وتلزمها في كل حال، كما لا ينفك العاشق عن معشوقه حتى يقضي به ذلك إلى الدنف والتلف. وإلا فما وجه التخصيص بالعشقة؟! قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واشتقاق العشق من العشقة وهي: اللبلاب؛ لأنه يلتوي على الشجر ويلزمه". أساس البلاغة، مادة: (عشق) (١/٦٥٤).

(٣) مدارج السالكين (٣/٣١)، وانظر: المخصص، لابن سيده (١/٣٧٨)، أساس البلاغة، مادة: (عشق) (١/٦٥٤).

(٤) قاعدة في المحبة (ص:٥٦)، جامع الرسائل (٢/٢٤٢).

(٥) انظر: ذلك مفصلًا في (معجم المناهي اللفظية وفوائد في الألفاظ)، للعلامة بكر بن عبد الله أبو زيد (ص:٣٨٠)، كتاب الفتاوى، لابن عبد السلام (ص:٧١-٧٢)، مجموع الفتاوى، لابن تيمية (١٠/١٣١)، روضة المحبين، لابن القيم (ص:٢٨)، شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي (ص:١٢٤).

في الشيء، ولا يبلغ عبده ما يستحقه من حبه فضلًا أن يقال: أفرط في حبه. الثالث: أنه مأخوذ من التغير كما يقال للشجرة المذكورة: عاشقة، ولا يطلق ذلك على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"[1].

ثانيًا: أنواع العشق:

العشق يقع بين طرفين: (عاشق ومعشوق). أما أنواعه فلا يخلو إما أن يكون من الرجال للنساء، أو العكس، ويقع شذوذًا وانحرافًا من الرجال للرجال، ومن النساء للنساء.

ثالثًا: أسباب العشق وخطورته وآثاره:

إن العشق من أسباب الغفلة، وفساد الإدراك، والتيه والضلال. فهو أجلب شيء للمفاسد العاجلة في الدنيا، وأعظم شيء تعطيلًا لمصالحها؛ فإنه يحول بين العبد وبين رشده الذي هو ملاك أمره، وقوام مصالحه، وهو من أسباب الضلال، والضلال موجب للحساب في الآخرة، والعقاب على التقصير والتفريط. فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من الانصراف الكلي إلى المعشوق.

"سئل بعض العلماء عن عشق الصُّور فقال: قلوب غفلت عن ذكر الله فابتلاها الله ﷻ بعبودية غيره"[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فليس شيء أضيع لمصالح الدين والدنيا من عشق الصور، أما مصالح الدين فإنها منوطة بلم شعث القلب، وإقباله على الله ﷻ، وعشق

---

(١) روضة المحبين (ص:٢٨-٢٩)، وانظر: طريق الهجرتين (ص:٣٢٨).

(٢) مفتاح دار السعادة (ص:١١٢).

الصور أعظم شيء تشعيثًا وتشتيتًا له. وأما مصالح الدنيا فهي تابعة في الحقيقة لمصالح الدين، فمن انفرطت عليه مصالح دينه وضاعت عليه، فمصالح دنياه أضيع وأضيع"[1].

وهو داء ومرض يصيب الكثيرين بسبب اتباعهم لهوى النفس والشيطان، وغفلتهم عن إدراك علَّة الخلق، وحقيقة المخلوق، وعن أسباب النجاة، وحقيقة السعادة؛ لأن العاشق ينصرف بكليته إلى معشوقه، فتصيبه آفات العشق حتى يقضي به ذلك إلى الدنف والتلف.

إن العشق داءٌ صعبٌ ومرض ليس بالهين[2].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: إن العشق فساد في الإدراك والتخيل والمعرفة؛ فإن العاشق يخيل له المعشوق على خلاف ما هو به، حتى يصيبه ما يصيبه من داء العشق، ولو أدركه على الوجه الصحيح لم يبلغ إلى حد العشق -وإن حصل له محبة وعلاقة-"[3].

كما أنه من أسباب انحطاط الهمم عن طلب الهداية، بسبب وقوع الإنسان في أسر العشق، فيشغله ذلك عن التبصر، وعن محبّة الله ﷻ، ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فكم من عاشق أتلف في معشوقه ماله وعرضه ونفسه، وضيع دينه ودنياه؟!

كما أن المعشوق قد يُعرِّض العاشق للتلف، حيث يطمعه في نفسه، ويتزين له، ويستميله بكل طريق؛ للظفر بماله، أو لاستخدامه في مصالحه.

والعاشق ربما قتل معشوقه إذا وقع بينهما اختلاف -ولا سيما إذا جاد بالوصال لغيره-.

---

(١) الجواب الكافي (ص:٢١٣).

(٢) انظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح الحنبلي (٣/١٢٥).

(٣) جامع الرسائل (٢/٢٤٣- ٢٤٤)، قاعدة في المحبة (ص:٥٧- ٥٨).

فكم للعشق من قتيل من الجانبين؟! وكم أزال من نعمة، وأفقر من غنى، وأسقط من مرتبة، وشتَّت من شمل؟![1].

"ومن الأضرار التي يجرها العشق: فاحشتي: الزنا إن كان المعشوق امرأة، واللواط إن كان المعشوق رجلًا، فالعشق سبيل إليهما، وكثيرًا ما يقترن بتلك الفاحشتين العظيمتين اللتين لا يخفى ضررهما على دين الإنسان، وعقله، وماله، وخلقه، وصحته"[2].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سئل بعض الحكماء عن العشق، فقال: شغل قلب فارغ"[3].

"وقال أفلاطون: العشق حركة النفس الفارغة. وقال أرسطاطاليس: العشق عمى الحس عن إدراك عيوب المحبوب. وقال أرسطو: العشق جهل عارض صادف قلبًا فارغًا لا شغل له من تجارة ولا صناعة، وقال غيره: هو سوء اختيار صادف نفسًا فارغة. قال قيس بن الملوح:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبا خاليا فتمكنا[4]

وقال بعضهم: لم أر حقًّا أشبه بباطل، ولا باطلًا أشبه بحق من العشق، هزله جد، وجده هزل، وأوله لعب، وآخره عطب. وقال الجاحظ: العشق اسم لما فضل عن المحبة، كما أن السرف اسم لما جاوز الجود، والبخل اسم لما جاوز الاقتصاد، فكل عشق يسمى: حبًّا، وليس كل حب يسمى: عشقًا.."[5].

---

(١) انظر: روضة المحبين (ص: ١٨٤)، الجواب الكافي (ص:٢١٨).

(٢) العشق، حقيقته، خطره، أسبابه، علاجه، محمد بن إبراهيم الحمد (ص:٢٥).

(٣) بهجة المجالس، لابن عبد البر (٢/٨١٧).

(٤) انظر: البيان والتبيين، للجاحظ (٢/٢٩)، وهو من (الطويل).

(٥) بتصرف عن (روضة المحبين)، لابن القيم (١/١٣٧- ١٣٨)، وانظر: ربيع الأبرار، للزمخشري (٣/٤٢٩)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٢/١٣٠)، المستطرف في كل فن مستطرف (ص:٤٠٤)، وانظر: كلام الحكماء والفلاسفة في العشق في (نهاية الأرب في فنون الأدب) (٢/١٢٦).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن الذي يورثه العشق من نقص العقل والعلم، وفساد الخلق والدين، والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا أضعاف ما يتضمنه من جنس المحمود. وأصدق شاهد على ذلك: ما يعرف من أحوال الأمم، وسماع أخبار الناس في ذلك، فهو يغني عن معاينة ذلك وتجريبه، ومن جرب ذلك أو عاينه اعتبر بما فيه كفاية، فلم يوجد قط عشق إلا وضرره أعظم من منفعته"(١). وقد صنَّف ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (مصارع العشاق). وسبب العشق: متابعة النفس والهوى، وضعف الوازع الديني.

قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال بعض الحكماء: ليس العشق من أدواء(٢) الحكماء، إنما هو من أمراض الخلفاء الذين جعلوا دأبهم ولهجتهم: متابعة النفس، وإرخاء عن الشهوة، وإفراط النظر في المستحسنات من الصور، فهنالك تتقيد النفس ببعض الصور فتأنس، ثم تألف، ثم تتوق، ثم تتشوق، ثم تلهج فيقال عشق، والحكيم من استطال رأيه على هواه، وتسلطت حكمته أو تقواه على شهوته، فرعونات نفسه مقيدة أبدًا، كصبي بين يدي معلمه، أو عبد بمرأى سيده، وما كان العشق إلا لأرعن بطال، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكمية؟ فإنها صارفة عن ذلك"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن عشق الصور المحرمة نوع تعبد لها، بل هو من أعلى أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولى على القلب وتمكن منه صار تتيمًا، والتتيم: التعبد، فيصير العاشق عابدًا لمعشوقه، وكثيرًا ما يغلب حبه وذكره والشوق إليه، والسعي فى مرضاته، وإيثار محابه على حب الله ﷻ وذكره، والسعي فى مرضاته، بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلقًا بمعشوقه من الصور، كما هو مشاهد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله ﷻ، يقدم رضاه وحبه على رضى الله وحبه،

(١) الاستقامة، لابن تيمية (١/٤٥٩).

(٢) الداء: المرض، والجمع: أدواء.

(٣) الآداب الشرعية والمنح المرعية (٣/١٢٥-١٢٦).

ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله ﷻ، وينفق فى مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تعالى، فيصير آثر عنده من ربه: حبًّا، وخضوعًا، وذلًّا، وسمعًا، وطاعة؛ ولهذا كان العشق والشرك متلازمين، وإنما حكى الله سبحانه العشق عن المشركين من قوم لوط، وعن امرأة العزيز، وكانت إذ ذاك مشركة، فكلما قوى شرك العبد بُلِيَ بعشق الصور، وكلما قوى توحيده صرف ذلك عنه. والزنا واللواطة كمال لذتهما إنما يكون مع العشق، ولا يخلو صاحبهما منه، وإنما لِتنقله من محل إلى محل لا يبقى عشقه مقصورًا على محل واحد، بل ينقسم على سهام كثيرة، لكل محبوب نصيب من تألهه وتعبده"(١).

رابعًا: سبل الوقاية من داء العشق والعلاج:

١ — الإخلاص في محبة الله ﷻ، ومحبة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن الإخلاص سبب لدفع آفة العشق. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: "وعشق الصور إنما تبتلى به القلوب الفارغة من محبة الله تعالى، المعرضة عنه، المتعوضة بغيره عنه، فإذا امتلأ القلب من محبة الله ﷻ والشوق إلى لقائه، دفع ذلك عنه مرض عشق الصور، ولهذا قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في حق يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فدلَّ على أن الإخلاص سبب لدفع العشق، وما يترتب عليه من السوء والفحشاء التي هي ثمرته ونتيجته، فصرف المسبب صرف لسببه. فصرف عنه السوء من العشق، والفحشاء من الفعل بإخلاصه؛ فإن القلب إذا أخلص عمله لله ﷻ لم يتمكن منه عشق الصور، فعشق الصور إنما يتمكن من القلب الفارغ؛ ولهذا قال بعض السلف: العشق حركة قلب فارغ، يعني: فارغًا مما سوى معشوقه. قال

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/٦٤).

ﷻ: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَى فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ [القصص:١٠]، أي: فارغًا من كل شيء إلا من موسى عَلَيْهِ السَّلَام؛ لفرط محبتها له، وتعلق قلبها به"[1].

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "ذكر الله ﷿ العشق في القرآن عن المشركين، فإن العزيز وامرأته وأهل مصر كانوا مشركين، كما قال لهم يوسف عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ۝٣٧ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ۝٣٨ يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ۝٣٩ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٠﴾ [يوسف:٣٧- ٤٠]، وقال ﷻ: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [يوسف:٣٠].

وأما يوسف عَلَيْهِ السَّلَام فإنَّ الله ﷿ ذكر أنه عصمه بإخلاصه الدين لله ﷿. قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]، فأخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه صرف عنه السوء والفحشاء، ومن السوء: عشقها ومحبتها، ومن الفحشاء: الزنا. وقد يزني بفرجه من لا يكون عاشقًا، وقد يعشق من لا يزني بفرجه. والزنا بالفرج أعظم من الإلمام بصغيرة كنظرة وقبلة. والمخلصون يصرف الله ﷿ عنهم السوء والفحشاء. ويوسف عَلَيْهِ السَّلَام كان من المخلصين حيث كان يعبد الله ﷿ لا يشرك به شيئًا، وحيث توكل على الله ﷿ واستعان به، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ۝٣٣ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٣٤﴾ [يوسف:٣٣-٣٤]. وهذا تحقيق قوله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ

---

(١) بتصرف عن (زاد المعاد) (٤/ ٢٤٦).

الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [النحل:٩٨-١٠٠].

فأخبر سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن المتوكلين على الله ﷻ ليس للشيطان عليهم سلطان، وإنما سلطانه على المتولين له. و(المتولي) من الولاية، وأصله: المحبة والموافقة، كما أن العداوة أصلها: البغض والمخالفة"[1]. فالإخلاص في محبة الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يكون إلا بتقديم هذه المحبة على كل محبة.

إن هناك من يحب امرأة أكثر من حبه لله ﷻ، وكذلك هناك من يحب المال أو المصلحة أكثر من حبه لله ﷻ، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

فالمحبة المشروعة محبة الله ﷻ، والمحبة في الله ﷻ. والمحبة الممنوعة هي المحبة مع الله ﷻ، وتقديم ما تحبه النفس على ما يحبه الله ﷻ، ومن ذلك: العشق، فهو مرض من أمراض القلوب؛ لأنه لا يتمكن إلا من قلب فارغ من محبة الله ﷻ.

إنَّ فَقْدَ المحبة لله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو ضعفها أو تأخرها من أسباب السقوط في أودية الضلال.

وتقديم محبة الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أعظم أسباب الهداية والاستقامة، ولا يجتمع الحبُّ مع الجهلِ بالمحبوب وعدم العناية بأمره ونهيه. فمن أسباب الوقاية من آفات العشق: التبصر بمقتضيات ومحفزات محبة الله ﷻ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢ – مجاهدة النفس والهوى.

٣ – الإنابة إلى الله ﷻ والخوف منه:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وما يبتلى بالعشق أحد إلا لنقص توحيده وإيمانه وإلا فالقلب المنيب إلى الله الخائف منه فيه صارفان يصرفان عن العشق: أحدهما: إنابته إلى الله ومحبته له؛ فإن ذلك ألذ وأطيب من كل شيء، فلا تبقى مع محبة الله ﷻ محبة مخلوق

(١) قاعدة في المحبة (ص:٧٦- ٧٧).

تزاحمه. والثاني: خوفه من الله ﷻ؛ فإن الخوف المضاد للعشق يصرفه. وكل من أحب شيئًا بعشق أو غير عشق فإنه يصرف عن محبته بمحبة ما هو أحب إليه منه إذا كان يزاحمه، وينصرف عن محبته بخوف حصول ضرر يكون أبغض إليه من ترك ذاك الحب، فإذا كان الله ﷻ أحب إلى العبد من كل شيء، وأخوف عنده من كل شيء لم يحصل معه عشق ولا مزاحمة إلا عند غفلة أو عند ضعف هذا الحب والخوف، بترك بعض الواجبات وفعل بعض المحرمات؛ فإن الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، فكلما فعل العبد الطاعة محبة لله ﷻ وخوفًا منه، وترك المعصية حبًّا له وخوفًا منه قوي حبه له وخوفه منه، فيزيل ما في القلب من محبة غيره ومخافة غيره"(١).

٤ — الزواج:

ومن أسباب الوقاية من آفات العشق: الزواج. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نكاح المعشوقة هو دواء العشق"(٢). ودواء المحبين في كمال الوصال الذي أباحه رب العالمين، كما بين ذلك ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (روضة المحبين)(٣).

فإن العشق قد يقع ابتلاء، ومن غير تسبب الإنسان فيه، كرجل وقع بصره على امرأة فعشقها، واحترز عن المعاصي التي يتسبب بها العشق.

وقد أرشده النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أوجه العلاج من هذا المرض، والتي منها: الزواج، ففي الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لم يُرَ لِلْمُتَحَابَّيْنِ مِثْلُ النِّكَاحِ))**(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٦).

(٢) الجواب الكافي (ص:٢٣٧).

(٣) انظر: روضة المحبين (ص:٢١٢).

(٤) أخرجه ابن ماجه [١٨٤٧]، والبزار [٤٨٥٦]. والطبراني في (الكبير) [١٠٨٩٥] و(الأوسط) [٣١٥٣]، والحاكم [٢٦٧٧]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، كما أخرجه تمام [٨١٦]، والمقدسي في (المختارة) [٤٤]. قال في (مصباح الزجاجة) (٢/٩٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات"، وانظر: حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١/٥٦٧). ولفظ: (متحابين) يحتمل التثنية والجمع.

وفي الحديث: ((**من استطاع الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**))(١).

٥ – التبصر بما يجلبه هذا الداء من آفات عاجلة وآجله:

وقد تقدم بيان هذه الآفات العاجلة منها والآجلة.

٦ – تذكر قبائح المحبوب وما يدعوه إلى النفرة منه:

وإنما يعلم ذلك بإدراك علَّة الخلق، وحقيقة المخلوق كما تقدم. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فإن لم تقبل نفسه مما تقدم من علاج لهذا الداء "فليتذكر قبائح المحبوب، وما يدعوه إلى النفرة عنه، فإنه إن طلبها وتأملها، وجدها أضعاف محاسنه التي تدعو إلى حبه، وليسأل جيرانه عما خفي عليه منها، فإنها المحاسن، كما هي داعية الحب والإرادة، فالمساوئ داعية البغض والنفرة، فليوازن بين الداعيين، وليحب أسبقهما وأقربهما منها بابًا، ولا يكن ممن غره لون جمال على جسم أبرص مجذوم، وليجاوز بصره حسن الصورة إلى قبح الفعل، وليعبر من حسن المنظر والجسم إلى قبح المخبر والقلب"(٢).

٧ – الاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة:

إن من أنفع أسباب الوقاية من آفات العشق: أن يشتغل بالعبادات الظاهرة والباطنة، ويكثر من النوافل والذكر والاستغفار والدعاء، واللجوء إلى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والاستعانة به في صرف ذلك عنه، وحضور مجالس العلماء؛ فإن ذلك يقيه من آفات الشرود. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن عجزت عنه هذه الأدوية كلها لم يبق له إلا صدق اللجأ إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وليطرح نفسه بين يديه على بابه مستغيثًا به، متضرعًا متذللًا، مستكينًا، فمتى وفق لذلك فقد قرع باب التوفيق، فليعف وليكتم، ولا

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/٢٥٢).

يشبب بذكر المحبوب، ولا يفضحه بين الناس ويعرضه للأذى، فإنه يكون ظالما معتديًا"[1].

(١) المصدر السابق (٤/٢٥٢).

العقبة الخامسة والثلاثون

الغفلة

أولًا: تعريف الغفلة:

الغفلة لغة: مصدر غَفَلَ يَغْفُلُ غَفْلَةً وغُفُولًا من باب دَخَلَ. وأَغْفَلَه: تركه وسها عنه. وقيل: سَهَا من قلّة التحفظ والتيقظ. وأَغْفَلَه عنه غَيْرُه. والتَّغافُلُ: التَّعَمُّدُ. وأغْفَلْتُ الشيء: تركته عَلَى ذِكْرٍ. والمغَفَّل: مَنْ لا فِطْنَةَ له. وأرضٌ غُفْلٌ: لا عَلَمَ بها، ولا أَثَرَ عِمارَة، ورجُلٌ غُفْلٌ: لم يُجَرِّبِ الْأُمُور(١).

أما الغفلة اصطلاحًا فقد قيل إنها:

متابعة النفس على ما تشتهيه.

وقيل: إبطال الوقت بالبطالة.

وقيل: هي ألا يخطر ذلك بباله(٢).

وقيل: فقد الشعور بما حقه أن يشعر به.

وقيل: الذهول عن الشيء(٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سهو يعتري من قلَّة التَّحفظ والتَّيقظ(٤).

وقيل: غَيْبَة الشيء عن بال الإنسان وعدم تَذَكُّرِه له.

وقد استعمل فيمن تركه إهمالًا وإعراضًا كما في قوله ﷻ: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء:١](٥).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غفل) (١٧٨٢/٥)، العين (٤١٩/٤)، مقاييس اللغة (٣٨٦/٤)، المحكم والمحيط الأعظم (٥٢٩/٥)، تهذيب اللغة (١٣٣/٨)، لسان العرب (٤٩٨/١١)، المعجم الوسيط (٦٥٧/٢).

(٢) انظر: التعريفات، للجرجاني (ص:١٦٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٥٢)، جامع العلوم (٦/٣)، تاج العروس، مادة: (غفل) (١٠٩/٣٠).

(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٥٢)، التحرير والتنوير (١٠/١٧).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (غفل) (ص:٦٠٩)، وانظر: بصائر ذوي التمييز (١٤٠/٤).

(٥) المصباح المنير، مادة: (غفل) (٤٤٩/٢).

أما الفرق بين الغفلة والنسيان فقد قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الغفلة ترك باختيار الغافل، والنسيان ترك بغير اختياره؛ ولهذا قال ﷻ: ﴿وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف:٢٠٥]، ولم يقل: ولا تكن من الناسين؛ فإن النسيان لا يدخل تحت التكليف فلا ينهى عنه"(١).

ثانيًا: آثار الغفلة:

ينبغي على الإنسان أن يحرصَ على طلب الهداية -كما تقدم-، وهو دأب الفطناء، وأرباب القلوب، وأصحاب البصائر، فهم على دارية وتبصُّرٍ لآثار الهداية الطيبة والنافعة في الدنيا والآخرة، كما أنهم يعلمون أنَّ التفريط في طلبها مفضٍ إلى التحسر كما قال الله ﷻ: ﴿أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٦-٥٨].

فالفرصة في الدنيا سانحة، ووسائل الهدى حاضرة، وباب التوبة مفتوح لكل مقصِّر أو غافل.

ولكن المقصر أو الغافل إذا دهمه الموت فإنه يتحسر على التَّفريط في الطاعة، وفقد الهداية، ثم يتمنى الرجعة إلى الدنيا؛ لتدارك ما فات، فيأتيه الجواب: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر:٥٩]، أي: إنه لا فائدة من ذلك، فقد جاءتك آياتي في الدنيا على لسان رسولي الذي أرسلته إليك، وفي كتابي الذي يتلوه عليك، ويذكِّرك بما فيه من وعدٍ ووعيد، وتبشير وإنذار فكذَّبت بها واستكبرت عن قبولها، وكنت ممن يعمل عمل الكافرين ويستنُّ بسنتهم، ويتَّبع مناهجهم.

وإنَّ الله ﷻ يعلم طبيعتهم، ويعلم إصرارهم على باطلهم، ويعلم أن رجفة الموقف المفزع، ووقوفهم على النار هو الذي أنطق ألسنتهم بهذه الأماني، وهذه الوعود، كما قال

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٠٥- ٤٠٦).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾ [الأنعام:٢٨]. ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ۝ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام:٢٧].

والإنسان لا يعلم متى أجله، فقد يقترب حسابه وهو في غفلة يرتع ويلعب كما قال الله ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [مريم:٣٩]. وقال الله ﷻ: ﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ۝ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ۝ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء:١- ٣]. أي: دنا حساب الناس على أعمالهم التي عملوها في دنياهم، وعلى النعم التي أنعمها عليهم ربهم في أجسامهم وعقولهم ومطاعمهم ومشاربهم، ماذا عملوا فيها؟ هل أطاعوه فيها فانتهوا إلى أمره ونهيه؟ أو عصوه فخالفوا أمره فيها، وهم في هذه الحياة في غفلة عمَّا يفعل الله ﷻ بهم يوم القيامة، ومن ثم تركوا الفكر والاستعداد لهذا اليوم، والتأهب له، جهلًا منهم بما هم لاقوه حينئذ من عظيم البلاء، وشديد الأهوال.

قال محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله ﷻ: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ جملة مبينة لجملة: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾؛ لبيان تمكن الغفلة منهم وإعراضهم، بأنهم إذا سمعوا في القرآن تذكيرًا لهم بالنظر والاستدلال اشتغلوا عنه باللعب واللهو، فلم يفقهوا معانيه، وكان حظهم منه سماع ألفاظه، كقوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. و(الذكر): القرآن، أطلق عليه اسم الذكر الذي هو مصدر؛ لإفادة قوة وصفه بالتذكير. و(المحدث): الجديد. أي: الجديد نزوله متكررًا، وهو كناية عن عدم انتفاعهم بالذكر كلما جاءهم بحيث لا يزالون بحاجة إلى إعادة التذكير وإحداثه مع قطع معذرتهم؛ لأنه لو كانوا سمعوا ذكرًا واحدًا فلم يعبأوا به لانتحلوا لأنفسهم عذرًا كانوا ساعتئذ في غفلة، فلما تكرر حدثان

إتيانه تبين لكل منصف أنهم معرضون عنه صدًّا. ونظير هذا قوله ﷻ: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحْدَثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ﴾ [الشعراء:٥]"[١].

ويقول الله ﷻ: ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾ [الأنبياء:٩٧]. وهو تفجع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة فيذهل، ويشخص بصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والهلاك، ويعترف ويندم، ولكن بعد فوات الأوان.

ويقول الله ﷻ في بيان عاقبة الغفلة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [يونس:٧-٨]. فهذا نصٌّ في أنَّ النَّار مأوى الغافلين عن هذه الآيات، أي: عن آياته الكونية في الآفاق، وهي حُجج الله تعالى، وأدلته الدَّالة على وجوده وتوحيده ووحيه وشرعه، غافلون عنها، لا ينظرون فيها، ولا يفكرون فيما تدل؛ لانهماكهم في الدنيا حيث أقبلوا عليها، وأعطوها قلوبهم، وأخضعوا لها جوارحهم.

ثالثًا: أسباب الغفلة:

جعل الله ﷻ في هذا الكون آيات جليلة دالة على عظمته ووحدانيته غفل عنها كثير من الناس، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ﴾ [يونس:٩٢]، فكم من آية بينة في نفسها يغفل الناس عنها؟! كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥]. وحقيقة المرور: الاجتياز، ويستعار للتغافل وعدم الاكتراث للشيء، كقوله ﷻ: ﴿فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ﴾ [يونس:١٢]، أي: نسي دعاءنا، وأعرض عن شكرنا؛ لأن المار بالشيء لا يقف عنده، ولا يسائله، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا مَرُّوا

---

(١) التحرير والتنوير (١١/١٧).

بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا﴾ [الفرقان:٧٢]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى حكاية عن المشركين حين رأوا معجزة انشقاق القمر: ﴿وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

ثم أعقب ذلك ببيان سبب الغفلة، وأنه متابعة أهواءهم الباطلة، وما زيَّن لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ [القمر:٣].

والغفلة لها أسبابها التي تنشأ عنها، ومنها: اتباع الهوى -كما تقدم-.

وفي العصر الحاضر فإنَّ المدنية والوسائل الحديثة، والضوضاء، وكثرة العمل، وقلَّة الفراغ، كل ذلك جعل القليل من الناس من يتفكر في نفسه وما حوله، إضافة إلى ذلك فإن ابتعاد كثير من الناس عن التفكر إنما يرجع إلى تلبسه ببعض المعاصي والآثام التي ألفها وأحبها؛ ولذلك فإنه يبتعد عن الفكر الذي قد يؤدي إلى التوبة منها، أو إلى توبيخ نفسه وتأنيبها، فيظل غارقًا في شؤونه دون تفكير في إصلاح نفسه أو أهله أو مجتمعه.

كما أن (الفقر المنسي) قد يكون سببًا للإعراض والغفلة، وسيأتي بيان ذلك في عقبة: (الفقر المنسي والغنى المطغي). وفي المقابل فإنَّ (وسائل الترفيه) في العصر الحاضر جعلت كثيرًا من الناس لا يجدون فراغًا في أوقاتهم إلا لشهواتهم ومتعهم.

رابعًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج:

١ — سلوك طريق الهداية والحرص على طلبها:

أما علاج داء الغفلة فإن المرض يستلزم رغبة صادقة في العلاج، ومعرفة بالداء وبالدواء، ثم بعد ذلك الصبر على مرارتة، والزمن جزء من العلاج، فالواجب الصبر والاستعانة بالله ﷻ، وتذكر الموت والآخرة، واختيار الصحبة الصالحة المعينة على الثبات على الطريق، والبيئة الصالحة، وعلو الهمة في طلب العلم، والتفقه في الدين..إلى غير ذلك.

فإنَّ وسائل الوقاية من هذا الداء: الحرص على طلب الهداية. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإذا عظم المطلوب، وأعوزك الرفيق الناصح العليم فارحل بهمتك من بين الأموات، وعليك بمعلم إبراهيم –يعني: الله ﷻ–"[1]. ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: ((**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**))[2]، وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: (يا معلم إبراهيم علمني)، ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته وقد رآه يبكي، فقال: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما"[3].

٢ – الحذر من أسباب الغفلة:

ومن وسائل الوقاية من هذا الداء: أن يحذر المكلَّف أسباب الغفلة والإعراض، وأن ينيب إلى ربه ﷻ، ويتفكر في مخلوقاته وآياته، ويستدل بكل آية من آيات الله ﷻ على قدرته وحكمته وعلمه وكماله في أسمائه وصفاته كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ:٩]، "أي: إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجّاع إلى الله ﷻ، على قدرة الله ﷻ على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن مَنْ قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة

(١) مفتاح دار السعادة (١/٣٢).

(٢) صحيح مسلم [١٨٤٧].

(٣) انظر: إعلام الموقعين (٤/٢٥٧)، المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٥/١٥٠).

الأجسام، ونشر الرميم من العظام، كما قال ﷻ: ﴿أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى﴾ [يس:٨١]، وقال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]"(١).

ويقول الله ﷻ في بيان من شغله معاشه عن معاده، أو شغلته الدنيا بشهواتها وملذاتها عن التذكر والاعتبار، وعن الاستعداد ليوم المعاد: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩]. والمراد أن قلوبهم، أي: عقولهم لا تفقه الدلائل على الحق والهدى، وأعينهم لا تنظر الآيات نظر استدلال واعتبار وتأمل، وتلمس لطرق الرشاد، ولهم آذان لا يسمعون بها القران والمواعظ سماع تدبر وتفكر وتذكر واعتبار. ونحوه قوله ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]. فلو أن هذا الغافل النائم، الذي هو في كل واد هائم تجرَّد من هوى نفسه، وخرج من ضيق الجهل إلى فضاء العلم، ومن سجن الهوى إلى ساحة الهدى، لأدرك الحق المبين، واهتدى إلى الصراط المستقيم.

والحاصل أن الغفلة من أهم الأسباب المانعة من التفكر والاستدلال والهداية.

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٩٦).

العقبة السادسة والثلاثون

عدم الاعتراف بالخطأ

أولًا: المراد من التمادي في الخطأ من حيث كونه عقبة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخطأ: نقيض الصواب، وقد يُمَدُّ. وقُرِئَ بهما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً﴾ [النساء:٩٢]، تقول منه: أخطأت، وتخطَّأت، بمعنى واحد. ولا تقل: أَخْطَيْت: وبعضهم يقوله. والخِطْءُ: الذنْبُ، في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٣١]، أي: إثمًا، تقول منه: خَطِئَ يَخْطَأُ خطأ وخِطْأَة، على فِعْلَة، والاسم: الخَطيئَة، على فَعيلة. ولك أن تشدد الياء.."[1].

والغلط في اصطلاح جمهور الفقهاء يأتي مساويًا للفظ الخطأ. فقد جاء في تعريف الغلط: أنه تصور الشيء على خلاف ما هو عليه[2].

وقريب من هذا التعريف قول الليث: الغلط: كل شيء يعيا الإنسان عن جهة صوابه من غير تعمُّد[3].

وذكر بعض المالكية أن ثمة فرقًا بين الخطأ والغلط وهو أن متعلق الخطأ الجَنَان، ومتعلق الغلط اللسان. ولكنهم قالوا: يأتي الغلط بمعنى الخطأ ويأخذ حكمه.

قال الدسوقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (حاشيته) في الحنث بالغلط: أي: اللِّسَانِيِّ نظر، والصَّواب: عدم الحنث فيه، وما وقع في كلامهم من الحنث بالغلط فالمراد به: الغلط الْجَنَانِيُّ الذي هو الخطأ، كحلفه أنه لا يكلم زيدًا فكلمه معتقدًا أنه عمرو، وكحلفه لا أذكر فلانًا فذكره؛ لظنه أنه غير الاسم المحلوف عليه[4].

وفرَّق العسكريُّ بين الخطأ والغلط فقال: "إنَّ الغلط هو وضع الشيء في غير موضعه، ويجوز أن يكون صوابًا في نفسه، والخطأ لا يكون صوابًا على وجه.

---

(١) الصحاح، مادة: (خطأ) (٤٧/١)، وانظر: مختار الصحاح (ص:٩٢).

(٢) شرح مختصر خليل، للخرشي (١٢٢/٧)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٩/ ١٢٩-١٣٠).

(٣) تهذيب اللغة، للأزهري (٨٢/٨)، لسان العرب، مادة: (غلط) (٣٦٣/٧)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣٠/١٩).

(٤) حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١٤٢/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣٠/١٩).

وقال بعضهم: الغلط أن يسهى ترتيب الشيء وأحكامه، والخطأ أن يسهى عن فعله، أو أن يوقعه من غير قصد له ولكن لغيره"(١).

ومن رحمة الله ﷻ بعباده أنه قد رفع عنهم الإثم في الخطأ والنِّسيان وما استكرهوا عليه، كما قال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَا إِن نَّسِينَا أَوۡ أَخۡطَأۡنَا﴾، وقال الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في جوابها: قد فَعَلْتُ(٢).

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وقال ﷻ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [النحل:١٠٦]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٞ فِيمَآ أَخۡطَأۡتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتۡ قُلُوبُكُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥].

وفي الحديث: ((**إنَّ الله تَجَاوَزَ عن أمَّتي الخطأ والنِّسيان وما استكرهوا عليه**))(٣).

وما يعنينا هنا: التمادي في الخطأ بعد التبين، والذي يُعَدُّ عائقًا في التزام طريق الهداية، والثبات على الحقِّ، وليس المراد: مجرد الخطأ الذي هو من طبيعة الإنسان.

إنَّ من دقيق أسباب الإعراض عن الحق: "أن يرى الإنسان أن اعترافه بالحقِّ يستلزم اعترافه بأنه كان على باطل، فالإنسان ينشأ على دين أو اعتقاد أو مذهب أو رأي يتلقاه من مربيه ومعلمه على أنه حق، فيكون عليه مدة، ثم إذا تبين له أنه باطل شق عليه أن يعترف بذلك، وهكذا إذا كان آباؤه أو أجداده أو متبعوه على شيء، ثم تبين له بطلانه،

(١) الفروق اللغوية (ص:٥٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٩/١٣٠).

(٢) صحيح مسلم [١٢٦].

(٣) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١٢٧٤]، و(الصغير) [٧٦٥]، وابن حبان [٧٢١٩]، والحاكم [٢٨٠١]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. والحديث رواه عن ابن عباس وهو مرويٌّ كذلك عن أبي ذر، وعن ثوبان.

وذلك أنه يرى أن نقصهم مستلزم لنقصه، فاعترافه بضلالهم أو خطئهم اعتراف بنقصه، حتى أنك لترى المرأة في زماننا هذا إذا وقفت على بعض المسائل التي كان فيها خلاف على أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وغيرها من الصحابة أخذت تحامي عن قول عائشة، لا لشيء إلا لأن عائشة امرأة مثلها، فتتوهم أنها إذا زعمت أن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أصابت، وأن من خالفها من الرجال أخطأوا، كان في ذلك إثبات فضيلة لعائشة على أولئك الرجال، فتكون تلك فضيلة للنساء على الرجال مطلقًا، فينالها حظ من ذلك، وبهذا يلوح لك سر تعصب العربي للعربي، والفارسي للفارسي، والتركي للتركي، وغير ذلك. حتى لقد يتعصب الأعمى في عصرنا هذا للمعري!"(١).

والخطأ في حياة الناس أمر طبيعي، ولكن ما يتوجه اللوم إليه إنما هو التمادي في الخطأ بعد التبين، والإصرار على الزلل، وعدم الاعتراف بالتقصير، والجدال عن النفس بالباطل.

وقد قيل: الوقوع في الخطأ فطرة، والاعتراف به فضيلة، والإصرار عليه حُمق، والرجوع عنه حكمة، والتحريض عليه سفاهة.

وقال الإمام الماوردي رَحِمَهُ اللَّهُ: "التمادي في الباطل مذمومٌ عند الجميع، واللجاجُ عند ظهور الحقِّ سَفَهٌ عند الجمهور"(٢).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "مراجعة الحق خير من التمادي في الباطل"(٣).

وفي الحديث: ((**من اسْتَلَجَّ في أَهْلِهِ بِيَمِين، فهو أعظمُ إثمًا، لِيَبَرَّ**))، يعني: الكفَّارة(٤).

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد، عبد الرحمن بن يحيى المعلمي (ص:١٢).

(٢) نصيحة الملوك، للماوردي (ص:١٣٢).

(٣) الاستذكار (١٠٣/٧).

(٤) صحيح البخاري [٦٦٢٦].

وفي رواية: ((**إذا اسْتَلَجَّ أَحَدُكُم في الْيَمِين فإنَّهُ آثم، لهُ عند الله من الْكَفَّارَةِ الَّتي أُمِرَ بها**))[1].

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله "(إذا استلج) بتشديد الجيم استفعال من اللجاج، وهو التمادي في الأمر -ولو بعد تبين الخطأ-. وأصله: الاصرار على الشيء مطلقًا"[2].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حضَّ النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُمَّتَه على الكفَّارة إذا كان إتيانها خيرًا من التَّمادي على اليمين، وأقسم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه كذلك يفعل هو"[3]. كما جاء في الحديث: ((**وإنِّي والله -إن شاء الله- لا أَحْلِفُ على يَمِين، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا منها، إلَّا أَتَيْتُ الَّذي هو خَيْرٌ، وتَحَلَّلْتُها**))[4].

ثانيًا: بيان الأسباب:

١ - ضعف الوازع الديني:

وسببه: ضعف الإيمان؛ فإن العقيدة توجِّه النَّفس إلى الميول الخيرة، وتكبح جماح النفس والهوى. وعدم الاعتراف بالخطأ انتصار للنفس والهوى، وهو من الأخلاق الذميمة.

---

(١) أخرجه ابن ماجة [٢١١٤]، والحاكم وقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [١٩٨٥٣].

(٢) انظر الأقوال في معنى الحديث في (فيض القدير) (٢٧٦/١)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٢٣/١١)، فتح الباري، لابن حجر (٥١٩/١١)، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٢٢٣٩/٦)، الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (٣٠٤/٣)

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨٩/٦).

(٤) صحيح البخاري [٣١٣٣، ٤٣٨٥، ٥٥١٨، ٦٦٢١، ٦٦٤٩، ٦٦٨٠، ٦٧٢١، ٧٥٥٥]، مسلم [١٦٤٩].

٢ – الخلل في التصور من حيث البناء على مقدمات فاسدة.

٣ – مخالطة أهل الأهواء والبدع.

٤ – الكبر:

وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم؛ لأن المتكبر إذا سمع من عبد من عباد الله ﷻ استنكف عن قبوله، وتشمر لجحده؛ ولذلك ترى المناظرين في مسائل الدين، أو حتى في مسائل السياسة يزعمون أنهم يتباحثون عن أسرار الدين، أو عن مصالح الأمة، ثم إنهم يتجاحدون تجاحد المتكبرين، ومهما اتضح الحق على لسان واحد منهم أنف الآخر قبوله، وتشمر لجحده، واحتال لدفعه، وسارع إلى تسويغِ خطئه بما يقدر عليه من التلبيس. وقد جاء بيان ذلك في (التكبر).

٥ – الغضب:

الغضب هو انتصار للنفس وهيجان من أجلها، وإذا كان يغضب لنفسه فالبحث عن الحقيقة ليس غاية بالنسبة للغاضب، فهو مستمسك برأيه؛ انتصارًا لنفسه؛ فإن الغضب من أمراض النفس، مشتت للفكر، وصارف عن الحق. وقد جاء بيان ذلك في موضعه.

٦ – الخوف على المكانة والجاه:

بمعنى: "أن يكون قد صار له في الباطل جاه وشهرة ومعيشة، فيشق عليه أن يعترف بأنه باطل فتذهب تلك الفوائد"[١].

---

(١) القائد إلى تصحيح العقائد (ص:١٣).

ثالثًا: الوقاية والعلاج:

١ – الاستغفار والتوبة:

إنَّ دأب الصالحين إذا وقعوا في الخطأ أنهم يستغفرون الله ﷻ، ويتوبون إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران:١٣٥-١٣٦]. وقال ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا﴾ [النساء:٦٤]. وفي الحديث يقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ((**يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم**))[1]، وفي الحديث: ((**لو أنكم لا تخطئون لأتى الله بقوم يخطئون يغفر لهم**))[2].

ومن شأن المؤمن أن يكون متواضعًا، يحترم رأي الآخرين، ويلزم أدب الحوار معهم، ويعترف بالخطأ، ولا يسترسل فيه.

٢ – التبين والتبصر، ويكون بتحري الحق بتجرد عن الهوى، وآفات النفس.

٣ – الرجوع إلى العلماء الربانيين الراسخين.

٤ – الاحتراز من مخالطة أهل البدع والأهواء.

٥ – الحكمة في الدعوة:

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

(٢) الحديث مروي عن أبي هريرة وعن أنس. حديث أبي هريرة: أخرجه الحاكم [٧٦٢٢]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي. حديث أنس: أخرجه أحمد [١٣٤٩٣]، وأبو يعلى [٤٢٢٦]، والضياء [١٥٤٤]. قال الهيثمي (١٠/٢١٥): "رواه أحمد، وأبو يعلى، ورجاله ثقات". ونصه عند أحمد: ((والذي نفسي بيده -أو والذي نفس محمد بيده- لو أخطأتم حتى تملأ خطاياكم ما بين السماء والأرض، ثم استغفرتم الله لغفر لكم، والذي نفس محمد بيده -أو والذي نفسي بيده- لو لم تخطئوا لجاء الله بقوم يخطئون، ثم يستغفرون الله، فيغفر لهم)).

إنَّ من الحكمة في الخطاب الدَّعوي: اللينُ في الخطاب، والتَّبشير والتَّيسير؛ لأنَّ التَّعسير يفضي إلى التَّنفير وإلى تمادي النَّاس في الضَّلال والطُّغيان. وقد جاء في الحديث: ((**يَسِّرُوا ولا تُعَسِّرُوا، وبَشِّرُوا، ولا تُنَفِّرُوا**))(١).

قال الإمام النَّوويُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما جمع في هذه الألفاظ بين الشَّيء وضدِّه؛ لأنَّه قد يفعلهما في وقتين، فلو اقتصر على (يسروا) لصدق ذلك على من يسَّرَ مرَّة أو مرَّات، وعسَّرَ في معظم الحالات، فإذا قال: (ولا تعسروا) انتفى التَّعسير في جميع الأحوال من جميع وجوهه، وهذا هو المطلوب"(٢).

والدِّين الإسلاميُّ مبنيٌّ على اليسر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة:١٨٥]، وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنَّمَا بُعِثْتُم مُيَسِّرِين، ولم تُبْعَثُوا مُعَسِّرِينَ**))(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٦٩]، مسلم [١٧٣٢].
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٤١/١٢).
(٣) صحيح مسلم [٢٢٠، ٦١٢٨].

العقبة السابعة والثلاثون

اليأس والقنوط

أولًا: تعريف اليأس والقنوط:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليأس: "القُنُوط وقد يَئِسَ من الشَّيء ييأس"[(١)]. "القُنوط: اليأس. وقد قَنَط يَقْنِطُ قُنُوطًا مثل: جلس يجلس جلوسًا، وكذلك قنط يَقْنُطُ مثل: قعد يقعد، فهو قانِط"[(٢)]. وقيل: اليأس نقيض الرَّجَاء. وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليأس: قطع الأمل[(٣)].

ومنهم من فرّق بين اليأس والقنوط، فقال: القنوط أخص من مطلق اليأس، فكل قنوط يأس، وليس كل يأس قنوطًا. قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط هو أشد اليأس"[(٤)]. وقال: ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط: أتم اليأس"[(٥)].

وقال العسكري: "الفرق بين اليأس والقنوط والخيبة: أن القنوط أشد مبالغة من اليأس، وأما الخيبة فلا تكون إلا بعد الامل؛ لأنها امتناع نيل ما أمل، فأما اليأس فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده، والرجاء واليأس نقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر. والخائب: المنقطع عما أمل"[(٦)]. وقد اصْطُلِحَ على أنَّ القنوطَ يأسٌ من الرحمة[(٧)].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط: الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القنوط: ترك فرائض الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ"[(٨)].

---

(١) الصحاح، مادة: (يئس) (٣/٩٩٢).

(٢) الصحاح، مادة: (قنط) (٣/١١٥٥)، وانظر: تحرير ألفاظ التنبيه (ص: ٩٣).

(٣) مجمل اللغة، لابن فارس، مادة: (يئس) (١/٩٤١)، القاموس المحيط (ص:٥٨٢).

(٤) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (قنط) (٤/ ١١٣).

(٥) المحرر الوجيز (٣/٣٦٦)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٦/٤٨١)، الجواهر الحسان (٣/٤٠٣).

(٦) الفروق اللغوية (ص: ٢٤٥).

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٧٥).

(٨) فتح القدير (٤/٢٦٠).

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القُنُوط: شدَّةُ اليأس من الخير"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " اليأس: القطع على أن المطلوب لا يتحصل؛ لتحقيق فواته"(٢).

ثانيًا: آفات اليأس والقنوط:

إنَّ اليأسَ والقنوط من أسباب الضَّلال والكفر، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

فلا يقنط من رحمة الله ﷻ إلَّا ضَّالٌ، ولا ييأسُ من رَوْحِ الله ﷻ إلَّا كافرٌ، جاهلٌ بسعةِ رحمة الله تعالى، وذاهلٌ عن كمال قدرته، وغافلٌ عن واسع جوده وكرمه. أما المؤمن الذي أنعم الله ﷻ عليه بالهداية والعلم فلايزال راجيًّا لفضل الله ﷻ وإحسانه، وبرِّه وامتنانه، عالما بما لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حكمةٍ في تقدير الأمور، وتوقيت الأحداث.

"لا يقنط من رحمة ربه إلَّا الضَّالون عن طريق الله ﷻ، الذين لا يستروحون رَوْحَه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر، وثقل هذا الواقع الظاهر؛ فإن رحمة الله قريب من قلوب المؤمنين المهتدين، وقدرة الله تعالى تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود"(٣).

---

(١) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ١٦٧)، وانظر: تفسير ابن عادل الحنبلي (١١/٤٧١).

(٢) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:٦٣٣).

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٤٨).

ومن يتأمَّلُ واقعَ المسلمين وما أصاب الكثيرين منهم من الفقر والتخلف بسبب كثرة الصراعات والظلم والاستبداد يعلم أن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثير من الأمراض التي تصرف عن الهداية، وتعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الأمراض: اليأس والقنوط والإحباط والقلق والخوف، وكلها من الأمراض التي تصيب النفس، فتجد الكثيرين ممن أصابهم اليأس والقنوط في همٍّ وغمٍّ، فلا يرتقي إلى المعالي، ولا يطلب الهداية، بل يركن إلى البطالة والكسل، ويغلق على نفسه باب التنافس في الخير.

وإن اليأس رأس البلايا الأخلاقية، والآفات النفسية.

والمسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله ﷻ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله ﷻ، ووفق إرادته، وهو خير في جانب من جوانبه، ولله ﷻ فيه حِكَمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمؤمن مكلَّف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، والنظام الإسلامي في مجتمعه على أن يتحمَّل في سبيل ذلك الكثير من الشدائد؛ حتى يتحقق فيه معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله ﷻ. والمسلم يتفاءل بوعد الله ﷻ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

ومن صور اليأس المؤلمة: اليأس من تحقيق النجاح في شتى المجالات على الصعيد التعليمي، والأسري، والاجتماعي، والوظيفي، فترى من الناس من لا يُقدم على الزواج وبناء البيت المسلم؛ خوفًا من الفشل، ومن لا يكمل الدراسة؛ خوفًا من الرسوب.

ومن صور اليأس الخطيرة: اليأس من مغفرة الله ورحمته، فترى من يسرف على نفسه بالعصيان، ولا يبادر إلى التوبة والعمل الصالح، ويضيع عمره بالغفلة والإعراض والتسويف؛ لأنه يظن أنه قد فات الأوان.

ثالثًا: حكم اليأس:

أما (حكم اليأس): فقد نَقَلَ ابنُ حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاقَ العلماء على أنَّ اليأس من رحمته ﷻ من الكبائر، مستدلًّا بقوله سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ

إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. وبعد أن ذكر عددًا من الأحاديث المبشِّرة بسعة رحمته ﷻ قال: عدَّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه، وهو ظاهر؛ لما فيه من الوعيد الشَّديد[(١)].

وقد دلت الآية الكريمة السابقة على أن اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ من صفات القوم الكافرين، ولا يلزم مِن هذا أن من اتصف بصفة من صفاتهم أن يكون كافرًا مثلهم. واليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ قد يكون كفرًا يخرج من ملَّة الإسلام، وقد يكون كبيرة من الكبائر. والضابط في ذلك: أن اليأس إذا انعدم معه الرجاء في رحمة الله تعالى وفرجه وعفوه –له أو للنَّاس–، وكان إنكارًا واستبعادًا لسعة رحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ومغفرته وعفوه فهو كفر؛ لأنه يتضمن تكذيب القرآن والنصوص القطعية، وإساءة الظن بربه ﷻ؛ إذ يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وهو يقول: لا يغفر له! فقد حجَّر واسعًا. هذا إذا كان معتقدًا لذلك، أما إن كان لاستعظام الذَّنوب، واستبعاد مغفرتها والعفو عنها، أو بالنَّظر إلى قضاء الله ﷻ وأموره في الكون –كاليأس في الرِّزق والولد ونحوه–، مع عدم انعدام الرجاء؛ فهذا كبيرةٌ مِن أكبر الكبائر ولا يكون كفرًا. وقد عُدَّ من الكبائر بالإجماع؛ لما ورد فيه مِن الوعيد الشديد؛ كقوله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦][(٢)].

رابعًا: سبل الوقاية من هذا الداء وآفاته والعلاج:

١ – صيانة الإيمان:

إنَّ الوقاية من هذا الداء لا تكون إلا بصيانة الإيمان الذي يسهم في استئصال اليأس؛ فإن نور الإيمان يدفع عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل. وهو قائم على ركائز من الثقة بالله ﷻ، والتوكل عليه، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (ص:١٤٨– ١٤٩).

(٢) تفسير القرطبي (٥/١٦٠)، الإسلام سؤال وجواب [١٧٤٦١٩].

يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣]. والحاصل أن ذلك الإيمان والاحتساب مما يورث القناعة والرضا، ويدفع اليأس والقنوط.

٢ - أن يعلم أن كل شيء بقضاء الله ﷻ وقدره، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغتر بها، وهي دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن ما قُدِّر للإنسان لا بدَّ أن يأتيه، وأن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويغفر الذنوب، وأن مع العسر يسرًا، وأن فرج الله ﷻ قريب، وأن من ألمت به نازلة فصبر وشكر الله ﷻ فإنه ينال أجرًا عظيمًا، وأن الله ﷻ سيكشف عنه الضر والبلاء.

ومن أصول العقيدة: تحقيق التوحيد الخاص لله ﷻ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وقدَرِه، قال الله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: **((هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي وعرف أنها من الله))**(١).

فينبغي التعامل مع الحوادث والنوازل من منطلق إيماني، وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه))**(٢).

---

(١) صحيح البخاري (٦/١٥٥).

(٢) أخرجه البزار [٤١٠٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢١١]. قال الهيثمي (١/٥٨): "رواه البزار، وقال: إسناده حسن". وفي لفظ: ((لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)). قال الهيثمي (٧/ ١٩٧): "رواه أحمد، والطبراني، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الأوسط)".

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**))(١).

٣ – الرجاء إذا صاحبه العمل:

وتكون الوقاية من هذا الداء كذلك: بالرجاء إذا صاحبه العمل؛ فإنه يعدل ميزان الخوف، ويدفع اليأس، ويعزز في النفس الصبر والاحتساب.

٤ – حسن الظنَّ بالخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وأن يمتلئ القلب بالفأل الصادق:

عليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئ قلبك بالفأل الصادق، والأمل المشرق الذي يوسّع ما ضيَّقته الخطوب والنَّوازل، فبالأمل تذوق طعم السَّعادة، وبالتفاؤل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتَّفاؤل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيَّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامةَ النفس، والهمةَ العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفاؤل ما هو إلَّا تعبير صادق عن الرُّؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

قال الشاعر:

أعلِّل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ(٢)

فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

اليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

(٢) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (٢/١٤٢)، خزانة الأدب وغاية الأرب (١/١٨٧)، الكشكول (١/٣٠٢).

بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله ﷻ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله ﷻ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكًا مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمَّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبثَّ رسائل الأمل في قلوب المدعوين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائمًا على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيًّا أن الذين يعيشون تفاؤلًا هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفِّزُه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله ﷻ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله ﷻ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله ﷻ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:١١٠]، ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ

يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّعُ للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يَتْبَعُ كل عسر.

والنصوص التي تبعث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

ولنا في سيرة رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته البررة خير قدوة، فمن طائفة مستضعفة من قبل قومهم، إلى خلفاء وملوك وفاتحين وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ولله الحمد والمنَّة.

ولقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل والثقة بوعد الله جَلَّ جَلَالُهُ، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي حادثة الهجرة -مثلًا- عندما أحدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنًا مطمئنًا، متوكلًا على ربه عَزَّ وَجَلَّ، واثقًا بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: ((**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**))[1]. يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].

وقد كان عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يزرع الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه وأمته، وهو القائل صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**(١) **الصالح**(٢)**: الكلمة الحسنة**))(٣). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء: وإنما أحب الفأل؛ لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله تعالى وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط في جهة الرجاء، فالرجاء له خير. وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى، فإن ذلك شر له، و(الطيرة): فيها سوء الظن، وتوقع البلاء.

ومن أمثال التفاؤل: أن يكون له مريض فيتفاءل بما يسمعه فيسمع من يقول: يا سالم، أو يكون طالب حاجة فيسمع من يقول: يا واجد، فيقع في قلبه رجاء البرء أو الوجدان، -والله أعلم-"(٤).

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: ((**كان النبي** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يعجبه التيمن، في تنعله**(٥)**، وترجله**(٦)**، وطهوره**(٧)**، وفي شأنه كله**))(٨).

---

(١) (الفأل): مهموز وقد لا يهمز، وجمعه: فؤول، كفلس وفلوس. وقد فسره النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة. قال العلماء يكون الفأل فيما يسر، وفيما يسوء والغالب في السرور. انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٤/٢١٩)، فتح الباري، لابن حجر (١/١٦٥). وقد جاء (الفأل) مقيدًا في بعض الروايات بكونه صالحًا، وفي أخرى بكونه حسنًا، وهي روايات صحيحة، وما أطلق جاء في مقابل التشاؤم.

(٢) لأنه حسن ظن بالله تعالى.

(٣) صحيح البخاري [٥٧٥٦، ٥٧٧٦]، مسلم [٢٢٢٤].

(٤) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٨- ٢١٩).

(٥) أي: لبس نعله.

(٦) بالجيم: تمشيط شعره.

(٧) بضم الطاء، أي: تطهره.

(٨) صحيح البخاري [١٦٨، ٤٢٦، ٥٣٨٠، ٥٨٥٤، ٥٩٢٦]، مسلم [٢٦٨].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "((**كان يعجبه التيمن**))، قيل: لأنه كان يحب الفأل الحسن؛ إذ أصحاب اليمين أهل الجنة"(١).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نجيح(٢)؛ لأنه كان يحب الفأل الحسن فيتفاءل بذلك(٣). ويقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مخاطبًا أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وأمته: ((**فأبشروا وأملوا ما يسركم**))(٤).

والحاصل أن التفاؤل سبب في حصول الخير، وسبب للتقدم والنجاح، يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويورث الطمأنينة والراحة، ويبعث العبد للبذل والعطاء والعمل.

٥ – الاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة:

إنَّ من أنفع أسباب الوقاية من آفات اليأس والقنوط: أن يشتغلَ العبدُ بالعباداتِ الظاهرة والباطنة، ويكثرَ من النوافل، ومن الذِّكر والاستغفار والدُّعاء، وأن يلجأ إلى الله تعالى ويستعين به في صرف ذلك عنه؛ فإن ذلك يقيه من آفات الشُّرود والقنوط. يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبينًا أن خيرَ ما يستعانُ به عند نزول الشدائد: العبادات التي تقربُ من الله ﷻ، وتريح النفس: ((**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**))(٥). وهو مصداق

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (١/٢٦٩)، فيض القدير (٥/٢٠٧)، عون المعبود (١١/١٣٣).

(٢) أخرجه الترمذي [١٦١٦]، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وأخرجه أيضًا: الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤١٨١]، والصغير [٥٤٩].

(٣) انظر: فيض القدير (٥/٢٢٩).

(٤) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].

(٥) صحيح البخاري [٣٩]. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يسر)): ذو يسر. ((يشاد الدين)): يكلف نفسه من العبادة العبادة فوق طاقته والمشادة المغالبة. ((إلا غلبه)): رده إلى اليسر والاعتدال. ((فسددوا)): الزموا السداد، وهو التوسط في الأعمال. ((قاربوا)): اقتربوا من فعل الأكمل إن لم تسطيعوه. ((واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة)): استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في أوقات النشاط، كأول النهار، وبعد الزوال، وآخر الليل.

قول الله ﷻ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥]؛ فإن المداومة على الطّاعات، والإكثار من الذِّكر والنوافل مما يزيل سحب اليأس، ويبدِّد ظلام القنوط، ويقرِّب من المحبوب، فيأنس العبد به، ويشتاق إليه، كما جاء في الحديث القدسي: ((**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**)) الحديث[١].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أقرب ما يكون العبد من ربِّه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**))[٢]. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة[٣].

وفي حديث صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: ((**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**))[٤].

"فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها"[٥].

٦ - التمسك بالعقيدة، والتفقه في الدين:

إنَّ التمسك بالعقيدة، والرجوع إلى الثوابت، والتفقه في الدين، ينير بصيرة المؤمن، ويفتح أمامه أبواب الأمل المتجدد، ويقطع الشكوك التي تشتت فكره، فمهما تفاقم

---

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

(٢) صحيح مسلم [٤٨٢].

(٣) جاء في الحديث عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى)) أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

(٥) انظر: أضواء البيان (٢/ ٣٢٣).

الشرُّ، وترامى الضرر فإنه يعلم أنَّ ما قضى الله ﷻ كائن، وما سُطِّرَ منتظر، وما يحكمُ به يحِقُّ، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وما شاء ربنا صنع، فلا جزع ولا هلع. ورُبَّ محْنَةٍ أورثت مِنْحَة، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِدِ الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وأنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فأبشروا وأمِّلُوا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

٧ - تذكر عواقب وآثار اليأس والقنوط في الدنيا والآخرة.

٨ - حضور مجالس العلماء، وصحبة أهل العدل والخير.

٩ – دوام النظر في كتاب الله ﷻ، وسُنَّةِ رسوله ﷺ، وسيرته العطرة، وسِيَرِ الأنبياء والعلماء والسلف الصالح.

١٠ – مكافحة البطالة التي تؤدي إلى الانحراف والضياع، والسعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح كما جاء مبينًا في عقبة (البطالة).

١١ – العلاج النفسي:

ويكون بمكافحة الاكتئاب ومسبباته، ومعرفة موضع الداء؛ لمعرفة ما يناسبه من العلاج.

١٢ – معرفة أسباب الفشل والإخفاق العامة والخاصة، وإيجاد الحلول الناجعة.

١٣ - التوعية بأخطار اليأس والقنوط، واتخاذ أسباب الوقاية من آفاته من البعد عن الغلو والتشدد، وضرورة الترفيه الإيجابي عن النفس.

العقبة الثامنة والثلاثون

الخوف المذموم

أولًا: تعريف الخوف:

يأتي الخوف بمعنى الفزع[(١)]، أو الرعب[(٢)]. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف والفزع يتقاربان. والخوف: لما يستقبل. والحزن: لما فات"[(٣)].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف: توقع حلول مكروه، أو فوات محبوب"[(٤)].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في المستقبل"[(٥)].

وقال العلامة محمد الطاهر ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف انفعال جبلي وضعه الله في أحوال النفوس عند رؤية المكروه"[(٦)].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف: غم يلحق لتوقع المكروه، والحزن: غم يلحق لوقوعه من فوات نافع أو حصول ضارٍّ"[(٧)].

وقيل: اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف. وقيل: فزع القلب من مكروه يناله أو من محبوب يفوته.

وسببه: تفكر العبد في المخلوقات كتفكره في تقصيره وإهماله وقلة مراقبته لما يرد عليه، وتفكره فيما ذكره الله ﷻ في كتابه من إهلاك من خالفه وما أعدَّ له في الآخرة، وقد يعبر عن الخوف بالفزع والروع والرهبة والخيفة والخشية[(٨)].

---

(١) انظر: العين، للخليل، مادة: (خوف) (٣١٢/٤)، المحكم والمحيط الأعظم، (٣٠٥/٥)، المخصص (٣٥٤/٣)، غريب الحديث، لإبراهيم بن إسحاق الحربي (٨٣٤/٢).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (رعب) (١٣٦/١).

(٣) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر، باب الخوف (ص:٢٧٩).

(٤) التعريفات (ص:١٠١)، وانظر: دستور العلماء (٦٦/٢)، الفروق، للعسكري (ص:٢٤٢).

(٥) إحياء علوم الدين (١٥٥/٤).

(٦) التحرير والتنوير (٢٣٢/٢٣).

(٧) الكشاف (١٩٩/٤).

(٨) انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين (٢٨٣/٤)، نتائج الأفكار القدسية (١٨٧/٢).

و"قال بعض العلماء: خوف العبد ينشأ من أمور هي:

أولًا: معرفته بالجناية وقبحها.

ثانيًا: تصديقه بالوعيد، وأن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ رتَّب على المعصية عقوبتها.

ثالثًا: كونه لا يعلم لعله يمنع من التوبة ويحال بينه وبينها إذا ارتكب الذنب.

وبهذه الثلاثة يتم له الخوف قبل الذنب وبعده، ويكون خوفه أشد"(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف: توقع مكروه عن أمارة مظنونة، أو معلومة، كما أن الرجاء والطمع توقع محبوب عن أمارة مظنونة، أو معلومة(٢)، ويضاد الخوف: الأمن، ويستعمل ذلك في الأمور الدنيوية والأخروية.

قال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، وقال: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ﴾ [الأنعام:٨١]. والخوف من الله لا يراد به ما يخطر بالبال من الرعب، كاستشعار الخوف من الأسد، بل إنما يراد به الكف عن المعاصي، واختيار الطاعات، ولذلك قيل: لا يعد خائفًا من لم يكن للذنوب تاركًا. والتخويف من الله ﷻ هو الحث على التحرز، وعلى ذلك قوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ﴾ [الزمر:١٦]، ونهى الله ﷻ عن مخافة الشيطان، والمبالاة بتخويفه فقال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]"(٣).

ويتبين مما سبق:

١ - أن سبب الخوف قد يكون آنيًا لطارئ يفجأ الإنسان، وقد يكون السبب آجلًا متوقعًا لحلول مكروه، أو فوات محبوب.

---

(١) الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد (ص:٧١).

(٢) وانظر: بصائر ذوي التمييز، بصيرة في الخوف (٢/٥٧٦)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٢/٢٧٣).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (خوف) (ص:٣٠٣- ٣٠٤).

٢ — أن الخوف من خواص النفس.

٣ — أن الخوف منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم.

٤ – أن الخوف من الله ﷻ الذي يبعث على العمل الصالح، وترك المنهيات هو خوف محمود ومطلوب، بل هو أحد أركان العبادات القلبية -كما سيأتي-.

٥ — أن من الخوف المذموم ما يبعث على اليأس والقنوط -كما سيأتي-.

٦ – أن الخوف من المخلوق قد يكون من أسباب الشِّرك أو الضَّلال كما سيأتي.

وقد ورد الخوف في القرآن الكريم والسنة على وجوه[1]، وما يعنينا هنا: الخوف المذموم الصَّادُّ عن الهداية، ويتبين من خلال بيان أنواع الخوف.

ثانيًا: أنواع الخوف:

والخوف منه ما هو محمود ومنه ما هو مذموم، والمذموم منه من أسباب الضَّلال، وبيان ذلك على النحو التالي:

١ – الخوف الطبيعي:

كالخوف من عدو، وسبع، وهدم، وغرق، وحريق، ونحو ذلك. وهذا لا يلام عليه العبد، قال الله ﷻ عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَايِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص:١٨].

٢ – خوف العبادة:

وهو أن يخاف من المعبودات التي تُعبد من دون الله ﷻ، وكذلك الخوف من المخلوق أن يصيبه بما لا يقدر عليه إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من الإصابة بالمرض، أو قطع

---

(١) انظر: نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي (ص:٢٧٩)، بصائر ذوي التمييز (٥/٥٧٨)، نضرة النعيم (٥/١٨٦٩- ١٨٧٦).

الرزق، أو غير ذلك، وهذا أحد أنواع الشرك الأكبر، كما قال الله ﷻ عن قوم هود عَلَيهِالسَّلَامُ أنهم قالوا له: ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ۝ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ ۝﴾ [هود:٥٤-٥٥].

٣ – أن يترك الإنسان ما يجب عليه، خوفًا من بعض الناس:

فإذا تركَ الإنسانُ ما أوجبه الله عليه أو فَعَلَ محرَّمًا؛ خوفًا من بطش ظالم، فهذا النَّوع من الخوف محرَّمٌ ومذموم، وهو المذكور في قوله ﷻ: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣]، وقال ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ [النساء:٧٧].

لكنه إذا علم أنه إن أظهر بعض شعائر دينه، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وصلاة الجماعة ابتلي في عِرضه ودينه، أو ضُيِّق عليه، فالمختار في هذه الحالة أن يوطِّن نفسه على العزلة إذا كان لا يستطيع الهجرة إلى دار الإسلام التي يَتَسَنَّى له فيها إقامة الشعائر الإسلامية بحرية.

وقد أوجب الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى الهجرة –على القادر– من البلد الذي يفتن فيه المسلم في دينه، ولا يَتَسَنَّى له إقامة الشعائر الإسلامية. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:٩٧].

ثم استثنى أهل العذر منهم فقال: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ۝ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ

عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء:٩٨-٩٩]. وقد جاء بيان الحكم مفصلًا في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها)[١].

ويتبين مما سبق:

١ - أنَّ الخوفَ المحمود هو الخوف من الله تعالى في السرِّ والعلانية من غير يأسٍ ولا قنوط، وهو الذي يُنَمِّي في العبد شعورَ المراقبة، ويحمله على الطَّاعة، فيلزم طريق الاستقامة، ويبادر إلى التوبة، ولا ينتهك محارمَ الله تعالى، ولا يقصِّر في أداء حقوق الله تعالى وحقوق العباد، ويتحرَّر من آفات النَّفس، ويُخَالِق الناس بخلق حسن، فهذا هو الخوف المحمود الذي دعا إليه الشارع.

والخوف المحمود من الله ﷻ هو أحد أركان العبادات القلبية؛ فإن التقرَّب إلى الله ﷻ بما يحبُّ من صالح الأعمال والأقوال لا يكون مقبولًا عند الله ﷻ إلَّا إذا أقامه العابدُ على أركان ثلاثة، وهي: (الحب والخوف والرَّجاء).

وقد جمع الله ﷻ بين هذه الأركان في قوله: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء:٥٧]، فابتغاء القرب إشارة إلى المحبة، ثم الرجاء، وبعده الخوف[٢].

"وهذه الأمور الثلاثة: (الخوف والرجاء والمحبة) التي وصف الله ﷻ بها هؤلاء المقربين عنده هي الأصل والمادة في كل خير. فمن تمت له تمت له أموره، وإذا خلا القلب منها ترحلت عنه الخيرات، وأحاطت به الشرور"[٣].

ومنزلة الحب أرفع من منزلة الخوف، وذلك لسببين:

أ. أن المحبة مقصودة لذاتها، وأما الخوف فمقصود لغيره.

---

(١) انظر: المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر دهمان (ص:٢٦٠).

(٢) انظر: شرح الرسالة التدمرية، محمد بن عبد الرحمن الخميس (ص:٤٥٠-٤٥١)، مدارج السالكين (٢/٣٦)، طريق الهجرتين (ص: ٢٨٢)، فقه الأدعية (١/١٠٦).

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص:٤٦٠).

ب. أن الخوف يتعلق بأفعال الله ﷻ، والمحبة تتعلق بذاته وصفاته(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه"(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف من الله ﷻ من المقامات العليَّة، وهو من لوازم الإيمان، قال الله ﷻ: ﴿وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]، وقال ﷻ: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة:٤٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وفي الحديث: ((**أنا أعلمكم بالله وأشدكم له خشية**))(٣). وكلما كان العبد أقرب إلى ربه كان أشد له خشية ممن دونه، وقد وصف الله تعالى الملائكة بقوله: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، والأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بقوله: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]"(٤).

---

(١) شرح الرسالة التدمرية (ص:٤٥٠-٤٥١).

(٢) مدارج السالكين (٥١٣/١)، وانظر: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، مطلب في معنى المحتضر، إبراهيم بن يوسف البولوي، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ (ص:٣٥)، المحبة صورها وأحكامها، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٢٦-٢٧).

(٣) صحيح البخاري [٦١٠١، ٧٣٠١]، مسلم [٢٣٥٦].

(٤) فتح الباري (٣١٣/١١)، وانظر: عمدة القاري (٢٣/ ٧٣)، مرعاة المفاتيح (٨٥/٨).

فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود: ما حجز العبد عن محارم الله[1].

وقد بين الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنَّ الإيمان ليس بالادِّعاء، وإنما هو مجموعة من الصِّفات ينبغي أن يتصف الإنسان حتى يكون مؤمنًا، ومنها: الخوف، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤].

فقوله: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: لا يرجون غير الله ولا يرهبون سواه. قال في (البحر): أخبر عنهم بموصول وصل بثلاث مقامات عظيمة، وهي: مقام الخوف، ومقام الزيادة في الإيمان، ومقام التوكل على الرحمن"[2].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الخوف سوط الله ﷻ يسوق به عباده إلى المواظبة على العلم والعمل؛ لينالوا بهما رتبة القرب من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ"[3].

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكل ما دل من الآيات والأحاديث على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف؛ لأن الخوف ثمرة العلم"[4].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والخوف من الله تعالى يكون محمودًا، ويكون غير محمودًا. فالمحمود ما كانت غايته: أن يحول بينك وبين معصية الله تعالى بحيث يحملك على فعل الواجبات وترك المحرمات، فإذا حصلت هذه الغاية سكن القلب واطمأن وغلب عليه الفرح بنعمة الله، والرجاء لثوابه. وغير المحمود: ما يحمل العبد

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:١٥٧).

(٢) البحر المحيط في التفسير (٥/٢٧٠).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/١٥٧).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٩).

على اليأس من روح الله ﷻ والقنوط، وحينئذ يتحسر العبد وينكمش، وربما يتمادى في المعصية لقوة يأسه"(١).

٢ - أن الخوف المذموم من المخلوق صادٌّ عن الحقِّ، ومورِّثٌ لآفات في السلوك والأخلاق، وموقع في البلايا، يتجرأ العبدُ بسببه على حرماتِ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ويقعد عن أداء الواجب، وهو من العقبات في طريق الهداية -كما سيأتي في الفقرة التالية-:

ثالثًا: الخوف من حيث كونه عقبة:

الخوف غريزةٌ إنسانية، وجبلةٌ فطرية تعتري الإنسان حال توفر مقتضاها، وتوفر سببها.

والخوف لا يذمُّ أو يمدح لذاته، وإنما بحسب العوارض التي تحتفُّ به، وبحسب مآلاته. فالخوف الذي يمنعك من الوقوع في المآثم والمساوئ، ويدفعك إلى عكسها خوفٌ إيجابيٌّ ممدوح، والخوف الذي يمنعك من إقامة الحقِّ والإذعان له أو دفع الباطل خوف سلبيٌّ مذموم.

وهناك صور للخوف السلبيِّ المذموم الذي يعدُّ عقبة تحولُ بين الإنسان وبين الهداية، أو متابعة الحق، وتكون سببًا في ركوب الضَّلال، ومنها:

١ — الخوف من الظالم الذي يفضي إلى ترك الواجب أو فعل المحرَّم.

٢- الخوف من صاحب السلطة الدينية نتيجة لتقديس أصحابها، وتنزيههم عن الخطأ.

٣ - الخوف على المكانة أو العمل من أن يفقد قيادته ووجاهته، أو أن يفقد عمله.

٤ - الخوف على المصالح الاقتصادية أو الشخصية التي توفر الرفاهية.

---

(١) مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٦/٥٣).

٥ – الخوف غير المحمود الذي يحمل العبد على اليأس من روح الله والقنوط كما تقدم.

٦ – الخوف من نقد الباطل، والصَّدع بالحقّ واتباعه؛ خوفًا من الإيذاء، أو الاضطهاد –ولا سيما في مجتمعات يحكمها الجهل والاستبداد–. وقد يكون ذلك دافعًا إلى التقليد، ومتابعة الضَّلال، والانغماس في أوحاله.

وقد جاء في (الصحيح) ما يدلُّ على أنَّ الخوف من مخالفة القوم قد يصرف عن الحقِّ، فعن سعيد بن المسيب، عن أبيه أنه أخبره: أنه لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فوجد عنده أبا جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة، قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي طالب: ((**يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله**))، فقال أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية: يا أبا طالب أترغب عن ملة عبد المطلب؟ فلم يزل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يعرضها عليه، ويعودان بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلا الله، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك**))، فأنزل الله عز وجل فيه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ [التوبة:١١٣] الآية(١).

وروي عن أبي طالب أنه قال:

لولا الملامة أو حذاري سبة   لوجدتني سمحًا لذاك مبينًا(٢)

ومن ذلك أن هرقل ملك الروم لم يمنعه من الإسلام من بعد ما تبين له إلا الخوف على الملك. ويدل على ذلك ما جاء في الحديث الطويل من قوله في آخره: "يا معشر

---

(١) صحيح البخاري [١٣٦٠، ٤٧٧٢]، مسلم [٢٤]. وتمام الآية: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾.

(٢) انظر: سيرة ابن إسحاق (ص:١٥٥)، دلائل النبوة، للبيهقي (١٨٨/٢)، الروض الأنف، لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي (٥٥/٣)، السيرة النبوية، لابن كثير (٤٦٤/١)، بهجة المحافل (١١٨/١)، المواهب اللدنية، للقسطلاني (١٣٥/١)، حدائق الأنوار، محمد بن عمر الحميري الحضرمي (ص:١٧٩)، سبل الهدى والرشاد (٣٢٧/٢)، تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٤٣٥/١).

الروم، هل لكم في الفلاح والرشد، وأن يثبت ملككم، فتبايعوا هذا النبي؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب، فوجدوها قد غلقت، فلما رأى هرقل نفرتهم، وأيس من الإيمان، قال: ردوهم علي، وقال: إني قلت مقالتي آنفًا أختبر بها شدتكم على دينكم، فقد رأيت، فسجدوا له ورضوا عنه، فكان ذلك آخر شأن هرقل"(١).

وإنك تلحظ في كثير من البلاد التي أنهكتها الحروب والصراعات الطائفية تأخرًا في العلم والاقتصاد، وما ذاك إلا نتيجة للاستبداد والظلم والقهر، وحمل الناس على قناعات بعيدة عن الواقع، ولا تخدم الصالح العام.

وقد أخبر الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن فرعون أنه قال بسبب تكبره واستعلائه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩].

فأخبرنا الله ﷻ أن الخضوع المطلق لسلطان الاستبداد، وجعل السلطة –والحالة هذه– المرجع الأخير في العلم والفكر بحيث لا يرى إلا بمنظارها يؤول إلى التخلف والمداهنة والانغماس في أوحال الضلال. وقد قال الله ﷻ عن المتبعين لفرعون وهم على غير بصيرة: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٤-٥٦].

والواقع يشهد لذلك الانحدار الفكري بسبب ذلك؛ فإن العصور الوسطى –مثلًا– والتي كانت السلطة هي المرجع الأخير في شؤون العلم كانت عصورًا متخلفة خلت من كل إبداع.

"ولا شك أن الظلم والقهر والغلبة تحمل ضعفاء النفوس على الانقياد للباطل والتزامه؛ طلبًا للسلامة، وإذعانًا لسلطان القوة"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٧، ٤٥٥٣].

(٢) الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:٢٢).

وقد صرف الخوف الكثيرين عن اتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:٨٣].

فمن الناس من أذعن لفرعون؛ خوفًا، ومنهم من كتم إيمانه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر:٢٨].

ويتبين مما سبق أن للخوف عواقب خطيرة، وآثار مهلكة، منها ما يصيب النفس، كالاضطراب والتوتر، واليأس والقنوط، وقد يكون سببًا في الإقدام على الانتحار، ومعصية الله جَلَّ.

ومنها: ما يؤثر في العمل والتبليغ والتربية، ويكون سببًا في الإضلال حيث يتعدَّى الضررُ النَّفسَ إلى المحيط الاجتماعي.

فمن آثار الخوفِ المضلَّةِ: السعيُ الجادُّ في إرضاء المخلوق، وإن كان في معصية الخالق، وإن ترتَّب على ذلك: متابعةُ الضَّلال، بل ونصرتُه، والسُّكوتُ عن الحقِّ وكتمانه، كما هو شأن علماء السُّوء، حيث يتمادى الظَّالم في ظلمه، ويلتبسُ الحقُّ على كثيرٍ من العامَّة.

رابعًا: الوقاية من الخوف المذموم والعلاج:

إن الخوف قد يكون مرضًا نفسيًا يعرض للإنسان بسبب توقع عقاب آجل، أو خطر عاجل فيندفع إلى الاحتراز عنه دون نظر إلى العاقبة أو الأثر الآجل.

والخوف السلبي يسبب للإنسان كثيرًا من الكدر والضيق والألم، وهي آلام نفسية، كما يلحق بالجسد أمراضًا كثيرة.

فينبغي اتخاذ أسباب الوقاية من آفات الخوف. وهاك بيان العلاج القادر على استئصال هذه المخاوف، واقتلاع أسبابها:

١ - الإيمان والتوحيد والثقة بوعد الله عَجَلَّ:

يتعرض المؤمن في حياته لمخاوف شتى، ولكنَّ خوفَ الناس، وخوفَ الشيطان، وكلَّ خوفٍ يتلاشى إذا كان المسلمُ راسخَ الطمأنينةِ بالله ﷻ، واثقًا بوعده، يتلاشى أمامَ إجلال الله ﷻ وإعظام أمره، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الأنعام:٨٠-٨٢]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن:١٣]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور:٥٥].

وعلى قدر إيمان العبد ومعرفته بالله ﷻ يكون خوفه منه، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨].

٢ – تدبر آيات القرآن الكريم واتباع هدي سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ [المائدة:١٥-١٦]. وقال ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء:٨٢]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧].

٣ – استئصال آفة اليأس والقنوط:

وقد تقدم العلاج في (عقبة اليأس والقنوط).

٤ – عبادة الله ﷻ والتزام أمره واجتناب نهيه وشكره على نعمه:

يقول الله ﷻ: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ۝ الَّذِى أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ۝﴾ [قريش:٣-٤]. ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦]. ويقول ﷻ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

٥ – ذكر الله ﷻ والإكثار من النوافل:

قال الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

والنوافل تمنع السالكين من الشرود عن نهج الصالحين، وقد جاء في الحديث: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته**))(١)، يعني: إساءته بفعل ما يكره. قال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "المراد بهذا الكلام أن من اجتهد بالتقرب إلى الله ﷻ بالفرائض، ثم بالنوافل قربه إليه، ورقاه من درجة الإيمان إلى درجة الإحسان، فيصير يعبد الله ﷻ على الحضور والمراقبة كأنه يراه، فيمتلئ قلبه بمعرفة الله ﷻ ومحبته وعظمته وخوفه ومهابته وإجلاله والأنس به

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: ((ما ترددت)): كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه. و((مساءته)): إساءته بفعل ما يكره.

والشوق إليه، حتى يصير هذا الذي في قلبه من المعرفة مشاهدًا له بعين البصيرة"(١).

وذلك من أعظم أسباب الأمن والهداية.

٦ – الإحسان:

جاء في الحديث: ((**الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**))(٢). الإحسان: الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في العبادة مع تمام الإتقان وهو على مرتبتين كما جاء في الحديث: الأولى: أن تعبد الله كأنك تنظر إليه من شدة اليقين والإيمان. والمرتبة الثانية: وهي أقل منها، أن تعبد الله ﷻ وأنت تعلم أنه يراك ويطلع عليك، فلا تعصيه ولا تخالف أمره سبحانه وتعالى. والشعور بالمراقبة والمعية، والثقة بالله ﷻ مما يدفع الخوف، قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه:٤٦].

٧ – محبة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن محبة الله ﷻ لعبده لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة، فيكفيه أن يكون الله ﷻ معه في كل صغيرة وكبيرة، يوفقه، ويسدده، ويحفظه، ويرعاه، يحفظ سمعه عن السماع لما يغضب الله ﷻ، ويحفظ بصره عن رؤية ما يغضب الله ﷻ، ويحفظ يده عن أن تفعل ما يغضب الله ﷻ، ويحفظ قدمه من أن تمشي إلى ما يكرهه الله ﷻ، ويحفظ جوارحه كلها عن كل ما يسخط الله ﷻ ويغضبه. ويحبه جبريل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ويحبه أهل السماء، ويوضع له القبول في الأرض بين الناس، وينجو من عذاب القبر، ويأمن الفزع الأكبر. وهذه الثمرات من أعظم ما يدفع عن الإنسان الخوف والقلق. وفي الحديث: ((**إذا أحب الله عبدًا حماه الدنيا كما يظل أحدكم يحمي سقيمه الماء**))(٣).

---

(١) جامع العلوم والحكم، لابن رجب (ص:٣٤٥- ٣٤٦).

(٢) صحيح البخاري [٥٠، ٤٧٧٧]، مسلم [٨، ٩].

(٣) الحديث مروي عن محمود بن لبيد عن قتادة، وعن محمود بن لبيد عن رافع بن خديج. حديث محمود بن لبيد عن قتادة: أخرجه الترمذي [٢٠٣٦]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [١٩٥٧]، وابن حبان [٦٦٩]، الطبراني [١٧]، والحاكم [٧٤٦٤]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه=

٨ – استحضار سيرة النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وثباته على الحقِّ على الرَّغم من تعرضه للإيذاء. قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الآية [الأحزاب:٢١].. ذكر الله ﷻ هذه الآية في (سورة الأحزاب) بعد بيان موقف النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين من تلك الفتنة العظيمة.

٩ – استحضار سيرة الصحابة رضوان الله عليهم والسَّلف الصَّالح، وما أصابهم من الشدة والبلاء، وكيف كان ثباتهم على الحقِّ، وخوفهم من الله تعالى؟

جاء في الحديث: عن خَبَّاب بن الأَرَتِّ، قال: شكونا إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً له في ظِلِّ الكعبة، قلنا له: ألا تستنصر لنا، ألا تدعو الله لنا؟ قال: ((**كان الرجل فيمن قبلكم يحفر له في الأرض، فيجعل فيه، فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فَيُشَقُّ باثنتين، وما يَصُدُّهُ ذلك عن دينه، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب، وما يصده ذلك عن دينه، والله لَيُتِمَّنَّ هذا الأمر، حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، أو الذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون**))[1].

١٠ – المعايشة الدائمة لكتاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

=الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٤٤٨]. حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج: أخرجه الطبراني [٤٢٩٦]، قال الهيثمي (١٠/٢٨٥): "إسناده حسن". كما أخرجه الشهاب [١٣٩٧].

(١) صحيح البخاري [٣٦١٢، ٣٨٥٢، ٦٩٤٣].

العقبة التاسعة والثلاثون

البيئة الفاسدة والتربية السيئة

أولًا: المراد من البيئة الفاسدة والتربية السيئة من حيث كونهما عقبة:

إنَّ التأثر بالبيئة له أثر في صياغة شخصية الإنسان وأخلاقه، فمن (الصوارف عن الحق): سوء التربية، وهو من الصوارف الخارجية.

فغالبًا ما يتأثر الإنسان بما عليه أهل بلده من عقائد وأخلاق وعادات. فانظر -مثلًا- إلى ملكة سبأ -التي كانت موسومة برجاحة العقل والرأي- كيف كانت تعبد الشمس من دون الله ﷻ؟! فذكر الحق سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنَّ النشأة هي التي حملتها على ركوب الضلال. يقول الله ﷻ: ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنَّهَا كَانَتۡ مِن قَوۡمٍ كَٰفِرِينَ﴾ [النمل:٤٣].

فإما أن يغرس المربِّي أو المعلِّم الفضائلَ في نفوس أبناءه ومريديه، أو الرذائل.

والبيئة تؤثِّر في الفطرة، وفي التفكير، وينعكس أثرها على سلوك الابن أو المريد، وعلى علاقاته الاجتماعية.

ولذلك كانت التربية من أعظم أنواع المسؤولية، فإذا كان الأب مسؤولًا عن تغذية طفله، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال أو المرض أو الموت، فهو مسؤول عن تغذيته روحيًّا أيضًا، فلا يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطرًا من هزاله أو مرضه، وذلك حين يتعرض لموت القلب أو الروح.

وإذا أقصي الإيمان عن ميدان التربية، فإن السلوك يتفاوت تفاوتًا كبيرًا حسب المؤثرات التالية: أ. اختلاف معادن الناس، ب. الغنى المطغي: وسيأتي بيانه في عقبة: (الفقر المنسي والغنى المطغي)، ج. الفقر المنسي: وسيأتي بيانه في عقبة: (الفقر المنسي والغنى المطغي)، د. الامتياز العلمي الذي يؤدي إلى ما عبرنا عنه بغرور العلم في عقبة: (الغرور)، هـ. الوضع السياسي. و. المدرسة، ز. الأصدقاء، ح. البيئة والحي، ط. المدرسين والمحيط العلمي ي. الأسس التربوية والمنهج الدراسي.

يقول الشيخ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الأعصار الأخيرة لما خفَّت قبضةُ الإيمان على زمام السلوك ومبادئ التربية شرع كل امرئ يتصرف في حياته الخاصة ومع غيره بدافع من

طبيعته، ومن الظروف المحيطة به، ونشأ عن ذلك انحدار في المستوى الأخلاقي والسلوكي والإنساني.

وإنني لأنظر إلى الأحداث الجارية في المدن والقرى فأرى ما يضيق به الضمير الحي، وما يقشعر له البدن الرقيق. ولئن كان إفلاس المربين سبب خذلان كبير لأمتنا، فإن الهجوم الغربي على بلادنا زادها بلبلة وضيعة؛ لأنه هجوم يعمل في دأب وعناء على تشتيت قوى الإيمان كلَّما تجمَّعت، وعلى غمر الأرجاء بصنوف الفساد والإغراء، حتى تخرج أجيال تتقبل الإلحاد باسم الحرية العقلية.

ويقول: أرجو إذا وضعت سياسة رتيبة لتربية الجماهير أن تراعى فيها الحقائق التالية: تحسين الحسن وتقبيح القبيح. يقول: ذلك أن الطباع إذا فسدت فسد تصورها للأشياء، وفسدت أحكامها عليها، كالمرآة التي غاض ماؤها، وانطفأ رواؤها، وتساقطت القطع من سطحها وأطرافها، لا يمكن أن تثبت صورة صحيحة لما يواجهها. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾﴾ [الكهف:١٠٣- ١٠٤].

وأغلب النفوس الحائرة، والجماعات الجائرة لها وجهة نظر تستسيغ بها أبشع الأفعال؛ فإن الهوى نسج على بصرها حجابًا، وأبعدها عن رؤية الواقع.

وحاضر العالم الإسلامي تسود تربيته من هذا القبيل ضلالات شتى، فكم من جهل يسمى علمًا؟ ومن بدعة سميت: سنة؟ ومن انحراف سمي: استقامة؟ وهكذا انتشرت بيننا عناوين مزيفة، ومفاهيم مشوهة، جعلت المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا. وأمة تتخبط في حياتها على هذا النحو تحرم من التوفيق لا محالة.

وإلى جانب هذه الموروثات تسربت مع حضارة الغرب ضلالات أخرى زادت الأمة العليلة مرضًا، فالفوضى تسمى: حرية، والعلاقات الجنسية تسمَّى: حبًّا أو صداقة.. وهكذا تضطرب موازين الأمور.

والتربية الناجحة تعتمد على حقائق مقررة، ومسلمات لا تقبل جدلًا، فإذا ساءت البيئة وسادت أجواءها الشكوك فهيهات أن تنشأ أجيال يوثق بأدبها وعفافها وعدالتها.

والأرض الإسلامية في أمس الحاجة إلى قواعد من التربية تنهض على أصول دينية ثابتة تشد النفوس إلى عرى الإيمان الراسخ[1].

ويقول الشيخ محمد خضر حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن التقليد الأعمى علته سوء التربية، وعدم ارتواء النفس بمحاسن الشريعة الغراء، ولعلك تتلو قوله ﷻ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، فتجد المنكرين عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي السوء والبغاء عن أبويها المبالغة في توبيخها؛ تنبيهًا على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه: التجرد عن طورهما، والتردي بغير ردائهما، وما كان ينبغي له إلَّا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة، كما أنك تجد أكثر الناشئين في جحور السفلة، أو من أطلقت حبالهم على غواربهم زمن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يلقاها إلَّا ذو حظ عظيم من الحكمة. وقد تعجب العامة لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويحسن التصرف في مباحثها المشكلة، فيفرغها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم منها خيل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمنًا تجس نبض أخلاقه إلَّا وجدت فيها عوجًا وأمتًا.

أما الفيلسوف الناقد فلا يرى ذلك شيئًا عجابًا؛ للنكتة التي لوحنا إليها، وهي سوء التربية الأولى. والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة، والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق انتقشت صورته في لوحها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئًا فشيئًا إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها. يؤيد هذا أنا إذا رأينا من الغرباء من هو

(١) انظر: كيف نفهم الإسلام؟ للشيخ الغزالي (ص:١٣٦) فما بعد، بتصرف.

لطيف الخطاب، جميل اللقاء، مستقيم الأخلاق، لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله ﷻ في البيوت الفاضلة نباتًا حسنًا"[(١)].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه كان يقول: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من مَوْلُودٍ إلَّا يُولَدُ على الْفِطْرَة، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ ويُنَصِّرَانه ويُمَجِّسَانِه، كما تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاء، هل تُحِسُّونَ فيها من جَدْعَاء؟**))، ثُمَّ يقول: أبو هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: واقرؤوا إن شئتم: ﴿فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ﴾ [الروم:٣٠] الآية[(٢)].

ثانيًا: الوقاية من آفات البيئة الفاسدة والتربية السيئة والعلاج:

١ – غرس بذور الإيمان ومبادئ الأخلاق في الأولاد والطلاب من أول النشأة.

٢ – صيانة الأولاد عمَّا يضرُّهم في الآخرة من خلال بعث روح المراقبة لله والخوف منه:

ومن ذلك: حثُّ الأولاد على إقامة الصَّلاة، وعلى الصيام وسائر الفرائض التي أمر الله تعالى بها.

فالصلاة ﴿تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ ولذلك أرشدنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أهمية أمر الأولاد بالصلاة منذ الصغر فقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**))[(٣)].

---

(١) بتصرف عن (السعادة العظمى) (ص:٦٠)، للعلامة محمد الخضر حسين شيخ الجامع الأزهر وعضو المجمع اللغوي بالقاهرة، والمجمع العلمي العربي بدمشق، جمع وتحقيق: علي الرضا التونسي.

(٢) صحيح البخاري [١٣٥٨، ١٣٥٩، ١٣٨٥، ٤٧٧٥، ٦٥٩٩]، مسلم [٢٦٥٨].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٦)، والبيهقي في (السنن=

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر [(١)].

والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"[(٢)].

٣ – أن يستشعر المربِّي عاقبة الإهمال والتقصير:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى فقد أساء إليه غاية الإساءة، وأكثر الأولاد إنَّما جاء فسادهم من قبل الآباء، وإهمالهم لهم، وترك تعليمهم فرائض الدِّين وسننه، فأضاعوهم صغارًا فلم ينتفعوا بأنفسهم، ولَم ينفعوا آبَاءَهُم كبارًا، كما عاتب بعضهم والده على العقوق فقال: يا أبت إنَّك عققتني صغيرًا فعققتك كبيرًا وأضعتني وليدًا فأضعتك شَيخًا"[(٣)]. "فإن من ظلم الوالد: إفساد ولده وفلذة كبده"[(٤)]. "وكم ممن أشقى ولده وفلذة كبده في الدنيا والآخرة بإهماله، وترك تأديبه، وإعانته له على شهواته، ويزعم أنه يكرمه وقد أهانه، وأنه يرحمه وقد ظلمه وحرمه، ففاته انتفاعه بولده، وفوت عليه حظه في الدنيا والآخرة وإذا اعتبرت الفساد في الأولاد رأيت عامته من قبل الآباء"[(٥)].

=الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٢) الاستذكار (٣/٧٢).

(٣) تحفة المودود بأحكام المولود (ص:٢٣٠).

(٤) الجواب الكافي (ص:٢١٦).

(٥) تحفة المودود بأحكام المولود (ص:٢٤٢).

٤ – الرَّقابة الحكيمة على الأولاد في البيت والحيِّ والمدرسة، وتشملُ الإشرافَ على وسائل التواصل، والتشجيعَ على متابعة الإعلام الهادف، والتَّحذير من الإعلام المضلِّ، وحظرَ المواقع التي تثيرُ الغرائز، وتروِّج للفساد الأخلاقي، أو للغلوِّ في الدِّين، كما تشملُ تفقدَ أحوالهم في المدرسة والجامعة، والنأيَ بهم عن رفقاء السوء.

وينبغي أن تتظافرَ الجهودُ من الوليِّ والمجتمع على الإشرافِ على الثَّقافات الوافدة، واتخاذ أسباب الوقايةِ من الإعلام المضلِّ كما جاء مبينًا في عقبة (الإعلام المضل).

والعمل في مقابل ذلك على النُّصح والإرشاد والتَّوعية.

٥ – تقويم انحراف بعض الآباء بالحكمة والإصلاح والإرشاد، فإن لم ينفع فبالعقوبات الرَّادعة.

٦ – النظر بعين البصيرة إلى آثار سوء أو إهمال التربية من الفساد الأخلاقي إلى العقوق والحرمان من برِّ الأولاد، وقد يفضي الإهمال إلى الانحراف وانتشار الجريمة.

٧ – أن يستشعر المربِّي المسؤوليةَ العظيمة المنوطة به في التوجيه والتربية والإرشاد والتحذير والمتابعة، وأنه سيُسْأل أمامَ الله ﷻ عمَّا خُوِّلَ له، وائتُمنَ عليه، ووكِلَ إليه.

٨ – أن يَتَخَلَّقَ المربِّي بالمحاسن التي وردَ الشرعُ بها، وحثَّ عليها، والخلالِ الحميدة، والشِّيم المرضية التي أرشدَ إليها.

٩ – النأي بالأولاد عن مواطن الشبهات والمعاصي والبدع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل والغناء، وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعزَّ على وليه استنقاذه منه"(١).

١٠ – التشجيع الدَّائم للأولاد، وترغيبهم في صالح الأعمال، وفي التعلم، وتقديم الهدايا والمكافآت التشجيعية كلما قدَّموا أعمالًا نبيلة أو حققوا نجاحًا في حياتهم.

---

(١) المصدر السابق (ص:٢٤٠).

١١ – معالجة الأخطاء التي تقع من الأبناء بحكمة وتفهُّم.

١٢ – الحرص على تَعَلُّم العِلْم النَّافع، وحضور مجالس العلماء.

١٣ – ينبغي على طالب العلم أن يتخيرَ لنفسه الجلساءَ، وأن يحرصَ على مصاحبة الأخيار، ومرافقة من يعينونه على العلم، والفضيلة، والطاعة، والعبادة، ويسددونه في أعماله وأقواله.

١٤ – ينبغي أن يتنبه كل مربٍّ إلى أمرين:

الأول: أن لسان العمل بالنسبة للمربين أنطق وأبلغ من لسان القول، وأن الأعمال أعلى صوتًا من الأقوال، يقول الله ﷻ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف:٢-٣].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**))[1].

والسلاح لا ينفع الإنسان إن ملكه ولم يستخدمه، فإذا دهمه خطر، فإن كان جاهلًا ضره جهله، وإن كان عالما لم ينفعه علمه؛ لأنه لم يعمل به، فلا خير في قول لا يصدقه العمل.

يقول (بيير داكو) الباحث في (علم النفس): "إن دور كل مرب أن يقود إلى معرفة الذات، إلى الحقيقة والتوازن، وعلى كل مرب أن يقود نحو توسع الاستعدادات النفسية، ولكن عليه من أجل هذا أن يكون هو ذاته هذه الحكمة، وهذا التوازن، وإذا لم يكن

(١) صحيح الإمام البخاري [٣٠٩٤، ٦٦٨٥]، مسلم [٧٦٧٤].

المربي هذه الحكمة، وهذا التوازن، فإن عليه أن يعرفهما بوضوح، وأن لا يتظاهر بما ليس فيه، وسيكون ذلك بالنسبة إليه بداية الطريق لتربيته الخاصة، ولتربية عقله"[١].

الثاني: إذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا فلا خير لنا فيه، ومهما نبتغي العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله ﷻ.

(١) انظر الانتصارات المذهلة لعلم النفس الحديث، بيير داكو (ص:٥٣٦).

العقبة الأربعون

الإعلام المضلل

أولًا: تعريف الإعلام:

الإعلام في اللغة: التبْلِيغ، تقول: له في هذا بَلاغٌ وبُلْغةٌ وتَبَلُّغٌ، أي: كِفاية، وبَلَّغْتُ الرِّسالة. والبَلاغُ: الإبْلاغ. وفي التنزيل: ﴿إِلَّا بَلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ﴾ [الجن٢٣]، أي: لا أجِدُ مَنْجى إلا أن أُبَلِّغَ عن الله ما أُرْسِلْتُ به. والإبلاغُ: الإيصال، وَكذلك التبليغ، والاسم منه: البلاغ، وبَلَّغْتُ الرِّسالة. يقال: بَلَّغْتُ القومَ بَلَاغًا: اسْمٌ يَقُومُ مَقَامَ التبْلِيغ[١].

وفي الحديث: ((**بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً**))[٢]، "أي: انقلوا عني ما أمكنكم؛ ليتصل بالأمة نقل ما جئت به"[٣].

فتبين أن الإعلام في اللغة: التبليغ والإيصال. يقال: "اسْتَعْلِمْ لي خَبَرَ فُلَان وأَعْلِمْنِيه حتى أَعْلَمَه، واسْتَعْلَمَني الخبرَ فأعْلَمْتُه إيَّاه"[٤].

أما الإعلام في الاصطلاح فهو نقل الأخبار والوقائع والأحداث والأفكار والآراء لمجرد الإبلاغ أو للتقرير والإقناع، وذلك من خلال وسائل مختلفة. ويهدف إلى التأثير في عقول الجماهير ونفوسهم وسلوكهم.

ثانيًا: أهمية الإعلام وبيان خطره:

إن للإعلام دورًا كبيرًا في نشر الوعي، والتآلف بين أبناء المجتمع، وشرائحه المختلفة، كما أن له دورًا في الترشيد والتثقيف، وتنمية المعرفة، والإسهام في الإصلاح بكافة أشكاله وجوانبه.

---

(١) لسان العرب، مادة: (بلغ) (٨/ ٤١٩)، تهذيب اللغة، للأزهري (٨/ ١٣٥).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٦١].

(٣) فيض القدير (٣/٢٠٦).

(٤) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (علم) (٥/١٩٩٠)، لسان العرب (١٢/٤١٨).

وحينما يسعى نحو تحقيق هذه الأهداف فإنه يعدُّ عاملًا من عوامل التجديد والإصلاح، وسببًا للهداية.

ويفقد الإعلام دوره الإيجابي عندما يعمل على تزييف الوعي، والترويج لأفكار مزيفة، أو باطلة، أو توجيه الأحداث على خلاف مسارها الطبيعي والموضوعي؛ فإن الإعلام السلبي أو المصلحي له سياسات في توجيه الحدث، مع أن الموضوعية والمصداقية تقتضي أنَّ الحدث هو الذي ينبغي أن يوجه القناة أو الإعلام.

وتعمل الدعاية الإعلامية الحديثة بحرص ودأب على إشاعة العقلية التي تُصدِّق وتستسلم، وعلى هدم روح النقد، ونشر روح الانقياد. وقليلًا ما نجد في وسائل الإعلام من يستهدف إيجاد أفضل الطرق لزيادة الوعي، وتقويم الأفكار المضللة.

فلا تكفي التربية الدينية للأولاد أو الطلاب، أو التوجيه الصادر من الأهل، أو من الموجه والمعلم، ولكن يجب إضافة إلى ذلك البحث عما يخرب هذا البناء من المؤثرات الخارجية، كأئمة ضلال، وأجهزة إعلام، من مجلات وأفلام ومواقع وغير ذلك، وهي بإمكاناتها الرهيبة تخفض ما يعليه الأب أو الموجه الصالح في التعليم، وتهدم ما يبنيه. وصدق الشاعر إذ يقول:

متى يبلغ البنيان يومًا تمامه إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم؟!

وتعمل بعض وسائل الإعلام على هدم القيم الأخلاقية، وعلى التفكك الأسري، وذلك من خلال إظهار شعائر أهل الكفر وعاداتهم وتقاليدهم، ومن خلال الإعجاب بشخصيات الكفرة عند عرضهم أبطالًا في الأفلام، فبدلًا من النبي ﷺ والصحابي والعالم والمجاهد، صار القدوة الممثل والمغني، والراقصة واللاعب، -كما تقدم في عقبة: (القدوة السيئة).

ومن الإعلام الموجه: ما يدعو إلى الجريمة، وذلك من خلال عرض مشاهد العنف والقتل والخطف والاغتصاب، وتكوين العصابات على النمط المعروف في الأفلام؛ للاعتداء والإجرام. وإصلاحيات الأحداث والسجون شاهدة على آثار الأفلام في هذا

المجال..إلى غير ذلك، كما أنه يدعو إلى تشبه النساء بالرجال، والرجال بالنساء، وغير ذلك مما فيه من الفساد الأخلاقي ما فيه، وكذلك خروج كل واحد من النوعين –الذكر والأنثى– عن طبيعته وخصائصه.

وأدى ذلك إلى زوال الشعور بالمسؤولية تجاه الأسرة، وإلى اللامبالاة بتربية الأولاد ومتابعتهم، ففسدت العلاقات، وتمرد الأبناء على الأباء، وقطعت الأرحام.

كما أن من الآثار الهدامة للإعلام الموجه: نشوء الخلافات الزوجية، والكره المتبادل، وذهاب الغيرة المحمودة، من استمراء النظر إلى مشاهد الاختلاط، وكشف الزوجة والبنات والأخوات على الأجانب، وإثارة الشهوات بعرض مناظر النساء للرجال، وأشكال الرجال الفاتنين للنساء، وانتشار العلاقات بين الجنسين، وتعليم المشاهد كيفية التعرف على الجنس الآخر، ووسائل تطوير العلاقة المحرمة، وتبادل أحاديث الحب والغرام، وتشابك الأيدي...الخ.

وإذا كان الإعلام هادفًا، بأن كان إبرازًا للحقائق من خلال البعد العلمي والثقافي والتربوي، أو من خلال الحوار القائم على الحجة والدليل، فإن هذا النوع من الإعلام يؤدي إلى نهضة عقلية عظيمة.

أما إذا ساده مبدأ التلقين من طرف واحد، والخضوع التام من الطرف الآخر، فإنه يكون عائقًا في وجه أية نهضة علمية حقيقية.

والحاصل أن فساد مصادر التثقيف من حيث الاعتماد على الإعلام المضلل، والصحف والمجلات، والأخبار المنتشرة في المواقع الاجتماعية من أسباب الضلال، حيث يشتبه الحق، ويهدر الوقت، وتختلط المفاهيم.

ثالثًا: الوقاية من آفات الإعلام المضلل والعلاج:

١ — الرجوع إلى قواعد ديننا وثوابتنا، فإذا لم يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا وقرآننا فلا خير لنا فيه، ومهما نبتغي العزّة بغير ما أعزنا الله تعالى به أذلنا الله.

٢ — تأهيل القائمين على وسائل الإعلام.

٣ – مراقبة القائمين على وسائل الإعلام وتقويمهم عند الخطأ.

٤ – مراقبة الإعلام الوافد، والحذر من أخطاره.

٥ – تنقية مصادر التثقيف:

إن من أهم وسائل الوقاية من آفات الإعلام: تنقية مصادر التثقيف مما علق بها من أوهام، وخرافات، وتناقضات مع المسلمات، والاستناد على أساس سليم من تمحيص الأخبار، والنظر الذي يقرأ النقل بالعقل. ويتحتم علينا —والحالة هذه– أن نفرق بين الانحرافات وبين الجوانب المشرقة في تاريخ تلك الأجيال التي طواها الزمن، وأن نبني ونستدرك ونصحح، هذا هو المسار الذي يساهم في تقدم الأجيال اللاحقة.

وأن نساهم في تنقية مصادر التثقيف، فلا ريب أن التأثر بكل ما قيل، أو إضفاء هالة من التقديس لأشخاص أو لأقوال إن دلَّ فإنما يدل على انحدار المستوى الثقافي وتأخره، والعجز عن أداء تلك المهمة من التمييز بين السليم والسقيم. ولا ينبغي أن نتغافل عن قيمة الموروث، ولا سيما الموروث الديني، وأن ندرك جيدًا أن الأجيال السابقة قد تركت موروثًا يضع الأساس للبناء وفتح آفاق جديدة.

٦ – وضع قوانين وضوابط للإعلام تكافح الغلو والتطرف، وتحفظ الأمن، وتنشر الوعي، وتحظر الفساد الأخلاقي.

٧ – تنظيم الوقت بما يعود بالنفع على الفرد وعلى الجماعة:

إن الوقت غلاف شامل لأنشطة الإنسان، فضياعه ضياع للعمر، وإتلاف لأعظم الثروات.

فتأمل حال المواطن في البلاد العربية كم يقضي من الوقت وهو عاكف على مشاهدة مواقع التواصل ووسائل الإعلام؟! وكم تترك وسائل الإعلام من أثرٍ على الناس من حيث توجيه الأخبار على حسب المصالح، وتشويه الحقائق وتزييفها، والتشكيك في الثوابت، والترويج للفساد الأخلاقي؟

٨ - تنظيم أوقات المشاهدة، والاقتصار على ما فيه نفع وفائدة.

٩ - ملء الفراغ بالأعمال النافعة، والهوايات المفيدة، كالقراءة الهادفة، والرياضة، وتقوية الوازع الديني بحضور المحاضرات والندوات التربوية الهادفة.

١٠ - التحذير من المواقع والقنوات المنحرفة والمضلة، وبيان أخطارها، وسبل الوقاية منها، كالمواقع والقنوات التي تحرِّض على الفواحش أو تحرِّض على العنف أو القتل أو التضليل أو التكفير، وتتصف بالتَّطرف والغلو والجفاء والتنفير.

١١ - أن تتصف وسائل الإعلام بالاعتدال والوسطية والواقعية والتوازن.

١٢ - التلازم بين القول والعمل، والانسجام بين الظاهر والباطن.

١٣ - البعد عن التبعية، والتقليد، والحزبية، والتعصب.

١٤ - مراعاة الزمان والمكان والأحوال.

١٥- المراجعة المستمرة والتقويم والمحاسبة.

١٦- التدارس والتشاور والتعاون مع أصحاب الاختصاص والشأن من المعروفين بسلامة الفكر والمنهج والسلوك.

١٧- دراسة الأخطاء التي وقع فيها الآخرون من أجل تجنبها وتلافيها.

١٦- دراسة ما يناسب الناس ويصلح أحوالهم، ويحفظ أمنهم، ويجلب لهم النفع، ويدفع عنهم الضر.

العقبة الحادية والأربعون

الفقر المنسي والغنى المطغي

أولًا: المراد من الفقر المنسي والغنى المطغي من حيث كونهما عقبة:

إنَّ من حكمة الله ﷻ أنه خلق بعض الناس فقراء، وبعضهم أغنياء كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام:١٦٥]، "أي: فاوَتَ بينكم في الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوئ والمناظر والأشكال والألوان، وله الحكمة في ذلك، كقوله ﷻ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا﴾ [الزخرف:٣٢]، وقوله: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء:٢١]. وقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾، أي: ليختبركم في الذي أنعم به عليكم ويمتحنكم به؛ ليختبر الغني في غناه، ويسأله عن شكره، والفقير في فقره ويسأله عن صبره"[1]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آية أخرى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

إنَّ الغِنى والفقر ابتلاءٌ من الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لعبادِه، فيُوسِّعُ على أقوامٍ، ويضيِّقُ على آخرين؛ ليُبْتَلى الغنيُّ بغناه، والفقيرُ بفقره، فيشكرُ الغنيُّ مولاه على نعمه الوافرة، ويؤدِّي المالَ حقَّه، ويعينُ الفقير، فهذا الغنيُّ الشَّاكر. وفي المقابل فإن المالَ قد يكون سببًا لطغيانِ أقوامٍ وتجبرِهِم، وانغماسِهم في الشهوات.

وأما الفقيرُ الصَّابر فإنه يقنع ويرضى، وفي المقابل فإن الفقر قد يكون من أسباب الجزع والتسخط، فيكون وبالًا على صاحبه.

وقد جاء في الحديث: عن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له))**[2]. فالمؤمن يتقلب بين الشكر والصبر.

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/٣٨٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

والعبد لا يعلم ما هو أنفع وأصلح له، فقد يكونُ الفقرُ هو الخيرَ للعبد كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى:٢٧]، أي: لشُغِلوا عن طاعته، وحملهم ذلك على البغي والطُّغيان والتجبُّر على الخلق، قال الله ﷻ: ﴿وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧].

إن الفقر المنسي يؤثر في سلوك الإنسان وفكره وطريقة حياته، ويختلف ذلك بمقدار تَأَثُّرِ الإنسان به، كما أنه قد يختلف من حيث مدى شدَّته، فقد يكون الفقر صارفًا حقيقيًّا عن الهداية، وعن طلب العلم والمعرفة، وعن التَّفقه في الدِّين، كما أنَّه قد يكون نعمة بالنِّسبة إلى طالب العلم -ولا سيما في بداية الطَّلب- حتى لا تشدَّه الدُّنيا إلى مشاغلها.

والحقيقة أنَّ ذلك يرجع إلى اعتباراتٍ تتعلَّقُ بالفقير ومدى تأثُّرِه، وبالفقر ومدى تأثيره، وقد يرجع ذلك إلى اعتباراتٍ تتعلق بالخوف على المكانة أو العمل، أو المصالح الاقتصادية التي توفر الرفاهية والتمتع بالمال.

وللفقر أسباب كثيرة، منها: الضعف والعجز عن الكسب، ومنها: إخفاق السعي، ومنها: البطالة والكسل، ومنها: الجهل بالطرق الموصلة إلى الكسب، ومنها: ما تسوقه الأقدار من نحو حركات الرياح، واضطراب البحار، واحتباس الأمطار، وكساد التجارة، ورخص الأسعار.

وللفقر من الآثار ما قد يكون عائقًا عن الهداية بالنسبة لكثيرين، فالبحث عن السبب، والنظر في العلاج محل النظر.

يقول بعض أهل العلم: "إنَّ الفقر له حالان: حال تتبلبل فيها الخواطر من الهم والغم، وكثرة العيال، وانكسار النفس الناشئ عن ذلك، ولنعبر عن هذا بالفقر الأسود، وهو يبدد الذهن، ويقتل النبوغ والإبداع، ويورث الاكتئاب والإحباط، فيذوي صاحبه كما تذوي الشجرة الخضراء إذا انقطع عنها الماء.

وحال ثانية يكون الإنسان فيها فقيرًا، ولكنه يكون خفيف المؤونة، راسخ الطمأنينة بالله ﷻ، لا يؤثر الفقر إلَّا على سطح جسده ومظهر لباسه، أما خاطره فمستقر مشرق، ولنسم هذا بالفقر الأبيض كما يقال، وهو نعمة بالنظر إلى طالب العلم في أول حياته حتى لا تشده الدنيا إلى مشاغلها وغمراتها ومفاتنها؛ فإنَّ التقلل من الدنيا أمكن لحفظ العلم وتحصيله"[1].

قال الإمام الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: أزين شيء بالعلماء الفقر مع القناعة. وقال: لا يطلب هذا العلم من يطلبه بِالتَّمَلُّل، وعِزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلة النفس وضيق العيش وذلة أفلح[2].

وقال: ما أفلح في العلم إلَّا من طلبه في القلة، ولقد كنت أطلب القرطاس فيعسر علي[3].

وقال: فقر العلماء فقر اختيار، وفقر الجهُّال فقر اضطرار. وقال: ما فزعت من الفقر قط[4].

ويُستَدلُّ على ذلك بفقر أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي دعاه إلى ملازمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على طمأنينة وخفَّة مسؤولية، فكان فقره في مآله حسنة عليه وعلى الناس[5].

(١) صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل (ص:١٤٩- ١٥٠).

(٢) شعب الإيمان [١٦٠٣]، الإلماع (ص:٥٢)، جامع بيان العلم [٤٤٩]، تهذيب الأسماء، للإمام النووي (١/٧٤)، الشذا الفياح (١/ ٤٠٤)، المحدث الفاصل، للرامهرمزي (ص:٢٠٢)، فتح المغيث (٢/٣٥٥).

(٣) تهذيب الأسماء، للإمام النووي (١/٧٤).

(٤) المصدر السابق (١/٧٥).

(٥) انظر: صفحات من صبر العلماء (ص:١٥١- ١٥٢).

والفقر المنسي هو الذي استعاذ منه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم، أو أظلم**))(1).

قوله: ((**اللهم إني أعوذ بك من الفقر**)). (الفقر): الاحتياج والطلب، وأراد به هنا: (فقر القلب)، وكل قلب يطلب شيئًا، ويحتاج إلى شيء، ويحرص على شيء، فهو فقير -وإن كان صاحبه كثير المال- يعني: من قلب حريص على جمع المال. وهذا مثل قوله: ((**ونفس لا تشبع**))(2).

وقال بعض أهل العلم: الفقر المستعاذ منه إنما هو فقر النفس وجشعها الذي يفضي بصاحبه إلى كفران النعمة في المال، ونسيان ذكر المنعم المتعال. قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "الفقر المذموم: فقر النفس، وهو الذي استعاذ منه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ" (3).

وكما أن الفقر المنسي من المعوقات الشاغلة فكذلك الغنى المطغي؛ لأنَّ الغنى قد يكون من أسباب الطغيان الذي يؤدي إلى البطر والانغماس في الشهوات والملاهي، وإلى الانشغال عن طلب الهداية، وعن العمل للآخرة.

---

(1) أخرجه أحمد [٨٠٥٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٧٨]، وابن ماجه [٣٨٤٢]، وأبو داود [١٥٤٤]، والبزار [٨٢١٦]، والنسائي [٥٤٦٠]، وابن حبان [١٠٣٠]، والحاكم [١٩٨٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٥٠].

(2) صحيح مسلم [٢٧٢٢]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ في شرحه لصحيح مسلم (٤١/١٧): "معناه: استعاذة من الحرص والطمع والشره وتعلق النفس بالآمال البعيدة".

(3) انظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٣٦٤٨/١١)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٧٠٩/٤)، عون المعبود (٢٨٢/٤)، مرعاة المفاتيح (٢٢٦/٨). قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: أراد "فقر النفس لا ما هو المتبادر من معناه من إطلاقه على الحاجة الضرورية؛ فإن ذلك يعم كل موجود: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر:١٥]" فيض القدير (١٢٢/٢).

وقد بين سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في بعض الآيات حكمةَ تضييقه للرزق على من ضيقه عليه من العباد. وذكر أن من حكم ذلك: أن بَسْطَ الرزق للإنسان قد يحمله على البغي والطغيان، كقوله ﷻ:﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ وَلَـٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ بِعِبَادِهِ خَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ [الشورى:٢٧]، أي: بقدر ما يصلحهم ولو زاده لفسد حالهم(١)؛ فإن المال قد يكون سببًا للطغيان والهلاك كما قال الله ﷻ عن قوم نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ [نوح:٢١]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ۝ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ ۝﴾ [العلق:٦-٧].

والفقر والغنى هما من قدر الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الذي قسَّم الأرزاق والآجال؛ ولذلك فإنهما لا يوصفان بالذم والمدح في ذاتهما، وإنما بآثار كلٍّ منهما على صاحبه، فالفقير إن صبر وشكر ورضي بقضاء الله تعالى، ولم يكن الفقر عائقًا عن طلب الحق والهداية، وعن أداء الحقوق والواجبات فهذا هو الفقر المحمود. أما إذا وصل الفقر لدرجة أنست صاحبها مقام عبوديته لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، فانشغل في طلب الرزق، وأعرض عن الطاعة والهداية، فهذا هو الحد المذموم الذي تعوَّذ منه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك الغنى إذا تجاوز الحد، وكان سببًا في طغيان صاحبه، وكفرانه لنعمة الله ﷻ، وانشغاله بالمال عن سلوك طريق الهداية، وعن طلبِ العلم النافع، وانغماسه في الشهوات والملذات، وتركه للحقوق والواجبات في المال، وما يندب فيه من البذل في سبل الخيرات، وإعانة المحتاجين، فهو الغنى المهلك لصاحبه، وقد تعوَّذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فتنة الغنى وفتنة الفقر كما جاء في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: **((اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر..))** الحديث(٢).

---

(١) انظر: أضواء البيان (٧/٦٠)، (٨/٢١٤).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٦٨، ٦٣٧٥، ٦٣٧٧]، مسلم [٥٨٩].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتقييد في الغنى والفقر بالشر لا بد منه؛ لأن كلا منهما فيه خير باعتبار، فالتقييد في الاستعاذة منه بالشر يخرج ما فيه من الخير سواء قل أم كثر. قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فتنة الغنى: الحرص على جمع المال وحبه حتى يكسبه من غير حله، ويمنعه من واجبات إنفاقه وحقوقه. وفتنة الفقر يراد به: الفقر الْمُدْقِع الذي لا يَصْحَبُهُ خَيْرٌ ولا وَرَعٌ حتَّى يَتَوَرَّطَ صَاحِبُهُ بسببه فيما لا يليق بأهل الدين والمروءة، ولا يبالي بسبب فاقته على أيِّ حَرَامٍ وَثَب، ولا في أيِّ حالة تَوَرَّط"[1].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واستعاذ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من شر فتنة الغنى، وقد علم كل مؤمن أن الله تعالى قد أعاذه من شر كل فتنة، وإنما دعاؤه بذلك صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ تواضعًا لله وتعليمًا لأمته، وحضًا لهم على إيثار الزهد فى الدنيا"[2].

وقال بعض أهل العلم: قوله: ((**ومن شر فتنة الغنى**)): وهي البطر والطغيان، وتحصيل المال من الحرام، وصرفه في العصيان، والتفاخر بالمال والجاه، ((**ومن شر فتنة الفقر**)): وهي الحسد على الأغنياء، والطمع في أموالهم، والتذلل بما يُدَنِّسُ العرض، وَيَثْلِمُ الدين، وعدم الرضا بما قسم الله ﷻ له، وغير ذلك مما لا تحمد عاقبته.

ويمكن أن يقال: إن الفقر والغنى لذاتهما محمودان، وإن كان الجمهور على أن الفقر أسلم، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ [الإسراء:٣٠]، ففي الآية إيماء إلى أن التسليم أفضل[3]، وأن بسط الرزق وتضييقه كل واحد يناسب بعض عباده دون بعض.

ومجمل الكلام أن كل ما يقربك إلى الله تعالى، فهو مبارك عليك ومحمود، وكل ما يبعدك عن الله ﷻ فهو شؤم عليك، سواء كان فقرًا أو غنى[4].

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١١/١٧٧).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٦٠).

(٣) أي: التسليم والرضى بقضاء الله تعالى وقدره.

(٤) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٤/ ١٧٠٥).

فإذا منَّ الله ﷻ على العبد بغنىً لا يُطغِي، وبفقرٍ لا يُنسِي، وكانت حاله وسطًا، وعبادته مستقيمة، وأحواله قويمة، فهذه هي السعادة.

*** ***

ثانيًا: الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج:

وعلاج الأثر الاقتصادي إنما يكون بالاعتقاد الإيماني؛ فإن له من الأثر ما ينقل المؤمن من حال إلى حال.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفقر المنسي: السعي في طلب الرزق، ومكافحة البطالة، وشغل الفراغ.

فعلى المسلم أن يسعى في طلب الرزق بلا هلع ولا ضجر ولا قلق، وليعلم أن أهم عامل في تحقيق الاستقرار المادي والنفسي هو التقوى، والسلوك الواعي في حدود ما أحلَّ الله ﷻ، وفي نطاق ما شرع، بلا إسراف ولا تبذير، ولا بخل ولا تقتير، ومن غير ظلم أو أكل لأموال الناس بالباطل. قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الأعراف:٩٦].

وإنَّ الإيمان يمنح الناس الأمن والأمان، ويورث القناعة والرضا.

والمعصية سببٌ في منع الرزق، أو سلب بركته، فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق، فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة. قال الله ﷻ على لسان نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [نوح:١٠-١٢].

ولكن ينبغي أن نعلم أنَّ على الفقير آدابًا عليه أن يراعيها: منها: أن لا يكون في نفسه كراهية لما ابتلاه الله ﷻ به من الفقر، أعني: أنه لا يكون كارهًا فعل الله ﷻ من

حيث إنه فعله -وإن كان كارهًا للفقر- كالمحجوم يكون كارهًا للحجامة؛ لتألمه بها، ولا يكون كارهًا فعل الحجام، ولا كارهًا للحجام، بل يشكر الحجام على ما فعله؛ لأنه يعلم فائدة الحجامة وأثرها عليه.

وعليه أن لا يَفْتر بسبب الفقر عن عبادة، ولا يمنعه الفقر من بذل ما يفضل عنه، يقول الله ﷻ: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ [الطلاق:٧].

ويقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بيان صفات المتقين، المسارعين إلى الخيرات: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣- ١٣٤].

وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة في ذاتها مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّد الإحسانَ بقدر الطاقة.

وعلاج الغنى المطغي يكون بأداء الحقوق والواجبات في المال، وبذله في سبل الخيرات وإعانة المحتاجين، وشكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على نعمه الوافرة، وعدم الاسترسال والإغراق في الشهوات التي تحول بين المسلم وبين وبين أدائه للحقوق والواجبات تجاه نفسه، وتجاه الآخرين، ولا يخفى أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

وقد شاءت إرادة الله ﷻ أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض؛ ليقوم بعمارتها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة. وحيث إنَّ الإنسان مدنيٌّ بالطَّبع لا يستطيع أن يعيش وحده، ولا بدَّ له من معاملة غيره، فقد أعطاه الله ﷻ نعمة المال، يتبادل بواسطته المنافع، ويقضي الحوائج.

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله ﷻ، فقد جعل الله ﷻ المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح. قال الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

وفي الحديث: عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**))(١).

وعن حكيم بن حزام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: ((**يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى**))(٢).

قال العلماء: "إشراف النفس: تطلعها إليه، وتعرضها له، وطمعها فيه. وأما طيب النفس فذكر القاضي رَحِمَهُٱللَّهُ فيه احتمالين؛ أظهرهما: أنه عائد على الآخذ، ومعناه: من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه. والثاني: أنه عائد إلى الدافع، ومعناه: من أخذه ممن يدفع منشرحًا بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا تطيب معه نفس الدافع. وأما قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**كالذي يأكل ولا يشبع**)) فقيل: هو الذي به داء لا يشبع بسببه. وقيل: يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية. وفي هذا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣]. قوله: ((بأفسد لها)) أي: بأكثر فسادًا للغنم. (والشرف) أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: ((لدينه)) لام البيان، كهي في قوله ﷻ: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل". انظر: دليل الفالحين، لابن علان البكري (٤/٤١٩- ٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) صحيح البخاري [١٤٧٢،٢٧٥٠، ٣١٤٣]، مسلم [١٠٣٥].

الحديث وما قبله وما بعده: الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف -وإن كان قليلًا- والإجمال في الكسب، وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه؛ فإنه لا يبارك له فيه، وهو قريب من قول الله ﷻ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]"(١).

وعن أبي سعيد الخُدْريِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إنَّ نَاسًا من الأنصار سألوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم، ثم سألوه، فأعطاهم حتى نَفِدَ ما عنده، فقال: ((**ما يكون عندي من خيرٍ فلنْ أدَّخِرَهُ عنكم، ومن يَسْتَعْفِفْ يُعِفَّهُ اللهُ، ومن يَسْتَغْنِ يُغْنِهِ اللهُ، ومن يَتَصَبَّرْ يُصَبِّرْهُ اللهُ، وما أُعْطِيَ أحدٌ عَطَاءً خَيْرًا وأَوْسَعَ من الصَّبْرِ**))(٢). وفي الحديثِ: الحثُّ على التعففِ، والقناعةِ، والصبرِ على ضيقِ العيشِ وغيرِه من مكاره الدنيا.

فالمال وسيلة وليس غاية؛ لأنه متى أصبح غاية قضى على صاحبه؛ لأنه سيعيش لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، خائفًا من زواله، فيورث صاحبه من الهموم والغموم والأحزان، ويفتح أمامه أبواب الفتن والفساد، فمهما كان غنيًا فإن فقره بين عينيه، والآفات محدقة بماله، وبجسده.

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**))(٣).

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٢٦/٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٩٨/٣).

(٢) صحيح البخاري [١٤٦٩]، مسلم [١٠٥٣].

(٣) الحديث مروي عن أنس وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد".

وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن الإنسان أنه لحب الخير لشديد، فقال ﷻ: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]. والخير هنا: المال اتفاقًا[(١)].

ومعناه: وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، أو إنه لحب المال لقوي، وهو لحب عبادة الله ﷻ ضعيف ومتقاعس.

وفي الحديث: ((**إن الْمُكْثِرِينَ هم الْمُقِلُّونَ يوم القيامة، إلَّا من أعطاه الله خيرًا، فَنَفَحَ فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**))[(٢)].

ومن الآياتِ القرآنيةِ الدَّالةِ على أنَّ حبَّ المالِ غريزةٌ في النفس مقتضية للحرص على المنع –الذي هو البخل– قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

فالموفق من يوق شح نفسه فيخالفها فيما يغلب عليها من حب المال، وبغض الإنفاق، وهو الفائز بالسعادتين.

ومن الآيات التي تحذر من حب المال مع الحرص والطمع قوله ﷻ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝﴾ [الفجر:١٩-٢٠]. أي: حبًّا كثيرًا مع حرص وطمع. ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ ..إلى قوله ﷻ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الآيات [الفجر:٢١-٢٦]، وهي ردع عن أكل التراث، وعن حب المال؛ فماذا يفيد أكل حقوق الغير عند دخول القبر؟ وماذا يجدي حب المال عند المآل؟ وماذا يفيد النعيم الزائل عند العذاب الدائم؟

فينبغي أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح وأوضار التخلف، وعن سائر الأخلاق الذميمة. قال الله ﷻ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٣٩٨).

(٢) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤]. والمراد بـ: ((يمينه وشماله)) ما سبق أنه جميع وجوه المكارم والخير. و((نفح)) بالحاء المهملة، أي: ضرب يديه فيه بالعطاء، والنفح: الرمي والضرب.

وينبغي أن يعلم أنه ليس له من ماله بالغًا ما بلغ إلا ما أكل ولبس وأنفق. وهل ينتفع بشيء من ذلك من إلا بنعمة العافية؟

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، فلها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون. فكم قطعت أرحام في سبيلها، وسفكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**)) قال عبد الرحمن بن عوف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نقول كما أمرنا الله، قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**))(١).

وقد بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن الإيمان ليس بالادِّعاء، وإنما هو مجموعةٌ من الصفات ينبغي أن يتصف بها الإنسان حتى يكون مؤمنًا، ومنها: بذل المال، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٤].

ولذلك فإنَّك ترى أنَّ الشارع جعل من أهم علامات التَّقوى: بذل المال، وإعانة المحتاج، محذرًا من الشُّحِّ، مبينًا عاقبته، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**اتَّقوا الظُّلم؛ فإنَّ الظُّلم ظُلُمَاتٌ يوم القيامة، واتَّقوا الشُّحَّ، فإنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ من كان قبلكم، حَمَلَهُمْ على أن سفكوا دماءهم، وَاسْتَحَلُّوا محارمهم**))(٢).

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

(٢) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

ومن أعظم أسباب الوقاية من مضارِّ الغنى المطغي والفقر المنسي: أن ينظرَ الإنسانُ في أمور الدُّنيا إلى من هو دونه، وأن يتطلَّع إلى من هو فوقه في البرِّ والطَّاعات، فيسلك سبيل المهتدين، من التَّبصر في أمور الدين، ومن التنافس في صالح الأعمال، ومن الصَّبر على البلاء، والنَّظر إلى ما أعدَّه الله تعالى لعباده الصَّالحين. ففي أمور الدنيا وزخارفها ينظر إلى من هو أسفل منه؛ فإن ذلك حقيقٌ بأن يشكرَ نعمة الله ﷻ عليه، ولا يزدريها. وينظر إلى من هو أعلى منه في الدِّين، والعلمِ، والدَّعوة، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخصال الخير، والأخلاق الفاضلة، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((إذا نَظَرَ أحدُكم إلى مَنْ فُضِّلَ عَلَيْهِ في المال والخَلْق، فَلْيَنْظُرْ إلى مَنْ هو أَسْفَلَ منه))**[(١)].

وفي رواية: **((انْظُرُوا إلى مَنْ أَسْفَلَ منكم، ولا تَنْظُرُوا إلى مَنْ هو فَوْقَكُمْ، فهو أَجْدَرُ أَنْ لَا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ))**[(٢)].

قال بن بطال رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا الحديث جامع لمعاني الخير؛ لأن المرء لا يكون بحال تتعلق بالدين من عبادة ربه مجتهدًا فيها إلا وجد من هو فوقه، فمتى طلبت نفسه اللحاق به استقصر حاله، فيكون أبدًا في زيادةٍ تُقَرِّبُه من ربِّه، ولا يكون على حَالٍ خَسِيسَةٍ من الدنيا إلا وجد من أهلها من هو أَخَسُّ حَالًا منه، فإذا تَفَكَّرَ في ذلك علم أن نعمة الله وصلت إليه دون كثير ممن فُضِّلَ عليه بذلك من غير أَمْرٍ أَوْجَبَهُ، فَيُلْزِمُ نفسه الشُّكْرَ، فَيَعْظُمُ اغتباطه بذلك في معاده"[(٣)]. وقال غيره: "في هذا الحديث دواء الداء؛ لأن الشخص إذا نظر إلى من هو فوقه لم يَأْمَنْ أن يُؤَثِّرَ ذلك فيه حَسَدًا. وَدَوَاؤُه: أن ينظر إلى من هو أسفل منه؛ ليكون ذلك داعيًا إلى الشُّكر"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٠]، مسلم [٢٩٦٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٩٦٣].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٩٩)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٢٣).

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٢٣).

وعن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**أمرني خليلي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِحُبِّ المساكين، وَالدُّنُوِّ منهم، وأمرني أن أَنْظُرَ إلى من هو دوني، ولا أنظر إلى من هو فوقي))** الحديث(١).

(١) أخرجه أحمد [٢١٤١٥]، وابن حبان [٤٤٩]، والطبراني في (الصغير) [٧٥٨]، والبيهقي في (السنن) [٢٠١٨٦]. قال الهيثمي (٧/٢٦٥): "رجاله رجال الصحيح غير سلام أبي المنذر وهو ثقة".

العقبة الثانية والأربعون

الفتور

أولًا: تعريف الفتور:

الفتور مصدر فتر، يقال: فَتَر الشيء والحَرُّ وفُلَانٌ يَفْتُر ويَفْتِر فُتُورًا وفُتارًا: سَكَنَ بَعْدَ حِدَّةٍ، ولانَ بَعْدَ شِدَّةٍ. يقال: فترت المفاصل، وفتر الماءُ السَّاخن، وفتر البرد، وفتر عن عمله: قصر فيه[1].

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفَتْرَة: الِانْكِسَار وَالضَّعْف. وقد فَتَرَ الْحَرُّ وغيرُهُ يفتر فتورًا"[2] من باب دَخَلَ. والمفْتِر: الذي إذا شُرِب أحْمَى الْجَسَدَ وصار فيه فُتُور، وهو ضَعْف وانكسار. يقال: أفْتَرَ الرجل فهو مُفْتِر: إذا ضَعُفَت جُفُونُهُ وانْكَسَرَ طَرْفُه[3]؛ ولذلك يعدُّ الخمرُ من المفترات، وكذلك سائر أنواع المسكرات، كالحبوب ونحوها؛ لأنها تحدث في الجسم ضعفًا وخورًا وفتورًا.

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفُتُور: سكون بعد حِدَّة، ولين بعد شدَّة، وضعف بعد قوَّة. قال ﷻ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [المائدة:١٩]، أي: سكون حال عن مجيء رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقوله: ﴿لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء:٢٠]، أي: لا يسكنون عن نشاطهم في العبادة"[4].

والحاصل أن الفتور يطلق في اللغة على معنيين:

١ - الانقطاع بعد الاستمرار أو السكون بعد الحركة.

٢ - الكسل أو التراخي أو التباطؤ بعد النشاط والجد.

---

(١) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (فتر) (٤٧٧/٩)، لسان العرب (٤٣/٥)، القاموس المحيط (ص:٤٥٤)، المعجم الوسيط (٦٧٢/٢).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فتر) (٧٧٧/٢).

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (فتر) (٤٠٨/٣).

(٤) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فتر) (ص:٦٢٢)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٥٦)، الكليات (ص:٦٩٨).

أما في الاصطلاح فهو داء قد يصيب بعض العاملين، أدناه: الكسل أو التراخي أو التباطؤ. وأعلاه: الانقطاع أو السكون بعد النشاط الدائب والحركة المستمرة[1].

ومن الألفاظ ذات الصلة: الْمَلَال، وهو اسْتِثْقَال الشَّيء ونُفُور النَّفْس عنه بعد مَحَبَّتِه[2]. وهو داء يصيب بعض العباد والدعاة وطلاب العلم، فيضعف ويتراخى ويكسل، وقد ينقطع بعد جد وهمة ونشاط.

ثانيًا: الفتور من أسباب الضلال:

إنَّ من أعظم أسباب الاستقامة على منهج الله ﷻ: التَّذكرُ والتبصرُ، وعلوُّ الهمةِ في الطاعة والعمل؛ فإنَّ الإنسانَ إنما يُؤتى من آفةِ النسيان والفتور وعدم العزم، كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا﴾ [طه:١١٥].

إنَّ الفتور والسآمة والملل، وعدم النشاط في الخير، والتقاعد عن تحصيل مراتب الكمال -مع القدرة على ذلك- هو من أعظم ما يعتري السالكين، وقد يكون سببًا للانتكاس بعد الهداية.

والفتورُ بليَّةٌ وغفلةٌ تُحْدِثُ عزوفًا عن الطاعة، وتهوي بالإنسان في أودية الضلال، إلا أن يتداركه اللهُ ﷻ بلطف منه ورحمة، فيرجع عن ضلاله، ويبصر طريق الهداية.

ويتفاوتُ الفتورُ من حيث ما يترتبُ عليه من الأثر، فإذا أدى إلى ترك واجب، أو تسبب في نقص الإيمان، أو ساقَ إلى ركوبِ كبيرة، أو فعلٍ محرَّم فهو فتورٌ مذمومٌ وخطير، يجبُ على من أصابه هذا الداء أن يسارعَ إلى التوبة إلى الله ﷻ، وإلى الشروع في علاج الفتور.

أما إذا لم يؤدِ الفتورُ إلى تركِ واجبٍ أو فعلِ محرَّمٍ، وإنما كان تراجعًا في عمل مستحبات -مثلًا-، فينبغي أن يرجع المكلف إلى نفسه؛ ليبصرَ مواضعَ الخلل، وأسبابَ

---

(١) انظر: آفات على الطريق (ص:٩).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/١٠٢)، وانظر: تنوير الحوالك (١/١٠٧)، فيض القدير (٤/٣٥٤).

الفتورِ عن المسارعةِ إلى الخيرات، وعن الترقي في مدارج الكمال، فيعزِّزها بمحفزاتِ الطاعة، وعلو الهمة -مما سيأتي بيانه-.

والفتور في الطاعة من عيوب النَّفس، ويتفاوت كما تقدم من حيث الأثر والخطر.

قال: محمد بن الحسين النيسابوري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن عيوبها: فَتَرٌ[1] فيها في حقوق كان يقوم بها قبل ذلك. وأتم منه عيبًا: من لا يهتم بتقصيره وفترته. وأكثر من ذلك عيبًا: من لا يرى فترته وتقصيره. ثم أكثر منه عيبًا: من يظنُّ أنه متوفر[2] مع فترته وتقصيره، وهذا من قلّة شكره في وقت توفيقه للقيام بهذه الحقوق"[3].

إنَّ الفتور والكسل داءٌ يعوق دون العمل الجاد، والفكر المثمر، والسعي النافع، والبذل الحميد. وإذا فشا فإنه يقف حائلًا دون نهضة الأمم، وتقدم الشعوب.

والفتور عن الطاعات قد يكون مع كره لها، وعدم رغبة فيها، وهذه حال المنافقين؛ فإنهم من أشد النَّاس كسلًا وفتورًا ونفورًا. قال الله ﷻ فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ [التوبة:٥٤].

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه صفة المنافقين في أشرف الأعمال وأفضلها وخيرها، وهي الصلاة. إذا قاموا إليها قاموا وهم كسالى عنها؛ لأنهم لا نية لهم فيها، ولا إيمان لهم بها ولا خشية، ولا يعقلون معناها"[4].

---

(١) يقال: فتر العامل عن عمله: قصر فيه. انظر: أساس البلاغة، مادة: (فتر) (٢/٤).

(٢) (الوَفْر): الغِنى -بكسر الغين-، و(الموفور): التام من كل شيء.

(٣) عيوب النفس، محمد بن الحسين النيسابوري السلمي (ص:٨).

(٤) تفسير ابن كثير (٢/٤٣٨).

وقد قال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون:٤-٥]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إما عن وقتها الأول، فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به، وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله، ولكن من اتصف بشيء من ذلك قسط من هذه الآية. ومن اتصف بجميع ذلك، فقد تم نصيبه منها، وكمل له النفاق العملي. كما ثبت أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرني الشيطان، قام فنقرها أربعًا، لا يذكر الله فيها إلا قليلًا**))"[(١)].

ثالثًا: أسباب الفتور:

والفتور ناشئ عن أسباب منها:

١ - الغلو والتشدد:

إنَّ أخذ النفس بالشدة في كلِّ أمر غالبًا ما يؤدي إلى السآمة والملل، وقد يصل إلى الانقطاع أو الترك. والمداومة على العمل الصَّالح القليل أحبُّ إلى الله ﷻ من العمل الصالح الكثير الذي ينقطع عنه العامل، ولا يداوم عليه، وقد جاء ذلك مبينًا في عقبة: (المفهوم الخاطئ للاستقامة، مجاوزة القصد في الفعل).

٢ - الغفلة:

إنَّ الغفلة سبب من أسباب الفتور عن الطاعات، والتكاسل عن العبادات، وإلى الزيغ عن طريق الهداية.

٣ - التنافس على الدنيا، والركون إليها، وجعلها غاية القصد.

٤ - صحبة أهل الباطل، والابتعاد عن الجليس الصالح، وأرباب الهمم والعزائم:

---

(١) تفسير ابن كثير (٨/٤٩٣)، بتصرف يسير. والحديث في (صحيح مسلم) [٦٢٢].

إنَّ من جملة الأسباب التي قد تؤدي إلى الفتور: صحبة أهل الباطل، ومخالطة أهل السوء، وضعاف الهمم، وأهل الغفلة، ومجالسة أهل البطالة، والاستماع إلى الجهال، فيؤول ذلك إلى ذهاب نور العلم، وإلى الانتكاس بعد الهداية.

٥ – الفراغ والبطالة.

٦ – الاكتئاب والأمراض النفسية.

٧ – الإسراف في المباحات.

٨ – اتباع الهوى.

وقد يكون الفتور عن بعض الطاعات بسبب اتباع الهوى الذي يؤدي إلى التثاقل عن كثير من الطاعات، ويُضعف الرغبة في أدائها. وهذه حال كثير من الفساق، وأصحاب الشهوات.

٩ – فَقْد محبَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى ورسوله صَلَّاَللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أو ضعفها أو تأخُّرها.

١٠ – فساد البيئة.

وقد أُفرد كل سبب منها بالبحث، وعُدَّ من العقبات والصوارف؛ لعظم خطره.

١١ – تَعَلُّلُ ضعافِ الهمم بتقلُّب الأحوالِ في الدنيا:

قال ابن فارس رَحِمَهُٱللَّهُ: "إذا كان يؤذيك حرُّ المصيف، ويبسُ الخريف وبردُ الشتا، ويلهيك حسنُ زمان الربيع فأخذُك للعلم قل لي متى؟!"[(١)].

١٢ – الفتور لعارض:

وقد يكون الفتور لعارض يشعر به الإنسان بين حين وآخر، ولكنه لا يستمر معه، ولا تطول مدته، ولا يوقع في معصية، ولا يخرج عن طاعة. وهذا لا يسلم منه أحد، إلا أن الناس يتفاوتون فيه أيضًا، وسببه غالبًا: أمر عارض، كتعب أو انشغال أو مرض ونحوها.

---

(١) تاريخ دمشق، لابن عساكر (٣٤٨/٦٤).

رابعًا: بيان أقسام الفتور:

الفتور قسمان:

"**الأول**: كسل العقل بعدم إعماله في التفكر والتدبر، والنظر في آلاء الله ﷻ من ناحية، وفي تركه النظر إلى ما يصلح شأن الإنسان ومن حوله في الدنيا التي فيها معاشه.

الثاني: كسل البدن المؤدي إلى التثاقل عن الطاعات وأداء العبادات على الوجه المشروع، وكذلك يؤدي إلى تأخر الأفراد بَلْهَ(١) الأمم والشعوب في مجالات النشاط المختلفة من زراعة وصناعة وغيرهما.."(٢).

خامسًا: وسائل الوقاية والتحرر مما يعتري السالكين من الفتور:

والمسلم المتيقظ يعمل على التَّحرر مما يعتري السَّالكين من الفتور وآثاره. ومن وسائل التحرر من الفتور:

١ - العمل الصالح والالتجاء إلى الله ﷻ، وإخلاص الدعاء له، والاستعاذة بالله من الفتور:

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ من الكسل الذي يؤدي إلى الفتور عن الطاعات، وأداء الحقوق، فعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر**))(٣).

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لأبي طلحة: ((**التمس غلامًا من غلمانكم يخدمني حتى أخرج إلى خيبر**)) فخرج بي أبو طلحة مردفي، وأنا غلام راهقت الحلم، فكنت أخدم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا نزل، فكنت

---

(١) (بَلْهَ) بمعنى دع عنك أو فضلًا عن..، وهي مبنية على الفتح، وقيل: معناها سوى.

(٢) انظر: نضرة النعيم (١١/ ٥٤٣٩).

(٣) صحيح البخاري [٢٨٢٣، ٦٣٦٧]، مسلم [٢٧٠٦].

أسمعه كثيرًا يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، والعجز والكسل، والبخل والجبن، وضلع الدين، وغلبة الرجال**))(١).

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يدعو: ((**أعوذ بك من البخل والكسل، وأرذل العمر، وعذاب القبر، وفتنة الدجال، وفتنة المحيا والممات**))(٢).

وفي رواية: عن زيد بن أرقم، قال: لا أقول لكم إلا كما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: كان يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها**))(٣).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: ((**اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم، والمأثم والمغرم، ومن فتنة القبر، وعذاب القبر، ومن فتنة النار وعذاب النار، ومن شر فتنة الغنى، وأعوذ بك من فتنة الفقر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، اللهم اغسل عني خطاياي بماء الثلج والبرد، ونق قلبي من الخطايا كما نقيت الثوب الأبيض من الدنس، وباعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب**))(٤).

وفي رواية: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا أمسى قال: ((**أمسينا وأمسى الملك لله، والحمد لله، لا إله إلا الله وحده لا شريك له**))، قال الحسن: فحدثني الزبيد أنه حفظ عن إبراهيم في هذا: ((**له الملك وله الحمد**

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٣، ٥٤٢٥، ٦٣٦٣].

(٢) صحيح البخاري [٤٧٠٧]، مسلم [٢٧٠٦].

(٣) صحيح مسلم [٢٧٢٢].

(٤) صحيح البخاري [٦٣٦٨، ٦٣٧٥، ٦٣٧٧]، مسلم [٥٨٩].

وهو على كل شيء قدير، اللهم أسألك خير هذه الليلة، وأعوذ بك من شر هذه الليلة، وشر ما بعدها اللهم إني أعوذ بك من الكسل وسوء الكبر، اللهم إني أعوذ بك من عذاب في النار وعذاب في القبر))(١)..إلى غير ذلك.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستعاذة من العجز والكسل؛ لأنهما يمنعان العبد من أداء حقوق الله ﷻ، وحقوق نفسه، وأهله، وتضييع النظر في أمر معاده، وأمر دنياه. وقد أمر المؤمن بالاجتهاد في العمل، والإجمال في الطلب، ولا يكون عالةً ولا عيالًا على غيره، ما متِّع بصحة جوارحه وعقله"(٢).

قال الكلاباذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((اللهم إني أعوذ بك من الكسل والهرم))**: "الكسل: فتور في الإنسان عن الواجبات، فإن الفتور إذا كان في الفضول وما لا ينبغي فليس بكسل، بل هو عصمة، وإذا كان في الواجبات فهو كسل، وهو الثقل، والفتور عن القيام بالواجب، وهو الخذلان، قال الله ﷻ: ﴿وَلَـٰكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ﴾ [التوبة:٤٦]. وعاتب الله ﷻ المؤمنين في التثاقل عن الواجب، والفتور فيه، فقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ [التوبة:٣٨] الآية.

و(الهرم): فتور من ضعف يحل بالإنسان، فلا يكون به نهوض، ففتور الهرم: فتور عجز، وفتور الكسل: فتور تثبيط وتأخير، فاستعاذ النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفتور في أداء الحقوق، والقيام بواجب الحق من الوجهين جميعًا، من جهة عجز ضرورة وحرمان منها مع الإمكان. و(المأثم): تضييع حقوق الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، و(المغرم): تضييع حقوق العباد، فاستعاذ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من تضييع حق الله ﷻ، وحق عباده، ويجوز أن يكون المأثم: إتيان

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٣].

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١١٩- ١٢٠).

المناهي، والمغرم: ترك الأوامر؛ فإن الغرامة إنما يلزم العبد في تضييع ما استرعي، فكأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ استعاذ من أن يكون مرتكبًا لنواهيه، مضيعًا لأمره، والله أعلم"(١).

٢ - البعد عن الغلو والتشدد، والتقوي على الطاعات بإعطاء الجسد حقَّه:

ومن الأحاديث التي فيها: الحث على الاقتصاد في العبادة، والنهي عن التعمق، والأمر بالإقبال عليها بنشاط(٢)، والتي فيها علاج الفتور الذي يعتري العاملين ما جاء في (الصحيحين): عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: دخل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المسجد، وحبل ممدود بين ساريتين، فقال: ((**ما هذا؟**)) قالوا: لزينب تصلي، فإذا كسلت(٣)، أو فترت أمسكت به، فقال: ((**حُلُّوهُ، لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فإذا كَسِلَ، أو فَتَرَ قَعَدَ**))(٤).

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فإذا فتر فليقعد**)) يعني: حتى يذهب عنه الفتور. قال الخادمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فليقعد عن تلك العبادة وليشتغل بطاعة أخرى؛ إذ السآمة والفتور لا يكون بكل عمل، مثلًا إن حصل فتور من الصلاة فلينتقل إلى قراءة القرآن، أو سائر الأذكار. ثم الظاهر أن هذا في الفضائل.

---

(١) بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي البخاري الحنفي (ص:٢٣١).

(٢) انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦/٧٣).

(٣) وفي رواية عند ابن أبي شيبة [٣٤٠٢]، وأبي داود [١٣١٢]، وأبي يعلى [٣٧٨٦]، وابن خزيمة [١١٨١]، وابن حبان [٢٤٩٣]: (فإذا أعيت) أي: فترت عن القيام.

(٤) أخرجه البخاري في (صحيحه) [١١٥٠]، ومسلم [٧٨٤]، واللفظ لمسلم. قال القسطلاني رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ليصل أحدكم نشاطه)) بكسر لام: ليصل، وفتح نون: نشاطه، أي: ليصل أحدكم وقت نشاطه، أو الصلاة التي نشط لها. وقال بعضهم: يعني، ليصل الرجل عن كمال الإرادة والذوق، فإنه في مناجاة ربه، فلا تجوز له المناجاة عند الملال. انتهى. وللأصيلي: بنشاطه، بزيادة الموحدة أوله، أي: متلبسًا به. ((فإذا فتر)) في أثناء القيام، ((فليقعد)) ويتم صلاته قاعدًا، أو إذا فتر بعد فراغ بعض التسليمات فليقعد لإيقاع ما بقي من نوافله قاعدًا، أو إذا فتر بعد انقضاء البعض فليترك بقية النوافل جملة، إلى أن يحدث له نشاط، أو إذا فتر بعد الدخول فيها فليقطعها، خلافًا للمالكية حيث منعوا من قطع النافلة بعد التلبس بها". إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني (٢/٣٢٧)، وانظر: مرعاة المفاتيح (٤/٢٤٢)، عون المعبود، ومعه حاشية ابن القيم (٤/١٣٨).

وأما الواجبات، بل الرواتب -سيما المؤكدات- لا يقعد عنها؛ للفتور، بل لفتور بالكلية إلا أن يُحْمَلَ على تأخيره بوقت يزول فيه ذلك الكسل مع بقاء وقته، ويعلم منه حال سائر العبادات إما بالأولوية، يعني: دلالة النص[1]، أو بالمقايسة. ويقرب منه ما روي عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عنها أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال ((**إذا نعس أحدكم وهو يصلي فليرقد، حتى يذهب عنه النوم، فإن أحدكم إذا صلى وهو ناعس، لا يدري لعله يستغفر فيسب نفسه**))"[2].

٣ - التحرر من عُقَد الشيطان:

كما جاء مبينًا في حديث: ((**يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم ثلاث عقد إذا نام، بكل عقدة يضرب عليك ليلًا طويلًا، فإذا استيقظ فذكر الله انحلت عقدة، وإذا توضأ انحلت عنه عقدتان، فإذا صلى انحلت العقد، فأصبح نشيطًا طيب النفس، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان**))[3].

قال أبو عمر (ابن عبد البر) رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما من كانت عادته القيام إلى صلاته المكتوبة أو إلى نافلته من الليل فغلبته عينه فقد جاء عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يكتب له أجر صلاته ونومه صدقة عليه"[4].

---

(١) (دلالة النص): دلالة اللفظ على ثبوت حكم المنطوق -أي: عبارة النص- لمسكوت عنه؛ لاشتراكهما في علة الحكم. وهذه العلة تدرك بمجرد فهم اللغة، لا تتوقف على بحث واجتهاد، وتدل على كون المسكوت عنه أولى بالحكم من المنطوق، أو مساويًا له.نحو قوله ﷺ: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ﴾ [الإسراء:٢٣]، العبارة: تحريم قول: (أف) للوالدين، وهذا هو المنطوق، ودلالة الدلالة: تحريم سبهما وشتمهما ولعنهما، وهذا هو المسكوت عنه، فنبه بمنع الأدنى على منع ما هو أولى منه، وهو معنى يدرك من غير بحث ولا نظر.

(٢) بريقة محمودية، للخادمي (١/ ١٢٩). والحديث في (صحيح البخاري) [٢١٢، ٢١٣]، و(مسلم) [٧٨٦].

(٣) صحيح البخاري [١١٤٢، ٣٢٦٩]، مسلم [٧٧٦].

(٤) الاستذكار، لابن عبد البر (٢/٣٧٦).

٤ - التيقظ والاستبصار:

إن الإنسان بطبيعته تعتريه الفترات، ولكن الصالحين يدفعون آثار تلك الفترات بالتيقظ والاستبصار.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تخلل الفترات للسالكين أمر لازم لابد منه، فمن كانت فترته إلى مقاربة وتسديد ولم يخرجه من فرض ولم تدخله في محرَّم رجي له أن يعود خيراً مما كان. وفي هذه الفترات والغيوم والحجب التي تعرض للسالكين من الحِكَم ما لا يعلم تفصيله إلا الله ﷻ، وبهذا يتبين الصادق من الكاذب، فالكاذب ينقلب على عقبيه ويعود إلى رسوم طبيعته وهواه، والصادق ينتظر الفرج، ولا ييأس من روح الله ﷻ.."(١).

وفي الحديث: ((**إن لكل عمل شِرَّة(٢)، ولكل شِرَّة فترة، فمن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى، ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك**))(٣).

---

(١) بتصرف عن (مدارج السالكين) (٣/١٢١- ١٢٢).

(٢) (الشرة): بكسر الشين المعجمة، وتشديد الراء بعدها تاء تأنيث، هي: النشاط والهمة. و(شرة الشباب): أوله وحدته". الترغيب والترهيب، للمنذري (١/٤٦).

(٣) الحديث مروي عن جعدة بن هبيرة وعن ابن عمرو بن العاص، وعن ابن عباس. حديث جعدة بن هبيرة. أخرجه الطبراني في (الكبير) [٢١٨٦]، وأبو نعيم. كنز العمال [٨٤١٥]. قال الهيثمي (٢/ ٢٥٩): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". حديث: ابن عمرو أخرجه أحمد [٦٩٥٨]، والحارث كما في (بغية الباحث) [٢٣٦]، والبزار [٢٣٤٦]، وابن حبان [١١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٥٩٥]. قال الهيثمي (٢/٢٥٩): "رجال أحمد ثقات". حديث ابن عباس: أخرجه البزار [٤٩٤٠]. قال الهيثمي: (٢/٢٥٩): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح". وقال الحافظ في (مختصر زوائد مسند البزار) [٥٠٢]: " كلا، بل سلم هو ابن كيسان الأعور ضعيف جدًّا". وأخرجه أحمد [٢٣٤٧٤]، والطحاوي في (مشكل الآثار) [١٢٣٨] من طريق منصور عن مجاهد قال: دخلت أنا ويحي بن جعدة على رجل من الأنصار من أصحاب الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ذكر عند النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مولاة لبني عبد المطلب فقال: إنها قامت الليل وتصوم النهار؟ فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((لكني أنا أنام وأصلي وأفطر، فمن اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني، إن لكل عمل شرة ثم فترة، فمن كانت فترته إلى بدعة فقد ضل، ومن كانت فترته إلى سنتي فقد اهتدى)). قال الهيثمي: (٣/١٩٣): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

وفي رواية: ((**ومن كانت فترته إلى سنتي فقد أفلح**))[(١)].

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فترته إلى سنتي**)) أي: طريقتي التي شرعتها. ((**فقد اهتدى**)) أي: سار سيرة مرضية حسنة. ((**ومن كانت إلى غير ذلك فقد هلك**)) الهلاك الأبدي، وشقي الشقاء السرمدي"[(٢)].

"إن النشاط الزائد في بدء ممارسة العمل يسمى: (شِرَّة)، وهذا النشاط الزائد قد لا ينجو منه معظم العاملين في أوائل أعمالهم الصالحات، ولكن إذا كانت الفترة بعد ذلك إلى المواظبة بهدوء وتؤدة على العمل الصالح القليل، كان صاحبها على هدى، وإن كانت الفترة بعد ذلك إلى انقطاع وتحول عن فعل الخير، كانت إلى هلاك"[(٣)].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "برد العزيمة يُؤثر في الاعمال والنيات كما يُؤثر برد الشتاء في ناضر النَّبات، يلفح البرد مخضر الشّجر فيصير يابسًا، ويسقع مفتر الزهر فيعود عابسًا، فكذلك برد العزيمة يجعل العامل عاطلًا، والنابه خاملًا، فإن لم يكن بُدٌّ من الفتور عن طلب الخيرات فاضعف عن السيئات ضعفك عن الحسنات"[(٤)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالعبد سائرٌ لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام، وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف البتة، ما هو إلا مَرَاحِلُ تُطْوَى أَسْرَعَ طَيٍّ إلى الجنة أو النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف البتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير، وفي السرعة والبطء: ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ ۝٣٥ نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ۝٣٦ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ۝٣٧﴾ [المدثر:٣٥-٣٧]، ولم يذكر

---

(١) أخرجه أحمد [٦٧٦٤]، والحارث كما في (بغية الباحث) [٢٣٥]، وابن حبان [١١]، والطبراني في (الكبير) [١٤٢٩١]. قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (٢/٢٥٩): "رواه الطبراني في (الكبير)، وأحمد بنحوه، ورجال أحمد ثقات".

(٢) فيض القدير (٢/٥١٤).

(٣) انظر: الحضارة الإسلامية، عبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني (ص: ٣٣٩).

(٤) التذكرة في الوعظ (ص:٤٠).

واقفًا؛ إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين البتة، فمن لم يتقدم إلى هذه بالأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل مجد في طلب شيء لا بد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه؛ قلت: لا بد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف؛ لِيُجِمَّ نفسه[1]، ويعدها للسير، فهذا وقْفَتُهُ سَيْرٌ، ولا تضره الوقفة، فإن لكل عمل شِرَّةً، ولكل شِرَّةٍ فَتْرَةٌ. وإما أن يقف لداع دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخره ولا بد، فإن تداركه الله ﷻ برحمته، وأطلعه على سبق الركب له وعلى تأخره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووَثَبَ وجَمَزَ[2] واشْتَدَّ سَعْيًا؛ ليلحق الركب، وإن استمر مع داعي التأخر، وأصغى إليه لم يرض برده إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يرده إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عقيب الإِبْلَال[3] من المرض؛ فإنها أخطر منه وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذا العبد بجذبة منه من يد عدوه وتخليصه، وإلا فهو في تأخر إلى الممات، راجع القَهْقَرَى، ناكص على عقبيه، أو مول ظهره، ولا قوة إلا بالله، والمعصوم من عصمه الله"[4].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكيف يحسن الفتور وأوقات السلامة تسرق"[5].

وقال: "أسفًا لعبد كلما كثرت أوزاره قلَّ استغفاره، وكلما قرب من القبور قوي عنده الفتور"[6].

---

(١) يقال: (أجم) الإنسان والفرس ونحوهما: استراح فذهب إعياؤه.

(٢) يقال: جمز الإنسان والبعير وغيره يجمز جمزًا وجمزى: وهو عَدْو -أو ضرب من السير- دون الحضر وفوق العنق. ينظر: المخصص، لابن سيده (٢/ ٩٨).

(٣) يقال: بل وأبل واستبل: إذا برأ.

(٤) مدارج السالكين (١/ ٢٧٨- ٢٧٩).

(٥) التبصرة، لابن الجوزي (٢/ ٥٢).

(٦) المصدر السابق (١/ ٥٥).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فانظر لنفسك قبل أن يعمى الناظر، وتفكر في أمرك بالقلب الحاضر، ولا تساكن الفتور؛ فإنك إلى مسكن القبور صائر، فالحي للممات، والجمع للشتات، والأمر ظاهر"(١). فمن أصبح وهو يؤمل أنه يمسي، أو أمسى وهو يؤمل أن يصبح لم يخل من الفتور والتسويف.

و"المتعبد يبكي على الفتور بكاء الثكلى بين القبور، وينْدب زمان الوصال، ويتأسف على تغير الحال"(٢).

"يا أسيرًا في قبضة الغفلة، يا صريعًا في سكرة المهلة، يا ناقض العهد، انظر لمن عاهدت في الزمن الأول، أكثر العمر قد مضى، وأنت تتعلل!! يا مدعوًّا إلى نجاته وهو يتوانى، ما هذا الفتور والعمر قد تدانى؟! كأنك بالدمع يجري عند الموت تهتانا"(٣).

٤ — أداء الفرائض والإكثار من النوافل:

وجماع ذلك: تحقق التقوى في المكلف بالتزام أمر الله ﷻ، واجتناب نهيه، وملازمة ذكره، وقراءة كتابه، والبحث عن حال مطعمه، وأداء حقوق الخلق، والتنوع في العبادات، والإكثار من النوافل(٤)؛ فإنها تمنع من الشرود عن نهج الصالحين.

٥ – مجالسة الصالحين وأرباب العزائم والهمم:

(١) المصدر السابق (٢/١٠٤-١٠٥).
(٢) المدهش، لابن الجوزي (ص:١٦٥).
(٣) بحر الدموع، لابن الجوزي (ص:٨٨)، المدهش (ص: ٢٣٦).
(٤) وقد جاء في الحديث القدسي: ((من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته)) صحيح البخاري [٦٥٠٢]. قوله: ((ما ترددت)): كناية عن اللطف والشفقة، وعدم الإسراع بقبض روحه. و((مساءته)): إساءته بفعل ما يكره.

إنَّ مجالسة الصالحين وأرباب العزائم والهمم تبعث في النفس الهمة لتقليدهم والتشبه بهم.

٦ - حضور مجالس العلماء:

إنَّ حضور مجالس العلماء الصالحين العاملين، أرباب القلوب والبصائر ينير العقل والقلب.

٧ - التفكر في اليوم الآخر:

إنَّ التفكر في اليوم الآخر، وما أعدَّه الله ﷻ لعباده من النعيم، ورفعة الدرجات، وما أعدَّه للكفار والعاصين من العذاب محفِّز على النشاط والعمل.

٧ - مكافحة البطالة:

وسيأتي بيان ذلك.

٨ - الاستعاذة بالله ﷻ من الشيطان الرجيم، ومن الكسل والعجز:

وقد تقدم بيان ذلك.

٩ — الذكر الخفي والتفكر:

إنَّ ذكر الله ﷻ –ولا سيما الخفي منه–، والاحتراز عن آفات الرياء، والتفكر في ملكوت الله ﷻ فيه الخلاص من آفة الفتور؛ فإن التفكر يحرك القلب، ويحفز الفكر، ويقوي العزيمة، كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١].

قال الهروي رَحِمَهُ اللَّهُ في (منازل السائرين) " الذكر الخفي، وهو الخلاص من الفتور، والبقاء مع الشهود، ولزوم المسامرة "[١].

(١) منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي (ص:٧١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويريد بالخلاص من القيود: التخلص من الغفلة والنسيان والحجب الحائلة بين القلب وبين الرب سبحانه.

و(**البقاء مع الشهود**): ملازمة الحضور مع المذكور ومشاهدة القلب له حتى كأنه يراه.

و(**لزوم المسامرة**): هي لزوم مناجاة القلب لربه: تملقًا تارة، وتضرعًا تارة، وثناء تارة، واستعظامًا تارة. وغير ذلك من أنواع المناجاة بالسر والقلب، وهذا شأن كل محب وحبيبه"(١).

وفي الحديث: ((**إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي**))(٢).

و((**الخفي**)) -بخاء معجمة- أي: الخامل الذكر المعتزل عن الناس الذي يخفي عليهم مكانه؛ ليتفرغ للتعبد(٣). ففي الحديث إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله ﷻ، وبعيدًا عن الرياء.

وقال الله ﷻ مخاطبًا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ [طه:٤٢]. و(الونا): الفترة في الأعمال والأمور. وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ معناه: تفترا(٤). و(الونى): الكلال والفتور والفشل في البهائم والإنس(٥).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن على الممدوح أن يكون شديد الاحتراز عن آفة الكبر والعجب، وآفة الفتور. ولا ينجو منه إلَّا بأن يعرف نفسه، ويتأمل ما في خطر

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٠٧).

(٢) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٩٦٥].

(٣) انظر: فيض القدير (٢٨٨/٢)، فتح الباري، لابن حجر (٢٧٦/١١).

(٤) انظر: لسان العرب، مادة: (وني) (١٥/ ٤١٥- ٤١٦).

(٥) انظر: تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) (٤٥/٤)، وتفسير الثعالبي (الجواهر الحسان) (٥٦/٤).

الخاتمة ودقائق الرياء، وآفات الأعمال؛ فإنه يعرف من نفسه ما لا يعرفه المادح، ولو انكشف له جميع أسراره وما يجري على خواطره لكف المادح عن مدحه"[1].

وقد بين الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من علاج من تفتر نفسه عن فضائل الأعمال، ويقتصر على الفرائض: أن يُرَجِّي نفسه نعيم الله ﷻ، وما وعد به الصالحين حتى يَنْبَعِث من الرَّجَاءِ نَشَاطُ العبادة، فيقبل على الفضائل، ويتذكر قوله ﷻ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون:١-٢]، إلى قوله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ۝١٠ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون:١٠-١١]"[2].

وقال: إن العمل على المحبة لا يدخله الفتور[3]. فأوضح أن الاتباع إذا كان قائمًا على المحبة فإنه ينهض بالهمم، ويقمع الفتور. وبين في (ميزان العمل) أن الفتور عن طلب السعادة حماقة في كلام مطول[4].

١٠ - أن يسارع المسلم إلى اغتنام الأوقات الفاضلة، وأن يكون حاله فيها أفضل من حاله في غيرها، وأن يكون حاله بعدها أفضل من حاله قبلها؛ لما تتركه من الأثر في النفس، فهي بمثابة دورة تدريبية فعالة، تنمي عنده شعور المراقبة، وتحمله الإنسان على ترك الماديات والشهوات، وترتقي به إلى أفق أسمى من المحبة والقرب والمسارعة إلى الخيرات.

١١ — أن يكثر المكث في الأماكن الفاضلة؛ لكونها وسيلة للقرب من الله ﷻ، ولاختصاصها بالمزايا والفضائل، وهي الأماكن التي ينشط فيها الصالحون، مما يحرِّك الهمم والعزائم، ويقوي الإرادة لتقليدهم والتشبه بهم، والسير على نهجهم.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٦١).

(٢) انظر: المصدر السابق (٣/ ٣٨٦).

(٣) انظر: المصدر السابق (٤/ ٣٣٤).

(٤) انظر: ميزان العمل، للإمام الغزالي (ص:١٨٠-١٨١).

العقبة الثالثة والأربعون

البطالة

أولًا: تعريف البطالة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "بَطَلَ الْأَجِير يَبْطُلُ بَطَالَة، أي: تَعطَّلَ، فهو بَطَّال"[(١)]. وتَعطَّلَ الرَّجلُ إذا بَقِيَ لا عَمَلَ له، والاسم: الْعُطْلَة، والتَّعْطِيل: التَّفْرِيغ"[(٢)].

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البطالة: ترك العمل؛ لأن الأحوال تبطل بذلك"[(٣)].

فالبطالة هي عدم العمل من قادر عليه، أو التوقف عن العمل ممن لا يجد عملًا مع استعداده وقدرته عليه.

فهي تشمل المتعطل عن العمل مع توفره، والمتعطل عن العمل بسبب عدم توفره مع القدرة عليه، والرغبة فيه، والسعي إليه.

أما ما يفضي إلى البطالة فقد يرجع اللوم فيه على الفرد الذي يركن إلى الكسل مع توفر العمل، وقد يرجع اللوم على مجتمع لا يوفر فرص العمل للقادرين عليه والراغبين فيه.

وقد يكون فقد الكسب بسبب العجز الجسدي، والواجب في هذه الحالة على الدولة والمجتمع: الرعاية الكاملة لأصحاب الاحتياجات الخاصة، من تأمين ما يعينهم من الراتب، وما يناسبهم من فرص التعلم، والعمل، والاندماج مع المجتمع.

والبطالة مشكلة اقتصادية كبرى، وهي تؤثِّر في الأفراد كما تؤثِّر في المجتمعات. وتعدُّ من أخطر المشاكل التي تهدِّدُ استقرار وتماسك المجتمع، وتختلف أسبابها العامة، فقد ترجع إلى خلل في الاقتصاد، وسوء في التخطيط، وقد ترجع إلى أسباب سياسية أو اجتماعية أو أخلاقية أو نفسية.

---

(١) الصحاح، مادة: (بطل) (١٦٣٥/٤).

(٢) المصدر السابق، مادة: (عطل) (١٧٦٧/٥).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٧٩).

ثانيًا: الأسباب المفضية إلى البطالة:

١ – الفقر وما يقابله من الإسراف والبطر:

إنَّ من الأسباب المفضية إلى البطالة: الفقر، وكذلك ما يقابله من البطر واتباع الهوى، أما الفقر فقد أفرد بالبحث في عقبة: (الفقر المنسي والغنى المطغي)، ودلَّ على الثاني ما تقدم بيانه في (الإسراف في المباحات)، وحديث: **((ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أُكُلَاتٌ يُقِمْنَ صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لِنَفَسِهِ))**(١).

قال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((شرًّا من بطنه))** "قيل: لأنه سبب غالب أمراض البدن. قلت: مع أنه يمنع عن الطاعة، ويفضي إلى البطالة والمعصية، والله أعلم"(٢).

قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

واخش الدسائس من جوع ومن شبع ... فرب مخمصة شر من التخم

٢ – ضعف الهمة في العلم والعمل:

ومن الأسباب المفضية إلى البطالة: ضعف الهمة في العلم والعمل. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا طلع نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، وردفه قمر العزيمة، أشرقت أرض القلب بنور ربها"(٣).

٣ – اتباع خطوات الشيطان:

ومن الأسباب المفضية إلى البطالة: اتباع خطوات الشيطان من الركون إلى الكسل، والانقطاع عن طلب العلم والهداية.

---

(١) تقدم.

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٣٢١).

(٣) المدهش، لابن الجوزي (ص: ٢٢٩)، وانظر: الفوائد، لابن القيم (ص:٥١).

٤ – الاشتغال بالمعاش عن المعاد:

ومن الأسباب المفضية إلى الضلال: الاشتغال بالمعاش عن المعاد، فينبغي في مكافحة البطالة بالتوازن المقسط بين مطالب الدنيا والآخرة.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا ينبغي للتاجر أن يشغله معاشه عن معاده، فيكون عمره ضائعًا، وصفقته خاسرة، وما يفوته من الربح في الآخرة لا يفي به ما ينال في الدنيا، فيكون اشترى الحياة الدنيا بالآخرة، بل العاقل ينبغي أن يشفق على نفسه، وشفقته على نفسه بحفظ رأس ماله، ورأس ماله: دينه وتجارته فيه"(١).

فلا ينبغي الاشتغال بسوق الدنيا عن سوق الآخرة، وأسواق الآخرة: المساجد، قال الله ﷻ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ [النور:٣٧]، وكان السَّلف يَبْتَدِرُونَ عند الأذان، وَيُخْلُونَ الأسواقَ لأهل الذمَّة والصبيان(٢).

٥ — الآفات النفسية:

ومن الآفات التي قد تصيب أهل البطالة، وتكون سببًا للانتكاس: الهموم والغموم والأحزان والآلام النفسانية، واليأس والقنوط إلى غير ذلك.

٦ – ترك العمل خوفا من الرياء:

ومن الأسباب التي تفضي إلى البطالة: ترك العمل؛ خوفا من الرياء: قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من الناس من يترك العمل؛ خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان، وجر إلى البطالة وترك للخير، فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خاطرَ الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله ﷻ إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء

---

(١) إحياء علوم الدين (٨٣/٢).

(٢) المصدر السابق (٨٤/٢).

فاعلم كذبه وخدعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه، وخوفك منه، وحيائك من الله تعالى، وإن لم يبق باعث ديني، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك"[١].

٧ – العشق:

ومن الأسباب المفضية إلى البطالة: العشق، "وما كان العشق إلا لأرعن بطال، وقلَّ أن يكون في مشغول ولو بصناعة أو تجارة، فكيف بعلوم شرعية أو حكمية؟" فإنها صارفة عن ذلك[٢]. وقد تقدم بيان آفات العشق.

ثالثًا: وسائل الوقاية من البطالة وأخطارها والعلاج:

١– الوعي والتبصر بآثار البطالة الهدامة على الفرد والمجتمع:

إنَّ انتشار البطالة في المجتمع من العوامل الأساسية التي تؤدي إلى الانحراف والضياع؛ فإنَّ ترك العمل هو الذي يوجد الفراغ، والفراغ يجعل الإنسان كالريشة في مهبِّ الريح، تتجاذبه الأهواء والشهوات، وتتقاذفه أمواج الشبهات، فيميل عن الحق، ويقع في شراكِ المضلين.

وقد حذَّر العلماء من البطالة وآثارها، وما يفضي إليها. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليهم مجاهدة النفس، والاشتغال بتزكيتها، وتهذيب أخلاقها. فزعم أن الأخلاق لا يتصور تغييرها استثقل ، وزعم أن الطبع لا يتغير"[٣].

ومن آثار البطالة: ضعف الاقتصاد، وانتشار الجهل والتخلف في شتى الميادين، حيث يقل الجادون في العلم والعمل، ويكثر أهل البطالة الذين لا ينتجون، ويستهلكون ويستنزفون الثروات.

(١) المصدر السابق (٣/٣٢٢)، وانظر: موعظة المؤمنين، للقاسمي (ص:٢٤١).

(٢) الآداب الشرعية، لابن مفلح الحنبلي (٣/١٢٦).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/٥٥).

"فادع نفسك إلى ما أعد الله ﷻ لأوليائه، وأهل طاعته من النعيم المقيم، والسعادة الأبدية، والفوز الأكبر، وما أعد لأهل البطالة والإضاعة من الخزي والعقاب والحسرات الدائمة، ثم اختر؛ أي القسمين أليق بك، وكل يعمل على شاكلته، وكل أحد يصبو إلى ما يناسبه، وما هو الأولى به، ولا تستطل هذا العلاج، فشدة الحاجة إليه من الطبيب والعليل دعت إلى بسطه، وبالله التوفيق"(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن بعض من غلبت البطالة عليه استثقل المجاهدة والرياضة والاشتغال بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق، فلم تسمح نفسه بأن يكون ذلك؛ لقصوره ونقصه وخبث دخلته"(٢).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

يا صحاح الأجساد كيف بَطَلْتُمْ ... لا لعذر عن صالح الأعمال؟!
لو علمتم أن البطالة تُجْدِي ... حسرة في معادكم والمآل
لتبادرتم إلى ما يَقِيكُمْ ... من جحيم في بعثكم ونكال(٣)

"يا من سبقوه إلى الخيرات وتخلف، وأذهب عمره في البطالة وتسوف، وعرف المصير فما عرف النجاة ولا تعرف، وكُلِّفَ بالدنيا فإذا طلب الأخرى تكلف، يا من مرضه قد تمكن من جملته وتصرف، اطلب الشفاء يا من على شفا هلكة قد أشرف، وابك على ضلالك في الهوى فالقوم مهتدون: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾﴾ [الواقعة:١٧-١٨]"(٤).

٢ - السعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح:

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/١٨٠).
(٢) إحياء علوم الدين (٣/٥٥).
(٣) التبصرة، لابن الجوزي (ص:١٦٠).
(٤) المصدر السابق (١/٢٤٦- ٢٤٧).

ومن وسائل الوقاية من البطالة وأخطارها: السعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح.

وقد أمر الله ﷻ بطلب الرزق والاكتساب، ونهى عن العجز والتكاسل وتعطيل الأسباب، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ﴾ [الملك:١٥]، أي: هو الذي سخر لكم الأرض وذللها لكم، فجعلها قارّة ساكنة، لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من الجبال، وأوجد فيها من العيون؛ لسقيكم وسقي أنعامكم وزروعكم وثماركم، وسلك فيها السبل، فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا في أرجائها، لأنواع المكاسب والتجارات، وكلوا مما أوجده لكم فيها بفضله من واسع الأرزاق.

وفي الحديث: ((**والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله، فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلا، فيسأله أعطاه أو منعه**))(١).

إنَّ الإسلام لا يعرف المؤمن إلَّا كادحًا عاملًا مؤديًا دوره في الحياة، آخذًا منها، معطيًا لها، مستجيبًا لما أراده الله ﷻ من بني آدم حين جعلهم خلفاء في الأرض. يقول الله ﷻ: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١].. فلم يقل: إنه عَمَّرَ الأرض لكم، ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ خلق هذا الكون، وأودع فيه الثروات والخيرات والإمكانات، وحثَّهم على عمارة الأرض، واكتشافِ ما فيها من الخيرات، بإصلاحها وإحيائها، وإشاعة الحياة والنّماء فيها، وذلك لا يكون إلَّا بالتقدم العلمي، والعمل الدؤوب، والتعاون بأن يقوم كل فرد بما يمكنه من جهد(٢). فلا يجوز أن يعمل البعض، ويظل آخرون كَلًّا عليهم، فيأخذون ولا يعطون، ويستهلكون ولا ينتجون. فهذا ليس من العدل.

---

(١) صحيح البخاري [١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٨٠، ٢٠٧٤، ٢٣٧٤]، مسلم [١٠٤٢].

(٢) (الجهد) –بفتح الجيم وضمها–: الطاقة.

فالمتعطِّل عن الكسب والكدح[1] في الحياة عالة على غيره، ولو اقتدى به المسلمون لفسدت الأرض، وأمسوا عبيدًا لغيرهم من الأقوياء العاملين.

وينبغي أن تكون الريادة لهذه الأمة في مجالات العمل والتقدم العلمي؛ فإن تقليد الآخرين هو عين التقهقر والانحطاط.

"ولقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة، المنتحلين أطوار غيرها يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها، وطلائع لجيوش الغالبين، وأرباب الغزوات، يمهدون لهم السبل، ويفتحون لهم الأبواب، ثم يثبتون أقدامهم.

وتستطيعون أن تروا مصداق هذه الكلمات إذا نظرتم إلى واقعنا المعاصر، إلى المبشرين بالنظريات الغربية الذين يريدون أن يجعلوا من أمتنا مسخًا مشوهًا للفكر الغربي"[2]، أو لفكر الآخرين.

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة**[3] **فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**))[4].

---

(١) (الكَدْح): العمل والسعي والكد والكسب.

(٢) الأعمال الكاملة، لجمال الدين الأفغاني (ص:٥٣٣).

(٣) "الفَسِيل: صغار النخل، وهي: الوَدِيُّ، والجمع: فُسْلَان، مثل: رغيف ورغفان، الواحدة: فَسِيلَة، وهي التي تقطع من الأُمِّ، أو تقلع من الأرض فتغرس. و(رجل فَسْل): رديء. المصباح المنير، مادة: (فسل) (٤٧٣/٢)، وانظر: لسان العرب (٥١٩/١١).

(٤) أخرجه الطيالسي [٢١٨١]، وأحمد [١٢٩٨١]، وعبد بن حميد [١٢١٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤٧٩]، والبزار [٧٤٠٨]، وابن الأعرابي في (معجمه) [١٧٩]، والضياء [٢٧١٢]. قال الهيثمي (٦٣/٤): "رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات، لعله أراد بقيام الساعة: أمارتها ".

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها ﷻ، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-[1].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**))[2].

وفي رواية عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة**))[3]. ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارع الأجر.

ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاءِ بالحقوق تجاه نفسه وتجاه الآخرينَ- وبين العمل للآخرة، كما قال الله ﷻ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧].

ومن هنا نجد أن الإسلام دعا إلى استثمار الوقت فيما يعود بالنفع والفائدة على الفرد والمجتمع، وربط الإنسان بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروحية والمادية، وهو وسط بينهما، بين الدين والدنيا، بين القيم والحاجات، بين الغريزة والعقل.

---

(١) فيض القدير (٣/٣٠). و(الصَّبابة) -بالفتح-: رقة الشوق وحرارته. و(الصُّبَابَةُ) -بالضم-: بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. والمعنى: وإن لم يبق من الدنيا إلا الوقت اليسير.

(٢) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٣) صحيح مسلم [١٥٥٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ولا يرزؤه)) أي: لا ينقصه ويأخذ منه.

والإنسان كما أراده الله ﷻ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرغ للعبادة، ويتعطل فلا يعمل، ويتقشف فلا يتمتع، ويتبتل فلا يتزوج، ويتعبد فلا يفتر..

إن العمل هو روح الحياة يعالج الاكتئاب والأمراض النفسية التي تنشأ عن الفراغ، كما أنه من وسائل الحفاظ على الصحة والنشاط من خلال الحركة.

وفي الحديث: ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**))(١).

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ونحن نستعيذ بالله من أن نُغْبَنَ بفضل نعمته علينا، ونجهل نفع إحسانه إلينا. وقد قيل في منثور الحكم: من الفراغ تكون الصَّبْوَةُ(٢). وقال بعض البلغاء: من أمضى يومه في غير حق قضاه، أو فرض أداه، أو مجد أَثَّلَهُ(٣)، أو حمد حَصَّلَهُ، أو خير أَسَّسَهُ، أو علم اقتبسه، فقد عَقَّ يومه، وظلم نفسه.

وقال بعض الشعراء:

لقد أهاج الفراغ عليك شغلا   وأسباب البلاء من الفراغ(٤)

وقال الطِّيبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ضرب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للمكلف مثلًا بالتاجر الذي له رأس مال، فهو يبتغي الربح مع سلامة رأس المال، فطريقه في ذلك: أن يتحرى فيمن يعامله، ويلزم الصدق، والحِذْقَ(٥)؛ لئلا يغبن، فالصحة والفراغ رأس المال. وينبغي له أن

---

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢].

(٢) أي: الميل إلى الهوى والجهل، وهو من (صبا يصبو صُبُوا وصبوة)، أي: مال.

(٣) المؤثل: الأصيل الشريف. والتأثيل: التأصيل، يقال: مجد مُؤَثَّلٌ وأثيل. و(أثل يَأْثِلُ أُثولًا، وتَأَثَّلَ): تَأَصَّلَ. ومنه: مجد مُؤَثَّلٌ، قال امرؤ القيس:

ولكنما أسعى لمجد مؤثل***وقد يدرك المجد المؤثل أمثالي.

وقيل: المجد المؤثل: هو القديم.

(٤) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٥٥)، وانظر: فيض القدير (٦/٢٨٨).

(٥) يقال: (حَذَقَ) الصبي القرآن والعمل به إذا مهر، وبابه ضرب، و(حِذْقًا) و(حِذَاقًا) بكسر أولهما، و(حَذَاقَةً) أيضًا بالفتح. و(حَذِقَ) بالكسر (حِذْقًا) لغة فيه. مختار الصحاح (ص:٦٩)، والصحاح، للجوهري،=

يعامل الله ﷻ بالإيمانِ، ومجاهدةِ النفس وعَدُوِّ الدين؛ ليربح خيري الدنيا والآخرة. وقريب منه قول الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف:١٠] الآيات[1]. وعليه أن يجتنب: مطاوعة النفس، ومعاملة الشيطان؛ لئلا يضيع رأس ماله مع الربح، وقوله في الحديث: ((**مغبون فيهما كثير من الناس**)) كقوله ﷻ: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، فالكثير في الحديث في مقابلة القليل في الآية"[2].

ومن الناس من يبذل النفيس الذي لا يعوّض، من الشَّباب والصحّة والمال؛ لينال عرضًا زائلًا، وغرضًا تافهًا، ويضيع زهرة شبابه باللهو والعبث، وغيره يبني نفسه، ويصنع مستقبله، ويعمر آخرته..فأين هذا من ذاك؟

و"قد يكون الإنسان صحيحًا ولا يكون متفرّغًا؛ لشغله بالمعاش، وقد يكون مستغنيًا ولا يكون صحيحًا، فإذا اجتمعا فغلب عليه الكسل عن الطَّاعة فهو المغبون، وتمام ذلك أن الدّنيا مزرعة الآخرة، وفيها التّجارة الّتي يظهر ربحها في الآخرة، فمن استعمل فراغه وصحّته في طاعة الله ﷻ فهو المغبوط، ومن استعملها في معصية الله ﷻ فهو المغبون؛ لأنَّ الفراغ يعقبه الشُّغل، والصِّحة يعقبها السَّقم"[3].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما أراد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: ((**الصحة والفراغ: نعمتان**))، تنبيهَ أمته على مقدار عظيم نعمة الله ﷻ على عباده في الصحة والكفاية؛ لأنَّ المرء لا يكون فارغًا حتى يكون مكفيًّا مؤنة العيش في الدنيا، فمن أنعمَ اللهُ ﷻ عليه بهما فليحذر أن يغبنَهُما، ومما يستعان به على دفع الغبن: أن يعلمَ العبدُ أن الله ﷻ

=مادة: (حذق) (١٤٥٦/٤). وقال الخليل: "(الحِذْق) و(الحَذاقةُ): مَهارةٌ في كُلِّ شيءٍ. و(الحِذْقُ) مصدر: حَذَقَ وحَذِقَ معًا في عمله فهو حاذق". العين، مادة: (حذق) (٤٢/٣).

(١) من (١٠) إلى (١٣).

(٢) فتح الباري، للحافظ ابن حجر (٢٣٠/١١)، وانظر نصَّ ما قاله الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرحه على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٣٢٧١/١٠).

(٣) المصدر السابق (١١/ ٢٣٠).

خلق الخلق من غير ضرورة إليهم، وبدأهم بالنِّعم الجليلة من غير استحقاقٍ منهم لها، فمنَّ عليهم بصحةِ الأجسام، وسلامة العقول، وتضمَّن أرزاقهم، وضاعف لهم الحسنات، ولم يضاعف عليهم السيئات، وأمرهم أن يعبدوه، ويعتبروا بما ابتدأهم به من النعم الظاهرة والباطنة، ويشكروه عليها بأحرف يسيرة، وجعل مدَّة طاعتهم في الدنيا منقضية بانقضاء أعمارهم، وجعل جزاءهم على ذلك خلودًا دائمًا فى جناتٍ لا انقضاء لها، مع ما ذخر[1] لمن أطاعه مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فمن أمعن النَّظرَ في هذا كان حريًّا ألَّا يذهبَ عنه وقتٌ من صحته وفراغه إلَّا وينفقه فى طاعة ربِّه ﷻ، ويشكره على عظيم مواهبه، والاعتراف بالتقصير عن بلوغ كنه تأدية ذلك، فمن لم يكن هكذا، وغفل وسها عن التزام ما ذكرنا، ومرت أيامه عنه في سهو ولهو، وعجز عن القيام بما لزمه لربه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فقد غبن أيامه، وسوف يندم حيث لا ينفعه الندم"[2].

ومسؤولية الإنسان عن وقته شاملة لجميع عمره، وهذا الوقت مما يسأل عنه الإنسان يوم القيامة، ففي الحديث: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه**))[3].

وفي الحديث: ((**اغتنم خمسًا قبل خمس: حياتك قبل موتك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وشبابك قبل هرمك، وغناك قبل فقرك**))[4].

---

(١) يقال: (ذَخَرَ) يَذْخَرُ بالفتح فيهما، (ذُخْرًا) بالضم.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٤٦- ١٤٧).

(٣) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٣٢) عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

(٤) الحديث مروي عن ابن عباس، وعن عمرو بن ميمون مرسلًا. حديث ابن عباس: أخرجه الحاكم [٧٨٤٦] وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٦٧] وقال البيهقي: "هكذا وجدته فى كتاب: (قصر الأمل)، وكذلك رواه غيره عن ابن أبي الدنيا، وهو غلط،=

أي: افعل خمسةَ أشياء قبل حصول خمسة أشياء: ((**حياتك قبل موتك**))، يعني: اغتنم من حياتك ما تلقى نفعه بعد موتك؛ فإن من مات انقطع عمله، والحياة الدنيا هي ميدان العمل، فاعمل لنفسك خيرًا ينفعك قبل انقضاء أجلك، وحتى لا تكون من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون:٩٩-١٠٠]، فيَفُوت أمَلُكَ، ويحِق ندمك.

((**وصحتك قبل سقمك**)) أي: اغتنم العمل حال الصحة، فقد يمنع مانع، كمرض فتقدم المعاد بغير زاد. والصحة نعمة من الله تعالى، وهي غنيمة رابحة لمن استعملها في طاعة الله ومرضاته. ((**وفراغك قبل شغلك**)) أي: اغتنم فراغك بما ينفعك قبل انشغالك بما يلهيك.

فينبغي على العبد المؤمن أن يقضي فراغه في طاعة ربِّه ﷻ، وفي سائر أعمال الخير التي تقربه من الله ﷻ، ولا يكون من الذين يقضون أوقاتهم في الشهوات والملذات وسائر الملهيات، فإن هؤلاء قد خسروا وقتهم، وضيعوه فيما لا ينفعهم في دينهم ودنياهم، بل إنهم مع ضياعهم لأوقاتهم الثمينة ارتكبوا آثامًا عظيمة، وسيئات تعود عليهم بالندامة والحسرات.

=وإنما المعروف بهذا الإسناد ما أخبرنا...فذكر حديث: ((نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس..)) الحديث. قال البيهقي: وأما المتن الأول، يعني: حديث: (اغتنم خمسًا) فعبد الله بن المبارك إنما رواه في كتاب عن جعفر بن برقان، عن زياد بن الجراح، عن عمرو بن ميمون الأودي مرسلًا. حديث عمرو بن ميمون المرسل: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٢]، وابن أبي شيبة [٣٤٣١٩]، والنسائي في (الكبرى) [١١٨٣٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١٤٨)، والقضاعي [٧٢٩]. والبيهقي في (الآداب) [٨٠٩]، قال الحافظ في (الفتح) (١١/٢٣٥): "أخرجه ابن المبارك في (الزهد) بسند صحيح من مرسل عمرو بن ميمون". وقال العراقي: "إسناده حسن". وعزاه العجلوني (١/١٦٧) لأحمد في (الزهد) والبيهقي عن عمرو بن ميمون مرسلًا.

قال رسولنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس: الصحة والفراغ**))(١).

((**وشبابك قبل هرمك**)) أي: اغتنم الطاعة حال قدرتك قبل هجوم عجز الكبر عليك، فتندم على ما فرطت في جنب الله ﷻ. فعلى المؤمن أن يُقبل على الله تعالى في شبابه وقوته، فيطيع ربه فيما أمر، ويبتعد عما نهى عنه وزجر، وذلك في سلوكه ومعاملاته، وسائر أحواله، مقتديا بهدي سيد المرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

((**وغناك قبل فقرك**)) قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: اغتنم التصدق بفضول مالك قبل عروض جائحة(٢) تفقرك، فتصير فقيرًا في الدنيا والآخرة(٣)، فهذه الخمسة لا يعرف قدرها إلا بعد زوالها"(٤).

قال حجة الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "الدنيا منزل من منازل السائرين إلى الله ﷻ، والبدن مركب، ومن ذهل عن تدبير المنزل والمركب لم يتم سفره، وما لم ينتظم أمر المعاش في الدنيا لا يتم أمر التبتل والانقطاع إلى الله ﷻ الذي هو السلوك"(٥).

والحاصل أن وسائل الوقاية من البطالة: السعي في طلب الرزق -كما تقدم-، وتعلم حِرْفةٍ، وإتقانُ مهنةٍ يتكسَّبُ منها. يقول الراغب في بيان خطر البطالة: "من تعطَّل وتبطَّل انسلخ من الإنسانية، بل من الحيوانية، وصار من جنس الموتى، وذلك أنه إنما خص الإنسان بالقوى الثلاث؛ ليسعى في فضيلتها، فإن فضيلة القوة الشهوية تطالبه بالمكاسب التي تنميه، وفضيلة القوة الغضبية تطالبه بالمجاهدات التي تحميه، وفضيلة القوة

---

(١) صحيح البخاري [٦٤١٢].

(٢) (الجائحة): المصيبة تحل بالرجل في ماله فتجتاحه كله. و(في اصطلاح الفقهاء): ما أذهب الثمرَ أو بعضَه من آفة سماوية. ويقال: سنة جائحة: جدبة، (ج): جوائح.

(٣) وقد تقدم أنَّ الله تعالى قد جعلَ المالَ من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح، فهو وسيلة وليس غاية.

(٤) انظر: فيض القدير (١٦/٢).

(٥) جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي (ص:٣٢)، وانظر: فيض القدير (١٦/٢)، بريقة محمودية (١٢٢/٢).

الفكرية تطالبه بالعلوم التي تهديه، فحقه أن يتأمل قوته، ويسبر قدر ما يطيقه، فيسعى بحسبه لما يفيده السعادة، ويتحقق أن اضطرابه سبب وصوله من الذل إلى العز، ومن الفقر إلى الغنى، ومن الضعة إلى الرفعة، ومن الخمول إلى النباهة. وأن من تعود الكسل ومال إلى الراحة فَقَدَ الراحة، فحب الهوينا يكسب النَّصَب. وقد قيل: إن أردت ألا تتعب فاتعب لئلَّا تتعب، وقيل: إياك والكسل والضجر، فإنك إن كسلت لم تؤد حقًّا، وإن ضجرت لم تصبر على الحق"[1].

والمسلمُ مسؤولٌ عن علمه في فقه حرفته ومهنته، فكلٌّ من الحَدادِ والنَّجار والفلَّاحِ والتَّاجرِ وغيرهم من أصحاب الحِرف مطالبٌ بتعلُّمِ الأحكام الشرعية المتعلقة بمهنته، من بيعٍ أو شراءٍ أو استصناعٍ أو وكالةٍ أو إجارةٍ أو مُزارعة..الخ؛ ليكون عمُلُه صالحًا، ومالُه حلالًا. والطبيبُ مطالب بإتقان مهنته، ويلزمه كذلك تعلم فقهها وآدابها الشرعية، من بدء الكشف عن المرضى، وصولًا إلى العلاج والدواء، وموقف الشرع من المسائل الطبية كالإجهاض، أو زرع الأعضاء إلى غير ذلك، وكذلك المهندس والمحامي والإعلامي وغيرهم يلزمهم الفقه في المهنة؛ ليكونوا لسان حق وعدل، ويد أمانة على حقوق الوطن والناس. وفي الحديث: ((**من تَطَبَّبَ ولم يعلم منه طِبٌّ فهو ضامن**))[2].

٣ – الاحتراز عن مسببات البطالة:

ومن وسائل الوقاية من البطالة: الاحتراز من الأسباب المفضية إليها، كالبيئة التي لا تشجع على النهوض والارتقاء، والعلاج يكون بالخروج والسفر، واغتنام الأوقات، وصحبة أهل الخير والفضل والعلم والصلاح.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص:٢٦٩-٢٧٠)، وانظر: فيض القدير (١/٢١٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٣٤٦٦]، وأبو داود [٤٥٨٦]، والنسائي [٤٨٣٠]، والدارقطني [٣٤٣٨]، والحاكم [٧٤٨٤]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه: البيهقي في (السنن الكبرى) [١٦٥٣٠].

٤ – المبادرة إلى التحصيل ولا سيما في وقت الشباب:

ومن وسائل الوقاية من البطالة: "أن يبادرَ شبابَه وأوقاتَ عمره إلى التحصيل، ولا يغترَّ بخدع التسويف والتأميل؛ فإن كل ساعة تمضي من عمره لا بدل لها ولا عوض عنها.

ويقطع ما يقدر عليه من العلائق الشاغلة، والعوائق المانعة عن تمام الطلب، وبذل الاجتهاد، وقوة الجدِّ في التحصيل؛ فإنها كقواطع الطريق"[١].

٥ – مجالسة الصالحين وحضور مجالس العلماء.

(١) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص:٨٧).

العقبة الرابعة والأربعون

التسرع في الحكم على الأشياء

أولًا: المعنى المراد من التسرع في الحكم:

السُرْعَة: نقيض البطء. تقول منه: (سَرُعَ) بِالضَّمِّ (سِرَعًا) بِوَزْنِ عِنَبٍ، فهو (سَرِيعٌ)[(١)]. وعجبتُ من (سُرْعَتِه)، ومن (سِرَعِه). وأسرع في السَّيْر، وهو في الأصل مُتَعَدٍّ. و(الْمُسَارَعَة) إلى الشَّيء: المبادرة إليه، و(تَسَرَّعَ) إلى الشَّرِّ، و(سَارَعُوا) إلى كذا وتسارعوا إليه بمعنًى"[(٢)].

وقد يكون التَّسرع بسبب ردَّةِ الفعل، وهي استجابة شعوريَّة أو نفسيَّة أو عاطفيَّة أو جسديَّة لمؤثرٍ خارجيٍّ، يلتقطها الإنسان عبرَ الإدراك الحسي. وقد يكون ردُّ الفعلِ انفعاليًّا سريعًا من غير تَرَوٍّ أو تأمُّلٍ في العاقبة.

والأناة خُلُقٌ يحبه الله ﷻ، ويتصف به العقلاءُ الموفَّقون كما سيأتي.

والمراد من التَّسرع في الحكم هنا: إطلاقُ الحكمِ من غير تأمُّلٍ وتبصُّرٍ وترتيبٍ للأفكار، ومن غير اطِّلاعٍ على الدَّليل والاحتمالات والأقوال الأخرى، أو من غير فِقْهٍ بالحكم، أو فهمٍ للمَقْصِد، ومن غير تَبَصُّرٍ بالعاقبةِ والمآل.

ثانيًا: آفات التسرع في الحكم على الأشياء:

إنَّ من أسبابِ الجنوحِ الفكريِّ: التَّسرعُ في ردودِ الأفعال أو في إطلاقِ الأحكامِ من غير تأمُّلٍ ولا تبصُّرٍ ولا رويَّة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكان السَّلف من الصحابة والتابعين يكرهون: (التسرع في الفتوى)، ويود كل واحد منهم أن يكفيه إياها غيره: فإذا رأى بها قد تعينت عليه بذل اجتهاده في معرفة حكمها من الكتاب والسنة أو قول الخلفاء الراشدين ثم أفتى.

---

(١) تقول: سَرُعَ يَسْرُعُ سَراعةً وسِرْعًا وسَرْعًا وسِرَعًا وسَرَعًا وسُرْعةً، فَهُوَ سَرِعٌ وسَرِيعٌ وسُراعٌ. انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (سرع) (١/٤٨١)، لسان العرب (٨/١٥١).

(٢) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سرع) (٣/١٢٢٨)، مختار الصحاح، (ص:١٤٦).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا سفيان عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراه قال: في المسجد، فما كان منهم مُحَدِّثٌ إلَّا وَدَّ أن أخاه كفاه الحديث، ولا مُفْتٍ إلَّا وَدَّ أن أخاه كفاه الفتيا.

وقال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: أدركت عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما منهم رجل يُسْأَلُ عن شيء إلَّا وَدَّ أن أخاه كفاه، ولا يُحَدِّثُ حديثًا إلا ود أن أخاه كفاه.

وقال سحنون بن سعيد رَحِمَهُ اللَّهُ: أَجْسَرُ الناس على الْفُتْيَا أَقَلُّهُمْ عِلْمًا، يكون عند الرجل الباب الواحد من العلم يَظُنُّ أنَّ الْحَقَّ كُلَّهُ فيه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ معلقًا: "الجرأةُ على الفتيا تكون من قِلَّةِ العلم ومن غزارته وسعته، فإذا قَلَّ علمه أفتى عن كل ما يسأل عنه بغير علم، وإذا اتَّسَعَ علمه اتسعت فتياه؛ ولهذا كان ابن عباس من أوسع الصحابة فتيا. وكان سعيد بن المسيب أيضًا واسع الفتيا، وكانوا يسمونه كما ذكر ابن وهب عن محمد بن سليمان المرادي عن أبي إسحاق قال: كنت أرى الرجل في ذلك الزمان وإنه ليدخل يسأل عن الشيء فيدفعه الناس عن مجلس إلى مجلس حتى يدفع إلى مجلس سعيد بن المسيب كراهية للفتيا، قال: وكانوا يدعونه سعيد بن المسيب الجريء.

وقال سحنون رَحِمَهُ اللَّهُ: إني لأحفظ مسائل منها ما فيه ثمانية أقوال من ثمانية أئمة من العلماء، فكيف ينبغي أن أعجل بالجواب قبل الخبر؟ فلم ألام على حبس الجواب؟"(١).

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/٢٧-٢٨)، وانظر: الفقيه والمتفقه، للخطيب (٢/ ٣٤٩).

قال ابن الصلاح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يجوز للمفتي أن يتساهل في الفتوى، ومن عرف بذلك لم يجز أن يستفتي. وذلك قد يكون بأن لا يثبت ويسرع بالفتوى قبل استيفاء حقِّها من النَّظر والفكر، وربما يحمله على ذلك توهمه أن الإسراع براعة، والإبطاء عجز ومنقصة، وذلك جهل، ولَئِنْ يبطئ ولا يخطئ أكمل به من أن يعجل فيضل ويضل"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الإفتاء عظيم الخطر، كبير الموقع، كثير الفضل؛ لأن المفتِي وَارِث الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وقائم بفرض الكفاية لكنه معرض للخطأ؛ ولهذا قالوا: المفتِي موقِّع عن الله تَعَالَى..إلى أن قال: "يحرم التساهل في الفتوى، ومن عرف به حرم استفتاؤه، فمن التساهل: أن لا يتثبت، ويُسرع بالفتوى قبل اسْتِيفَاء حقِّها من النَّظر والفكر"(٢).

"وكان السلف يهابونها ويشددون فيها، ويتدافعونها. وأنكر أحمد وغيره على من تهجم في الجواب، وقال: لا ينبغي أن يجيب في كل ما يستفتى فيه.

ويحرم التساهل فيها وتقليد معروف به، أي: بالتساهل؛ لأن أمر الفتيا خطر، فينبغي أن يتبع السلف في ذلك، فقد كانوا يهابون الفتيا كثيرًا، وقد قال الإمام أحمد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: إذا هاب الرجل شيئًا لا ينبغي أن يحمل على أن يقوله.

وقال بعض الشافعية: من اكتفى في فتياه بقول أو وجه في المسألة، من غير نظر في ترجيح ولا تقيد به: فقد جهل وخرق الإجماع"(٣).

ويتبين مما تقدم أن التَّسرع في إطلاقِ الأحكامِ يُورِّثُ آفاتٍ لدى المتلقي، وقد يكون سببًا لانصرافه عن الحقِّ، وله كذلك أثرٌ لا يخفى على صاحبه، من حيث إنَّه قد

---

(١) أدب المفتي والمستفتي (ص:١١١).

(٢) المجموع شرح المهذب (١/٤٠-٤٦)، وانظر: صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لابن حمدان الحرَّاني الحنبلي (ص:٣١).

(٣) شرح الكوكب المنير (٤/٥٨٨).

تكلم بغير عِلْمٍ أو بغيرِ الحقِّ فَضَلَّ وأَضَلَّ؛ ولذلك كان السَّلف من الصحابة والتابعين يكرهون: التسرع في الفتوى، وإطلاق الأحكام.

ومما يدخل في هذا الباب: ما تقدَّم بيانه من ذمِّ التَّسرع في الإنكار على النَّاس من غير فهمٍ للواقع، أو مراعاةٍ لأحوالهم، أو فقهٍ للحكم، أو بسبب الحَمْلِ على وجهٍ أو قولٍ مع الجهل أو التغافل عن الأقوال الأخرى في المسألة، فقد يكون من الحكمة الإفتاء بخلاف ذلك القول؛ لكونه أكثر ملائمة للواقع، أو لحال المستَفْتِي.

ومما يدخل في هذا الباب: ما تقدم بيانه من ذمِّ التَّسرع في الحكم من غير فهمٍ للمَقْصِد، ومن غير تَبَصُّرٍ بالعاقبةِ والمآل كما تقدم.

ثالثًا: دوافع التسرع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية:

ويدفع إلى التسرع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية عدة عوامل منها:

١ - الغرور بالنفس والاعتداد بالرأي.

٢ - الكسل الذهني وعدم الرغبة بإجهاد الفكر لمعرفة الحق أو للوصول إلى الحق.

٣ - الانفعال النفسي كالغضب والخوف، وثورة النفس، وطيش الهوى، والطمع بما يحب الإنسان من لذات نفسه، عامل يؤدي إلى طمس البصيرة عنده.

٤ - سوابق الأفكار:

يظلُّ كثيرٌ من النَّاس متخبطًا لا يتضح له الحقُّ مهما عُرِضت عليه الأدلة والبراهين؛ لأنَّ الأدلة غير كافية -في نظره- للإقناع بالحق، ولكن لأن (سوابق أفكار) قد كان لها سلطان على عقولهم، وتأثير فيها، ويرجع تأثير (سوابق الأفكار) إلى عدَّة عوامل:

١ - الإلف: وهو استهواء خاص يجعل المألوف محببًا للنفوس، ومحلًّا للطمأنينة، ويجعله مأنوسًا غير مستغرب لدى العقول حتى يكون كالبدهيات التي لا تناقش، فهي تستمسك به على أنه حق، ولو كان باطلًا في حقيقة أمره.

٢ - الاستكبار.

٣ - ارتباط مصالح ومنافع أو شهوات وأهواء بالتزام (سوابق الأفكار) والإصرار عليها.

إنَّ كثيرًا من المشركين قد صعب عليهم قبول التوحيد؛ لأنهم ألفوا مفاهيم الشرك الباطلة، وبعضهم استعظموا عن أن يتَّهموا هم وآباؤهم بأنهم كانوا في الضَّلال والجهل، وبعضهم ارتبطت طائفة من مصالحهم ومنافعهم أو شهواتهم وأهوائهم بالتزام المفاهيم والعقائد الباطلة(١).

رابعًا: سبل الوقاية من التسرع في الحكم على الأشياء والعلاج:

١- الحرص على التواضع ومعرفة حقيقة النفس.

٢ — إعمال العقل والتأمل والنظر.

٣ — اعتماد منهجية علمية سليمة في البحث والنظر والتفكير والمناظرة.

٤ — حسن الظن والتماس الأعذار للأخرين.

٥ — الإنصاف في الحكم.

٦ - تدريب النَّفس على ضبط الأعصاب حيال المواقف الصعبة، فإنما الحلم بالتَّحلم، والصبر بالتَّصبر، وكلما ارتفع مستوى الانفعال قلَّ التفكير. والسيطرة على الانفعالات -كما تقدم في علاج الغضب-. وترويض المشاعر يحتاج إلى تنمية الذَّات، وتعلم المهارات، والتدريب، ومخالطة ذوي القلوب الدافئة، والألسنة العفيفة، والضَّمائر الحيَّة

٧ - التأنِّي وعدم العجلة:

والأناة خُلُقٌ يحبه الله ﷻ، ويتصف به العقلاءُ الموفَّقون، فلا يقدمون على أمر إلا بعد دراسة وتحقق، ولا يتلفَّظون بكلام إلا بعد تروٍّ ونظر، ويحذرون الرأي الفطير كما

---

(١) انظر: بصائر للمسلم المعاصر (ص:١٣٤).

سيأتيك بيانه في عقبة: (ترك المشورة). قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِلْأَشَجِّ أَشَجِّ عبد القيس: ((**إن فيك خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا الله: الْحِلْم، وَالْأَنَاة**))(١).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالْأَنَاة تَرَبُّصُهُ حتى نَظَرَ في مَصَالِحِهِ ولم يَعْجَلْ، والْحِلم هذا القول الذي قَالَهُ الدَّالُّ على صحَّة عَقْله وجَوْدَة نَظَره للعواقب"(٢).

والعجلة تمنع من التثبت، والنظر في العواقب، وتوجب وضع الشيء في غير محله، وتجلب الشرور(٣).

وفي الحديث: ((**التُّؤَدَةُ في كُلِّ شيء خَيْرٌ إلَّا في عَمَلِ الْآخِرَة**))(٤).

يعني: أن أمور الدنيا يتأنى الإنسان ويتروى فيها، وأما بالنسبة لأمور الآخرة فلا يتأنى فيها، بل يقدم ويسارع؛ لأن في تأخير الخيرات آفات. وهذا يدل على أن أمور الآخرة لا بد فيها من منافسة ومسابقة، ولا بد فيها من الجد والاجتهاد، ولا بد فيها من اغتنام الفرص وعدم التساهل، بخلاف أمور الدنيا فالإنسان يتأنى، وقد يكون في التأني الخير الكثير، بخلاف العجلة، فإنه قد يترتب عليها شيء من الضرر، فأمور الدنيا التأني والتروي فيها لا شك أنه خير للإنسان(٥).

---

(١) صحيح مسلم [١٧].

(٢) إكمال المعلم، للقاضي عياض (١/١٧٦)، شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٨٩).

(٣) انظر: فيض القدير (٣/ ٢٧٧).

(٤) أخرجه أبو داود [٤٨١٠]، وأبو يعلى [٧٩٢]، والحاكم [٢١٣]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن الكبرى) [٢٠٨٠٣]. وزيادة: (خير) عند الحاكم، والبيهقي في (السنن الكبرى) وغيرهما.

(٥) من دوس الشيخ عبد المحسن العباد على سنن أبي داود. وانظر: مرقاة المفاتيح (٨/٣١٦٤).

العقبة الخامسة والأربعون

ترك المشورة

أولًا: تعريف الشورى:

الشُّورى: الأمر الذي يُتَشَاوَرُ فيه. والتَّشَاوُر والْمُشَاوَرَة والْمَشُورَةُ: استخراج الرَّأي بمراجعة البعض إلى البعض، من قولهم: شُرْتُ العَسَلَ، واشْتَرْتُه: اجْتَنَيْتُه وأَخَذْتُه من مَوْضِعِه، واستخرجته منه(١).

يقال: "شَاوَرْتُهُ في كذا وَاسْتَشَرْته: رَاجَعْتُه؛ لَأَرَى رَأْيَه فيه، فأشار عَلَيَّ بكذا: أَرَانِي ما عندَهُ فيه من المصلحة، فكانت إشارةً حَسَنَةً، والاسمُ: الْمَشُورَةُ، وفيها لغتان: سكون الشِّين وفتح الواو، والثَّانية: ضَمُّ الشِّين وسكون الواو، وزان: مَعُونَة.

ويقال هي من: شَارَ الدَّابَّة إذا عَرَضَهَا في الْمِشْوَار. ويقال: من شُرْتُ الْعَسَلَ، شَبَّهَ حُسْنَ النَّصِيحَة بِشُرْب الْعَسَل. وتَشَاوَرَ الْقَوْمُ وَاشْتَوَرُوا. والشُّورَى: اسم منه.

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨]، مِثْلُ قولهم: أَمْرُهُمْ فَوْضَى بينهم، أي: لا يَسْتَأْثِرُ أحدٌ بِشَيْءٍ دون غيره"(٢).

قال المناوي رَحِمَهُ‌اللَّهُ: المشورة: "أن تستخلص حلاوة الرأي، وخالصه من حنايا الصدور"(٣).

ولا يخرج المعنى في الاصطلاح عن المعنى اللغوي، فالشورى عدم الاستئثار بالرأي، وهي ضد الاستبداد بالرأي(٤).

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (شور) (ص:٤٧٠).

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة: (شور) (٣٢٦/١).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٠٦).

(٤) الموسوعة الفقهية الكويتية (١٦٦/٣).

ومشورة أهل العلم وذوي الرَّأي والتجربة واجبة[1] على صاحب الولاية العامة؛ وذلك لظاهر وعموم الأمر في قوله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران:١٥٩][2].

قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المشاورة أصل الدين، وسنة الله ﷻ في العالمين، وهي حق على عامة الخليقة من الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى أقل خلق بعده في درجاتهم، وهي اجتماع على أمر يشير كل واحد برأيه، مأخوذ من الإشارة"[3].

وذكر القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من حكمة مشروعيتها أمور: منها: الأمن من ندم الاستبداد بالرأي الظاهر خطأه، وإحراز الصَّواب غالبًا، وازدياد العقل بها واستحكامه، والفوز بالمدح عند الصَّواب، وقبول العذر عند الخطأ، والتَّجرد بها عن الهوى الساترة حجبه لوجود الصَّواب وإن كان هناك عقل ورشاد..[4].

وقال: "الشُّورى أُلْفَة للجماعة، ومِسْبَارٌ للعقول، وسَبَبٌ إلى الصَّواب، وما تَشَاوَرَ قَوْمٌ إلَّا هُدُوا"[5].

---

(١) اختلف العلماء في مدلول قوله: ﴿وَشَاوِرْهُمْ﴾ هل هو للوجوب أو للندب؟ وهل هو خاص بالرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو عام له ولولاة أمور الأمة كلهم؟ و"للعلماء في حكم الشورى –من حيث هي– رأيان: الأول: الوجوب: وينسب هذا القول للنووي، وابن عطية، وابن خويز منداد، والرازي. الثاني: الندب. وينسب هذا القول لقتادة، وابن إسحاق، والشافعي، والربيع". وينظر الحكم في مظانه. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٦/٢٧٩– ٢٨٠)، التحرير والتنوير (٤/١٤٨–١٤٩). قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف أصحابنا هل كانت المشاورة واجبة على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أم كانت سنة في حقه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في حقنا؟ والصحيح عندهم: وجوبها، وهو المختار. قال الله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾، والمختار الذي عليه جمهور الفقهاء ومحققوا أهل الأصول أن الأمر للوجوب، وفيه أنه ينبغي للمتشاورين أن يقول كل منهم ما عنده ثم صاحب الأمر يفعل ما ظهرت له مصلحة. –والله أعلم–" شرح النووي على صحيح مسلم (٤/٧٦).

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٤٥/١٤٨).

(٣) بدائع السلك في طبائع الملك (ص:٣٠٢).

(٤) انظر: المصدر السابق (ص: ٣٠٣– ٣٠٤).

(٥) أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر ابن العربي (٤/٩١)، وانظر: تفسير القرطبي (١٦/٣٧).

قال ابن خويز منداد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون وفيما أشكل عليهم من أمور الدين ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحروب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح العباد وعمارتها"[(١)].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشورى من قواعد الشريعة، وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه"[(٢)].

فينبغي أن تجتمع في المستشار الصفات التي تؤهله للاستشارة والنصح.

ثانيًا: مشاورة العقلاء من أسباب سداد الرأي:

"لا شكَّ أنَّ مشاورة العقلاء من أسباب سداد الرأي؛ لأنَّ المستشار قد ينبهك إلى أمرٍ قد غفلت عنه"[(٣)].

قال بعض الحكماء: "من حقِّ العاقل أن يضيف إلى رأيه آراء العلماء، ويجمع إلى عقله عقول الحكماء؛ فالرَّأي الفذُّ ربما زلَّ، والعقل الفرد ربما ضلَّ"[(٤)].

وقد قيل:

الرأي كالليل مسود جوانبه ... والليل لا ينجلي إلا بإصباح
فاضمم مصابيح آراء الرجال إلى ... رأيك تزدد ضوء مصباح[(٥)]

---

(١) مواهب الجليل في شرح مختصر خليل (٣/٣٩٥).

(٢) المحرر الوجيز (١/٥٣٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٤/٢٤٩)، البحر المحيط في التفسير (٣/٤٠٩).

(٣) درر السلوك في سياسة الملوك (ص:٧٤)، الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:١٥٠).

(٤) انظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٣٠٠).

(٥) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي (١/٦٠)، نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري (٦/٧٢).

قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: "كان يقال: اجتماع آراء الجماعة وعُقُولِهَا مَبْرَمَةٌ الأمور"(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ(٢).

وقال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي ولا يفقد معهما حزم"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن كان عنده من يثق بعلمه ودينه فينبغي له أن يشاوره، ولا يستقل بالجواب، ذهابًا بنفسه وارتفاعًا بها أن يستعين على الفتاوى بغيره من أهل العلم، وهذا من الجهل"(٤). فعندما يستشير الإنسان غيره فهو يمحِّصُ رأيه، وقد يبصرُ خطأَ نفسه، ويهتدي للصواب؛ ولذلك قيل: ما خاب من استشار. وفي الحديث: ((**المستشار مؤتمن**))(٥).

ولكن ينبغي أن يكون المستشار تقيًّا، عاقلًا -كما تقدم-، ناصحًا، ودودًا، صاحب تجربة، وأن يكون حال طلب الاستشارة سليمَ الفكر من آفةٍ جسديَّة أو نفسيَّة.

قال شيخنا إسماعيل المجذوب حفظه الله: "الشورى من أعظم الأبواب في تحصيل الخير، وفي السلامة من الشر.

---

(١) العقل وفضله، لابن أبي الدنيا (ص:٤٦).

(٢) قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إسناده صحيح". سير أعلام النبلاء (٣/٣٤٤).

(٣) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٣٠٠).

(٤) إعلام الموقعين (٤/١٩٧).

(٥) أخرجه ابن ماجه [٣٧٤٥]، وأبو داود [٥١٢٨]، والترمذي [٢٨٢٢]، وقال: "حسن". كما أخرجه: البزار البزار [٨٦٥٤]، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٢٠٣٢٢] عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وللحديث أطراف أخرى كثيرة.

وأعظم ما تكون أهميتها في القضايا التي تتعلق بالشؤون العامة؛ لأنَّ الضرر والشر الذي يحصل بإهمال الشورى يكون فوق التصورات، وأكبر من التقديرات"اهـ.

ثالثًا: آفات إغفال المشاورة:

ومن آثار إغفال المشاورة: الاستبداد بالرأي، وكثرة الزلل والخطأ.

والتشاور يظهر الصواب، ويحصل به التراضي.

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن من الحزم لكل ذي لب أن لا يبرم أمرًا ولا يمضي عزمًا إلَّا بمشورة ذي الرأي الناصح، ومطالعة ذي العقل الراجح؛ فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أمر بالمشورة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ مع ما تكفل به من إرشاده، ووعد به من تأييده، فقال ﷻ: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ﴾ [آل عمران:١٥٩]"(١).

وقد قيل: الأحمق من قطعه العجب عن الاستشارة، والاستبداد عن الاستخارة.

وسئل بعض الحكماء: أي الأمور أشد تأييدًا للعقل، وأيها أشد إضرارًا به؟ فقال: أشدها تأييدًا له ثلاثة أشياء: مشاورة العلماء، وتجربة الأمور، وحسن التثبت، وأشدها إضرارًا به ثلاثة أشياء: الاستبداد، والتهاون، والعجلة.

وقال بعض الحكماء: إذا استبد الرجل برأيه عميت عليه المراشد. وقالوا: من استغنى برأيه فقد خاطر بنفسه. وقال بعض البلغاء: إذا أشكلت عليك الأمور، وتغير لك الجمهور، فارجع إلى رأي العقلاء، وافزع إلى استشارة العلماء، ولا تأنف من الاسترشاد، ولا تستنكف من الاستمداد، فلأن تسأل وتسلم خيرٌ من أن تستبد وتندم. وقال حكيم لابنه: يا بني، إن رأيك إذا احتجت إليه ووجدته نائمًا ووجدت هواك يقظان، فإياك أن تستبد برأيك، فإنه حينئذ هواك.

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٣٠٠).

ويقال: تعوذ من سكرات الاستبداد بصحوات الاستشارة، ومن عثرات البغي باستقالة الاستخارة(١).

وكان عبد الله بن وهب الراسبي يقول: إياكم والرَّأي الفطير(٢). وكان يستعيذ بالله من الرَّأي الدَّبَرِيِّ(٣).

وأوصى إبراهيم بن هبيرة ولده فقال: لا تكن أوَّل مشير، وإيَّاك والهوى والرَّأي الفطيرَ، وتجنب ارتجال الكلام، ولا تشيرنَّ على مستبدٍ؛ فإن التماس موافقته لؤم، والاستماع منه خيانةٌ. وكان عامر بن الظرب حكيم العرب يقول: دعوا الرَّأي يغب حتى يختمر، وإياكم والرأي الفطير، يريد الأناة في الرأي والتثبت فيه(٤).

رابعًا: أدلة الشورى في القرآن الكريم:

وإنَّ الباحث عن أدلة الشورى في القرآن الكريم يجد أنه قد نصَّ عليها في موضعين، وأشار إليها في مواضع أخرى.

١ - المواضع التي نص عليها القرآن الكريم:

أ. قوله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ب. قوله ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى:٣٨].

ومما يدلل على أهمية هذا المبدأ العظيم أنَّ سورة في القرآن سميت بهذا الاسم.

---

(١) انظر: نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري من (٦/٦٤) إلى (٦/٧٦).

(٢) الرأي الفطير: الرَّأي المعجل به قبل الإعمال والتبصر. يقال: فعلته بادئ الرَّأي، يعني: قبل إمعان النَّظر، وهو الرأي الفطير. يعني: الذي لم ينضج. وفطَرَ العَجِين يَفْطِره ويَفْطُره، فهو فَطِير: إذَا اخْتبَزَه من سَاعَتِه ولم يُخَمِّرْه، فَطْرَى، مقصورة.

(٣) يقال: شَرُّ الرَّأْي (الدَّبَرِيُّ) بوزن الطَّبَرِيِّ، وهو الذي يَسْنَحُ أخِيرًا عند فَوْت الحَاجَة. يقال: فُلَانٌ لا يُصَلِّي الصَّلَاة إلَّا دَبَرِيًّا بفتحتين، أي: في آخر وقتها. والمُحَدِّثُون يقولون: دُبْرِيًّا بوزن: قُمْرِيٍّ. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (دبر) (٢/٦٥٣)، مختار الصحاح (ص:١٠١).

(٤) انظر: العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي من (١/٥٨) إلى (١/٦٢).

٢ – المواضع التي أشار فيها القرآن الكريم إلى المشورة:

أ. قوله ﷻ: ﴿وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَارُونَ أَخِي ۝٣٠ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ۝٣١ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ۝٣٢﴾ [طه:٢٩- ٣١].

ب. قوله ﷻ: ﴿قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ﴾ [النمل:٣٢].

ج. قوله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ويرى الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذه الآية من أقوى الأدلة على وجوب الشورى، وأنها تشير إلى وجوب إيجاد جماعة متحدين وأقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يقول الشيخ محمد عبده رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعروف أن الحكومة الإسلامية مبنية على أصل الشورى، وهذا صحيح، والآية أدل دليل عليه، ودلالتها أقوى من قوله ﷻ: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾؛ لأن هذا وصف خبري لحال طائفة مخصوصة أكثر ما يدل عليه أن هذا الشيء ممدوح في نفسه محمود عند الله ﷻ، وأقوى من دلالة قوله ﷻ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾؛ فإن أمر الرئيس بالمشاورة يقتضي وجوبه عليه، ولكن إذا لم يكن هناك ضامن يضمن امتثاله للأمر فماذا يكون إذا هو تركه؟ وأما هذه الآية فإنها تفرض أن يكون في الناس جماعة متحدون أقوياء يتولون الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو عام في الحكام والمحكومين، ولا معروف أعرف من العدل ولا منكر أنكر من الظلم"(١).

(١) تفسير المنار (٣٧/٤).

ومن السنة النبوية القولية والفعلية أدلة كثيرة تنظر في مظانها[1].

خامسًا: الوقاية من آفات ترك المشورة والعلاج:

١ — إدراك أهيمة الشورى وفوائدها وآثارها في القضايا الخاصَّة والعامَّة.

(١) اشتملت السنة على صور رائعة لمشاورة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه إن المتأمل لسيرته وحياته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يجده كثير التشاور معهم، بل وحتى مع صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن ثم كان أصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ يبادرونه بالرأي والمشورة، ولكن في الأمور التي لم يرد فيها نص شرعي، أما ما ورد فيه نص، فليس أمام المسلم سوى القبول والتسليم، وإن خالف عقله وهواه، ومشاهد الشورى في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته المطهرة كثيرة. فمن ذلك: مشاورة الرسول لأصحابه في غزوة بدر الكبرى، ومشاورته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ في أسرى بدْر، ومشاورته صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابِهِ في الخُروج لغزوة أحد، وفي غزوة الخندق استشار النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه فيما يصنع، أيمكث بالمدينة أم يخرج للقاء هذا الجيش الجرار؟ فأشار عليه سلمان الفارسي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بعمل الخندق، وهو عمل لم تكن العرب تعرفه.. إلى غير ذلك. وقد كانت الشورى منهج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وقد عقد الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب (الاعتصام) في جامعه الصحيح بابًا للشورى، وجعل للباب ترجمة طويلة في فقه أحاديث الشورى، ومن ذلك قوله ﷺ: "وشاور النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لَأْمَتَهُ وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم"، وقال: "لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله". وشاور عَلِيًّا وأسامة فيما رمى به أهلُ الإفك عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا فسمع منهما حتى نزل القرآن، فجلد الرَّامِينَ، ولم يلتفت إلى تنازعهم، ولكن حكم بما أمره الله. وكانت الأئمة بعد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستشيرون الأُمَنَاءَ من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره، اقتداء بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ورأى أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قتال من منع الزكاة، فقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوا: لا إله إلا الله عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله))، فقال أبو بكر: والله لَأُقَاتِلَنَّ من فَرَّقَ بين ما جمع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ثم تابعه بعد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الذين فَرَّقُوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه. وقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من بدل دينه فاقتلوه)). وكان القُرَّاءُ أصحاب مَشُورَةِ عُمَرَ كُهُولًا كانوا أو شُبَّانًا، وكان وَقَّافًا عند كتاب الله ﷻ" صحيح البخاري (١١٢/٦).

٢ – إدراك عاقبة إغفال هذا المبدأ.

٣ – التشجيع على العمل بالشورى من خلال مطالعة كتب السيرة والتاريخ الإسلامي.

العقبة السادسة والأربعون

الطائفية والحزبية

أولًا: المعنى المراد من الطَّائفية والحزبيَّة من حيث كونهما عقبة:

إنَّ المراد الطَّائفية والحزبيَّة هنا من حيث كونهما عقبةً طريق الهداية: التعصب للحزب والجماعة بغير الحقِّ، وليس المراد منع إنشاء جماعاتٍ دعوية، أو أحزاب سياسية.

ثانيًا: بيان خطر الطائفية وآفات العصبية الحزبية:

إنَّ استجابة الإنسان أو عدم استجابته تتوقف على وصول الدعوة إليه غير مختلة، أو خاضعة لفكر جماعة، أو منهجِ فئةٍ لا تمثِّلُ الإسلامَ من حيث عموم معناه، وإنما تطرح وجهة نظرها التي قد تقنع الآخرين، وقد لا تقنعهم.

ومن أراد الوصول إلى الحق ينبغي أن يتحرر من القيود والأهواء، وأن يتجرد للحق، فلا ينتصر لحزب أو قبيلة أو فئة؛ لمجرد الانتماء كما هو دأب الجاهلية على حدِّ قول دريد بن الصمَّة:

وما أنا إلَّا من غَزِيَّةَ إنْ غوَتْ غويْتُ وإنْ تَرشُدْ غزَّيَةُ أرشُدِ[(١)]

يقول الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيجب على طالب العلم أن يتخلى عن الطائفية والحزبية بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة، أو على حزب معين؛ فهذا لا شك خلاف منهج السلف، فالسلف الصالح ليسوا أحزابًا، بل هم حزب واحد، ينضوون تحت قول الله ﷻ: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج:٧٨]. فلا موالاة، ولا معاداة إلَّا على حسب ما جاء في الكتاب والسنة، فمن الناس مثلًا من يتحزب إلى طائفة معينة، يقرر منهجها، ويستدل عليه بالأدلة التي قد تكون دليلًا عليه، ويحامي دونها، ويضلل من سواه –حتى وإن كانوا أقرب إلى الحق منه–، ويأخذ بمبدأ: من

(١) انظر: العقد الفريد (٦/٣٣)، جمهرة الأمثال (١/١٩٥)، ديوان المعاني (١/١٢٢)، زهر الآداب (١/٢٩٧)، شرح ديوان الحماسة (ص:٣٣٧)، محاضرات الأدباء (٢/١٠)، التذكرة الحمدونية (٩/١٩٩)، الحماسة المغربية (٢/٨٢٤)، تحرير التحبير (ص:١٦٧)، لباب الآداب (ص:١٤٠)، زهر الأكم (٢/٢٤٧)، الأصمعيات (ص:١٠٧).

ليس معي فهو عليّ، وهذا مبدأ خبيث؛ لأن هناك وسطًا بين أن يكون لك أو عليك، وإذا كان عليك بالحق، فليكن عليك وهو في الحقيقة معك؛ لأن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**))(١).

ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، فلا [عصبية] حزبية في الإسلام؛ ولهذا لما ظهرت الأحزاب في المسلمين، وتنوعت الطرق، وتفرقت الأمة، وصار بعضهم يُضَلِّل بعضًا، ويأكل لحم أخيه ميتًا، لحقهم الفشل كما قال الله جَلَّ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]. لذلك نجد بعض طلاب العلم يكون عند شيخ من المشايخ، ينتصر لهذا الشيخ بالحق والباطل ويعادي من سواه، ويضلله ويبدعه، ويرى أن شيخه هو العالم المصلح، ومن سواه إما جاهل أو مفسد، وهذا غلط كبير، بل يجب أخذ قول من وافق قوله الكتاب والسنة وقول أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٢).

ويدخل في هذا الباب: (**التعصب إلى القوميات**)، وقد حذَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه، وبين أنه من أسباب التفرق والاختلاف فقال: ((**ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية**))(٣).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، قال: كنا في غَزَاةٍ -قال سفيان: مَرَّةً فِي جَيْشٍ- فَكَسَعَ رَجُلٌ من المهاجرين رجلًا من الأنصار، فقال الأنصاري: يا لَلأَنْصَار، وقال المهاجري: يا لَلْمُهَاجرين، فسمع ذلك رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ((**ما بال دعوى**

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢].

(٢) كتاب العلم، محمد بن صالح العثيمين (ص:٦٠-٦١)، بتصرف. وللاستزادة ينظر: حلية طالب العلم، (ص:٢٠٢-٢٠٥).

(٣) صحيح البخاري [١٢٩٤، ١٢٩٧، ١٢٩٨]، صحيح مسلم [١٠٣]. و((ضرب الخدود)) يعني: جزعًا من المصيبة كفعل الجاهلية؛ لأنَّ المشروع الصبر، و((شَقَّ الجيوب)) أي: جيوب الثياب؛ جزعًا من المصيبة.

الجاهلية؟!))، قالوا: يا رسول الله، كَسَعَ رَجُلٌ من المهاجرين رَجُلًا من الأنصار، فقال: ((**دعوها فإنها مُنْتِنَةٌ**))(١).

ودعوى الجاهلية: الاستغاثة بالقبيلة أو الطائفة عند إرادة الحرب كانوا يقولون: يا آل فلان، فيجتمعون فينصرون القائل -ولو كان ظالما-، فجاء الإسلام بالنهي عن ذلك.

ومن دعوى الجاهلية: أن يتلفَّظ بألفاظ الجاهلية، كأن ينادي ويقول: واعضداه، وانصيراه، واكذا وكذا. وكذا إثارة العصبيات والقوميات والحزبيات، وما إلى ذلك. كل ذلك من دعوى الجاهلية. وكذا التعصب للأقوال والمذاهب التي لا دليل عليها.

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الدعاء بدعوى الجاهلية، والتعزي بعزائهم، كالدعاء إلى القبائل والعصبية لها وللأنساب، ومثله التعصب للمذاهب، والطرائق، والمشايخ، وتفضيل بعضها على بعض بالهوى والعصبية، وكونه منتسبًا إليه، فيدعو إلى ذلك ويوالي عليه، ويعادي عليه، ويزن الناس به، كل هذا من دعوى الجاهلية"(٢).

فالعصبية الجاهلية والنخوة الجاهلية كلُّه يدخل في (دعوى الجاهلية)، فلا يجوز للمسلم أن يتعصَّب لأحد العلماء، أو لأحد المذاهب، ولا يقبل غير هذا المذهب، أو لا يقبل غير هذا الرجل من العلماء، فهذه عصبية جاهلية. أو يتعصَّب لقبيلته إذا كانت على خطأ.

---

(١) صحيح البخاري [٤٩٠٥]، مسلم [٢٥٨٤]. (ثاب) اجتمع. (لعاب) يلعب بالحراب كما تصنع الحبشة، وقيل: مزاح. (فكسع) الكسع هو أن يضرب بيده على شيء أو برجله ويكون أيضًا إذا رماه بسوء. (تداعوا): استغاثوا ونادى بعضهم بعضًا. ((ما بال دعوى الجاهلية)) ما حالها بينكم؟ وهي التناصر والتداعي بالآباء، أي: لا تداعوا بها، بل تداعوا بالإسلام الذي يؤلف بينكم. ((منتنة)) أي: قبيحة كريهة مؤذية، أو ((خبيثة)) قبيحة منكرة وكريهة مؤذية تثير الغضب والتقاتل على الباطل.

(٢) زاد المعاد في هدي خير العباد (٢/٤٣١).

والواجب على المسلم: أن يتبع الحق سواء كان مع إمامه أو مع غيره، وسواء كان مع قبيلته أو مع غيرها، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء:١٣٥]"(١).

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا﴾ [المائدة:٨]، أي: لا يحملكم بغض قوم على ألا تعدلوا في حقهم، ولو كانوا أعداءكم، فالعدل مطلوب مع الأصدقاء ومع الأعداء، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا﴾ [النساء:١٣٥]، وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢].

فالواجب على المسلم أن يتحرر من التعصب لقومه أو التحزب الذي يعقد فيه الولاء والبراء على طائفة معينة أو على حزب معين ، فهذا من شأن أهل الجاهلية فإنهم يتعصبون لقومهم، ولو كان قومهم ظالمين، فيصدهم ذلك عن الحق، ويصرفهم عن التبصر، ويفرقهم إلى أحزاب، فأمرنا الله ﷻ بمخالفتهم.

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ [الأنعام:١٥٩]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم:٣٢]. فقوله ﷻ: ﴿فَرَّقُوا دِينَهُمْ﴾، أي: اختلفوا فيه، مع وحدته في نفسه، فجعلوه أهواء متفرقة وكانوا شِيَعًا، أي: فرقًا تشيع كل فرقة إمامًا لها بحسب غلبة تلك الأهواء، فلم يتعبدوا إلا بعادات وبدع، ولم ينقادوا إلا لأهواء وخدع.

﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون:٥٣]، أي: كل حزب منهم فرح بمذهبه، مسرور يحسب باطله حقًّا. وكانت النتيجة أن صار بأس هذه الأمة بينها شديدًا،

---

(١) بتصرف عن (إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد)، صالح الفوزان (٢/٨٤)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٦/٥٤٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٦/٨٧)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٣٧).

فسفكت دماءها بأيديها، ومزقت دنياها بتمزيق دينها، وكان من أمرها بعد ذلك ما نرى سوء عاقبته في كل شعب وكل قطر.

قال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذه الآية تعم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدال والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد"[1].

وإن من أهم أسباب التفرق والاختلاف: الابتداع في الدين، والتعصب للأهواء المتباينة، وقد تقدم بيان ذلك في عقبة: (البدعة).

والحاصل أن من آثار العصبية الحزبية، والابتداع في الدِّين: التَّفرق والاختلاف، ومن مآلاته الفشل والتنازع والتخلف كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦]، والمعنى المراد من هذه العقبة، ومن قولنا: (**لا حزبية**): التَّعصب للحزب والجماعة بغيرِ الحقِّ، وليس المراد منع إنشاء جماعاتٍ دعوية، أو أحزابٍ سياسيَّة -كما تقدم-.

وقد ذكر الدكتور سلمان العودة إيجابيات وسلبيات (الجماعات الإسلامية) في محاضرة مطولة بعنوان: (الإسلام والحزبية)[2]، فمن الإيجابيات التي ذكرها:

١- حفظ الإسلام في بعض البلاد، والمشاركة في حفظه؛ فإن كثيرًا من البلاد -خاصَّة البلاد البعيدة والنَّائية- لا تكاد تجد مسلمًا عالما لديه بعض العلم إلا ولبعض هذه التجمعات -وهي في كثير من الأحيان تجمعات مأذون بها من قبل الحكومات أو معروفة- أثر عليه أو فضل عليه، أو تأثير، على الأقل في دعوته وهدايته إلى الله ﷻ فحفظ الله تعالى بهم الإسلام في بعض البلاد، خاصة في بعض البلاد النائية، والبعيدة التي ربما قصر فيها كثير من العلماء والدعاة إلى الله ﷻ.

(١) المحرر الوجيز (٢/ ٣٦٤)، وانظر: الاعتصام (ص:٧٩-٨٠).

(٢) الدرس السابع والخمسون من سلسلة الدروس العلمية العامة، الاثنين الخامس والعشرين من شهر شوال من سنة [١٤١٢هـ].

٢ – إشهار أمر الإسلام، وإعلانه في كثير من المجتمعات، وقيام أنشطة مختلفة، علمية، وإعلامية، ودعوية، بجهود كثير من هؤلاء الدعاة المنتسبين إلى بعض هذه الجمعيات، فضلًا عن الجهود الاجتماعية، ومقاومة الأعداء، والرد على الخصوم، وتفنيد باطلهم، ومقاومة العلمانية، إلى غير ذلك.

٣ – حفظ المغتربين في البلاد غير الإسلامية؛ فإن كثيرًا من المراكز والتجمعات الإسلامية، حفظ الله ﷻ بها شباب الإسلام الذين ذهبوا إلى هناك من فتن الشبهات، والشهوات، فصاروا من رواد المساجد، ومن الفضلاء، ومن الأخيار، ورجعوا إلى بلادهم دعاة إلى الله ﷻ.

٤ – ربط السياسة بالدين في أذهان الناس، وذلك لمواجهة النعرة العلمانية التي طال الضرب على وترها، وصار كثير من الناس يجهلون أن السياسة جزء من الدين، وأن الدين جاء ليحكم حياة الناس في كل أمورهم، وفي كل مجالات حياتهم.

ومن السلبيات التي يقع فيها البعض، وينبغي الاحتراز عنها:

١ – الانغلاق عن الأمة، والاقتصار على الخاصَّة ممن حوله، وعدم معايشة الآخرين بشكل طبيعي، وبدون حساسيات، بل يشعر بوجود نوع من الحواجز في كثير من الأحيان بينه وبين الآخرين في التعامل، وفي المناقشة، وفي ما سوى ذلك.

٢ – نشوء بعض المخاوف، والأوهام، بسبب طبيعة التربية التي يتلقاها الفرد، فطبيعة التربية الخاصة التي ينشأ فيها قد توجد عنده نوعًا من الخوف والإحجام، وعدم الإقدام، بحجة مراعاة المصلحة، أو الخوف على الدعوة، أو ما سوى ذلك.

٣ – التناصر بغير الحق، والذب عن الآخرين بالباطل، وهذا من أبرز وأهم القضايا التي ينبغي مقاومتها، ومجاهدتها، والعمل على دفعها، وإزالتها بقدر المستطاع.

٤ – التقليد في كثير من الأحيان في المسائل العلمية، وفي المسائل العملية، فيتربى الفرد على التلقي عن الآخرين، وتضعف لديه الاستقلالية التي تجعله يبحث بنفسه عن المسألة، وعن أدلتها وعن النتيجة التي يمكن أن يتوصل إليها، إضافة إلى أن كثيرًا من

النفوس لا تألف تلك الأجواء المقننة بالرسوم، والالتزامات، وتحب الانطلاق إلى أفق أوسع وأرحب وأبعد اهـ.

وقال الشيخ محمد بن بشير الإبراهيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأوصيكم بالابتعاد عن هذه الحزبيات التي نجم بالشر ناجمها، وهجم -ليفتك بالخير والعلم- هاجمها، وسجم على الوطن بالملح الأجاج ساجمها؛ إن هذه الأحزاب، كالميزاب، جمع الماء كدرًا، وفرّقه هدرًا، فلا الزلال جمع، ولا الأرض نفع"(١).

ثالثًا: الوقاية من آفات الطائفية والحزبية والعلاج:

١ – التَّحرر من القيود والأهواء.

٢ – تأمُّل آفاتِ التَّعصب والتَّقليد الأعمى، والاحتراز عن ظاهرة تقديس الأشخاص والغلو فيهم.

٣ – نشرُ ثقافة المحبَّة والتَّعاون.

٤ – الحذرُ من أسباب التَّفرق والاختلاف.

٥ – البحث والتتبع في سبيل الوصول إلى الحقِّ واتِّباعه.

٦ – أن تكون الغاية من البحث والنظر: نصرةُ الحقِّ والنُّهوض بالمجتمع.

٧ – الإنصافُ في الحكم.

٨ – التَّبصر والتَّبين والنَّظر إلى المآلات:

فإنَّ الاتباع من غير تبصُّرٍ قد يكون من أسباب الضَّلال، كما أن المتَّبع يسقط بسقوط المتَّبَع إذا كان على باطلٍ، فيُزهِقُ اللهُ الْبَاطِلَ، ويُثْبِتُ الحقَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ﴾ [الرعد:١٧]، وقال ﷻ: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [الأنبياء:١٨].

---

(١) آثار محمد البشير الإبراهيمي (٣/٢٦٥).

العقبة السابعة والأربعون

التعلل بالابتلاءات

أولًا: تعريف الابتلاء:

الابتلاء: افْتِعَالٌ من البلاء. يقال: "ابْتَلَيْتُهُ فَأَبْلاني، أي: اسْتَخْبَرْتُهُ فَأَخْبَرَنِي. وابْتَلَيْتُه: اخْتَبَرْته. وبَلَوْتُ الرَّجُلَ فأبْلاني: اسْتَخْبَرْتُه فأَخْبَرَنِي، وامْتَحَنْتُه، واخْتَبَرْتُهُ، كَبَلَوْتُه بَلْوًا وبَلاءً، والاسمُ: البَلْوَى والبَلِيَّةُ والبِلْوَةُ، بالكسر. والبَلاءُ: الغَمُّ، كَأَنَّهُ يُبْلي الجِسْمَ.

والتَّكْليفُ بلاءٌ؛ لأنه شاقٌّ على البَدَن، أو لأنه اختبارٌ. والبلاء يكون مِنْحَة، ويكونُ مِحْنَة[1].

ومن الألفاظ ذات الصلة: التمحيص، والفتنة.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتَمْحيص: الابتلاء والاختِبار"[2]. وقال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جِمَاعُ معنى الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان. وأصلها مأخوذٌ من قولك: فَتَنْتُ الفِضَّة والذَّهَب إذا أذبتهما بالنَّار؛ ليتميز الرَّدِيء من الجَيِّد"[3].

والابتلاء في الاصطلاح: الاختبار بالخير والشر؛ للتمييز والجزاء، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء:٣٥].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسمي التكليف: بلاء من أوجه:

أحدها: أن التكاليف كلها مشاق على الأبدان، فصارت من هذا الوجه بلاء[4].

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (بلو) (٤٣١/١٠)، مقاييس اللغة (٢٩٢/١)، القاموس المحيط (ص:١٢٦٤).

(٢) الصحاح، مادة: (محص) (٣/ ١٠٥٦).

(٣) تهذيب اللغة، للأزهري (٢١١/١٤).

(٤) تقدم أن الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفُوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصِّلة والمقصد فإنَّه يتلذَّذ بالطَّاعة. والتكليف من أهم مستلزمات العبودية لله ﷻ؛ إذ لا معنى للعبودية لله ﷻ إن لم يكن ثمة تكليف. وقد استلزم التكليف تحمل المشاق ومجاهدة النفس والأهواء. ولو ترك الناس لدعوى الإسلام ومحبة الله تعالى على ألسنتهم فقط، لاستوى الصادق والكاذب. ولكن الفتنة والابتلاء، هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب.

والثاني: أنَّها اختبارات؛ ولهذا قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

والثالث: أنَّ اختبار الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ للعباد تارة بالمسار؛ ليشكروا، وتارة بالمضار؛ ليصبروا، فصارت المحنة والمنحة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر"[(١)].

وإذا قيل: ابتلى فلان بكذا فإنه يتضمن أمرين:

أحدهما: تعرف حاله والوقوف على ما يجهل من أمره.

والثاني: ظهور جودته ورداءته. وابتلاء الله ﷻ العباد ليس ليعلم أحوالهم، والوقوف على ما يجهل منها؛ لأنه عالم بجميع المعلومات التي لا نهاية لها على سبيل التفصيل من الأزل إلى الأبد، ولكن ليعلم العباد أحوالهم من ظهور جودة ورداءة[(٢)]. ولقطع أعذار الخلق كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥]، وهو من تمام العدل في الجزاء.

وفي (البصائر): "ورد البلاء في القرآن على ثلاثة أَوجه:

الأَوّل: بمعنى النعمة: ﴿وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا﴾ [الأنفال:١٧]، أي: وليُنْعِم.

الثاني: بمعنى: الاختبار والامتحان: ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الأحزاب:١١]، ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٧].

الثالث: بمعنى المكروه: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:٤٩]، أي: مِحْنة.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (بلي) (ص:١٤٥).

(٢) المصدر السابق (ص:١٤٦).

والمادَّة موضوعة لضدِّ الجِدَّة: بَلِيَ الثوب بِلًى وبَلَاءً: خَلُق. وقولهم: بلوته: اختبرته، كأني أخلقْتُهُ من كثرة اختباري"[1].

ويرتبط مفهوم الابتلاء بمفهوم الفتنة كما تقدم؛ لأنها تدل على الابتلاء والاختبار. يقال: فتنت الذَّهب بالنَّار إذا امتحنته بها[2]. وقال الخليل: "والفَتْن: إحراق الشيء بالنَّارِ، كالوَرَق الفتين، أي: المحترق"[3].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفتنة: ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر، يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أحرقته بها؛ لتعلم أنه خالص أو مشوب"[4].

وقد تقدم في عقبة (اشتباه الحقيقة) أن الفتنة نوعان: فتنة الشبهات، وفتنة الشهوات.

ثانيًا: آفة التعلل بالابتلاءات:

إنَّ من أوهن ما يتعلل به أهل الغواية في سلوك طريق الضَّلال: (**ما يقع على المرء من الابتلاءات، وتبدل الأحوال**)، وهو أمر يشترك فيه -أعني: التعرض للبلاء والمحن- جميع الناس في الدنيا؛ لأنها محلُّ ابتلاء. والله ﷻ يبتلي العباد في الدنيا؛ ليميز الخبيث من الطيب، والصادق في دعواه من الكاذب، فيبتلى العبد بما يقع عليه من ظلم -مثلًا-، وبالفقر والمرض والخوف، وفقد الأحباب، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٥-١٥٧]، فالمهتدون هم الموفقون إلى ما ينبغي عمله في

---

(١) بصائر ذوي التمييز (٢/٢٧٤).

(٢) مجمل اللغة، لابن فارس (١/٧١١).

(٣) العين (٨/١٢٧).

(٤) التعريفات (ص:١٦٥)، وانظر: الكليات (ص:٦٩٢).

أوقات المصائب والشدائد، فلا ينحرفون عن الجادة، ولكن يصبرون على ما أصابهم من البلاء، بل يزيدهم ما أصابهم من البلاء إيمانًا واحتسابًا؛ إذ لا يستحوذ الجزع على نفوسهم، ولا يذهب البلاء بالأمل من قلوبهم، فيكونون من الفائزين بخير الدنيا، وسعادة الآخرة، وبالمقابل ينصرف أهل الجزع، وضعاف الإيمان عن طريق الهداية.

أما السالكون طريق الهداية فلم تزعجهم المصائب، ولم تكن لهم حاجبًا عن بلوغ مقام الصَّبر؛ لعلمهم أنَّ الحياة لا تخلو من الأكدار، وأما الذين لم يهتدوا فهم يجعلون المصائب سببًا في اعتراضهم على الله ﷻ، أو كفرهم به، أو قول ما لا يليق، أو شكهم في صِحَّةِ ما هم عليه من الإسلام، يقولون: لو كان هذا هو الدِّينُ المرضي لله ﷻ؛ لما لحقنا عذاب ومصيبة، وهذا شأن أهل الضلال الذين حذَّرنا الله ﷻ أمرهم بقوله: ﴿وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ﴾ [الأعراف:١٣١][1].

ويقول الله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝٢٢ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد:٢٢-٢٣]، ويقول سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. فمن آمن بالقضاء والقدر فصبر وشكر، فهو المهتدي. فإن المؤمن مرتاضٌ بالأخلاق الإسلامية، متبعٌ لوصايا الله ﷻ، فهو مجافٍ لفاسد الأخلاق من الجزع والهلع، يتلقى ما يناله من المصاب بالصبر، والتفكر في أن الحياة لا تخلو من عوارض مؤلمة أو مكدرة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جمع الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ لأهل هدايته بين الهدى والرحمة والصلاة عليهم، فقال ﷻ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ

---

(١) انظر: التحرير والتنوير (٢/ ٥٨).

الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة:١٥٧]. قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنه: ((**نِعْمَ العِدْلاَنِ، ونِعْمَ العِلاَوَةُ**))[١].

و(العدلان) -بكسر العين- أي: المثلان، قيل: العدلان: الصلوات والرحمة، والعلاوة: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾. وقيل: [العدلان:] ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾. والعلاوة: التي يثاب عليها[٢].

فبالهدى خلصوا من الضلال، وبالرحمة نجوا من الشقاء والعذاب، وبالصلاة عليهم نالوا منزلة القرب والكرامة. والضالون حصل لهم ضد هذه الثلاثة: الضلال عن طريق السعادة، والوقوع في ضد الرحمة من الألم والعذاب، والذم واللعن، الذي هو ضد الصلاة"[٣].

"وقد وعد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ الصابرين بثلاثة أشياء كل واحد خير من الدنيا وما عليها، وهي: صلواته تعالى عليهم، ورحمته لهم، وتخصيصهم بالهداية في قوله ﷻ: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾، وهذا مفهم لحصر الهدى فيهم، وأخبر أن الصبر من عزم الأمور في آيتين من كتابه، وأمر رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يتشبه بصبر أولى العزم من الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ"[٤].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يؤدِّب عبده المؤمن الذي يحبه وهو كريم عنده، بأدنى زَلَّةٍ وَهَفْوَةٍ، فلا يزال مستيقظًا حذرًا، وأما من سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخَلِّي بينه وبين معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نعمة، والمغرور يظن أن

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في (التفسير) [٢٣٣]، وقد ذكره الإمام البخاري في (صحيحه)، باب الصبر عند الصدمة الأولى (٢/٨٣-٨٤)، وقد أخرجه كذلك الحاكم [٣٠٦٨]، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [٧١٢٦]. والحديث مروي عن مجاهد عن سعيد ابن المسيب عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. انظر: تغليق التعليق، للحافظ ابن حجر (٢/٤٧٠).

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/٢٨٧)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٨/١٠٠).

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (٢/ ١٧٣).

(٤) عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن القيم (ص:١١٣).

ذلك من كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عين الإهانة، وأنه يريد به العذاب الشديد والعقوبة التي لا عاقبة معها، كما في الحديث المشهور: ((**إذا أراد الله بعبد خيرًا عَجَّلَ له عقوبته في الدنيا، وإذا أراد بعبد شَرًّا أَمْسَكَ عنه عقوبته في الدنيا حتى يُوَافِيَ به يوم القيامة**))(١)، أي: حتى يأتي العبد بذنبه يوم القيامة حاملًا له على كاهله، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه:١٢٧].

وفي الحديث: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إذا أراد الله بعبد خيرًا طهَّره قبل موته**))، قالوا: يا رسول الله، وما طهور العبد؟ قال: ((**عمل صالح يلهمه إياه، حتى يقبضه عليه**))(٢).

فمن أراد الله عَزَّ وَجَلَّ به خيرًا طهره من المادة الخبيثة قبل الوفاة حتى لا يحتاج لدخول النار ليطهره، فيلهمه الله عَزَّ وَجَلَّ التوبة، ولزوم الطاعات، وتجنب المخالفات، أو يصاب بالمصائب وأنواع البلاء المكفرات؛ ليطهر من خبائثه مع كراهته لما أصابه. ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦]؛ ولهذا

---

(١) زاد المعاد (٥٠٦/٣). الحديث مروي عن عمار وعن عبد الله بن مغفل. حديث عمار: أخرجه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (١٩٢/١٠) قال الهيثمي: "إسناده جيد". حديث عبد الله بن مغفل: أخرجه أحمد [١٦٨٠٦]، وابن حبان [٢٩١١]، والحاكم [٨١٣٣]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (ذكر أخبار أصبهان) (٢٧٤/٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٥٩]، قال الهيثمي (١٩١/١٠): "رواه أحمد، والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح، وكذلك أحد إسنادي الطبراني". وقال العراقي: "أخرجه أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن مغفل مرفوعًا ومتصلًا. ووصله الطبراني أيضًا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر، ورواه أيضًا من حديث ابن عباس، وقد روى الترمذي وابن ماجه المرفوع منه من حديث أنس، وحسنه الترمذي" المغني عن حمل الأسفار (ص:١٤٧٨).

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٧٩٠٠]. قال الهيثمي (٢١٥/٧): رواه الطبراني من طرق، وفي بعضها: ((عسله)) بدل: ((طهره))، وفي إحدى طرقه: بقية بن الوليد، وقد صرح بالسماع، وبقية رجالها ثقات". قال العلامة المناوي: "فالحكم عليه بالضعف في غاية الضعف" فيض القدير (٢٥٧/١).

كان الأب أو الأم يسوق لولده الحجام أو الطبيب؛ ليعالجه بالمراهم المؤلمة الحادة، ولو أطاع الولد لما شفي[1].

ثالثًا: سبل الوقاية من آفة التعلل بالابتلاءات والعلاج:

١ – العلم بحقيقة الدنيا.

٢ – رسوخ الإيمان بقضاءِ الله تعالى وقَدَرِه في النَّفس.

٣ – الصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث:

ومن علامة حب الله ﷻ للعبد المؤمن: صبره ورضاه على ما يصيبه من الكوارث، وما يقع عليه من الابتلاء؛ ففي الحديث: ((**إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ البَلَاء، وإنَّ الله إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخط**))[2]. من الله أولًا، والغضب عليه آخرًا. فالمصائب والبلاء امتحانٌ للعبد، وهي علامة على حب الله ﷻ له.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "((**وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم**)) بأنواع البلايا؛ حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا، غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة. وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة، وكدر الدنيا، وتسليط أهلها؛ ليشهد صدقهم معه، وصبرهم في المجاهدة. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]"[3].

---

(١) فيض القدير (١/٢٥٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٠٣١]، والترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: القضاعي [١١٢١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٥].

(٣) فيض القدير (١/٢٤٦).

وفي الحديث: ((**إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**))(١).

والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يعين العبد الصالح، ويصبره على ما أصابه من البلاء كما في الحديث عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه، عن جده -وكانت له صحبة من رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة، لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده**))، قال أبو داود: زاد ابن نفيل: ((**ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**))(٢).

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]. وأفضل الصبر ما كان عند الصَّدْمة الأولى كما جاء في الحديث: ((**الصَّبْرُ عند الصَّدْمة الأولَى**))(٣)، أي: إنما الصَّبر الشَّاقُّ على النَّفس الذي يَعْظُمُ الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها؛ فإنه يدل على قوة القلب، وتثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك.

---

(١) أخرجه أحمد في (مسنده) عن محمود بن لبيد [٢٣٦٢٣، ٢٣٦٣٣، ٢٣٦٤١]. قال الهيثمي (٢/٢٩١): "رواه أحمد ورجاله ثقات". كما أخرجه: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٧]. قال الحافظ في (الفتح) (١٠/١٠٨): "رواته ثقات إلَّا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد رآه وهو صغير، وله شاهد من حديث أنس عند الترمذي وحسنه".

(٢) الحديث مروي عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وقد صححه الألباني في (صحيح أبي داود) [٢٦٤٩]، وفي (الصحيحة) [٢٥٩٩] بلفظ: ((إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها)). وقد أخرجه أحمد [٢٢٣٣٨]، وأبو داود [٣٠٩٠]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٤١٦]، وأبو يعلى [٩٢٣]، والطبراني [٨٠١]، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) من طريق الحسن بن سفيان [٦٧٦٢] والبيهقي في (السنن) [٢٢٣٣٨]. قال الهيثمي (٢/٢٩٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، و(الأوسط)، وأحمد، ومحمد بن خالد، وأبوه لم أعرفهما، والله أعلم".

(٣) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

ثم قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٦-١٥٧]. جعل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، فإنَّ قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالهلاك في الدنيا ثم الْبَعْثِ من القُبُور. قال سعيد ابن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو عرفها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال: يا أسفى على يوسف.

وروى مسلم عن أمِّ سَلَمَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهُمَّ أْجُرْنِي في مصيبتي، وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خيرًا منها))**[1]. فهذا تنبيه على قوله ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ إما بالخلف كما أَخْلَفَ الله لأمِّ سلمة رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها، وإما بالثَّواب الجزيل في الآخرة.

ويكون الصَّبر كذلك على مشاقِّ التَّكليف -كما تقدَّم-، ويكون على أداء الفرائض كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]. ويكون كذلك على ترك المعاصي، وخاصَّة مع كثرة الدَّواعي، وغلبة الشَّهوات، وقوَّة البواعث على متابعة الهوى، فملازمةُ العبادة حينئذ أشد.

وقد قيل: الصَّبر صبران: صبر عن معصية الله، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله، وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه، وعلامة الرضا: سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات[2].

---

(١) صحيح مسلم [٩١٨].

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٤- ١٧٦).

٤ – حسن الظنِّ بالله ﷻ.

٥ – شكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على نعمه.

٦ – أن ينظر المصاب إلى من هو دونه، وإلى ما أعده الله تعالى لعباده الصابرين من الأجر الجزيل والثواب في الآخرة.

٧ – أن يدرك أن الجزع لا يرفع البلاء.

٨ – اللجوء إلى الله ﷻ والدعاء والاستغفار.

العقبة الثامنة والأربعون

تفرق السبل

أولًا: المراد من تفرق السبل وبيان كونه عقبة:

بين الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى أن الطريق إليه واحد لا تعدد فيه، وهو صراطه المستقيم الذي نصبه موصلًا لمن سلكه إليه، قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣]، فوحَّد سبيله؛ لأنه في نفسه واحد لا تعدد فيه، وجمع السبل المخالفة؛ لأنها كثيرة متعددة.

فالطَّريق الموصلُ إلى الله ﷻ، وإلى رضوانِه وجنَّتِه واحدٌ، وهذا مما اتفقت عليه الرسل عَلَيْهِمُالسَّلَامُ من أولهم إلى خاتمهم صلوات الله وسلامه عليهم. وأما طرق الجحيم فأكثر من أن تحصى؛ ولهذا يوحِّدُ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى سبيلَه، ويجمع سُبُلَ النَّار.

وقد تقدم في عقبة: (الجهل): قول ابن السمعاني أن الحق عند الله ﷻ واحد، والناس بطلبه مكلفون إصابته، فإذا اجتهدوا وأصابوا حمدوا وأجروا. وإن أخطأوا عذروا ولم يأثموا. إلا أن يقصروا في أسباب الطلب. انتهى.

والصِّراط: هو طريق الحق، وهو الإسلام. وقوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾، أي: مستَوِيًا قَوِيمًا لا اعوجاج فيه. وقد أمر باتِّبَاع طريقه؛ لأنها الأقرب إلى الحقِّ والخير والسَّلام وإلى رضوان الله تعالى وجنَّتِه، وبيَّن أنَّ هناك سُبُلًا متعدِّدة تتشعَّب عن ذلك الطريق، فمن سَلَكَ الجادَّة نَجَا، ومن خرج إلى تلك الطُّرق أفضت به إلى النَّار. قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أي: تَمِيل. وهذه السُّبُلُ تَعُمُّ الملل المتفرقة والمختلفة في الدِّين من اليهوديَّة والنَّصرانيَّة والمجوسيَّة وغيرهم من أصحابِ البِدَعِ والأهواءِ المضلَّة. وقال ﷻ: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ [النحل:٩]، أي: على الله ﷻ تقويم طريق الهدى، بنصب الأدلة وبعث الرسل. قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "وهذا الصراط المستقيم الذي وصَّانا باتباعه هو الصِّراط الذي كان عليه رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وهو قصد السبيل، وما خرج عنه فهو من السبل الجائرة، وإن قاله من قاله، لكن الجور قد يكون جورًا عظيمًا عن الصِّراط، وقد يكون يسيرًا، وبين ذلك مراتب لا يحصيها إلا الله، وهذا

كالطريق الحسي، فإن السالك قد يعدل عنه ويجور جورًا فاحشًا، وقد يجور دون ذلك، فالميزان الذى يعرف به الاستقامة على الطريق والجور عنه هو ما كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه عليه.

والجائر عنه إما مفرط ظالم، أو مجتهد متأول، أو مقلد جاهل، فمنم المستحق للعقوبة، ومنهم المغفور له، ومنهم المأجور أجرًا واحدًا، بحسب نياتهم ومقاصدهم واجتهادهم فى طاعة الله تعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو تفريطهم"(١).

قال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: "صراط الحق واحد، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة"(٢).

فمن أراد الهداية فعليه أن يسلكَ طريقَ الحقِّ الواضحَ والمختصر، وأن ينأى بنفسه عن طرقٍ ومتاهاتٍ ملتوية قد يضلَّ بها ويشقى. ولا بدَّ لكلِّ سالك من الاستضاءة بنور الوحي، واتباع منهج الله ﷻ، وأن يصون نفسه عمَّا يضر في الآخرة، بالوقوف عند حدود الله تعالى، والتزام ما أمر، واجتناب ما نهى، ولا يتحقق ذلك إلا بالعلم والفقه والتَّبصر، والتَّمسك بكتاب الله ﷻ، وسُنَّةِ نبيِّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وعقبة تفرق السبل من الآفات التي تصيب العقل، وتشتت الفكر، فيضِلُّ العقل، ويضيعُ الجهد، وينقضي العمرُ دون التبين والوضوح، كما تصيبُ هذه العقبة النفسَ بأمراض نفسيَّة وجسديَّة.

والحق طريقه واضح وبين وميسر كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾ [القمر:١٧].

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (١/١٣١)، وانظر: طريق الهجرتين (ص:١٧٧)، حادي الأرواح (ص:٧٣)، وانظر: تفسير ابن جزي (١/٢٨١)، المحرر الوجيز (٢/٣٦٤)، تفسير القرطبي (٧/١٣٧).

(٢) الكشاف (٢/ ١٢٨).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الحلال بين والحرام بين وبينهما مشبهات**))(١)، أما طريق الباطل فهو شائك ومهلك ومعسر.

لكنَّ الوصول إلى الحقِّ لا يكون إلا بالإخلاص والتَّجرد، والاهتداء بأنوار الوحي، والاحتراز من التَّفرق في متاهاتٍ مُضِلَّة، ودروب ملتوية، حيث تنقضي الأعمال ولا يتبين للباحث الطريق الصحيح، بل يتيه في أقوال الفلاسفة والمفكرين الذين توسعوا في البحث، وهدم اللاحق ما أتى به السَّابق، فتشعَّبت الأقوال واختلفت، وانغمس الباحثون في لجة تلك الصراعات الفكريَّة، فسقطوا في أودية الضلال.

وقد قال الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

وفي الحديث: "خطَّ رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: ((**هذا صراط ربك مستقيمًا، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**))، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾))(٢).

وفي الحديث أيضًا: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**يا معشر القُرَّاءِ استقيموا فقد سبقتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالًا، لقد ضللتم ضلالًا بعيدًا**))(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٥٢، ١٩٤٦]، مسلم [٤١٨١].

(٢) أخرجه الحاكم وصححه [٢٩٣٨]، ووافقه الذهبي. قال الإمام الزيلعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "رواه النسائي في (التفسير) أخبرنا يحي بن حبيب ثنا حماد عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله بن مسعود..الخ. ورواه ابن حبان في (صحيحه) في النوع الحادي عشر من القسم الثالث، والحاكم في (مستدركه) وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ورواه أحمد وأبو داود الطيالسي وإسحاق بن راهويه والبزار في (مسانيدهم). قال البزار: ورواه عن أبي وائل غير واحد. ورواه أبو يعلى الموصلي في (مسنده) وسنده عن حماد بن زيد عن عاصم عن ابن أبي النجود به. تخريج الأحاديث والآثار الواقعة في تفسير الكشاف، للزيلعي (٤٤٦/١).

(٣) صحيح البخاري [٧٢٨٢].

قوله: ((**يا معشر القراء**)) -بضم القاف- جمع: قارئ، والمراد بهم: العلماء بالقرآن والسنة، والعباد، وكان في الصَّدر الأول إذا أطلقوا القراء أرادوا بهم: العلماء.

قوله: ((**استقيموا**))، أي: اسلكوا طريق الاستقامة، وهو كناية عن التمسك بأمر الله فعلًا وتركًا[1].

قوله: ((**فقد سبقتم**)) قيل: الرواية الصحيحة بفتح السين والباء، والمشهور ضم السين وكسر الباء، والمعنى على الأول: اسلكوا طريق الاستقامة؛ لأنكم أدركتم أوائل الإسلام. فإن تتمسكوا بالكتاب والسنة تسبقوا إلى خير؛ إذ من جاء بعدكم -وإن عمل بعملكم- لم يصل إليكم؛ لسبقكم إلى الإسلام، ومرتبة المتبوع فوق مرتبة التابع، وعلى الثانية: أي: سبقكم المتصفون بتلك الاستقامة إلى الله، فكيف ترضون لنفوسكم هذا التخلف المؤدي إلى الانحراف عن سنن الاستقامة يمينًا وشمالًا، الموجب للهلاك الأبدي؟! ((**سبقًا بعيدًا**)): أي: ظاهر التفاوت[2].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ((**فإن أخذتم يمينًا وشمالًا**))، أي: خالفتم الأمر المذكور. وكلام حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ منتزع من قوله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، والذي له حكم الرفع من حديث حذيفة هذا: الإشارة إلى فضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين مضوا على الاستقامة، فاستشهدوا بين يدي النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو عاشوا بعده على طريقته، فاستشهدوا أو ماتوا على فرشهم"[3].

---

(١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٥/٢٩)، فتح الباري، لابن حجر (١٣/٢٥٧).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (١/٣٣٧).

(٣) فتح الباري (١٣/ ٢٥٧).

ثانيًا: الوقاية من آفة تفرق السبل والعلاج:

١ – إخلاصُ النية في طلب الحقِّ، وإعمال العقل، والاهتداء بأنوار الوحي:

إنَّ من أسباب الضَّلال والغواية: عدم إخلاص النية في طلب الحق، كمن يسلك طريق الالتزام من أجل غايات أخرى، كتحصيل منفعة دنيوية، أو الدنو من صاحب سلطان، أو من محبوب؛ ولذلك فإنَّ أمثالَ هؤلاء لا يسلكون طريقًا مستقيمًا، بل يتقلَّبُون بحسبِ المصالح.

٢ — أن يقوم العلماء بواجبهم في التبليغ وبيان طريق الهداية، والترغيب فيه، والتحذير من الطرق المضلة.

٣ – السعيُ إلى تكميلِ النَّفس بالعلمِ والمعرفة، واتباع منهج من البحث سليم من الآفات، فإن المعرفة السليمة تُبصِّر السالك، وتنير له الدرب.

٤ – السعي إلى المعالي في المجالات كافة، وتجنب ما يعيق سير المكلف، وقد يقتضي ذلك الهجرة والتضحية بالمحبب الآني من أجل هدف مرتقب، وغاية سامية.

٥ – السعادة بابتغاء مرضاة الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في كل الأمور، وهي تقتضي اغتنام الوقت بالطاعات، وتجنب المحظورات، والاشتغال بما ينفع المكلف في دنياه وآخرته.

العقبة التاسعة والأربعون

الاشتغال بالمفضول عن الفاضل

أولًا: تعريف مراتب الأعمال:

لا بدَّ من التأسيس لهذه العقبة ببيان معنى: (مراتب الأعمال)، حيث إن الجهل بمراتب الأعمال هو الذي يفضي إلى الاشتغال بالمفضول عن الفاضل، ثم أتبع ذلك ببيان كونه عقبة في طريق الهداية.

و"الرتبة هي: المنزلة، والمقام، والدرجة. والأعمال: هي سائر التصرفات القولية، أو الفعلية الصادرة عن المسلم، والتي تستدعي حكمًا شرعيًا يترتب عليه ثواب أو عقاب، مصلحة أو مفسدة.

وعليه فمراتب الأعمال: هي درجاتها ومقاماتها، ومكانها المناسب لها، ومنازلها من حيث قوة طلبها، ومن حيث ما تشتمل عليه من المصالح والمفاسد، والأجر والثواب، أو الوزر والعقاب"(١).

ثانيًا: الاشتغال بالمفضول من حيث كونه عقبة في طريق الهداية:

إن من مداخل الشيطان التي يستدرج بها المكلف؛ ليصرفه عن المهمات: شَغْلُهُ بالمفضول عن الفاضل من الأعمال إلى أن يقع في التهاون والتفريط في جملة التكاليف.

وقد تقدم أنَّ من ابتلي بترك الآداب وقع في ترك السنن، ومن ابتلي بترك السنن وقع في ترك الفرائض، ومن ابتلي بترك الفرائض وقع في استحقار الشريعة، ومن ابتلي بذلك وقع في الكفر، فذلك مدخل من مداخل الشيطان، واستدراج منه.

ومن المعلوم أن الأعمال والتكاليف والوظائف الشرعيَّة ليست على مرتبة واحدة، وإنما هي منازل ومراتب ومقامات متفاوتة، ففيها: الواجب، وفيها: المستحب، وفيها:

---

(١) فقه مراتب الأعمال (ص:١٨). وقد أفرد الأخ الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي (مراتب الأعمال بالبحث، مبينًا أهميتها، ومراتبها في القرآن الكريم والسنة والأصول. وقد اهتمت إدارة مساجد محافظة الفروانية في دولة الكويت بطبع الكتاب ونشره.

فرض العين، وفيها: فرض الكفاية. وفيها: الأهم والمهم، والكبير والصغير، والمضيق والموسَّع.

ومن الفقه والبصيرة: أن يتحرَّى المسلم أعلى المراتب، وأعلى المقامات بحسب ذات العمل، أو ما يشتمل عليه من المصالح، أو باعتبار حاله وما يليق به من الأعمال التي تكون في حَقِّه مقدَّمةً، أو بحسب الزَّمان أو المكان..ونحو ذلك.

ومن قِلَّة الفقه والبصيرة: عدم معرفة مراتب الأعمال، والخلط بين مقاماتها مما يؤدي إلى اختلالات كبيرة في التَّدين.

وهذا الباب من مداخل الشيطان التي يستدرج بها المكلَّف؛ ليحرمه الفضل، ويوقعه في التهاون والتفريط في جملة التكاليف.

وقد عدَّ ابن القيم الاشتغال بالأعمال المرجوحة المفضولة من الطَّاعات عقبةً في طريق الهداية، ومدخلًا من مداخل الشيطان، وعائقًا في سير المكلَّف إلى الله ﷻ، فحَسَّنَهَا الشَّيطانُ في عينه، وزيَّنَها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح؛ ليشغله بها عمَّا هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله ﷻ عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له[1].

فمن مداخل الشيطان: أن يشغلَ الشيطانُ العبدَ "بالعمل المفضول عما هو أفضل منه؛ ليزيح عنه الفضيلة، ويفوته ثواب العمل الفاضل، فيأمره بفعل الخير المفضول، ويحضه عليه، ويحسنه له إذا تضمن ترك ما هو أفضل وأعلى منه، وقلَّ من يتنبه لهذا من الناس؛ فإنه إذا رأى فيه داعيًا قويًّا ومحركًا إلى نوع من الطاعة لا يشك أنه طاعة وقربة فإنه لا يكاد يقول: إن هذا الداعي من الشيطان؛ فإن الشيطان لا يأمر بخير، ويرى أن هذا خير، فيقول: هذا الداعي من الله ﷻ. وهو معذور ولم يصل علمه إلى أن الشيطان يأمر بسبعين بابًا من أبواب الخير، إما؛ ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر؛ وإما ليفوت

(١) انظر: مدارج السالكين (١/٢٤٠).

بها خيرًا أعظم من تلك السبعين بابًا وأجل وأفضل. وهذا لا يتوصل إلى معرفته إلا بنور من الله ﷻ يقذفه في قلب العبد يكون سببه: تجريد متابعة الرسول ﷺ، وشدة عنايته بمراتب الأعمال عند الله ﷻ وأحبها إليه، وأرضاها له، وأنفعها للعبد، وأعمها نصيحة لله تعالى، ولرسوله ﷺ، ولكتابه، ولعباده المؤمنين خاصتهم وعامتهم، ولا يعرف هذا إلا من كان من ورثة الرسول ﷺ ونوابه في الأمة وخلفائه في الأرض. وأكثر الخلق محجوبون عن ذلك، فلا يخطر بقلوبهم والله تعالى يمن بفضله على من يشاء من عباده"(١).

فتبين أن الاشتغال بالمفضول عن الفاضل من طرق الاستدراج، ومداخل الشيطان، وأنه يمهد للتهاون والتساهل في ترك المأمورات، واجتناب المنهيات، ويوقع في الغواية والضلال.

ثالثًا: الوقاية من آفات هذه العقبة والعلاج:

تقدم في كلام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما يفيد من وسائل الوقاية من آفات هذه العقبة، ومن أسباب الوقاية والعافية: الإخلاص في القول والعمل، وتجريد متابعة الرسول ﷺ، ومن أهمها: التفقه في الدين، والعناية بفقه بمراتب الأعمال، "ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤوسها، وسيدها ومسودها؛ فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤوسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: ((**سَيِّدُ الاستغفار أن تقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت**)) الحديث(٢).

---

(١) بدائع الفوائد، لابن القيم (٢/٢٦١- ٢٦٢).

(٢) صحيح البخاري [٦٣٠٦، ٦٣٢٣].

وفي الحديث الآخر: (الجهاد ذروة سنام الأمر)[1]. ولا يقطع هذه العقبة إلَّا أهل البصائر والصدق من أولي العلم، السَّائرين على جادَّة التَّوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه"[2].

(١) ورد الحديث بلفظ: ((رأس الأمر: الإسلام، وعموده: الصلاة، وذروة سنامه: الجهاد)) أخرجه الطيالسي [٥٦١]، وأحمد [٢٢٠١٦]، وابن ماجه [٣٩٧٣]، والترمذي [٢٦١٦]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (الكبرى) [١١٣٣٠]، والطبراني في (الكبير) [٢٩٢]، والحاكم [٢٤٠٨]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي. عن معاذ بن جبل. وقد روي بلفظ: ((ذروة سنام الإسلام: الجهاد في سبيل الله)) وقد أخرجه أحمد [٢٢٠٥١]، عن معاذ بن جبل. وأخرجه الطبراني في (الكبير) [٧٨٨٥]، عن أبي أمامة. قال الهيثمي: "رواه الطبراني، وفيه علي بن يزيد، وهو ضعيف".

(٢) بتصرف عن (مدارج السالكين)، لابن القيم (١/ ٢٤٠).

العقبة الخمسون

الإسراف في المباحات

أولًا: تعريف الإسراف:

السرف والإسراف: مجاوزة القصد. وأما السرف الذي نهى الله عنه، فهو ما أنفق في غير طاعة الله ﷻ، قليلًا كان أو كثيرًا. وكذلك من الإسراف: المبالغة في المباحات وتجاوز الحدِّ المعتاد فيها.

وقيل: الإسراف في النفقة: التبذير(1).

ومن العلماء من فرّق بين الإسراف والتبذير كما قال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التعريفات): "الإسراف: صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي؛ بخلاف التبذير؛ فإنه صرف الشيء فيما لا ينبغي"(2).

وقال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التبذير يستعمل في المشهور بمعنى: الإسراف، والتحقيق أن بينهما فرقًا، وهو أن الإسراف صرف الشيء فيما ينبغي زائدًا على ما ينبغي، والتبذير صرفه فيما لا ينبغي"(3).

وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ [الفرقان:٦٧]. قيل: ﴿لَمْ يُسْرِفُوا﴾، أي: لم يضعوه في غير موضعه، ﴿وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ لم يقصروا به عن حقِّه(4).

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سرف) (١٣٧٣/٤)، لسان العرب (١٤٨/٩)، تفسير القرطبي (١١٠/٧)، فتح القدير، للشوكاني (١٩٢/٢).

(٢) التعريفات (ص:٢٤).

(٣) رد المحتار على الدر المختار (٧٥٩/٦)، وانظر: كشاف القناع (٤٤٥/٣)، مطالب أولي النهى (٤٠٥/٣). "وفرق الماوردي بين التبذير والسرف بأن الأول: الجهل بمواقع الحقوق، والثاني: الجهل بمقاديرها، وكلام الغزالي يقتضي ترادفهما". انظر: تحفة المحتاج (١٦٨/٥)، مغني المحتاج (١٣٦/٣)، نهاية المحتاج (٣٦٢/٤)، إعانة الطالبين (٨٥/٣).

(٤) قال الإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلف المفسرون في تأويل هذه الآية. فقال النحاس: ومن أحسن ما قيل في معناه: إن من أنفق في غير طاعة الله فهو الإسراف، ومن أمسك عن طاعة الله ﷻ فهو الإقتار، ومن أنفق في طاعة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فهو القوام" تفسير القرطبي (٧٢/١٣)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤٨/٥-٤٩)، وانظر: فتح القدير، للشوكاني (١٠١/٤)، مفاتيح الغيب (١٦٥/١٣)، الكشف والبيان (١٤٧/٧)، معالم التنزيل (٤٥٦/٣)، الكشاف (٢٩٢/٣)، زاد المسير (٣٢٨/٣)، البحر المحيط في=

وقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأنعام:١٢١]، الإسراف: أكل ما لا يحل أكله، وقيل: هو مجاوزة القصد في الأكل مما أحله الله ﷻ.

وقيل: الإسراف كل ما أنفق في غير طاعة الله ﷻ.

وقيل: الإسراف: ما قصر به عن حق الله ﷻ. والسرف: ضد القصد(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإسراف: مجاوزة الحدِّ في كلِّ فعلٍ أو قولٍ، وهو في الإنفاق أشهر"(٢).

ثانيًا: الإسراف في المباحات من حيث كونه عائقًا:

إنَّ الإسراف في المباحات قد يكون عائقًا في طريق الهداية السديدة الكاملة من حيث الانشغالُ عن العلم والتبصُّر، والغفلة عن العاقبة، ومن حيث ما يحدثه في الجسد من ركونٍ إلى الكسل، وما يسببه من الأمراض والبلايا.

كما أنَّ الإسراف في الإنفاق خُلُقٌ مذموم، وهو من الأمراض الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي تهدد الأمم والشعوب؛ فإنَّ البذخ والترف هدرٌ للمال في غير فائدة، ويؤثر على طبقات المجتمع الأخرى من الفئة المتوسطة والفقيرة. فضلًا عن تسببه في معاصي ومخالفات، كقصد السمعة والرياء، والتقصير في طلب الحق، والتكاسل عن أداء الطاعات، وقد يؤدي إلى تضييع كثير من الحقوق والواجبات، من حيث الانشغال بملذات الدنيا ونعيمها، والغفلة عن الآخرة.

=التفسير (١٢٨/٨)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٧٥/٤)، تفسير ابن فورك (ص:٢٥٧)، (ص:٣٥٤)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٥٣/٥).

(١) انظر: مادة: سرف في (لسان العرب)، (١٤٨/٩)، المحكم والمحيط الأعظم (٤٧٦/٨)، تهذيب اللغة، للأزهري (٢٧٧/١٢)، تاج العروس (٤٣٢/٢٣)، والمصادر السابقة.

(٢) فتح الباري (١٠/ ٢٥٣).

وقد سمى الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المبذِّرين للمال: ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧](١)؛ لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها، وعدم وضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، أي: "إنَّ الشيطان يعمل، وأعماله كلها في الضّلال والإضلال، فقد ضيَّع أعماله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وهو جاد(٢) في ذلك، ضارٍ(٣) عليه؛ لرسوخه في نفسه. والمبذِّر يضيِّع أمواله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه؛ فهو أخو الشيطان؛ لمشاركته له في وصفه، كمشاركة الأخ لأخيه. وهو أخوه بامتثاله لأمره، وصحبته له في الحال وفي المآل، وفي سوء العاقبة في العاجل والآجل.

إنَّ المال كما يكون أداة للخير فهو كذلك يكون أداة للشر: فالمبذر المفرق لماله في وجوه الباطل بالغ -لا محالة- بماله إلى شرٍّ كثير، وفساد كبير؛ ولذلك وصف بأنه أخ للشيطان الذي هو أصل الشر والفساد.

ووصف الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الشيطان بقوله ﷻ: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾؛ لأنه أنعم عليه بنعمة، فبدلًا من أن يستعملها في طاعته في الخير قصرها على المعصية والشر. وذكر هذا في وصف الشيطان بعد ما تقدم يفيد أنه من وصف المبذر أيضًا: فالمبذر أخو

---

(١) تقول العرب لكل من لازم سنة قوم واتبع أثرهم هو أخوهم، فيقولون -مثلًا-: فلان أخو الكرم والجود. والمعنى: إن المنفقين أموالهم في المعاصي أو في غير طاعة يكونون قرناء الشياطين في الدنيا والآخرة كما قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف:٣٦]، وقال: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ [الصافات:٢٢]. أي: اجمعوا الظالمين وأشباههم من العصاة والمجرمين، فعابد الوثن مع عابد الوثن، والسارق مع السارق، والزاني مع الزاني، واليهودي مع اليهودي، والنصراني مع النصراني، كل إنسان مع نظرائه. وقيل: أزواجهم قرناؤهم من الشياطين يحشر كل كافر مع شيطانه. وقيل: نساؤهم اللاتي على دينهم.

(٢) جاد، أي: ماض في ذلك بعزم وإصرار.

(٣) الضراوة: العادة. يقال: ضري الشيء بالشيء إذا اعتاده فلا يكاد يصبر عنه. انظر: لسان العرب، مادة: (ضري) (٤٨٢/١٤).

الشيطان، والشيطان كان لربه كفورًا؟ فالمبذر كان لربه كفورًا؛ ذلك لأن الله تعالى أنعم عليه بالمال الذي هو أداة لكل خير، وعون عظيم على الطاعة، فجعله أداة في الشر، واستعان به على المعصية.

ومكّنه الله ﷻ بالمال من نعمة القدرة على القيام بالحقوق، فضيعها وقام بالشرور والمفاسد؛ وهذا من أقبح الكفر لنعمة ربه الذي كان به مضارعًا للشيطان، معرضًا عن أخيه، والعياذ بالله"[1].

وكذلك كل من رزقه الله ﷻ مالًا أو جاهًا فصرفه إلى غير مرضاة الله ﷻ كان كفورًا لنعمة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى. وقال بعض العلماء: خرجت هذه الآية على وفق عادة العرب؛ وذلك لأنهم كانوا يجمعون الأموال بالنهب والغارة، ثم كانوا ينفقونها في طلب الخيلاء والتفاخر، وكان المشركون من قريش وغيرهم ينفقون أموالهم ليصدوا النَّاس عن الإسلام وتوهين أهله، وإعانة أعدائه فنزلت هذه الآية؛ تنبيها على قبح أعمالهم في هذا الباب[2].

ثم قال: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ [الإسراء:٢٩]، فعلل الإسراف في الإنفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملومًا من الناس، ومحسورًا في نفسه.

قال ابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ: "الإسراف في المباح هو مجاوزة الحد، وهو من العدوان المحرم، وترك فضولها من الزهد المباح، والامتناع عنه مطلقًا كمن يمتنع من اللحم أو الخبز أو الماء أو لبس الكتان والقطن أو النساء، فهذا جهل وضلال، والله ﷻ أمر بأكل

(١) تفسير ابن باديس (ص:٨٢-٨٣)، آثار ابن باديس (١/٢٤٣)، وانظر: تفسير المنار (١١/٢٠٥).
(٢) انظر: تفسير الرازي (٢٠/٣٢٨- ٣٢٩)، وانظر: تفسير ابن عادل (١٢/٢٦٤)، غرائب القرآن (٤/٣٤٣).

الطيب والشكر له، والطيب ما ينفع ويعين على الخير، وحرم الخبيث وهو ما يضر في دينه"(١).

وقد ذمَّ الله ﷻ المسرفين في غير موضع، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "الإسراف محرم حتى في المآكل والمشرب والملابس والمراكب والمنازل متى تجاوز الإنسان الحد فإنه آثم؛ لقوله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف:٣١]، فمجاوزة الحد: إسراف، وهي محرمة وعرضة لأن يكره الله تعالى فاعلها. وإذا قلنا: إن الإسراف مجاوزة الحد تبين لنا أن إنفاق المال يختلف، فالغني مثلًا قد يؤسس بيته أو يشتري سيارة أو يلبس الثياب التي لا تعد من حقه إسرافًا؛ لأنه لم يتجاوز بها حد الغنى، لكن لو أن فقيرًا فعل مثل فعله قلنا: إن هذا إسراف، وإنه حرام؛ ولهذا يغلط كثير من الناس الآن من الفقراء ومتوسطي الحال أن يلحقوا أنفسهم بالأغنياء هذا غلط وخطأ.."(٢).

وقال ابن حزم رَحِمَهُ اللَّهُ: "والسرف حرام، وهو النفقة فيما حرَّم الله تعالى قلَّت أو كثرت، ولو أنها جزء من قدر جناح بعوضة، أو التبذير فيما لا يحتاج إليه ضرورة مما لا يبقى للمنفق بعده غِنًى، أو إضاعة المال -وإن قلَّ- بِرَمْيِهِ عبثًا؛ فما عدا هذه الوجوه فليس سرفًا، وهو حلال وإن كثرت النفقة فيه"(٣).

وقال محمد بن الحسن الشيباني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما السرف فحرام؛ لقوله ﷻ: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ الآية. وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا..﴾ الآية، فذلك دليل على أنَّ الإسراف والتقتير حرام، وأن المندوب إليه ما بينهما، وفي الإسراف تبذير، وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا﴾ [الإسراء:٢٦].

---

(١) المستدرك على مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٣٠/٤)، وانظر: الفروع، لابن مفلح (٣٨٠/٧).

(٢) شرح رياض الصالحين (٥٤٩/٦).

(٣) المحلى بالآثار (١٠٩/٦).

ثم السرف في الطعام أنواع؛ فمن ذلك: الأكل فوق الشبع؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه))**[1]؛ ولأنه إنما يأكل لمنفعة نفسه، ولا منفعة في الأكل فوق الشبع، بل فيه مضرة، فيكون ذلك بمنزلة إلقاء الطعام في مزبلة أو شر منه؛ ولأن ما يزيد على مقدار حاجته من الطعام فيه حق غيره؛ فإنه يسد به جوعته إذا أوصله إليه بعوض أو بغير عوض، فهو في تناوله جان على حق الغير، وذلك حرام؛ ولأن الأكل فوق الشبع ربما يمرضه فيكون ذلك كجراحته نفسه. والأصل فيه ما روي أنَّ رجلًا تجشأ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: **((كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ؛ فإن أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا في الدنيا أَطْوَلُهُمْ جوعًا يوم القيامة))**"[2]. إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه في عقبة: (المفهوم الخاطئ للاستقامة، مجاوزة القصد في الفعل).

وقد ذكر العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ علة النهي عن الجشاء، فأوضح وجه الصلة بين الشبع من حيث كونه سببًا جالبًا له، وبين كونه من معوقات الترقي في مدارج الهداية، فقال رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "**((كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ))** هو الريح الذي يخرج من المعدة عند الشبع. والنهي عن الجشاء نهي عن سببه، وهو الشبع، وهو مذموم طبًّا

(١) أخرجه ابن المبارك [٦٠٣]، وأحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي في (السنن الكبرى) [٦٧٣٩]، وابن حبان [٦٧٤]، والطبراني في (الكبير) [٦٤٤]، والحاكم [٧٩٤٥] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه القضاعي [١٣٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٦١]، والديلمي [٦٢١٠].

(٢) الكسب، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني (ص: ٧٩-٨٠)، المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي (٢٦٦/٣٠- ٢٦٧)، بقليل من التصرف. والحديث مروي عن ابن عمر وأبي جحيفة وأنس. حديث ابن عمر: أخرجه ابن ماجه [٣٣٥٠]، والترمذي [٢٤٧٨]، وقال: هذا "حديث حسن غريب من هذا الوجه"، كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٤٠٢٤]، و(الأوسط) [٤١٠٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٩]. حديث أبي جحيفة: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٥٤]. حديث أنس: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٢٦٠].

وشرعًا، كيف وهو يقرب الشيطان، ويهيج النفس إلى الطغيان؟ والجوع يضيق مجاري الشيطان، ويكسر سطوة النفس، فيندفع شرهما. ومن الشبع تنشأ شدة الشبق إلى المنكوحات، ثم يتبعها شدة الرغبة إلى الجاه والمال اللذان هما الوسيلة إلى التوسع في المطعومات والمنكوحات، ثم يتبع ذلك استكثار المال والجاه وأنواع الرعونات، وضروب المنافسات والمحاسدات، ثم يتولد من ذلك: آفة الرياء، وغائلة التفاخر والتكاثر والكبرياء، ثم يتداعى ذلك إلى الحسد والحقد والعداوة والبغضاء، ثم يفضي ذلك بصاحبه إلى اقتحام البغي والمنكر والفحشاء والبطر والأشر، وذلك مفض إلى الجوع في القيامة، وعدم السلامة إلَّا من رحم ربك"(١).

وقال الخادمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الإسراف حرام قطعي؛ لثبوته بقطعي، ومرض قلبي، وخلق رديء دنيء، ولا تظنن أنه أدنى كثيرًا في القبح من البخل.."(٢).

وفي الحديث: عن أم الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت لأبي الدرداء: ألا تبتغي لأضيافك ما يبتغي الرجال لأضيافهم؟ فقال: إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن أمامكم عَقَبَةً (٣) كؤودًا(٤)، لا يَجُوزُهَا الْمُثْقَلُون، فَأُحِبُّ أن أَتَخَفَّفَ لتلك العقبة**))(٥).

فقوله: ((**المثقلون**)): أي: الحاملون ثقل المال، ومؤنة الجاه، وسعة الحال؛ ولذا قيل: فاز المخفون، وهلك المثقلون.

---

(١) فيض القدير (٥/٨).

(٢) انظر تمام ما بينه وفصله في (بريقة محمودية) (٣/٣٤).

(٣) (عقبة): بفتحات، أي: مرقى صعبًا من الجبال.

(٤) بفتح فضم همزة فواو فدال، أي: شاقة فاصلة بينكم وبين دخول الجنة.

(٥) أخرجه ابن الأعرابي في (معجمه) [٥٠٣]، والحاكم [٨٧١٣]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه تمام [١٦٤٢]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/٢٢٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٩٢٣]، وابن عساكر (٤٠/٢٥)، وفي رواية: (إن وراءكم) أخرجه الطبراني كما في (مجمع الزوائد) (٣/٩٧)، قال الهيثمي: "رجاله ثقات".

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((**المثقلون**)) من الذنوب، المتضمخون بأدناس العيوب، أي: إلا بمشقة عظيمة وكرب شديد، بل من طهر قلبه عن الأخلاق الذميمة، وعمره بالخصال الحميدة. وقال: وتلك العقبة هي الموت، ثم البعث، ثم الوقوف بين يدي الله ﷻ، ثم الحساب، ثم الجنة أو النار. وكما أن أمام ابن آدم عقبات أخروية فأمامه قبلها عقبات دنيوية. قال حجة الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وهي سبع مترتبة: عقبة العلم، وعقبة التوبة، وعقبة العوائق، وعقبة البواعث، وعقبة الفوادح، وعقبة الحمد والشكر. وشرح ذلك مما لا يحتمل المقام بعضه"[(١)].

وقوله: ((**فأحب أن أتخفف**))، أي: بترك الطلب، والصبر على قلة المؤنة.

((**لتلك العقبة**))؛ لئلا يحصل لي التعب فيها[(٢)].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن الناس كلما ازادوا في الرفاهية، وكلما انفتحوا على الناس؛ انفتحت عليهم الشرور، فالرفاهية هي التي تدمر الإنسان؛ لأن الإنسان إذا نظر إلى الرفاهية، وتنعيم جسده؛ غفل عن تنعيم قلبه، وصار أكبر همه أن ينعم هذا الجسد الذي مآله إلى الديدان والنتن، وهذا هو البلاء، وهذا هو الذي ضرَّ النَّاس اليوم، لا تكاد تجد أحدًا إلا ويقول: ما قصرنا؟ ما سيارتنا؟ ما فرشنا؟ ما أكلنا؟ حتى الذين يقرؤون العلم ويدرسون العلم، بعضهم إنما يدرس؛ لينال رتبة أو مرتبة يتوصل بها إلى نعيم الدنيا. وكأن الإنسان لم يخلق لأمر عظيم، والدنيا ونعيمها إنما هي وسيلة فقط. نسأل الله أن نستعمله وإياكم وسيلة. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما معناه: ينبغي على الإنسان أن يستعمل المال كما يستعمل الحمار للركوب، وكما يستعمل بيت الخلاء للغائط. فهؤلاء هم الذين يعرفون المال ويعرفون قدره، لا تجعل المال أكبر همك، اركب المال، فإن لم تركب المال ركبك المال، وصار همك هو الدنيا.

---

(١) بتصرف عن (فيض القدير) (٢/٤٣٠)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٨/٣٢٥٩).

(٢) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٢٥٩).

ولهذا نقول: إن الناس كلما انفتحت عليهم الدنيا، وصاروا ينظرون إليها، فإنهم يخسرون من الآخرة بقدر ما ربحوا من الدنيا، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**والله ما الفقر أخشى عليكم**))، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح.

((**ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوا كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتهم**))[1]، وصدق الرسول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، هذا الذي أهلك الناس اليوم، الذي أهلك الناس اليوم التنافس في الدنيا، وكونهم كأنهم إنما خلقوا لها لا أنها خلقت لهم، فاشتغلوا بما خلق لهم عما خلقوا له، وهذا من الانتكاس نسأل الله العافية"[2].

وذكر ابن جماعة رَحِمَهُ اللَّهُ أن من آداب طالب العلم: أن يقنعَ من القوت بما تيسر -وإن كان يسيرًا- ومن اللباس بما يستر مثله -وإن كان خَلِقًا-؛ فبالصبر على ضيق العيش ينال سعة العلم، ويجمع شمل القلب عن مفترقات الآمال، فتتفجر فيه ينابيع الحكم.

وقال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يطلب أحد هذا العلم بالملك وعزِّ النفس فيفلح، ولكن من طلبه بذلِّ النفس، وضيق العيش، وخدمة العلماء أفلح. وقال: لا يصلح طلب العلم إلَّا لمفلس، قيل: ولا الغني المكفيُّ، قال: ولا الغني المكفي.

وقال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ: لا يبلغ أحد من هذا العلم ما يريد حتى يُضَرِّ به الفقر، ويؤثره على كل شيء.

وقال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: يُستعان على الفقه بجمع الهمِّ، ويستعان على حذف العلائق بأخذ اليسير عند الحاجة ولا يَزِدْ"[3].

---

(١) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٣٦/٢- ٣٨).

(٣) تذكرة السامع والمتكلم، لابن جماعة (ص:٨٨).

وقال ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أعظم الأسباب المعينة على الاشتغال والفهم وعدم الملال: أكلُ القدر اليسير من الحلال.

قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما شبعتُ منذ ست عشرة سنة.

وسبب ذلك أنَّ كثرة الأكل جالبةٌ لكثرة الشرب، وكثرته جالبةٌ للنوم والبلادة، وقصور الذهن، وفتور الحواس، وكَسَل الجسم، هذا مع ما فيه من الكراهية الشرعية، والتعرض لخطر الأسقام البدنية

كما قيل:

فإنَّ الـداءَ أكـثرُ مـا تراه　　　يكون من الطعام أو الشراب

ولم يُرَ أحدٌ من الأئمة العلماء يوصف بكثرة الأكل، ولا حُمِدَ به، وإنما تُحْمَد كثرةُ الأكلِ من الدوابِّ التي لا تعقل، بل هي مُرْصَدَةٌ للعمل.

والذِّهن الصحيح أشرفُ من تبديده وتعطيله بالقَدْر الحقير من طعام يؤول أمره إلى ما قد علم، ولو لم يكن من آفات كثرة الطعام والشراب إلَّا الحاجة إلى كثرة دخول الخلاء لكان ينبغي للعاقل اللبيب أن يصون نفسه عنه، ومن رام الفلاح في العلم وتحصيلَ البغية منه مع كثرة الأكل والشرب والنوم فقد رام مستحيلًا في العادة.

والأولى أن يكونَ ما يأخذُ من الطعام ما ورد في الحديث: عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ما ملأ ابن آدم وعاءً شرًّا من بطنه، بحسب ابن آدم لقيمات يُقمنَ صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه))** رواه الترمذي[(١)].

فإن زاد على ذلك فالزيادة إسراف خارج عن السُّنَّة، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ [الأعراف:٣١]، قال بعض العلماء: جمع الله ﷻ بهذه الكلمات الطبَّ كلَّه"[(٢)].

---

(١) تقدم.

(٢) تذكرة السامع والمتكلم (ص:٩٠-٩١)، بتصرف يسير.

فتبين مما سبق أن الإسراف في المباحات من معوقات الهداية، وأسباب الضَّلال، وقد جاء معللًا بما يترتب عليه من آثار، من حيث ما يصيب الجسد من الركون إلى الكسل، والانشغال بملذات النفس، وما يفتح على المكلف من أبواب الفتن، وكذلك ما يضيع من الوقت، ويهدر في اللهو والترفيه الزائد، ومن حيث الغفلة عن التبصر وسوء العاقبة. وسيأتي مزيد من البيان في عقبة: (المفهوم الخاطئ للاستقامة، مجاوزة القصد في الفعل).

ومن مظاهر الإسراف التي تفشَّتْ في عصرنا الحاضر: العكوف أمام شاشات التلفاز أو المواقع الإلكترونية. ولا يخفى ما تحدثه ساعات المشاهدة الطويلة من تأثيرٍ في التكوين النفسي والسلوكي للمشاهد، وما تتسبب به من هدر للوقت.

ومن المظاهر التي تفشَّتْ في عصرنا الحاضر: الإسراف في استخدام الأجهزة الإلكترونية الحديثة كالهواتف الذكية والكومبيوتر.

والهاتف من المخترعات المفيدة، ومن حاجات العصر الحديث، فهو يوفر الأوقات، ويقصر المسافات، ويصلك بجميع الجهات، ويمكن أن يستخدم في الأعمال الصالحة، كالإيقاظ لصلاة الفجر، ولسماع درسٍ أو موعظةٍ، ولإجابة على سؤال شرعي، ولمواعدة لأهل الخير، والتواصل والتعاون معهم، ولصلة الرحم، ولنُصح المسلمين.

ولكنه في الوقت نفسه وسيلة لأمور من الشر عديدة. فكم كان الهاتف سببًا لتدمير بيوت بأسرها، وإدخال الشقاء والتعاسة على سكانها أو جرِّهم إلى مهاوي الرذيلة والفساد؟!

ولا سيما الهواتف الذكية التي تستخدم فيها الكاميرات بقصد الاتصال.

ويقع الإسراف في الاستخدام في متابعة كلِّ خبرٍ وقيلٍ وقال. والكتابة أو التعليق على كل كل قول.

ومن المظاهر التي تفشَّتْ في عصرنا الحاضر: الإسراف في السياحة المباحة. ولا يخفى أن السياحة قد تكون مباحة، وقد تكون محرمة، فالمحرمة هي تكون مشتملة على

أمرٍ محرَّم، كالاختلاط أو التبرج أو التبذير في الإنفاق ونحو ذلك. أو تكون إلى بلاد الكفر لغير حاجة أو ضرورة: "فالحاجة مثل: التجارة، ذهب يشتري منهم سلعًا يتجر بها، والضرورة كالمرض أو كصناعات لا توجد في بلاد المسلمين أو ما أشبه ذلك، لكن بشرط أن يكون عند الإنسان علم يدفع به الشبهات، وأن يكون عنده دين يمنعه عن المحرمات، أما إذا كان الإنسان يعلم من نفسه أنه ليس عنده علم يدفع به الشبهات وإذا ذهب إلى بلاد الكفر سوف يلبسون عليه دينه ويوقعونه في حيرة، فهذا لا يجوز له أن يذهب مهما كان حتى لو كان في أقصى الضرورة، وكذلك من لم يكن عنده دين يحميه بحيث يعرف من نفسه أنه رجل ضعيف الدين ولو ذهب إلى هناك لاغتر بما هم عليه من زهرة الدنيا فنقول: أيضاً لا يحل لك أن تذهب، لأن حفظ الدين واجب، فإذا اجتمعت الشروط الثلاثة: العلم والدين والحاجة أو الضرورة فلا بأس"(١).

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما السياحة في الأرض على الدَّوام فمن المشوشات للقلب إلا في حقِّ الأقوياء؛ فإنَّ المسافر وماله لعلى قلق إلا ما وقى الله، فلا يزال المسافر مشغول القلب تارة بالخوف على نفسه وماله، وتارة بمفارقة ما ألفه واعتاده في إقامته. وإن لم يكن معه مال يخاف عليه فلا يخلو عن الطمع والاستشراف الى الخلق، فتارة يضعف قلبه بسبب الفقر، وتارة يقوى باستحكام أسباب الطمع. ثم الشغل بالحط والترحال مشوش لجميع الأحوال، فلا ينبغي أن يسافر المريد إلا في طلب علم، أو مشاهدة شيخ يقتدي به في سيرته، وتستفاد الرغبة في الخير من مشاهدته؛ فإن اشتغل بنفسه واستبصر وانفتح له طريق الفكر أو العمل فالسكون أولى به"(٢).

وكذلك يكون الإسراف في الرياضات، والإفراط قد يقع في الممارسة، كما يقع في المتابعة من خلال وسائل الإعلام أو من المتابعة المباشرة، ومن الناس من يتكلَّف السَّفر والمشقة ويبذلُ الكثيرَ من المال، كما يهدر الكثير من الوقت في سبيل ذلك.

---

(١) من لقاء الباب المفتوح، محمد بن صالح العثيمين، اللقاء [٧٤].

(٢) إحياء علوم الدين (٢/٢٥٠).

ويقع الإسراف في فضول الطعام، وفضول الكلام، وفضول مخالطة الناس، وفضول النظر، وفضول الاستماع، وفضول المنام، وفضول النكاح.

فأما (فضول الطعام): فهو أن يأكل الإنسان فوق مايحتاج إليه بدنه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما فضول الطعام فهو داع إلى أنواع كثيرة من الشر؛ فإنه يحرك الجوارح إلى المعاصي، ويثقلها عن الطاعات، وحسبك بهذين شرًّا. فكم من معصية جلبها الشبع وفضول الطعام؟! وكم من طاعة حال دونها؟! فمن وقى شر بطنه فقد وقى شرًّا عظيمًا"[١].

وأما (فضول الكلام): فهو أن يطلق الإنسان لسانه فيما لا يعنيه، وأكبر منه أن يطلقه فيما لا يحل له.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما فضول الكلام فإنها تفتح للعبد أبوابًا من الشر كلها مداخل للشيطان، فإمساك فضول الكلام يسدُّ عنه تلك الأبواب كلها، وكم من حرب جرتها كلمة واحدة؟!"[٢].

وأما (فضول مخالطة الناس): فإنه قد يصيب المخالِط بآفاتٍ بسبب ما تحتفُّ به تلك المجالسُ من مخالفاتٍ، ولا سيما إذا المخالِط لا يبالي بمن جالس أو صاحب، أو بسبب ما يترتب على فضول المخالطة من إضاعة الوقت فيما لا فائدة منه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر. وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة؟! وكم زرعت من عداوة؟! وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول؟! ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة"[٣].

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٢٧٣).

(٢) المصدر السابق (٢/ ٢٧٣).

(٣) المصدر السابق (٢/٢٧٣- ٢٧٤).

وأما (فضول النظر) : فهو أن يطلق الإنسان نظره فيما حرم عليه. قال ابن القيم: "إن فضول النظر يدعو إلى الاستحسان ووقوع صورة المنظور إليه في القلب، والاشتغال به، والفكرة في الظفر به، فمبدأ الفتنة من فضول النظر"(١). قال بعض السلف: "كانوا يكرهون فضول النظر، كما يكرهون فضول الكلام. والمباح النظر الذي لا مضرة فيه في العاجل والآجل ولا منفعة"(٢). وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام"(٣).

وأما (فضول الاستماع): فهو أن يلقي الإنسان أذنيه لسماع ما لا يحل من الغيبة والنميمة، وقول الزور، وسماع الأغاني والمعازف.

وأما (فضول المنام): فهو أن يزيد الإنسان في النوم على القدر الذي يحتاج إليه في راحة بدنه، فإذا زاد على ذلك حدث به أنواع من الضرر في الدين والدنيا؛ فإن الإكثار منه مضر بالقلب، مولد للغفلة، ومثقل للبدن عن الطاعة والعمل.

وأما (فضول النكاح): فهو يضعف البدن ويمرضه. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأربعة أشياء تمرض الجسم: الكلام الكثير، والنوم الكثير، والأكل الكثير، والجماع الكثير"(٤).

وقال أبو طالب المكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وينبغي لأهل التوبة أن يحاسبوا نفوسهم في كل طرفة، ويدعوا كل شهوة، ويتركوا الفضول، وهي ستة أشياء: ترك فضول الكلام، وترك فضول النظر، وترك فضول المشي، وترك فضول الطعام، والشراب، واللباس، قال: ولا يقوى على ترك الشبهات إلا من ترك الشهوات"(٥).

---

(١) بدائع الفوائد (٢/٢٧١)، وانظر: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (١/٨٦).

(٢) مدارج السالكين (١/١٣٧)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤/٤٠٩)، التوابين، لابن قدامة (ص:١٢٦).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/٣٩٥).

(٤) زاد المعاد في هدي خير العباد (٤/٣٧٦- ٣٧٧)، الطب النبوي (ص:٣١٣).

(٥) قوت القلوب في معاملة المحبوب (١/٣٠٦).

ومن أسباب شرح الصدر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ترك فضول النظر، والكلام، والاستماع، والمخالطة، والأكل، والنوم؛ فإن هذه الفضول تستحيل آلامًا وغمومًا وهمومًا في القلب، تَحْصُرُهُ وتَحْبِسُهُ وتُضَيِّقُهُ ويَتَعَذَّبُ بها، بل غالب عذاب الدنيا والآخرة منها"(١).

وقال بعض الحكماء: ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة، وترك الضحك يثمر حلاوة الهيبة، وترك الرغبة في الحرام يثمر المحبة، وترك التجسس عن عيوب الناس يثمر صلاح العيوب، وترك التوهم في الله ينفي الشك والشرك والنفاق(٢).

وما تقدم ونحوه يعدُّ من الأمراض التي تفشت في عصرنا، كما يعدُّ عائقًا وعقبة كؤودًا في طريق الهداية.

ثالثًا: سبل الوقاية والعلاج:

١ - التعود على الإحسان في جميع الأحوال، وبذل الأموال في سبل الخيرات.

يقول الله ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّدَ الإحسان بقدر الطاقة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في آية أخرى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:٧].

٢ - رياضة النفس بحملها على الفضائل، والنأي بها عن الرذائل، ورياضة الجسد، وذلك بالإكثار من الطاعات والنوافل، والتخفف من التنعم بملذات الدنيا.

٣ - استحضار ما جاء من النصوص في فضل الإنفاق، وما جاء في ذمِّ الشح والبخل.

---

(١) زاد المعاد (٢/٢٦).

(٢) بحر الدموع، لابن الجوزي (ص:١٢٦)، وانظر: ذم فضول النظر في (ذم الهوى)، لابن الجوزي (ص:٨٦).

٤ – مكافحة البطالة، وشغل الوقت بما ينفع من العلم والعمل.

٥ – صحبة أهل الخير والعدل والفضل والزهد.

٦ – تجنب الشبع، وحمل النفس على القصد أو التقلل من المأكل والمشرب والملبس والمركب، والتوسط في ذلك من غير إسراف ولا تقتير.

٧ – التفكر في آثار الإسراف وعواقبه المترتبة على البدن والقلب والفكر والسلوك.

٨ — دوام النَّظر في سُنَّة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسيرته العطرة، فهو خير قدوة في الزهد، وفي القصد والاعتدال، وفي التطلع إلى الآخرة مع عدم إغفال الحقوق والواجبات، وفي العناية بالنهوض والريادة لهذه الأمة في سائر المجالات.

٩ — دوام النَّظر في سيرة السلف الصالح[١].

١٠ — العناية بالأخلاق والتربية في البيت والمدرسة والجامعة، ولا سيما التربية الأولى كما جاء مبينًا في عقبة: (البيئة الفاسدة والتربية السيئة).

١١ – الرقابة الحكيمة للأولاد والطلاب.

١٢ — تذكر الموت والآخرة.

(١) انظر ما جاء في عقبة (التنازع على حطام الدنيا).

العقبة الحادية الخمسون

الاستدراج

أولًا: تعريف الاستدراج وبيان كونه من العقبات:

١ – تعريفه لغة:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الاستدراج: التقريب منزلةً منزلة من الدرج؛ لأن الصاعد يرقى درجة درجة"(١).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستدراج هو الأخذ في الشيء، والذهاب فيه درجة فدرجة، كالمراقي والمنازل في ارتقائه ونزوله"(٢).

أصله من درج الغلام يدرج إذا مشى قليلًا أول ما يمشي"(٣).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاد، أو الاستنزال درجة بعد درجة. ومنه: ومنه: دَرَجَ الصَّبِيُّ: إذا قارب بين خطاه. ودَرَجَ الْكِتَابَ: طواه شيئًا بعد شيء"(٤).

٢ – تعريفه في الاصطلاح:

ذكر الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ من معاني الاستدراج:

"أ. أن يجعل الله ﷻ العبد مقبول الحاجة وقتًا فوقتًا إلى أقصى عمره؛ للابتدال بالبلاء والعذاب.

وقيل: الإهانة بالنظر إلى المآل.

ب. أن تكون بعيدًا من رحمة الله ﷻ، وقريبًا إلى العقاب تدريجيًا.

---

(١) فتح الباري (٨/ ٣٠١)، وانظر: عمدة القاري، للعيني (١٨/٢٣٧).

(٢) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (١٠/٣٢٩٧)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٨/٣٢٥٧).

(٣) انظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:١٩٠).

(٤) الكشاف (٢/١٨٢)، وانظر: معالم التنزيل (٢/٢٥٥).

ج. الدنو إلى عذاب الله بالإمهال قليلًا قليلًا.

د. هو أن يرفعه الشيطان درجة إلى مكان عال، ثم يسقط من ذلك المكان حتى يهلك هلاكًا.

هـ. هو أن يقرب الله ﷻ العبد إلى العذاب والشدة والبلاء في يوم الحساب"[(١)].

وقال الكفوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الاستدراج: هو أن يعطي الله ﷻ العبد كل ما يريده في الدنيا؛ ليزداد غيُّه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى"[(٢)].

وقيل: الاستدراج هو إمهال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى للعبد حتى يظن أنه لن يحاسب على تماديه في المعاصي.

وذكر صاحب (الفروق اللغوية) أن ثمة فرقًا بين الإملاء والاستدراج؛ فالإملاء: هو الامهال والتأخير. والاستدراج: هو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله ﷻ له نعمة، وأنساه الاستغفار إلى أن يأخذه قليلًا قليلًا ولا يباغته، فبينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء، وليس كل إملاء استدراجًا"[(٣)].

والاستدراج كما يقع للكافرين فإنه يقع لغيرهم، وهو من المزالقِ الخطيرة إلى الضَّلال وسوء العاقبة، فقد يصلُ بالبعضِ إلى الزَّيغ عن الجادَّةِ بعد لزومِ الصِّراط، وإلى النُّكوص بعد الاستقامة، وإلى التقاعسِ عن الطَّاعات، والقعود عن طلب الهداية بعدَ الهمَّةِ والنَّشاط، وقد يؤول إلى خذلانٍ بعدَ إحسانٍ، وإلى انتكاسٍ من الكرامة إلى الهوان، وإلى انقلابٍ من فيضِ النِّعَمِ إلى سَلْبِها، ومن صِحَّةٍ إلى مرض، ومن أَمْنٍ إلى خوف، ومن انبساطٍ إلى ضِيق، ومن نعيمٍ إلى عذاب.

---

(١) التعريفات (ص:٢٠).

(٢) الكليات (ص:١١٣).

(٣) معجم الفروق اللغوية (ص:٧٢-٧٣)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

قال الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧]، وقال ﷻ: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسبحان الله! كم من قلب منكوس -وصاحبه لا يشعر؟- وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ومغرور بستر الله عليه؟ ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها كرامة"(١).

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقال ﷻ: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

ومعنى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: "سنستدنيهم قليلًا قليلًا إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله ﷻ نعمه عليهم مع انهماكهم في الغيّ، فكلما جدَّد عليهم نعمةً ازدادوا بطرًا، وجدَّدوا معصية، فيتدرَّجون في المعاصي بسبب ترادف النِّعم، ظانِّين أنَّ مواترة النعم أثرةٌ من الله ﷻ وتقريب، وإنما هي خذلانٌ منه وتبعيد، فهو استدراجُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، نعوذ بالله منه.

(١) الجواب الكافي (ص:١١٩).

واستدراج الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العصاة: أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي.

﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج. قيل: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، وهو داخل في حكم السين، أي: أمهلهم.

﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ سماه كيدًا؛ لأنه شبيه بالكيد، من حيث إنه في الظاهر: إحسان، وفي الحقيقة: خذلان"[1].

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: "سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون"[2].

وفي الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**))، ثم تلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤][3].

ومن الإملاء والاستدراج: قوله ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥]. ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ

---

(١) الكشاف (٢/١٨٢)، تفسير النسفي (١/٦٢١)، (٣/٥٢٥)، البحر المحيط، لأبي حيان (٥/٢٣٣)، وانظر: بحر العلوم (١/٥٧١)، (٣/٤٨٦)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٢/٤٣١-٤٣٢)، معالم التنزيل (٢/٢٥٥)، الخازن (٢/٢٧٧).

(٢) تهذيب اللغة، للأزهري (١٠/٣٣٩)، الوسيط (٢/٤٣١- ٤٣٢)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:١٩٠).

(٣) أخرجه أحمد [١٧٣١١]، والطبراني في (الكبير) [٩١٣]، والبيهقي في (الشعب) [٤٢٢٠]. قال العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٧٧): "رواه أحمد والطبراني والبيهقي في (الشعب) بسند حسن".

أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ فإن ذلك استدراجٌ لهم ووبالٌ عليهم حسبما ينبئ عنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب.

﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك لهم نقمةً لا نعمةً(١).

وقال الله ﷻ في آية أخرى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

ومن الإملاء والاستدراج: قوله ﷻ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "أيظنون أن المال الذي نرزقهم إياه؛ لكرامتهم علينا؟! إن ظنوا ذلك أخطأوا، بل هو استدراج كما قال ﷻ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]"(٢). "ومعناه: أن إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه، وعرفوا إنعام الله عليهم بتفسيح المدّة، وترك المعاجلة بالعقوبة"(٣).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي هذا دليل على أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا أحسن عمله؛ لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًّا للإنسان، وضررًا عليه. فهؤلاء الكفار يملي الله ﷻ لهم، أي: يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات، لا لخير لهم ولكنه شر لهم -والعياذ بالله-؛ لأنهم سوف يزدادون بذلك إثمًا. ومن ثم كره بعض العلماء أن يدعى للإنسان بطول البقاء. قال: لا

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٧٤)، تفسير البيضاوي (٣/٨٥)، السراج المنير (١/٦٢١).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٧١).

(٣) الكشاف (١/٤٤٤- ٤٤٥).

تقل: أطال الله بقاءك إلا مقيدًا؛ قل: أطال الله بقاءك على طاعته؛ لأن طول البقاء قد يكون شرًّا للإنسان"[1].

ومن أنواع الإملاء والاستدراج: ما بينه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: ((**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**))، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢][2].

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "((**إن الله ليملي**)) أي: ليمهل، والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر ((**للظالم**))؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾"[3].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن الاستدراج أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّ وَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر"[4].

وقد تقدم أن من أساليب الشيطان في الإغواء والإضلال أن يزين للإنسان الباطل والحرام بصورة الحق والحلال، بل ويُهَوِّنه عليه؛ حتى يتجرأ على أعظم المحرمات من غير اكتراث ولا مبالاة، وتارة يجره إلى المعصية خطوة بعد خطوة.

والمعركة بين الشيطان والإنسان ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدًا عن منهج الله عَزَّ وَجَلَّ، والتزيين له فيما عداه. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥].

والمعنى: الشيطان سول لهم، أي: سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله جل وعلا أملى لهم: أي: أمهلهم إمهال استدراج.

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٠٧ - ١٠٨).

(٢) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٣) فيض القدير (٢/٢٦٤).

(٤) شرح رياض الصالحين (٢/٤٩٨).

وكون التسويل من الشيطان، والإمهال من الله ﷻ، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله ﷻ، كقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في تزيين الشيطان لهم: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقوله ﷻ: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [النحل:٦٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡ﴾ [إبراهيم:٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في إملاء الله ﷻ لهم استدراجًا: ﴿سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٢ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٌ ١٨٣﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ خَيۡرٞ لِّأَنفُسِهِمۡۚ إِنَّمَا نُمۡلِي لَهُمۡ لِيَزۡدَادُوٓاْ إِثۡمٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ [آل عمران:١٧٨]..والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة"(١).

ثانيًا: الوقاية من خطر الاستدراج والعلاج:

١ – الإخلاص في القول والعمل.

٢– شكر الله ﷻ على نعمه.

٣ – الالتجاء إلى الله ﷻ، والدعاء.

٤ – الاستعاذة بالله ﷻ من خطر الاستدراج، ومن شرِّ الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس، ويزين لهم ما فيه هلاكهم.

٥ – أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشكر، وذكر الله ﷻ وطاعته على الدَّوام. فيجازى في الآخرة بالحسنى جزاء لما عمل في أيامه الخالية. قال الله ﷻ: ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَآ أَسۡلَفۡتُمۡ فِي ٱلۡأَيَّامِ ٱلۡخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤].

٦ – أن لا يأمن مكر الله ﷻ، ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وأن يكون حاله بين الخوف والرجاء.

---

(١) أضواء البيان (٧/٣٨٠- ٣٨١).

٧ – أن يحذر سوء الخاتمة. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**))(١). نسأل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

٨ – الصبر على الابتلاء.

٩ – شكر الله ﷻ على نعمه، والنظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله ﷻ، كما قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

١٠ – تزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها، فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

العقبة الثانية والخمسون

آفات اللسان

توطئة في التحذير من آفات اللسان:

إنَّ اللسان من النِّعم العظيمة التي أنعم الله ﷻ بها على الإنسان، به يذكر الله ﷻ، وهو وسيلة من وسائل التواصل بين البشر، ولكن خطره عظيم، فكما أنه يستعمل في الخير فهو يستعمل كذلك في الشر والإفساد، فيكون من وسائل الإضلال عن الحق، والصد عن الهداية، والتحريش بين الناس، والتحريض على الفتنة، والخوض في الباطل، والسَّبِّ واللعن، وقول الفحش، وبذاءة الكلام، والمخاصمة بالباطل، والمراء والجدال، والكذب في القول واليمين، والوعد الكاذب، والغيبة والنميمة، والإفك والبهتان، والسخرية والاستهزاء، وإفشاء السر، وكلام ذي الوجهين، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات إلى غير ذلك.

وآفاتُ اللسان كثيرةٌ، وقد أوصلها الإمامُ الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ربع المهلكات من (الإحياء) إلى عشرين آفة(١).

وقد أفردتُ بعضها بالبحث في كتاب مستقل.

ومن شأن المسلم أن لا يُؤْذِيَ أَحدًا من المسلمين بفعلٍ ولا قَوْلٍ، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: ((**المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه**))(٢).

وفي رواية: عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قالوا يا رسول الله، أي الإسلام أفضل؟ قال: ((**من سَلِمَ المسلمون من لسانه، ويده**))(٣).

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/١٠٧-١٦٣).

(٢) صحيح البخاري [١٠]. وفي رواية عند مسلم [٤٠] عن أبي الخير، أنه سمع عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: إن رجلا سأل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي المسلمين خير؟ قال: ((من سلم المسلمون من لسانه ويده)).

(٣) صحيح البخاري [١١]، مسلم [٤٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: المسلم الكامل، وليس المراد نفي أصل الإسلام عن من لم يكن بهذه الصفة، بل هذا كما يقال: العلم ما نفع، أو العالم زيد، أي: الكامل أو المحبوب، وكما يقال الناس العرب، والمال الإبل، فكله على التفضيل لا للحصر"[(١)].

وعبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فقلت: يا رسول الله، أي الأعمال أفضل؟ قال: ((**الصلاة على ميقاتها**))، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: ((**بر الوالدين**))، قلت: ثم ماذا يا رسول الله؟ قال: ((**أن يَسْلَم الناس من لسانك**))، ثم سكت، ولو استزدته لزادني[(٢)].

وعن سفيان بن عبد الله الثقفي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله حدثني بأمر أعتصم به، قال: ((**قل رَبِّيَ اللهُ ثم استقم**))، قلت: يا رسول الله ما أَخْوَفُ ما تَخَافُ عَلَيَّ، فَأَخَذَ بلسَانِ نَفْسِه، ثم قال: ((**هذا**))[(٣)].

وعن المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال: ((**إن الله عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عليكم: عقوقَ الأُمَّهات، ووَأْدَ البنات، ومَنْعًا وهَاتِ، وكَرِه لكم ثلاثًا: قِيلَ وقَال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال**))[(٤)].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/٢).

(٢) أخرجه الشاشي [٧٦٠]، والطبراني [٩٨٠٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٧٩]. قال الهيثمي (٣٠١/١٠): "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح غير عمرو بن عبد الله النخعي، وهو ثقة".

(٣) أخرجه الطيالسي [١٣٢٧]، وأحمد [١٥٤١٨]، وابن ماجه [٣٩٧٢]، والترمذي [٢٤١٠]، وقال: "حديث حسن صحيح، وقد روي من غير وجه عن سفيان بن عبد الله الثقفي" وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٦٩٩]، والطبراني في (الكبير) [٦٣٩٦]، والحاكم [٧٨٧٤] وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٧٢].

(٤) صحيح البخاري [١٤٧٧، ٢٤٠٨، ٥٩٧٥، ٦٤٧٣، ٧٢٩٢]، مسلم [٥٩٣].

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله يرضى لكم ثلاثًا، ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم: أن تعبدوه، ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، ويكره لكم: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال))**(١).

قوله: ((**وكَرِه لكم: قِيلَ وقَال**)) هو الإكثار من الكلام، والإرجاف، نحو قول الناس: قال فلان، وفعل فلان، والخوض فيما لا ينبغي(٢).

وقيل: فيه تنبيه على ترك الخوض في أخبار الناس، وتتبع أحوالهم، وحكاية أقوالهم وأفعالهم(٣).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما قوله: ((**ويكره لكم قيل وقال**)) فالمعنى في قيل وقال -والله أعلم-: الخوض في أحاديث الناس التي لا فائدة فيها، وإنما جُلُّهَا الْغَلَطُ، وحَشْوٌ، وغِيبَةٌ، وما لا يُكْتَبُ فيه حَسَنَةٌ، ولا سَلِمَ القائلُ، والمسْتَمِعُ فيه من سَيِّئِه.

قال الشاعر:

ومن لا يملِكُ الشَّفتينِ يُسْحَقْ ... بِسُـــوءِ اللَّفْظ من قِيلٍ وقَالَ(٤)

---

(١) صحيح مسلم [١٧١٥]. و((ومَنْعًا وهَات)) نهى أن يمنع الرجل ما توجه عليه من الحقوق، أو يطلب ما لا يستحقه.

(٢) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٣١/٦)، المنتقى شرح موطأ الإمام مالك (٣١٥/٧).

(٣) انظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٩٣/٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٢)، مرقاة المفاتيح (٣٠٨٢/٧).

(٤) وقيل: (وقل خيرا أو اصمت وانه عما*** نهاك الشرع من قيل وقالِ). انظر: صيد الأفكار في الأدب (٣٥٦/٢). وقيل: (لقاء الناس ليس يفيد شيئًا***سوى الهذيان من قيل وقال). (فأقلل من لقاء الناس إلا***لأخذ العلم أو إصلاح حال). انظر: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب (١١٤/٢)، غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب (٤٧٦/٢).

وقال أبو العتاهية:

عليكَ ما يَعْنِيكَ من كُلِّ ما تَرَى ... وبالصَّمْتِ إلَّا عن جميلٍ تَقُولُهُ

تَزَوَّدْ من الدُّنيا بزادٍ من التُّقَى ... فكلٌّ بها ضيفٌ وشِيكٌ رَحِيلُهُ[1]"[2].

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا النهي لا بد من تقييده بالكثرة التي لا يؤمن معها وقوع الخَطَل[3] والخطأ، والتسبب إلى وقوع المفاسد من غير تعيين، والإخبار بالأمور الباطلة، وقد ثبت عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكلِّ ما سَمِعَ**))[4]، وقال بعض السلف[5]: لا يكون إمامًا من حدث بكل ما سمع"[6].

وعن عَدِيِّ بن حاتم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أَيْمَنُ امْرِئٍ وأَشْأَمُهُ ما بين لحييه**))، قال وهب: يعني: لسانه[7]. "أي: أعظم ما في جوارح الإنسان يمنًا، يمنًا، أي: بركة، وأعظم ما فيها شؤمًا، أي: شرًّا. فقوله: (أيمن) بضم الميم، من اليمن، وهو البركة، و(أشأم) بالهمزة بعد الشين، من الشؤم، وهو الشَّرُّ"[8].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن العجب أن الإنسان يهون عليه التحفظ والاحتراز من أكل الحرام والظلم والزنى والسرقة وشرب الخمر، ومن النظر المحرم وغير ذلك، ويصعب عليه التحفظ من حركة لسانه، حتى ترى الرجل يشار إليه بالدين والزهد والعبادة، وهو يتكلم

---

(١) ديوان أبي العتاهية (ص:٣٦٧)، دار بيروت للطباعة [١٤٠٦هـ].

(٢) الاستذكار (٨/ ٥٧٩).

(٣) (الخَطَلُ): المنطق الفاسد المضطرب، وقد (خَطِلَ) في كلامه و(أَخْطَلَ) أي: أَفْحَشَ. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة (خطل) (٤/١٦٨٥).

(٤) صحيح مسلم (١/١٠) [٤].

(٥) قال مسلم في (صحيحه): "أخبرنا ابن وهب، قال: قال لي مالك: اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماما أبدا وهو يحدث بكل ما سمع. صحيح مسلم (١/١١) [٤].

(٦) إحكام الأحكام (١/٣٢٢).

(٧) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [٣٧٣]، وابن حبان [٥٧١٧]، والطبراني في (الكبير) [١٩٨]. قال الهيثمي (١٠/٣٠٠): "رجاله رجال الصحيح".

(٨) فيض القدير (٣/١٦٥).

بالكلمات من سخط الله ﷻ لا يلقي لها بالًا، ينزل بالكلمة الواحدة منها أبعد مما بين المشرق والمغرب، وكم ترى من رجل متورع عن الفواحش والظلم، ولسانه يفري في أعراض الأحياء والأموات، ولا يبالي ما يقول.

وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظر فيما رواه مسلم في (صحيحه) من حديث: جُنْدب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدَّث أن رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإن الله ﷻ قال: ((**من ذا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**))[1]. فهذا العابد الذي قد عبد الله ﷻ ما شاء أن يعبده، أحبطت هذه الكلمة الواحدة عمله كله.

وفي حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحو ذلك، ثم قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته"[2].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سمع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين فيها، يَزِلُّ بها في النار أبعد مما بين المشرق**))[3].

وفي رواية: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالًا، يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله، لا يلقي لها بالًا، يهوي بها في جهنم**))[4]. وعند مسلم: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ينزل بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب**))[5]. وفي رواية: ((**إن العبد ليتكلم بالكلمة، ما يتبين ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**))[6].

(١) صحيح مسلم [٢٦٢١]. و(الْمُتَأَلِّي): الحالِف، و(الأَلْيَة): اليمين.
(٢) انظر: الجواب الكافي، لابن القيم (ص:١٥٩- ١٦٠).
(٣) صحيح البخاري [٦٤٧٧].
(٤) صحيح البخاري [٦٤٧٨].
(٥) صحيح مسلم (٤٩) [٢٩٨٨].
(٦) صحيح مسلم (٥٠) [٢٩٨٨].

قوله: ((**ما يتبين فيها**)) معناه: لا يتدبرها ويفكر في قبحها، ولا يتطلب معناها، أي: لا يثبتها بفكره ولا يتأملها حتى يتثبت فيها، ولا يخاف ما يترتب عليها، وهذا كالكلمة عند السلطان وغيره من الولاة، أو معناه كالكلمة التي يترتب عليها إضرار مسلم ونحو ذلك[1].

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولا أعلم خلافًا أن الكلمة المذكورة في هذا الحديث من رضوان الله، ومن سخط الله. والمعنى في ذلك مما يرضي الله ومما يسخطه أنها المقولة عند السلطان بالخير، فيرضى الله تعالى أو بالشر والباطل فيسخط الله"[2].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقال أهل العلم: هي الكلمة عند السلطان بالبغي والسعي على المسلم، فربما كانت سببًا لهلاكه"[3]. ونقل عن ابن وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنها التلفظ بالسوء والفحش[4].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**وهل يَكُبُّ الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حَصَائِدُ ألسنتهم؟**))[5].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذا الحديث حث على حفظ اللسان، فينبغي لمن أراد أن ينطق أن يتدبر ما يقول قبل أن ينطق، فإن ظهرت فيه مصلحة تكلم، وإلا أمسك"[6].

(١) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٧)، فتح الباري (١١/٣١٠).

(٢) الاستذكار (٨/ ٥٥٤- ٥٥٥).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/١٨٦- ١٨٧).

(٤) فتح الباري (١١/٣١١).

(٥) أخرجه أحمد [٢٢٠١٦]، وابن ماجه [٣٩٧٣]، والترمذي [٢٦١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١١٣٣٠]، من رواية أبي وائل عن معاذ. والحاكم [٣٥٤٨]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين". ووافقه الذهبي. من رواية ميمون بن أبي شبيب، عن معاذ. وللحديث طرق، وقد أخرجه غير واحد. قال العراقي (ص:٩٩٧): "أخرجه الترمذي وصححه، وابن ماجه، والحاكم، وقال: صحيح على شرط الشيخين".

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٧)، فتح الباري (١١/٣١١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد بحصائد الألسنة: جزاء الكلام المحرم وعقوباته؛ فإن الإنسان يزرع بقوله وعمله الحسنات والسيئات، ثم يحصد يوم القيامة ما زرع، فمن زرع خيرًا من قول أو عمل، حصد الكرامة، ومن زرع شرًّا من قول أو عمل، حصد غدًا الندامة.

وظاهر الحديث يدل على أن أكثر ما يدخل به الناس النار: النطق بألسنتهم؛ فإن معصية النطق يدخل فيها: الشرك، وهي أعظم الذنوب عند الله ﷻ، ويدخل فيها: القول على الله ﷻ بغير علم، وهو قرين الشرك، ويدخل فيها: شهادة الزور التي عدلت الإشراك بالله ﷻ، ويدخل فيها: السحر، والقذف، وغير ذلك من الكبائر والصغائر؛ كالكذب والغيبة والنميمة، وسائر المعاصي الفعلية لا يخلو غالبًا من قول يقترن بها يكون معينا عليها"[(١)].

فأكثر ما يدخل به الناس النار، ويجلب سُخْطَ الله ﷻ: النطق باللسان في الفحش وفيما لا يَحِلُّ، وقد دلَّ على ذلك أيضًا: حديث أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: ((**تقوى الله، وحسن الخلق**))، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: ((**الفم والفرج**))[(٢)].

وفي المقابل فإن حفظ اللسان من أسباب دخول الجنة، وقد جاء في الحديث عن سهل بن سعد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة**))[(٣)].

قوله: ((**ما بين لحييه**)) -بفتح اللام وسكون الحاء والتثنية- هما العظمان اللذان ينبت عليهما الأسنان علوًا وسفلًا. وأراد بما بينهما: اللسان، وما يَتَأَتَّى به: النطق وغيره، فيتناول الأقوال والأكل والشرب، وسائر ما يتأتى بالفم من الفعل[(٤)].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٧).

(٢) أخرجه أحمد [٧٩٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٢٩٤]، وابن ماجه [٤٢٤٦]، والترمذي [٢٠٠٤] وقال: "صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٧٦]، والحاكم [٧٩١٩] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٠٢٥].

(٣) صحيح البخاري [٦٤٧٤].

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١١/٣٠٩-٣١٠)، فيض القدير (٦/٢٤٣).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الضمان بمعنى: الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال، وكفه عن الحرام"(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكثر بلاء الناس من قبل فروجهم وألسنتهم، فمن سلم من ضرر هذين فقد سلم"(٢).

ومن آفات اللسان: ما يكون -من الكلام- مقدمة لكبيرة، كالكلام على سبيل المواعدة -مثلًا-. وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللَّمَم، مما قال أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الله كتب على ابن آدم حَظَّهُ من الزِّنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين: النظر، وزِنَا اللِّسَانِ: المَنْطِق، والنفس تَمَنَّى وتشتهي، والفرج يُصَدِّقُ ذلك كُلَّهُ أو يُكَذِّبُه**))(٣).

فقوله: ((**وَزِنَا اللِّسَانِ المَنْطِق**)). "وفي رواية: ((**النطق**)) بدون ميم، أي: بما لا يجوز. وإطلاق الزنا على ما بالعين واللسان مجاز؛ لأن كل ذلك من مقدماته"(٤).

ومن آفات اللسان: الخوض في الباطل، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((**أكثر الناس خطايا يوم القيامة أكثرهم خوضًا في الباطل**))(٥).

---

(١) فتح الباري (٣٠٩/١١).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤٢٨/٨).

(٣) صحيح البخاري [٦٢٤٣، ٦٦١٢]، مسلم [٢٦٥٧].

(٤) فيض القدير (٢٤٦/٢).

(٥) أخرجه أبو داود في (الزهد) [١٥٠]، والطبراني في (الكبير) [٨٥٤٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٣١٧]. قال الهيثمي (٣٠٣/١٠): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات". وقال العراقي (ص:١٠٠٤): "أخرجه الطبراني موقوفًا على ابن مسعود بسند صحيح".

ومن السلامة والعافية: أن لا يكثرَ الإنسانُ الكلامَ، وأن يتركَ ما لا يعنيه، وأن لا يخوضَ في باطلٍ، وأن يُعْرِض عمن يخوض فيه. وقد جاء في الحديث: ((**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**))[1].

قيل: (أو) فيه بمعنى: الواو، والمعنى: فليقل خيرًا وليصمت عن الشر.

وقيل: معناه: فليقل خيرًا يثاب عليه أو يسكت عن شر يعاقب عليه.

وفي الحديث: ((**من حسن إسلام: المرء تركه ما لا يعنيه**))[2].

والذي لا يعنيه: كل ما لا تعود عليه منه منفعة لدينه ولا لآخرته، والذي يعنيه ما يخاف فيه فوات الأجر[3].

وعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -مولى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**طوبى لمن ملك لسانه، ووسعه بيته، وبكى على خطيئته**))[4].

---

(١) صحيح البخاري [٦٠١٨، ٦٠١٩، ٦١٣٥، ٦١٣٦، ٦١٣٨، ٦٤٧٥، ٦٤٧٦]، مسلم [٤٧، ٤٨].

(٢) قال العراقي (ص:١٣١٨): "أخرجه الترمذي، وقال: غريب، وابن ماجه من حديث: أبي هريرة. وهو عند مالك من رواية علي بن الحسين مرسلا" اهـ. فالحديث مروي عن أبي هريرة، وعن علي بن الحسين مرسلًا. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن ماجه [٣٩٧٦]، والترمذي [٢٣١٧]، وقال: "غريب". قال الإمام النووي: "حديث حسن" الأذكار (ص:٣٣٤)، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٢٢٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٦٣٣]، وابن عساكر (٤١/٤٢٦). حديث علي بن حسين: أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد [٢٠٦١٧]، ومالك [٣٣٥٢]، وأحمد [١٧٣٧]، والترمذي [٢٣١٨]، والطبراني في (الكبير) [٢٨٨٦]، و(الأوسط) [٣٥٩]، و(الصغير) [١٠٨٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٦٣٢] قال الهيثمي (١٨/٨): "رواه أحمد والطبراني في (الثلاثة) ورجال أحمد و(الكبير) ثقات".

(٣) انظر: حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني (٢/ ٤١٤- ٤١٥).

(٤) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٢٣٤٠]، و(الصغير) [٢١٢]. وفي (الشاميين) [٥٤٨]. قال الهيثمي (٢٩٩/١٠): "رواه الطبراني في (الأوسط) و(الصغير)، وحسن إسناده". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٩٣٠].

وعن عقبة بن عامر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله ما النَّجَاةُ؟ قال: ((**امْلِكْ عليكَ لسانَكَ، ولْيَسَعْكَ بيتُكَ، وابْكِ على خطيئتك**))(١).

وعن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه ارتقى الصَّفَا، فأخذ بلسانه فقال: يا لسان قل خَيْرًا تَغْنَمْ، وَاسْكُتْ عن شَرٍّ تَسْلَمْ، مِنْ قَبْلِ أن تَنْدَمَ، ثم قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**أكثرُ خطايا ابنِ آدَمَ في لسانه**))(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ((**والذي لا إله غيره، ما على ظهر الأرض شيء أحوج إلى طول سجن من لسان**))(٣).

وعن يحيى بن أبي كثير رَحِمَهُٱللَّهُ قال: ما صلح منطق رجل إلا عرفت ذلك في سائر عمله، ولا فسد منطقه إلا عرفت ذلك في سائر عمله(٤).

وفي (المرقاة): "لا تتكلم بما لا يعنيك؛ فإن من كثر كلامه كثر سقطه، ومن كثر سقطه كثرت ذنوبه، ولكثرة الكلام مفاسد لا تحصى، ومن أراد الاستقصاء فعليه بالإحياء"(٥).

وقال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "وأعظمُ ما يُراعى استقامتُه بعد القلب من الجوارح: اللسان؛ فإنَّه ترجمانُ القلب، والمعبِّر عنه"(٦).

---

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٣٤]، وأحمد [٢٢٢٣٥]، والترمذي [٢٤٠٦]، وقال: "حديث حسن". وأخرجه أيضًا: الطبراني [٧٤١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٩)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٨٤].

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) [١٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٤٤٦]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤/١٠٧)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٨٤]. قال الهيثمي (١٠/٢٩٩): "رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح". وقال العراقي: "أخرجه الطبراني، وابن أبي الدنيا في (الصمت)، والبيهقي في (الشعب) بسند حسن".

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦٤٩٩]، وأبو داود في (الزهد) [١٤٩]، والطبراني في (الكبير) [٨٧٤٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٣٤). قال الهيثمي (١٠/ ٣٠٣): "رواه الطبراني بأسانيد، ورجالها ثقات".

(٤) ذكره أبو نعيم في (الحلية) (٣/ ٦٨)، وابن رجب في (جامع العلوم والحكم) (٢/١٤٩).

(٥) مرقاة المفاتيح (١/١٠٦).

(٦) جامع العلوم والحكم (١/٥١٢).

وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رفعه قال: ((**إذا أصبح ابن آدم فإن الأعضاء كُلَّها تُكَفِّرُ اللِّسانَ فتقول: اتَّقِ الله فينا فإنما نحن بك، فإن استقمت استقمنا وإن اعوججت اعوججنا**))(١).

"فاللسان أكثر الأعضاء عملًا، فإن استقام استقامت، وإن اعوج اعوجت. ولكثرة الكلام مفاسد يتعذر إحصاؤها. لا تتكلم بما يهجس في نفسك من الوساوس؛ فإنك غير مؤاخذ به ما لم تتلفظ أو تصمم أو لا تتفوه بما ستره الله عليك؛ فإن التوبة منه أرجى قبولًا، والعفو عنه أقرب وقوعًا. وهذا ما لم يتعلق بالكلام مصلحة كإبلاغ عن الله ﷻ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعليم علم شرعي، وأمر بمعروف ونهي عن منكر، وإصلاح بين الناس ونحو ذلك من كل أمر ديني أو دنيوي يترتب على السكوت عنه فوت مصلحة"(٢).

ومن شرف اللسان –إن استعمل في الخير– أنه الآلة في إعطاء المعارف والتوجيه والإرشاد والتوعية. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما اللسان: فإنما خلق لتكثر به ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وتلاوة كتابه، وترشد به خلق الله ﷻ إلى طريقه، وتظهر به ما في ضميرك من حاجات دينك ودنياك. فإذا استعملته في غير ما خلق له، فقد كفرت نعمة الله ﷻ فيه، وهو أغلب أعضائك عليك وعلى سائر الخلق، ولا يكب الناس في النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم. فاستظهر عليه بغاية قوتك حتى لا يكبك في قعر جهنم"(٣).

---

(١) الحديث روي مرفوعًا وموقوفًا. المرفوع أخرجه الطيالسي [٢٣٢٣]، وأحمد [١١٩٠٨]، وعبد بن حميد [٩٧٩]، والترمذي [٢٤٠٧]، وأبو يعلى [١١٨٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٩٥]. والموقوف أخرجه هناد في (الزهد) (٥٣٢/٢)، والترمذي [٢٤٠٧]، وقال: "الموقوف أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي الدنيا في (الصمت وآداب اللسان) [١٢].

(٢) انظر: فيض القدير (١٩٤/١)، التيسير (١٧٤/١)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٤٨٨/٢).

(٣) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص:٥٢- ٥٣).

ولله ﷻ في كل عضو من أعضاء الإنسان أمانة. فأمانة اللسان: أن لا يستعمله في الكذب، والغيبة، والنميمة، والكفر، والبدعة، والفحش، وغيرها[1].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اللسان من نعم الله العظيمة ولطائف صنعه الغريبة؛ فإنه صغير جِرْمُهُ عظيم طاعته وجُرْمُه؛ إذ لا يستبين الكفر والإيمان إلا بشهادة اللسان، وهما غاية الطاعة والعصيان.

وقال: فمن أطلق عَذَبَةَ اللسان[2]، وأهمله مرخى العنان سلك به الشيطان في كل ميدان، وساقه إلى شفا جرف هار، إلى أن يضطره إلى البوار، ولا يَكُبُّ النَّاسَ في النَّار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم، ولا ينجو من شر اللسان إلا من قيده بلجام الشرع، فلا يطلقه إلا فيما ينفعه في الدنيا والآخرة، ويكفه عن كل ما يخشى غائلته في عاجله وآجله. وأعصى الأعضاء على الإنسان اللسان؛ فإنه لا تعب في إطلاقه، ولا مؤنة في تحريكه. وقد تساهل الخلق في الاحتراز عن آفاته وغوائله، والحذر من مصائده وحبائله، وإنه أعظم آلة الشيطان في استغواء الإنسان"[3]. قال الله ﷻ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. فإذا كان ما تكلَّم به العبدُ من خيرٍ وشَرٍّ مكتوبًا في ديوانه مقرَّرًا عند حضور الْمَلِكِ المتعال فاللازم له الإمساك عن فُضُول الكلام؛ لئلا يعتريه الخجلة من الله ﷻ فضلًا عن الحرام[4].

فلا نجاة من آفات اللسان إلا بالنطق بالخير أو الصمت. وقد جاء في الحديث: ((**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت**))[5]. فهذا الحديث المتفق على صحته

---

(١) انظر: مفاتيح الغيب (١٠/١٠٩)، غرائب القرآن (٢/٤٣٣)، الخازن (١/٣٩٢)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٤٤٣).

(٢) يقال: ما أَرَقَّ عَذَبَةَ لسانه، والحق على عَذَبَات ألسنتهم. وعَذَبَةُ اللسان: طَرَفُه الدقيق. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (عذب) (١/١٧٨)، وانظر: أساس البلاغة (١/٦٣٨).

(٣) إحياء علوم الدين (٣/١٠٨).

(٤) انظر: بريقة محمودية (٣/١٥٨).

(٥) صحيح البخاري [٦٠١٨، ٦٠١٩، ٦١٣٥، ٦١٣٦، ٦١٣٨، ٦٤٧٥]، مسلم [٤٧، ٤٨].

نص صريح في أنه لا ينبغي للإنسان أن يتكلم إلا إذا كان الكلام خيرًا، وهو الذي ظهرت مصلحته للمتكلم(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا أراد الإنسان أن يتكلم بالكلمة نظر: هل فيها ربح وفائدة أم لا؟ فإن لم يكن فيها ربح أمسك عنها، وإن كان فيها ربح، نظر: هل تفوته بها كلمة أربح منها؟ فلا يضيعها بهذه. وإذا أردت أن تستدل على ما في القلب، فاستدل عليه بحركة اللسان؛ فإنه يطلعك على ما في القلب، شاء صاحبه أم أبى. قال: وفي اللسان آفتان عظيمتان، إن خلص العبد من إحداهما لم يخلص من الأخرى: آفة الكلام، وآفة السكوت، وقد يكون كل منهما أعظم إثمًا من الأخرى في وقتها، فالساكت عن الحق شيطان أخرس، عاص لله، مراء مداهن إذا لم يخف على نفسه، والمتكلم بالباطل شيطان ناطق، عاص لله ﷻ، وأكثر الخلق منحرف في كلامه وسكوته فهم بين هذين النوعين، وأهل الوسط -وهم أهل الصراط المستقيم- كفوا ألسنتهم عن الباطل، وأطلقوها فيما يعود عليهم نفعه في الآخرة، فلا ترى أحدهم يتكلم بكلمة تذهب عليه ضائعة بلا منفعة، فضلًا أن تضره في آخرته، وإن العبد ليأتي يوم القيامة بحسنات أمثال الجبال، فيجد لسانه قد هدمها عليه كلها، ويأتي بسيئات أمثال الجبال فيجد لسانه قد هدمها من كثرة ذكر الله ﷻ وما اتصل به"(٢).

وقد نهى الله ﷻ عن الجهر بالكلام السيء فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨]. وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: **((يا عائشة، متى عَهِدْتِني فَحَّاشًا، إن شَرَّ الناس عند الله منزلة يوم القيامة: من تركه الناس اتِّقَاءَ شَرِّه))**(٣).

---

(١) انظر: الكبائر، للذهبي (ص:١٢٧).

(٢) الجواب الكافي، لابن القيم (ص:١٥٨- ١٦١).

(٣) صحيح البخاري [٦٠٣٢].

وهذه صورة توضيحية لآفات اللسان التي يترتب عليها الإفساد:

آفة الكذب
صور الكذب
أ. القول على الله ﷻ بغير علم. ب. الكذب على الرسول ﷺ. ج. الكذب على النَّاس في المعاملات ونحوها. د. المخاصمة بالباطل. هـ. إشاعةُ الكذبِ ونَقْلُه -(السَّمَّاعون للكذب)-. و. قول الزور. ز. الكذب في المزاح. ح. الكذب في المنام. ط. الكذب في دعوى النسب. ي. أن ينسب الإنسان إلى نفسه ما لم يعط. ك. الكذب في وسائل الإعلام.

آفة الغيبة وآفة النميمة	
صور الغيبة	صور النميمة
أ. الإصغاء للمغتاب، دون ترك مجلسه، أو زجره ونهيه. ب. الاستماع إلى كل ما يشاع ونقله دون تبين وتبصر. ج. التعريض بما يلحق النقص أو العيب بالمغتاب. د. أن يذكر حال شخص، فيمدحه في جانب، ويعيب عليه في آخر.	أ. السعي بين الناس بالفتنة، والعمل على التفريق بينهم، وإيغار الصدور، وإذكاء نار العداوة والبغضاء بين المتحابين. ب. إظهار الحديث بالوشاية، وتكون الوشاية أعظم خطرًا وأثرًا إذا كانت عند صاحب سلطة قادر على البطش وإلحاق الضرر بما لا يقدر عليه غيره. ج. نقل الحديث من قوم إلى قوم، على جهة الإفساد والشر. د. كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وبأي طريقة كان الكشف من نحو: الكشف عن سوءات الناس، سواء كان ذلك باللسان، أو بالغمز، أو بالإيماء -كما تقدم-. د. إفشاء السر، وهتك الستر. هـ. التحريش بين الناس بقصد الإفساد.

آفة البهتان والإفك	آفة قذف المحصنات

آفة المجادلة بالباطل

الجدل المذموم الذي يترتب عليه الإفساد:

أ. ما يكون لدفع الحق، والترويج للباطل. أو تحقيق العناد، أو ليلبس الحق بالباطل.

ب. لما لا يطلب به تعرف ولا تقرب.

ج. للممارة وطلب الجاه والتقدم.

د. الذي لا يعتمد صاحبه على سندٍ علميٍّ أو برهانٍ منطقي، وإنما يعتمد على العصبية، والاعتداد بالذَّات والرأي.

هـ. إذا كان الجدل قائمًا على جهل مركب.

و. إذا كان المجادل يخضع لإملاءات، أو يرغب في الحصول على أجر مادي في مقابل تقييده أو تغاضيه أو سكوته عمَّا يراه حقًّا، ومقابل إفساحه المجال للخصم ليتمادى في الخروج عن ضوابط الجدال والمناظرة.

ز. إذا كان الجدل قائمًا على التحاسد والتجاحد.

ح. عدم الرد إلى الأدلة النقلية القاطعة، وإلى المسلمات العقلية التي لا يختلف بها، فلا بد أن يكون الجدال المحمود قائمًا على الحجج البينة، والأدلة الواضحة.

آفة السبِّ واللعن

صور السب واللعن:

أ. سب الله ﷻ، والرسول ﷺ، والدين والقرآن الكريم.	ب. سبُّ نساء النبي ﷺ.	ج. سبُّ الصحابة ﭫ.
د. سبُّ الابن والديه، أو التَّسَبُّبُ في سَبِّهما.	هـ. سبُّ المسلم.	و. سب الأموات.
ز. سب الدَّهر.	ح. سب الحُمَّى.	ط. سب الريح.
ي. سب الديك.	ك. سب الذِّمِّيِّ والكافر	ل. سب المخلوقات عمومًا.

أولًا: الكذب:

١ - تعريف الكذب:

الكذب: نقيض الصدق. يقال: (كَذَبَ) يَكْذِبُ -بالكسر- (كِذْبًا وَكَذِبًا) بوزن عِلْم وَكَتِف فهو (كَاذِب) و(كَذَّاب) و(كَذُوب)[١].

والكذب في الاصطلاح: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه.

والتكذيب نسبة المخبر إلى الكذب[٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عمدًا كان أو سهوًا سواء كان الإخبار عن ماض أو مستقبل. هذا مذهب أهل السنة. والنصوص المشهورة في الكتاب والسنة متوافقة متظاهرة على أنه لا إثم على الناسي والغالط"[٣].

وقال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: الكذب عند أهل السنة: الإخبار عن الشيء بخلاف ما هو عليه عمدًا كان أو غلطًا أو سهوًا، والعمد شرط للإثم[٤].

وسبب الكذب: جلب منفعة أو دفع مضرة، أو الجهل بقبحه وآفاته، أو كون الكاذب سفيهًا لا يفرق بين الصدق والكذب في إخباره، ولا يبالى بأيهما نطق، وربما كان الكذب أحلى على حَنَكِه من الصدق[٥].

يقول الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني رَحِمَهُ اللَّهُ: "وكما يكون الكذب في الأقوال يكون في الأفعال، فقد يفعل الإنسان فعلًا يُوهِمُ به حدوث شيء لم يحدث، أو يعبر به عن وجود شيء غير موجود، وذلك على سبيل المخادعة بالفعل، مثلما تكون

(١) المحكم والمحيط الأعظم (٦/٧٩٠)، الصحاح، للجوهري، مادة: (كذب) (ص: ٢٦٧) (١/٢١٠)، لسان العرب (١/٧٠٤)، مختار الصحاح (ص:٢٦٧).

(٢) انظر: غرائب التفسير وعجائب التأويل، محمود بن حمزة الكرماني (١/١٢١).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٦٩)، (١٦/٥٧).

(٤) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢/٣٦٦).

(٥) انظر: الكشاف (١/ ٥٤٥)، البحر المحيط في التفسير (٤/٧).

المخادعة بالقول، وربما يكون الكذب في الأفعال أشد خطرًا، وأقوى تأثيرًا من الكذب في الأقوال، ومن أمثلة ذلك ما حكاه الله ﷻ لنا من أقوال وأفعال إخوة يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ، إذ جاؤوا أباهم عشاء يبكون، وقالوا كذبًا: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ﴾ [يوسف:١٧]. وجاؤوا على قميص يوسف عَلَيهِ السَّلَامُ بدم كذب، فجمعوا بين كذب القول وكذب الفعل"[(١)]. قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: الكذب يقال في المقال والفعال[(٢)].

٢ – خطورة الكذب:

إن الكذب من المضلات عن الحق، وهو من السبل الموصلة إلى النار كما جاء في الحديث: ((**إنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إلى البِرِّ، وإنَّ البِرَّ يَهْدِي إلى الجَنَّة، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حتى يَكُونَ صِدِّيقًا. وإنَّ الكَذِبَ يَهْدِي إلى الفُجُور، وإنَّ الفُجُورَ يَهْدِي إلى النَّار، وإنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حتى يُكْتَبَ عند الله كَذَّابًا**))[(٣)].

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: هذا تأويل قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ۝١٤﴾[الانفطار:١٣-١٤]. وأصل الفجور: الميل عن الصدق، والانحراف إلى الكذب"[(٤)].

وجاء في حديث المنام: ((**فانطلقنا، فأتينا على رجل مُسْتَلْقٍ لِقَفَاهُ، وإذا آخر قائم عليه بِكَلُّوبٍ من حديد**[(٥)]**، وإذا هو يأتي أحد شِقَّيْ وَجْهِه فَيُشَرْشِرُ شِدْقَهُ إلى قفاه، ومَنْخِرَه إلى قفاه، وعَيْنَه إلى قفاه، فَيَشُقُّ، ثم يَتَحَوَّلُ إلى الجانب الآخر**

(١) بتصرف من (الأخلاق الإسلامية وأسسها) (٥٢٩/١).

(٢) انظر: المفردات، مادة: (كذب) (ص:٧٠٤).

(٣) صحيح البخاري [٦٠٩٤]، مسلم [٢٦٠٧].

(٤) معالم السنن (١٣٣/٤).

(٥) حديدة معوجة الرأس.

فيفعل به مثل ما فعل بالجانب الأول، فما من ذلك الجانب حتى يَصِحَّ ذلك الجانبُ كما كان، ثم يعود عليه فيفعل مثل ما فعل المرة الأولى)). وجاء في تمام الحديث قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أمَّا الذي رَأَيْتَهُ يُشَقُّ شِدْقُهُ، فَكَذَّابٌ يُحَدِّثُ بالكَذْبَة، فَتُحْمَلُ عنه حتى تَبْلُغَ الآفَاق**))[1]. وذلك يوجب الحذر من هذه المعصية.

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ويل للذي يحدث فيكذب ليضحك به القوم، ويل له، ويل له**))[2].

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "كرره إيذانًا بشدة هلكته؛ وذلك لأن الكذب وحده رأس كل مذموم، وجماع كل فضيحة، فإذا انضم إليه استجلاب الضحك الذي يميت القلب، ويجلب النسيان، ويورث الرعونة كان أقبح القبائح"[3].

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ رفع الحديث إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الكذب لا يصلح منه جَدٌّ ولا هَزْلٌ، ولا أن يَعِدَ الرجل ابنه ثم لا يُنْجِزُ له..**))[4].

ويأثم المخبر إذا علم بذلك، ثم إن علم الضرر فيه، كان من الكبائر، وإلا فمن الصغائر، وإن كانت فيه مصلحة تقاوم ذلك الضرر، صار مندوبًا تارة، وواجبًا أخرى[5]. أخرى[5].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "قد تظاهرت نصوصُ الكتاب والسنَّة على تحريم الكذب في الجملة، وهو من قبائح الذنوب، وفواحش العيوب.

---

(١) صحيح البخاري [١٣٨٦، ٦٠٩٦، ٧٠٤٧].

(٢) أخرجه أحمد [٢٠٠٤٦]، وهناد [١١٥٠]، والدارمي [٢٧٤٤]، وأبو داود [٤٩٩٠]، والترمذي [٢٣١٥] وقال: حسن. وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١١٠٦١]، والروياني [٩١٠]، والطبراني [٩٥١]، والحاكم [١٤٢]، وتمام [٦٠٠].

(٣) فيض القدير (٦/٣٦٨).

(٤) أخرجه الحاكم [٤٤٠] وقال: صحيح الإسناد على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٤٥٣].

(٥) دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان (٨/٣٧١).

وإجماع الأمة منعقدٌ على تحريمه مع النصوص المتظاهرة، فلا ضرورة إلى نقل أفرادها، وإنما المهم بيان ما يُستثنى منه، والتنبيه على دقائقه، ويكفي في التنفير منه الحديث المتفق على صحته عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا أؤتمن خان))**(١).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((أربع من كن فيه كان منافقا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهن كانت فيه خَصْلَةٌ من النفاق حتى يدعها: إذا أؤتمن خان، وإذا حَدَّثَ كذب، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر))**(٢).

وفي رواية مسلم: **((إذا وعدَ أخلفَ))** بدل **((وإذا ائتُمِن خان))**(٣).

وأما المستثنى منه: فقد روينا في (صحيحي البخاري ومسلم) عن أم كلثوم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((ليس الكَذَّابُ الذي يصلح بين الناس فَيَنْمي خيرًا، أو يقول خيرًا))**(٤). هذا القدر في صحيحيهما. وزاد مسلم في رواية له: قالت أم كلثوم: ولم أسمعه يُرَخِّصُ في شيء مما يقول الناس إلا في ثلاث: يعني: الحرب، والإصلاح بين الناس، وحديث الرجل امرأته والمرأة زوجها(٥). فهذا حديث صريح في إباحة بعض الكذب للمصلحة، وقد ضبط العلماء ما يباح منه.

وأحسن ما رأيتُه في ضبطه، ما ذكره الإمامُ أبو حامد الغزالي(٦) فقال: الكلامُ وسيلةٌ إلى المقاصد، فكلُّ مقصودٍ محمودٍ يُمكن التوصلُ إليه بالصدق والكذب جميعًا، فالكذب فيه حرام؛ لعدم الحاجة إليه، وإن أمكنَ التوصل إليه بالكذب، ولم يمكن

---

(١) صحيح البخاري [٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥]، مسلم [٥٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨]، مسلم [٥٨].

(٣) صحيح مسلم [٥٨].

(٤) صحيح البخاري [٢٦٩٢]، مسلم [٢٦٠٥].

(٥) صحيح مسلم [٢٦٠٥].

(٦) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٣٧).

بالصدق، فالكذبُ فيه مباحٌ إن كان تحصيل ذلك المقصود مباحًا، وواجبٌ إن كان المقصود واجبًا، فإذا اختفى مسلم من ظالم وسأل عنه، وجبَ الكذبُ بإخفائه، وكذا لو كان عنده أو عند غيره وديعة وسأل عنها ظالمٌ يُريدُ أخذها، وجبَ عليه الكذب بإخفائها، حتى لو أخبره بوديعةٍ عنده فأخذها الظالمُ قهرًا، وجب ضمانُها على المودع المخبر، ولو استحلفه عليها، لزمَه أن يَحلفَ ويورِّي في يمينه، فإن حلفَ ولم يورِّ، حنثَ على الأصحِّ، وقيل: لا يحنثُ، وكذلك لو كان مقصودُ حَرْبٍ، أو إصلاحِ ذاتِ البين، أو استمالة قلب المجني عليه في العفو عن الجناية لا يحصل إلا بكذب، فالكذبُ ليس بحرام، وهذا إذا لم يحصل الغرضُ إلا بالكذب، والاحتياطُ في هذا كلِّه أن يورِّي، ومعنى التورية: أن يقصدَ بعبارته مقصودًا صحيحًا ليس هو كاذبًا بالنسبة إليه، وإن كان كاذبًا في ظاهر اللفظ. ولو لم يقصد هذا، بل أطلق عبارة الكذب، فليس بحرام في هذا الموضع.

قال أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وكذلك كل ما ارتبط به غرضٌ مقصودٌ صحيح له أو لغيره، فالذي له، مثلُ أن يأخذَه ظالمٌ، ويسألَه عن ماله؛ ليأخذَه، فله أن ينكرَه، أو يسألَه السلطانُ عن فاحشة بينه وبينَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ارتكبَها، فله أن ينكرَها ويقول: ما زنيتُ، أو ما شربتُ -مثلًا-.

وقد اشتهرت الأحاديث بتلقين الذين أقرّوا بالحدود الرجوع عن الإقرار.

وأما غرضُ غيره، فمثل أن يُسألَ عن سرِّ أخيه فينكرَهُ، ونحو ذلك، وينبغي أن يُقابِلَ بين مفسدة الكذب والمفسدة المترتبة على الصدق، فإن كانت المفسدةُ في الصدق أشدَّ ضررًا، فله الكذبُ، وإن كان عكسُه، أو شكَّ حَرُمَ عليه الكذبُ، ومتى جازَ الكذبُ، فإن كان المبيحُ غرضًا يتعلّقُ بنفسه، فيستحبُّ أن لا يكذبَ، ومتى كان متعلقًا بغيره، لم تجز المسامحةُ بحقِّ غيره، والحزمُ تركه في كل موضعٍ أُبيحَ، إلا إذا كان واجبًا"[1].

وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عباده أن يلازموا الصدق في جميع الأحوال، وأن يكونوا مع الصادقين؛ لأن الصدق سبيل النجاة من خزي الدنيا وعذاب الآخرة. قال الله

(١) الأذكار، للإمام النووي (ص: ٣٧٧- ٣٧٨).

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة:١١٩]، "أي: اصدقوا، والزموا الصدق تكونوا مع أهله، وتنجوا من المهالك، ويجعل لكم فرجًا من أموركم ومخرجًا"(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "الصدق خصلة محمودة؛ ولهذا كان بعض الصحابة لم تجرب عليه كذبة لا في الجاهلية ولا في الإسلام، وهو علامة على الإيمان، كما أن الكذب أمارة على النفاق، ومن صدق نجا"(٢).

ورسولنا صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو الأسوة الحسنة للأخلاق الفاضلة فهو الصادق الأمين بشهادة من آمن ومن لم يؤمن لاعتبارات أخرى. وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، قال: لما نزلت: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٤]، ورهطك منهم المخلصين، خرج رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ حتى صعد الصفا فهتف: ((**يا صباحاه**))، فقالوا: من هذا؟ فاجتمعوا إليه، فقال: ((**أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلًا تخرج من سفح هذا الجبل، أكنتم مصدقي؟**))، قالوا: ما جرَّبنا عليك كذبًا، قال: ((**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**))(٣).

قال الماوردي رَحِمَهُٱللَّهُ: "والكذب جِمَاعُ كلِّ شَرٍّ، وأَصْلُ كلِّ ذَمٍّ؛ لسوء عواقبه، وخُبْثِ نتائجه؛ لأنَّه يُنْتِجُ النَّميمة، والنَّميمة تُنْتِجُ البغضاءَ، والبغضاءُ تؤول إلى العداوة، وليس مع العداوة أَمْنٌ ولا راحة؛ ولذلك قيل: من قَلَّ صِدْقُهُ قَلَّ صَدِيقُه"(٤).

ويقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "الكذب متضمن لفساد المعاش والمعاد، ومفاسد الكذب اللازمة له معلومة عند خاصة الناس وعامتهم، كيف وهو منشأ كل شر. فكم أزيلت بالكذب من دول وممالك، وخربت به من بلاد، واستلبت به من نعم، وتقطعت

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/٢٣٠).

(٢) المصدر السابق (٦/٤١٨).

(٣) صحيح البخاري [٤٧٧٠، ٤٩٧١]، مسلم [٢٠٨].

(٤) أدب الدنيا والدين (ص:٢٦١).

به من معايش، وفسدت به مصالح، وغرست به عداوات، وقطعت به مودات، وافتقر به غني، وذلَّ به عزيز، وهتكت به مصونة، ورميت به محصنة، وخلت به دور وقصور، وأفسد به بين الابن وأبيه، وبين الأخ وأخيه، وأحال الصديق عدوًّا مبينًا، ورد الغني العزيز مسكينًا؟! وهل ملئت الجحيم إلا بأهل الكذب الكاذبين على الله ﷻ، وعلى رسوله ﷺ، وعلى دينه، وعلى أوليائه، المكذبين بالحق حمية وعصبية جاهلية؟! وهل عمرت الجنان إلا بأهل الصدق الصادقين المصدقين بالحق؟ قال ﷻ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٤﴾ لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [الزمر:٣٢-٣٥]"(١).

وكما أن الصدق خصلة حميدة، وهو من خصال أهل الإيمان فإن الكذب من الخصال القبيحة، وهو من صفات أهل النفاق كما جاء في الحديث: ((**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَبَ**..)) الحديث(٢).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حقيقة الكذب: الإخبار عن الشيء على خلاف ما هو عليه. حرمته الشرائع، وكرهته النفوس؛ لما فيه من فساد القانون في القول والفعل لو توصل إلى غرضه به، فكيف إذا لم يوصل إلى غرض؟! وأشده: الكذب على الله ﷻ. وثانيه: الكذب على رسول الله ﷺ. وهو هو، أو نحوه. وثالثه: الكذب على الناس. وهي شهادة الزور في إثبات ما ليس بثابت على أحد، أو إسقاط ما هو ثابت، ففيه الكذب والمضرة، وتصوير الباطل في صورة الحق، في مجلس الحق، عند نائب الحق؛ ولذلك حذر النبي ﷺ من قول الزور أشد التحذير كما جاء في الحديث: عن أبي بكرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ألا أنبئكم بأكبر**

---

(١) بتصرف عن (مفتاح دار السعادة) (٢/ ٧٣- ٧٣٤).

(٢) تقدم في النفاق.

الكبائر؟)) قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: ((**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**)) -وكان متكئًا فجلس، فقال:- ((**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**)). فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت(١).

ورابعها: الكذب للنفس. وهو أمر طويل؛ لكثرة متعلقاته، ومن أشده: الكذب في المعاملات، وهو أحد أركان الفساد الثلاثة فيها، وهي: (الكذب، والعيب، والغش)"(٢).

٣ – صور الكذب:

يتبين مما تقدم أن للكذب ولآفات اللسان صورًا متعددة ومستنكرة، ومتوعدًا عليها بالنَّار، ومن هذه الصور:

أ. القول على الله بغير علم:

إنَّ القولَ على الله ﷻ بغيرِ علمٍ هو أقبحُ وأشنعُ صور الكذب؛ إذ هو أصل الأديان الباطلة، ومنشأ التبديل في الأديان المحرفة، وسبب الابتداع فى الدين الحق. قال الله ﷻ: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾﴾ [البقرة:٧٩-٨١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن المحرمات نوعان: محرم لذاته لا يباح بحال، ومحرم تحريمًا عارضًا في وقت دون وقت، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في المحرم لذاته: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه

---

(١) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٦٢٧٣، ٦٩١٩]، مسلم [٨٧].

(٢) بتصرف عن (عارضة الأحوذي) (٥/٢٠٨).

فقال: ﴿وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾، ثم انتقل منه إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. فهذا أعظم المحرمات عند الله ﷻ، وأشدها إثمًا؛ فإنه يتضمن الكذب على الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، ونسبته إلى ما لا يليق به، وتغيير دينه وتبديله، ونفي ما أثبته، وإثبات ما نفاه، وتحقيق ما أبطله، وإبطال ما حققه، وعداوة من والاه، وموالاة من عاداه، وحب ما أبغضه، وبغض ما أحبه، ووصفه بما لا يليق به في ذاته وصفاته وأقواله وأفعاله.

فليس في أجناس المحرمات أعظم عند الله ﷻ منه، ولا أشد إثمًا، وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات، فكل بدعة مضلة في الدين أساسها القول على الله بلا علم؛ ولهذا اشتد نكير السلف والأئمة لها، وصاحوا بأهلها من أقطار الأرض، وحذروا فتنتهم أشد التحذير، وبالغوا في ذلك ما لم يبالغوا مثله في إنكار الفواحش، والظلم والعدوان؛ إذ مضرة البدع وهدمها للدين ومنافاتها له أشد، وقد أنكر تعالى على من نسب إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عنده، بلا برهان من الله، فقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ [النحل:١١٦] الآية"[١].

وقد نهى الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ العباد عن اتباع خطوات الشيطان، وما يزينه لهم من قبيح الأفعال، وسيئ الأقوال، وبين حال المتبع لخطوات الشيطان، وما امتنَّ الله تعالى به على عباده المؤمنين في اتخاذهم أسباب الوقاية من خطر اتباع الشيطان. قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ۝١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝١٦٩﴾ [البقرة:١٦٨-١٦٩]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ

---

(١) مدراج السالكين (١/٣٧٨- ٣٧٩).

وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٢١].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٢٨].

وقد ضلّ أهل الكتاب بغلوهم في دينهم، وقولهم على الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى غير الحق كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٧١]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]. وقال ﷻ: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَاعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾﴾ [يونس:٦٨-٧٠].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد اتَّفق أهل الملل على أن القول على الله بغير علم حرام، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نهاهم أن يقولوا على الله إلا الحق، فكان هذا نهيًا أن يقولوا الباطل، سواء علموا أنه باطل، أو لم يعلموا؛ فإنهم إن لم يعلموا أنه باطل، فلم يعلموا أنه حق أيضًا؛ إذ الباطل يمتنع أن يُعْلَم أنه حق، وإن اعتقد معتقد اعتقادًا فاسدا أنه حق، فذلك ليس بعلم، فلا تقولوا على الله ما لا تعلمون. وإن علموا أنه باطل فهو أجدر أن لا يقولوه. وعامَّة النَّصارى ضُلَّالٌ لا يعلمون أنَّ ما يقولونه حَقٌّ، بل يقولون على الله ما لا يعلمون"[١].

---

(١) الجواب الصحيح (٤/٢٩٤- ٢٩٥).

ب. الكذب على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

إن الكذب على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فاحشة عظيمة، وموبقة كبيرة؛ لما فيه من الإفساد والإساءة والتضليل.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الكذب عليه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم أنواع الكذب؛ لأدائه إلى هدم قواعد الدين، وإفساد الشريعة، وإبطال الأحكام"(١).

وقد حذَّر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكذب عليه أشدَّ التَّحذير مبينا عاقبته فقال: **((إن كذبًا عليَّ ليس ككذب على أحد، فمن كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار))**(٢). وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا تكذبوا عليَّ فإنَّه من كَذَب عليَّ فَلْيَلِجْ النَّار))**(٣)، وقال أيضًا: **((من كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ من النَّار))**(٤). وفي رواية: **((يا أيها الناس إياكم وكثرة الحديث عني، فمن قال عني فلا يقولن إلا حقًّا وصدقًا، فمن قال عليَّ ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار))**(٥). وقال عثمان بن عفَّان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ما يمنعني أن أحدث عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن لا أكون أوعى أصحابه عنه، ولكني أشهد لسمعته يقول: **((من قال علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار))**(٦).

---

(١) فيض القدير (٢/٤٧٦).

(٢) صحيح البخاري [١٢٩١]، مسلم [٤].

(٣) صحيح البخاري [١٠٦]، مسلم [١].

(٤) صحيح البخاري [١١٠، ١٢٩١، ٣٤٦١، ٦١٩٧]، مسلم [٣، ٤].

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦٢٤٤]، وأحمد [٢٢٥٣٨]، وهناد [١٣٨٨]، والدارمي [٢٤٣]، وابن ماجه [٣٥]، والحاكم [٣٧٩]، وقال: على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(٦) أخرجه الطيالسي [٨٠]، وأحمد [٤٦٩]، والبزار [٣٨٣]. قال الهيثمي (١/١٤٣): "وفي رواية عن عثمان بن عفان يعني قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من قال علي كذبا فليتبوأ بيتا في النار)). رواهما أحمد وأبو يعلى والبزار. وفي رواية البزار: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار)). وكذلك أبو يعلى، وهو حديث رجاله رجال الصحيح، والطريق الأول فيها عبد الرحمن بن أبي الزناد، وهو ضعيف، وقد وثق".

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واتفقوا على أن تعمُّدَ الكذب على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الكبائر. وبالغ أبو محمد الجويني رَحِمَهُ ٱللَّهُ فكَفَّرَ من تعمَّدَ الكذب على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الكذب على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه "فاحشة عظيمة، وموبقة كبيرة، ولكن لا يكفر بهذا الكذب إلا أن يستحله، هذا هو المشهور من مذاهب العلماء من الطوائف. وقال الشيخ أبو محمد الجويني -والد إمام الحرمين أبي المعالي من أئمة أصحابنا-: يكفر بتعمد الكذب عليه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. حكى إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن والده هذا المذهب، وأنه كان يقول في درسه كثيرًا: من كذب على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عمدًا كفر وأريق دمه. وضعف إمام الحرمين هذا القول، وقال: إنه لم يره لأحد من الأصحاب، وإنه هفوة عظيمة. والصواب ما قدمناه عن الجمهور والله أعلم"(٢).

وتحرم رواية الموضوع إلا مقرونًا ببيان حاله(٣)؛ لحديث مسلم: **((من حَدَّث عنِّي بحديث يُرَى أنَّه كَذِبٌ فهو أحد الكاذبين))**(٤).

---

(١) نزهة النظر في توضيح نخبة الفكر (ص:١١١-١١٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١/٦٩). ووافق الجويني على هذه المقالة: ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير المالكي. انظر: الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، للدكتور محمد أبو شهبة (ص:٣٤٧).

(٣) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحرم رواية الحديث الموضوع على من عرف كونه موضوعًا، أو غلب على ظنه وضعه، فمن روى حديثا علم أو ظن وضعه، ولم يبين حال روايته ووضعه فهو داخل في هذا الوعيد مندرج في جملة الكاذبين على رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ". شرح النووي على صحيح مسلم (١/٧١).

(٤) مقدمة صحيح مسلم (١/٨). انظر: تحقيقنا لإتمام الدراية لقراء النقاية (١/٣٣٠-٣٣١).

ج. الكذب على النَّاس في المعاملات ونحوها:

إن من أنواع الكذب التي ذكرها القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الكذب للنفس -كما تقدم- قال: "وهو أمر طويل؛ لكثرة متعلقاته، ومن أشده: الكذب في المعاملات، وهو أحد أركان الفساد الثلاثة فيها، وهي: كذب، عيب، غش.

فإذا خلصت المعاملة عن هذه الثلاثة، فهي التجارة التي أذن الله ﷻ فيها، والتي يمدح صاحبها.

وأشد ما يجري في البيع الحلف الكاذب. جاء في الحديث: عن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم**)) قال: فقرأها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثلاث مرارًا، قال أبو ذر: خابوا وخسروا، من هم يا رسول الله؟ قال: ((**الْمُسْبِل، والْمَنَّان، والْمُنَفِّق سلعَتَهُ بالْحَلِف الكاذب**))(١).

فقوله: ((**والْمُنَفِّق سلعَتَهُ بالْحَلِف الكاذب**)): هو الذي يحلف على سلعته بالجودة، والسلامة من العيب، والكذب في الصفة"(٢).

واليمين أو القسم: ربط النفس بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقادًا. وسُمي الحلف يمينًا؛ لأن العرب كان أحدهم يأخذ بيمين صاحبه عند التحالف.

واليمين أو القسم من وسائل الإقناع، فهو يفيد توكيد الخبر، فإذا كان المقسم كاذبًا فإن الإثم يتضاعف ويزداد.

والأيمان الكاذبة من أبشع صور الكذب، وأشدها خطرًا؛ لأن فيها جرأة على الله ﷻ، وإضاعة للحقوق، وهدرًا للكرامة.

---

(١) صحيح مسلم [١٠٦].

(٢) انظر: عارضة الأحوذي من (٢٠٩/٥) إلى (٢١٥/٥).

وقد عظم الإسلام شأن اليمين، وحذَّر من التساهل بها؛ لأنها عهد وميثاق يجب أن يحفظ ويُؤدَّى، وأن لا يُتساهل به. قال الله ﷻ: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة:٨٩]، أي: عن الحنث، فإذا حنثتم فاحفظوها بالكفارة.

وقد ذمَّ الله ﷻ المكثرين للحلف فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ﴾ [القلم:١٠]، أي: "كثير الحلف في الحق والباطل، وكفى به مزجرة لمن اعتاد الحلف. ومثله قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٤]"[(١)]. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن الأيمان يقع الناس فيها كثيرًا، ويهمل كثير منهم ما يجب بها، فلا يحفظه، ولا يلتزمه"[(٢)].

والحلف الكاذب من صفات المنافقين كما أخبر الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن المنافقين في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٢﴾﴾ [النساء:٦١-٦٢]، ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ﴾ [التوبة:٥٦]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦٢]، ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ [التوبة:٧٤]، ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٩٦]، ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَا مِنْهُمْ وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾﴾ [المجادلة:١٤-١٥]، ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [المجادلة:١٨].

فينبغي للمسلم أن يصون نفسه عن الحلف الكاذب، وأن يحترز عن كثرة الأيمان؛ فإن ذلك من البر والتقوى. والإكثار يكون معه الحنث، وقلة رعي لحق الله تعالى، إلا إذا كان

---

(١) الكشاف (٤/٥٨٦).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٤٦٣).

الحنث خيرًا، فتمام الحفظ: أن يفعل الخير، ويكفر عن يمينه كما جاء في الحديث: **((وإني والله إن شاء الله لا أحلف على يمين، ثم أرى خيرًا منها، إلا كفرت عن يميني، وأتيت الذي هو خير))**(١).

ومن أشد أنواع الأيمان الكاذبة: اليمين الغموس، اليمين الكاذبة وهي التي يحلفها الإنسان عامدًا عالما أن الأمر بخلاف ما حلف عليه؛ ليحق بها باطلًا أو يبطل حقًّا. وسميت غموسًا -بفتح المعجمة-؛ لأنها تغمس الحالف في الإثم في الدنيا، وفي النار يوم القيامة(٢). وقال آخرون: من حلف على أمر ماض كاذبًا متعمدًا؛ فهي اليمين الغموس؛ لأنها تغمسه في الإثم، ثم في النار، ولا كفارة فيها(٣)؛ لأنها أعظم من أن تكفر، وهي من الكبائر(٤).

وقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو عليها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان))**، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ

---

(١) صحيح البخاري [٣١٣٣، ٥٥١٨، ٦٦٢٣، ٦٦٤٩، ٦٧١٨، ٦٧٢١، ٧٥٥٥]، مسلم [١٦٤٩].

(٢) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٣٠٤)، انظر: الكبائر، للذهبي (ص:١٤)، وانظر: أنواع اليمين في (الموسوعة الفقهية الكويتية) (٧/٢٨٢).

(٣) وذهب الشافعية إلى وجوب الكفارة فيها، وهو رواية عن الإمام أحمد. جاء في (المجموع) (١٨/١٤): "واختلف في اليمين الغموس هل هي يمين منعقدة أم لا؟ فمذهبنا أنها يمين منعقدة؛ لأنها مكتسبة بالقلب، معقودة بخبر، مقرونة باسم الله ﷻ، وفيها الكفارة. قال ابن المنذر: ذهب مالك بن أنس ومن تبعه من أهل المدينة إلى أنها يمين مكر وخديعة وكذب فلا تنعقد، ولا كفارة فيها. وبه قال الأوزاعي ومن وافقه من أهل الشام، وهو قول الثوري وأهل العراق، وبه قال أحمد وإسحاق وأبو ثور وأبو عبيد وأصحاب الرأي من أهل الكوفة" المجموع شرح المهذب (١٨/١٣).

(٤) الهداية في شرح بداية المبتدي (٢/٣١٧)، الاختيار لتعليل المختار (٤٦)، تبيين الحقائق شرح كنز الدقائق (٣/١٠٧)، درر الحكام (٢/٣٨)، روضة الطالبين وعمدة المفتين (١١/٣)، الغرة المنيفة (ص:١٧٨)، المغني (٩/٤٩٦)، المحرر في الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل (٢/١٩٨)، زاد المستقنع (ص:٢٢٩)، الروض المربع (ص:٦٩٤)، حاشية الروض المربع (٧/٤٦٩)، الشرح الممتع (١٥/١٣٠).

ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧]. قال: فدخل الأشعث بن قيس، وقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا: كذا وكذا، قال: فِيَّ أنزلت كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**بينتك أو يمينه**)) فقلت: إذًا يحلف يا رسول الله، فقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**من حلف على يمين صَبْرٍ، يقتطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**))(١).

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُٱللَّهُ: "(يَمِينُ الصَّبْرِ) هي التي يُصْبِرُ فيها نفسه على الجزم باليمين. و(الصبر): الحبس، فكأنه يحبس نفسه على هذا الأمر العظيم، وهي اليمين الكاذبة. ويقال لمثل هذه اليمين: (الغموس) أيضًا. وفي الحديث: وعيد شديد لفاعل ذلك، وذلك لما فيها من أكل المال بالباطل ظلمًا وعدوانًا، والاستخفاف بحرمة اليمين بالله تعالى"(٢).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: "قوله: ((**على يمين صبر**)) في معناها قولان:

أحدهما: أن يصبر نفسه: أي يحبسها على اليمين الكاذبة غير مبال بها.

والثاني: أن يكون معنى الصبر الجرأة، من قوله ﷻ: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥]، أي: يجترئ بتلك اليمين على هتك دينه"(٣).

وروى البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ في (صحيحه): عن عبد الله بن عمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: جاء أعرابي إلى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ما الكبائر؟ قال: ((**الإشراك بالله**))، قال: ثم ماذا؟ قال: ((**ثم عقوق الوالدين**))، قال: ثم ماذا؟ قال: ((**اليمين الغموس**))،

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٥٦، ٤٥٤٩، ٦٦٥٩، ٦٦٧٦]، مسلم [١٣٨].

(٢) إحكام الأحكام (٢/ ٢٥٩).

(٣)كشف المشكل (١/٣٠٩).

قلت: وما اليمين الغموس؟ قال: ((**الذي يقتطع مال امرئ مسلم، هو فيها كاذب**))(١).

وروى مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في (صحيحه) عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**))، فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: ((**وإن قضيبًا من أراك**))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل**)). ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧](٣).

د. المخاصمة بالباطل:

جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من حالت شفاعته دون حد من حدود الله، فقد ضاد الله، ومن خاصم في باطل وهو يعلمه، لم يزل في سخط الله حتى ينزع عنه، ومن قال في مؤمن ما ليس فيه أسكنه الله ردغة الخبال حتى يخرج مما قال**))(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٦٦٧٥، ٦٨٧٠، ٦٩٢٠].

(٢) صحيح مسلم [١٣٧].

(٣) صحيح البخاري [٢٣٥٨، ٧٢١٢]، مسلم [١٠٨].

(٤) أخرجه أحمد [٥٣٨٥]، وأبو داود [٣٥٩٧]، والطبراني [١٣٤٣٥]، والحاكم [٢٢٢٢] وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [١١٤٤١]، وفي (شعب الإيمان) [٦٣٠٩].

والمخاصم بالباطل مع علمه بأنه باطل وأنه كاذب في مخاصمته، والذي يقول في مؤمن ما ليس فيه فقد توعده الله ﷻ بأنه سيحبس في (ردغة الخبال)، وهي صديد أهل النار.

ويدخل في هذا الباب: المجادلة بالباطل: قال الله ﷻ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ جَادَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مَنْ يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء:١٠٩].

وقد نهى الله ﷻ عن المخاصمة بالباطل؛ للتوصل إلى أكل أموال الناس بغير حق فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال عليٌّ بن أبي طلحة عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: هذه الآية في الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بيِّنة، فيجحد المال، ويخاصم إلى الحكام. وهو يعرف أنَّ الحق عليه. وهو يعلم أنَّه آثم آكل الحرام. وكذا روي عن مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والحسن، وقتادة، والسدي، ومقاتل بن حيان، وعبد الرحمن بن زيد أنهم. قالوا: لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم[(١)].

وقد ورد في (الصحيحين): عن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، وأقضي له على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذ، فإنما أقطع له قطعة من النار))**[(٢)].

فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشيء في نفس الأمر. فلا يحل في نفس الأمر حرامًا هو حلال، ولا يحرم باطلًا هو حلال. وإنما

(١) تفسير ابن كثير (١/٥٢١)، وانظر: تفسير الطبري (٣/٥٥٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١/٣٢١).

(٢) صحيح البخاري [٢٦٨٠، ٦٩٦٧، ٧١٦٨]، مسلم [١٧١٣].

هو ملزم في الظاهر[1]. فإن طابق في نفس الأمر فذاك، وإلَّا فللحاكم أجره، وعلى المحتال وزره[2].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا كان الرجلُ ذا قدرةٍ عند الخصومة -سواء كانت خصومتُه في الدِّين أو في الدنيا- على أنْ ينتصر للباطل، وَيُخَيِّلَ للسَّامع أنَّه حقٌّ، ويُوهِنَ الحقَّ، ويُخْرِجَه في صورة الباطل، كان ذلك مِنْ أقبحِ المحرَّمات، ومن أخبث خصال النفاق"[3].

هـ. إشاعةُ الكذبِ ونَقْلُه -(السَّمَّاعون للكذب)-:

إن من الصور المضلة عن الحق والمنكرة: من يستمع إلى الكذب ويتأثر به فيضل عن الحق، وربما نقله في الآفاق فأضل غيره؛ فلذلك ينبغي الاحتراز عن سماع الكذابين والمنافقين.

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨]، وقال ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ

---

(١) بنحو ما يرى، وتشهد به الشهود، والقاضي بشر يخطئ ويصيب.

(٢) تفسير ابن كثير (٥٢١/١).

(٣) جامع العلوم والحكم (٤٨٦/٢).

فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة:٤١].

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في ذمِّ اليهود: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِنْ تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]. قوله ﷻ: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، أي: مستجيبون ومقلدون لرؤسائهم. والسَّمَّاع: الكثير السمع، أي: الاستماع لما يقال له. والسمع مستعمل في حقيقته، أي: أنهم يصغون إلى الكلام الكذب وهم يعرفونه كذبًا، أي: أنهم يحفلون بذلك ويتَطَلَّبُونه، فيكثر سماعهم إياه. وفي هذا كناية عن تَفَشِّي الكذب في جماعتهم بين سامع ومختلق؛ لأن كثرة السمع تستلزم كثرة القول(١).

والسمع هاهنا سمع استجابة كما ذكر الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، أي: قابلون له، ومنقادون غير منكرين له"(٣).

ومن شأن الكذابين أنهم يحرِّفون الكَلِمَ عن مواضعه، ويتأوَّلونه على غير تأويله، ويُبَدِّلُونَهُ من بعد ما عقلوه وهم يعلمون، فينقل عنهم السماعون الكذب والتحريف لقوم آخرين كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾.

وسماع الكذب ونقله هو شأن المنافقين كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم في قوله: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة:٤٧].

---

(١) التحرير والتنوير (٦/١٩٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١١٣)، وانظر: مدارج السالكين، لابن القيم (٣/١٥٩).

(٣) بدائع الفوائد (٢/٧٥-٧٦).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن العبد إذا اعتاد سماع الباطل وقبوله أكسبه ذلك تحريفًا للحق عن مواضعه؛ فإنه إذا قبل الباطل أحبه ورضيه، فإذا جاء الحق بخلافه ردَّه وكذَّبه إن قدر على ذلك، وإلا حرفه"(١).

و"سماع خاصة الخاصة المقربين هو سماع القرآن بالاعتبارات الثلاثة: إدراكًا وفهمًا، وتدبرًا، وإجابة. وكل سماع في القرآن مدح الله ﷻ أصحابه، وأثنى عليهم، وأمر به أولياءه فهو هذا السماع. وهو سماع الآيات، لا سماع الأبيات، وسماع القرآن، لا سماع مزامير الشيطان، وسماع كلام رب الأرض والسماء ﷻ، لا سماع قصائد الشعراء، وسماع المراشد، لا سماع القصائد، وسماع الأنبياء والمرسلين عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، لا سماع المغنين والمطربين. فهذا السماع حاد يحدو القلوب إلى جوار علام الغيوب، وسائق يسوق الأرواح إلى ديار الأفراح، ومحرك يثير ساكن العزمات إلى أعلى المقامات، وأرفع الدرجات، ومناد ينادي للإيمان، ودليل يسير بالركب في طريق الجنان، وداع يدعو القلوب بالمساء والصباح، من قبل فالق الإصباح حي على الفلاح، حي على الفلاح.

فلم يعدم من اختار هذا السماع إرشادًا لحجة، وتبصرة لعبرة، وتذكرة لمعرفة، وفكرة في آية، ودلالة على رشد، وردًّا على ضلالة، وإرشادًا من غي، وبصيرة من عمى، وأمرًا بمصلحة، ونهيًا عن مضرة ومفسدة، وهداية إلى نور، وإخراجًا من ظلمة، وزجرًا عن هوى، وحثًّا على تقى، وجلاء لبصيرة، وحياة لقلب، وغذاء ودواء وشفاء، وعصمة ونجاة، وكشف شبهة، وإيضاح برهان، وتحقيق حق، وإبطال باطل"(٢).

---

(١) إغاثة اللهفان (١/٥٥).

(٢) مدارج السالكين (١/٤٨١-٤٨٢)، وانظر: (٣/١٥٩).

و. قول الزور:

قال الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الزُّور: الكذب قيل له ذلك؛ لكونه مائلًا عن الحق، والزَّوَرُ بفتح الزاي: الميل[1].

وقول الزور يحمل على إثبات ما ليس بثابت على المدعى عليه، أو إسقاط ما هو ثابت.

وقد نهى الشارع المسلم عن قول الزور والعمل به، وعده من أكبر الكبائر، وأعظم الذنوب؛ لما ينطوي عليه من أضرار خطيرة، ومساوئ جمة، فهو سبب في أكل أموال الناس بالباطل، وإضاعة الحقوق، وإضلال الحكام والقضاة؛ ولذلك قرنه الله ﷻ بالشرك في قوله: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ۝٣٠ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ﴾ [الحج:٣٠-٣١].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(من) ها هنا لبيان الجنس، أي: اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان. وقرن الشرك بالله بقول الزور، كقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣]، ومنه: شهادة الزور.

وفي الصحيحين عن أبي بكرة[2] رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**))، قلنا: بلى، يا رسول الله. قال: ((**الإشراك بالله وعقوق الوالدين**)) -وكان متكئًا فجلس، فقال:- ((**ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**))، فما زال يكررها، حتى قلنا: ليته سكت"[3].

---

(١) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (زور) (ص:٣٨٧)، فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٧٣).

(٢) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٦٢٧٣، ٦٩١٩]، مسلم [٨٧].

(٣) تفسير ابن كثير (٥/ ٤١٩).

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ذكر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الكبائر، أو سئل عن الكبائر فقال: ((**الشرك بالله، وقتل النفس، وعقوق الوالدين، فقال: ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ قال: قول الزور، أو قال: شهادة الزور**))[1].

وعن عبد الله -يعني ابن مسعود- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: عدلت شهادة الزور بالإشراك بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. وقرأ: ﴿وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠][2].

وجمع الشرك وقول الزور في قران واحد، وذلك أنَّ الشرك من باب الزور؛ لأنَّ المشرك زاعم أنَّ الوثن تحق له العبادة، فكأنه قال: فاجتنبوا عبادة الأوثان التي هي رأس الزور، واجتنبوا قول الزور كله، لا تقربوا شيئًا منه؛ لتماديه في القبح والسماجة. وما ظنك بشيء من قبيله عبادة الأوثان[3].

قال ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "شهادة الزور فيها قطع الحقوق، والتلبيس على الحق بصورة الباطل. والكذب كله كبيرة، ولكنه متفاضل بحسب عظم متعلقاته في هتك الحرمه به. واليمين الغموس أعظمه. ويدخل فيه: قذف المحصنة بالباطل، فإن كان مما علمه كان من باب هتك الستر، ونزل عن تلك الدرجة الاولى"[4].

و"شهادة الزور كبيرة عظمى، ومصيبة في الإسلام كبرى، لم تحدث حتى مات الخلفاء الثلاثة، وضربت الفتنة سرادقها، فاستظل بها أهل الباطل، وتقولوا على الله ورسوله ما لم يكن. وقد عدلت شهادة الزور في الحديث الصحيح: الاشراك بالله، وتوعد عليها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى قالت الصحابة: ليته سكت"[5].

---

(١) صحيح البخاري [٢٦٥٣، ٥٩٧٧، ٦٨٧١]، مسلم [٨٨].

(٢) قال الهيثمي (٤/٢٠١): "رواه الطبراني في (الكبير)، وإسناده حسن".

(٣) الكشاف (٣/ ١٥٤)، وانظر: مفاتيح الغيب (٢٣/٢٢٣)، البحر المحيط في التفسير (٧/٥٠٤)، روح المعاني (٩/١٤٢).

(٤) عارضة الأحوذي (١١/١٥٣).

(٥) المصدر السابق (٩/١٧٨).

وسبب الاهتمام بشهادة الزور كونها أسهل وقوعا على الناس والتهاون بها أكثر؛ فإن الإشراك ينبو عنه قلب المسلم، والعقوق يصرف عنه الطبع، وأما الزور فالحوامل عليه كثيرة كالعداوة والحسد وغيرهما، فاحتيج إلى الاهتمام به، وليس ذلك لعظمه بالنسبة إلى ما ذكر معه من الإشراك قطعًا، بل لكون مفسدته متعدية إلى الغير، بخلاف الإشراك فإن مفسدته مقصورة عليه غالبًا.

وقول الزور أعم من شهادة الزور؛ لأنه يشمل كل زور من شهادة أو غيبة أو بهت أو كذب؛ ولذا قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي أن يحمل قوله: (قول الزور) على (شهادة الزور)؛ فإنا لو حملناه على: الإطلاق: لزم أن تكون الكذبة الواحدة مطلقًا كبيرة، وليس كذلك.

ولا شك في عظم الكذب، ومراتبه متفاوتة بحسب تفاوت مفاسده، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [النساء:١١٢][1].

وقد جاء في الحديث: ((**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**))[2].

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "دليل على أن الكذب والزور أصل الفواحش، ومعدن النواهي، بل قرين الشرك. قال ﷻ: ﴿فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج:٣٠]. وقد علم أن الشرك مضاد الإخلاص، وللصوم مزيد اختصاص بالإخلاص، فيرتفع بما يضاده -والله أعلم-"[3].

---

(١) انظر: نيل الأوطار، للشوكاني (٨/٣٤٤) ، إحكام الإحكام، لابن دقيق العيد (٢/٢٧٥-٢٧٦).

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٥/١٥٩١)، فيض القدير (٦/٢٢٣).

ثانيًا: الغيبة والنميمة:

١ - حدُّ الغيبة:

يقال في اللغة: اغْتَابَهُ اغْتِيَابًا، إذا وقع فيه، والاسم: الْغِيبَة -بالكسر-، وهو أن يتكلم خلف إنسانٍ مستورٍ بما يَغُمُّهُ لو سَمِعَه. فإن كان صدقًا سُمِّيَ: غِيبَةً، وإن كان كذبًا سمِّي: بُهتانًا[١].

أما الْغِيبَة في الاصطلاح فقد جاء تعريفها في الحديث المروي عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أتدرون ما الغيبة؟**))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((**ذكرك أخاك بما يكره**))، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: ((**إن كان فيه ما تقول، فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته**))[٢]. ولا يُقتَصر في تعريف الغيبة في الاصطلاح على ما كان قولًا باللسان يَذْكُرُ فيه المسلمُ أخاه المسلم بما يكره -كما سيأتي- في بيان صور الغيبة.

٢ - صور الغيبة:

الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره -كما تقدم-، ولكنها لا تقتصر على اللسان. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن الذكر باللسان إنما حرم؛ لأن فيه تفهيم الغير نقصان أخيك وتعريفه بما يكرهه، فالتعريض به كالتصريح، والفعل فيه كالقول والإشارة والإيماء والغمز والهمز والكتابة والحركة وكل ما يفهم المقصود فهو داخل في الغيبة وهو حرام.

فمن ذلك: قول عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا دخلت علينا امرأة فلما ولت أومأت بيدي أنها قصيرة فقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اغتبتيها**))[٣]. فمن أومأ بيده إلى قصر أحد، أو طوله، أو

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غيب) (١/١٩٦).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٨٩].

(٣) أخرجه أحمد [٢٥٧٠٨]، وأبو داود [٤٨٧٥]، والترمذي [٢٥٠٢]. قال العراقي (ص:١٠٣٦): "حديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أنها ذكرت امرأة فقالت: إنها قصيرة، فقال: (اغتبتيها). رواه أحمد، وأصله عند أبي=

حاكاه في المشي كما يمشي[1]، فهو غيبة، والكتابة عن شخص في عيب به غيبة؛ لأن القلم أحد اللسانين، وكذا من يفهم عيب الغير بصيغة الدعاء كقوله: الحمد لله الذي لم يبتلنا بكذا". إلى غير ذلك[2].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب تحريم الغيبة والنميمة): "اعلم أن هاتين الخصلتين من أقبح القبائح، وأكثرها انتشارًا في الناس، حتى ما يسلم منهما إلا القليل من الناس. فأما الغيبة: فهي ذكرك الإنسان بما فيه مما يكره، سواء كان في بدنه، أو دينه أو، دنياه أو نفسه، أو خلقه، أو خلقه، أو ماله، أو ولده، أو والده، أو زوجه، أو خادمه، أو مملوكه، أو عمامته، أو ثوبه، أو مشيته، وحركته وبشاشته وخلاعته، وعبوسه، وطلاقته، أو غير ذلك مما يتعلق به، سواء ذكرته بلفظك أو كتابك، أو رمزت، أو أشرت إليه بعينك، أو يدك، أو رأسك أو نحو ذلك.

أما البدن، فكقولك: أعمى، أعرج، أقرع، قصير، طويل. وأما الدين، فكقولك: فاسق، متهاون بالصلاة، متساهل في النجاسات، ليس بارًا بوالده، لا يضع الزكاة مواضعها، لا يجتنب الغيبة. وأما الخلق، فكقوله: سيء الخلق، متكبر، متهور، عبوس، خليع، ونحوه. وأما الثوب: فواسع الكم، وسخ الثوب ونحو ذلك، ويقاس الباقي بما ذكرناه. وضابطه: ذكره بما يكره.

=داود، والترمذي وصححه بلفظ آخر. ووقع عند المصنف عن حذيفة عن عائشة، وكذا هو في (الصمت)، لابن أبي الدنيا. والصواب عن أبي حذيفة كما عند أحمد وأبي داود والترمذي. واسم أبي حذيفة: سلمة بن صهيب". قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وروينا في سنن أبي داود والترمذي عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: ((لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته))، قالت: وحكيت له إنسانًا فقال: ((ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا)) قال الترمذي: حديث حسن صحيح". الأذكار (ص:٣٣٧).

(١) بأنه –مثلا– يمشي متعارجًا مريدًا حكاية هيئة من ينتقصه بذلك.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٣/١٤٤)، موعظة المؤمنين (ص:١٩٨).

ومن صور الغِيبة التي يغفل عنها كثير من الناس: الإصغاء للمغتاب، دون ترك مجلسه، أو زجره ونهيه -ولو كان أقرب الناس-؛ فإن الإصغاء للمغتاب بمثابة الإقرار، والتشجيع له على التمادي في الإيذاء.

ومن صور الغِيبة التي يغفل عنها كثير من الناس: الاستماع إلى كل ما يشاع ويقال عن فلان من الناس، ونقله دون تبين وتبصر.

ومن صور الغِيبة: التعريض بما يلحق النقص أو العيب بالمغتاب، كأن يقول عند ذكر شخص في غيبته: نعوذ بالله ﷻ من قِلَّة الحياء، أو نعوذ بالله ﷻ من الضَّلال، أو نحو ذلك.

ومن ذلك: أن يقول عن شخص في غيبته: هذا هندي، أو عجمي، أو هذا عامل نظافة، أو خادم.. إلى غير ذلك، وهو يريد الانتقاص والتحقير.

ومن صور الغِيبة: أن يذكر حال شخص، فيمدحه في جانب، ويعيب عليه في آخر، كأن يقول: فلان عنده فتور عن بعض العبادات، أو به تكاسل عن بعض الأعمال.. إلى غير ذلك، وهو يريد الانتقاص والتحقير.

٣ - حال السلف في اجتنابهم الغيبة:

قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت أبا عاصم يقول: ما اغتبت أحدًا منذ علمت أن الغيبة تضر بأهلِها[١].

وكان الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: أرجو أن ألقى الله ولا يحاسبني أني اغتبت أحدًا. قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صدق رَحِمَهُ ٱللَّهُ. ومن نظر في كلامه في الجرح والتعديل

---

(١) أبو عاصم هو الضحاك بن مخلد النبيل البصري، مولى بني شيبان، شيخ حفاظ الحديث في عصره. ولد بمكة. وتحول الى البصرة، فسكنها وتوفي بها سنة اثنتي عشرة ومائتين في آخرها. سمع جعفر بن محمد وابن جريج والثوري وشعبة. انظر: التاريخ الكبير (٣٣٦/٤)، التاريخ الأوسط (٣٢٢/٢)، الإرشاد في معرفة علماء الحديث (٥٢٠/٢)، تهذيب الكمال (٢٨٦/١٣)، سير أعلام النبلاء (٤٨٢/٩)، تهذيب التهذيب (٤٥٢/٤)، تاريخ الإسلام (٣٣٢/٥)، الأعلام (٢١٥/٣).

علم ورعه في الكلام في الناس، وإنصافه فيمن يضعفه، فإنه أكثر ما يقول: منكر الحديث، سكتوا عنه، فيه نظر، ونحو هذا. وقل أن يقول: فلان كذاب، أو كان يضع الحديث. حتى إنه قال: إذا قلت: فلان في حديثه نظر، فهو متهم واه. وهذا معنى قوله: لا يحاسبني الله أني اغتبت أحدًا، وهذا هو -والله- غاية الورع.

قال محمد بن أبي حاتم الوراق: سمعته -يعني: البخاري- رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لا يكون لي خصم في الآخرة، فقلت: إن بعض الناس ينقمون عليك في كتاب (التاريخ) ويقولون: فيه اغتياب الناس، فقال: إنما روينا ذلك رواية لم نقله من عند أنفسنا، قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بئس مولى العشيرة**))(1)، يعني: حديث عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا. وسمعته يقول: ما اغتبت أحدًا قط منذ علمت أن الغيبة تضر أهلها(2).

وعن ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: قلت لسفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما أبعد أبا حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الغيبة، ما سمعته يغتاب عدوًّا له قط، قال: هو -والله- أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهب بها(3).

---

(1) حديث: ((بئس أخو العشيرة، وبئس ابن العشيرة)) أخرجه البخاري [٦٠٣٢، ٦٠٥٤، ٦١٣١]، ومسلم [٢٥٩١]. فإن بئس فعل يدل على الذم، والمراد بالعشيرة الأدنى إلى الرجل من أهله، وهم ولد أبيه وجده، قال القاضي: "هذا الرجل هو عيينة بن حصن، ولم يكن أسلم حينئذ، وإن كان قد أظهر الإسلام، فأراد النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يبين حاله؛ ليعرفه الناس، ولا يغتر به من لم يعرف حاله. قال: وكان منه في حياة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبعده ما دلَّ على ضعف إيمانه، وارتد مع المرتدين وجيء به أسيرًا إلى أبي بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، ووصف النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له بأنه بئس أخو العشيرة من أعلام النبوة؛ لأنه ظهر كما وصف. وإنما ألان له القول؛ تألفًا له ولأمثاله على الإسلام. وفي هذا الحديث: مداراة من يتقى فحشه، وجواز غيبة الفاسق المعلن فسقه، ومن يحتاج الناس إلى التحذير منه". إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض (٨/٢٩-٣٠)، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٦/١٤٤).

(2) سير أعلام النبلاء (١٢/٤٣٩- ٤٤١)، وانظر: طبقات الشافعية الكبرى (٢/٢٢٤)، تاريخ دمشق (٥٢/٨١)، تهذيب الكمال (٢٤/٤٤٦)، تاريخ بغداد (٢/٣٢٢)، تاريخ الإسلام (٦/١٤٠).

(3) انظر: تهذيب الأسماء واللغات (٢/٢٢٢)، تاريخ بغداد (١٥/٤٨٧)، أخبار أبي حنيفة وأصحابه، للصَّيْمَري (ص:٤٢).

وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس.

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك(١).

٤ – حدُّ النميمة:

يقال في اللغة: نَمَّ الحديثَ يَنِمُّه ويَنُمُّه نمًّا فهو نَمَّام، والاسم: النَّميمة، ونَمَّ الحديثُ، إذا ظهر، فهو مُتعدٍّ ولازم(٢).

ومن معاني (النميمة) لغة: السعي بين الناس بالفتنة، يقال: نَمَّ الرَّجل الحديثَ نَمًّا: سعى به؛ لِيُوقِعَ فتنة أو وحشة، فالرَّجل نَمٌّ تسمية بالمصدر، ونَمَّامٌ مبالغة، والاسم: النَّميمة والنَّمِيم أيضًا(٣).

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "(النم): إظهار الحديث بالوشاية، والنميمة الوشاية، ورجل نمام. قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]. وأصلها الهمس. والحركة الخفيفة"(٤).

ويقال للنَّمَّام: القَتَّات، يقال: قَتَّ إذا مشى بالنَّميمة. قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: نَمَّ الحديثَ يَنِمُّه ويَنُمُّه نمًّا، أي: قَتَّه، والاسم: النَّميمة(٥). وفي الحديث: ((**لا يدخل الجنة قَتَّات**))(٦).

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (١٤٣/٣)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١٨/٢).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (نَمَمَ) (١٢٠/٥).

(٣) انظر: المصباح المنير، مادة: (نمم) (٦٢٦/٢).

(٤) المفردات، مادة: (نم) (ص:٨٢٥)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٣٢٠).

(٥) الصحاح، للجوهري، مادة: (نمم) (٢٠٤٥/٥)، وانظر: لسان العرب (٥٩٢/١٢).

(٦) صحيح البخاري [٦٠٥٦]، مسلم [١٠٥].

أما (النميمة) في الاصطلاح فهي نقل الحديث من قوم إلى قوم، على جهة الإفساد والشر. وقيل: إفشاءُ السرِّ، وهتكُ الستر عمَّا يُكره كشفُه[1].

وعرفها الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنها: "كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وسواء كان الكشف بالقول، أو بالكتابة، أو بالرمز، أو بالإيماء، وسواء كان المنقول من الأعمال أو من الأقوال، وسواء كان ذلك عيبًا ونقصًا في المنقول عنه أو لم يكن. بل حقيقة النميمة: إفشاء السر، وهتك الستر عما يكره كشفه"[2].

ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الناس بقصد الإفساد -كما سيأتي-.

والنميمة من أسباب العذاب في الآخرة، وهي طريق موصل إلى النَّار. ومن آفاتها: أنها تذكي نار العداوة بين المتآلفين، وتجلب الخصام والنفور، وتزيل المحبة والتآلف، وتقطع الأرحام، وتوغر الصدور، وتعكر صفو النفوس.

٥ – صور النميمة:

يتبين مما تقدم أن من صور النميمة:

أ. السعي بين الناس بالفتنة، والعمل على التفريق بينهم، وإيغار الصدور، وإذكاء نار العداوة والبغضاء بين المتحابين.

ب. إظهار الحديث بالوشاية، وتكون الوشاية أعظم خطرًا وأثرًا إذا كانت عند صاحب سلطة قادر على البطش وإلحاق الضرر بما لا يقدر عليه غيره.

ج. نقل الحديث من قوم إلى قوم، على جهة الإفساد والشر.

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٣٤٨).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/ ١٥٦).

د. كشف ما يكره كشفه، سواء كرهه المنقول عنه أو المنقول إليه، أو كرهه ثالث، وبأي طريقة كان الكشف من نحو: الكشف عن سوءات الناس، سواء كان ذلك باللسان، أو بالغمز، أو بالإيماء -كما تقدم-.

هـ. إفشاء السر، وهتك الستر.

و. التحريش بين الناس بقصد الإفساد.

٦ - النصوص الدالة على تحريم الغيبة والنميمة وبيان عاقبتهما:

إن الغيبة والنميمة من الذُّنوب المحرمة بالكتاب والسنة والإجماع(١).

---

(١) لا خلاف في تحريم الغيبة والنميمة، لكن هل هما من الكبائر؟ ذهب جماعة من المفسرين والفقهاء إلى أنهما من الكبائر. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) (٣٣٧/١٦): "لا خلاف أن الغيبة من الكبائر". واستدلوا بقوله ﷻ: ﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢]. ويقول الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم))، وبقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه، لا تغتابوا المسلمين)) الحديث. وبقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((إن من أكبر الكبائر: استطالة المرء في عرض رجل مسلم بغير حق)). إلى غير ذلك من الأحاديث التي سيأتي ذكرها. ونص أئمة الشافعية على أن الغيبة إن كانت في أهل العلم وحملة القرآن فهي كبيرة وإلا فصغيرة. انظر: روضة الطالبين (٢٢٣/١١)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٣٤١/٤)، الغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٢٤٥/٥)، تحفة المحتاج (٢١٤/١٠)، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٦٣٣/٢)، فتح المعين بشرح قرة العين (ص:٦٤٨)، غاية البيان شرح زبد ابن رسلان (ص:٣٢٨)، إعانة الطالبين (٢٨٢/٢)، نهاية الزين (ص:٣٨٥). ومن العلماء كذلك من فصل في المسألة؛ فقال -مثلًا- ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الزواجر) (٢٢/٢): "الذي دلَّت عليه الدلائل الكثيرة الصحيحة الظاهرة أنها كبيرة، لكنها تختلف عِظَمًا وضدَّه بحسب اختلاف مفسدتها، وقد جعلها من أُوتِيَ جوامع الكلم عَديلةَ غصْب المال، وقتل النفس، بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كلُّ المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه))، والغصب والقتل كبيرتان إجماعًا، فكذا ثَلْمُ العِرض". وقال: "إن فيها أعظمَ العذاب وأشدَّ النَّكال، وقد صحَّ فيها أنها أربى الربا، وأنها لو مُزِجَت في ماء البحر لأنتنَتْه وغيَّرت ريحه، وأن أهلها يأكلون الجيف في النار، وأن لهم رائحة منتنة فيها، وأنهم يُعَذَّبُون في قبورهم، وبعض هذه كافيةٌ في كون الغِيبة من الكبائر". قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:=

وقد نقل الإمام أبو حامد الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ إجماع المسلمين على أن الغيبة: ذكرك غيرك بما يكره. وأما النميمة: فهي نقل كلام الناس بعضهم إلى بعض على جهة الإفساد. وأما حكمهما، فهما محرمتان بإجماع المسلمين، وقد تظاهر على تحريمهما الدلائل الصريحة من الكتاب والسنة وإجماع الأمة[1].

والغيبة وإن كانت محرمة فإنها تباح في أحوال للمصلحة. والمجوز لها غرض صحيح شرعي لا يمكن الوصول إليه إلا بها، وهو أحد ستة أسباب.

وقد ذكرها الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الإحياء)، وتبعه الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأذكار)، وفي (شرحه لصحيح مسلم)[2].

="فمراتب الكذب متفاوتة بحسب تفاوت مفاسده. قال وقد نص الحديث الصحيح على أن الغيبة والنميمة كبيرة. والغيبة تختلف بحسب القول المغتاب به، فالغيبة بالقذف كبيرة، ولا تساويها الغيبة بقبح الخلقة أو الهيئة –مثلًا-" فتح الباري (١٠/٤١٢). وقال: "وأما حكمها فقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأذكار) الغيبة والنميمة محرمتان بإجماع المسلمين، وقد تظاهرت الأدلة على ذلك. وذكر في (الروضة) تبعًا للرافعي أنها من الصغائر. وتعقبه جماعة ونقل أبو عبد الله القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره) الإجماع على أنها من الكبائر؛ لأن حد الكبيرة صادق عليها؛ لأنها مما ثبت الوعيد الشديد فيه. وقال الأذرعي: لم أر من صرح بأنها من الصغائر إلا صاحب (العدة)، والغزالي، وصرح بعضهم بأنها من الكبائر. وإذا لم يثبت الإجماع فلا أقل من التفصيل؛ فمن اغتاب وليًا لله ﷺ، أو عالما ليس كمن اغتاب مجهول الحالة –مثلًا- وقد قالوا ضابطها: ذكر الشخص بما يكره، وهذا يختلف باختلاف ما يقال فيه، وقد يشتد تأذيه بذلك، وأذى المسلم محرم.." فتح الباري (١٠/٤٧٠).

(١) باختصار من كتاب (الأذكار)، للإمام النووي (ص:٣٣٦- ٣٣٧).

(٢) وهذه الأسباب الستة: الأول منها: التظلم. الثاني: الاستعانة على تغيير المنكر ورد العاصي إلى الصواب. الثالث: الاستفتاء. الرابع: تحذير المسلمين من الشر ونصيحتهم. الخامس: أن يكون مجاهرًا بفسقه أو بدعته. السادس: التعريف، فإذا كان الإنسان معروفًا بلقب: كالأعمش، والأعرج، والأصم، والأعمى، والأحول، والأفطس، وغيرهم، جاز تعريفه بذلك بنية التعريف، ويحرم إطلاقه على جهة التنقص ولو أمكن التعريف بغيره كان أولى. انظر بيان ذلك مفصلًا في (إحياء علوم الدين) (٢/١٥٢)، الأذكار (ص:٣٤٠-٣٤٢)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٤٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغيبة المحرمة عند أهل العلم في اغتياب أهل الستر من المؤمنين، ومن لا يعلن بالمعاصي، فأما من جاهر بالكبائر فلا غيبة فيه"(١).

ولا يخفى ما في الغيبة والنميمة من الإيذاء للمؤمن أو المؤمنة، وقد توعد الله ﷻ الذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بالعذاب في الآخرة، فقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

وقال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [الحجرات:١٢].

قوله ﷻ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا﴾ قال الإمام الماوردي ؒ: "فيه وجهان:

أحدهما: أي: كما يحرم أكل لحمه ميتًا يحرم غيبته حيًّا.

الثاني: كما يمتنع أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا كذلك يجب أن يمتنع عن غيبته حيًّا. قاله قتادة. واستعمل أكل اللحم مكان الغيبة؛ لأن عادة العرب بذلك جارية.

قال الشاعر:

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم   وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدًا(٢)

﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ فيه وجهان:

أحدهما: فكرهتم أكل الميتة، كذلك فاكرهوا الغيبة.

الثاني: فكرهتم أن يعلم بكم الناس فاكرهوا غيبة الناس"(٣).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٤٥).

(٢) البيت للمقنع الكندي من (الطويل). انظر: الشعر والشعراء (٢/٧٢٨)، عيون الأخبار (١/٣٢٨)، العقد الفريد (٢/٢٠٩)، شرح ديوان الحماسة (ص:٨٢٩)، التذكرة الحمدونية (٢/٢٤)، المثل السائر (٣/٢٨)، الإيضاح (١/١٨٠).

(٣) النكت والعيون (٥/٣٣٥)، وانظر: تفسير الطبري (٢٢/٣٠٨)، القرطبي (١٦/٣٣٥).

وفيه استعارة تمثيلية، مثَّل اغتياب الإنسان لآخر بأكل لحم الأخ ميتًا[1].

وفي قوله ﷻ: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ﴾..الخ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض من يغتابه على أفظع وجه وأفحشه، وفيه مبالغات شتى: منها: الاستفهام الذي معناه التقرير[2].

ومنها: جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة[3]. ومنها: إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدًا من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها: أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان، حتى جعل الإنسان أخًا. ومنها: أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتًا"[4].

وفيه من المحسنات الطباق بين (أيحب) وبين (فكرهتموه)[5].

والغيبة حرام بدلالة هذه الآية، وآثار من السنة بعضها صحيح، وبعضها دونه.

---

(١) الاستعارة التمثيلية تركيب استعمل في غير ما وضع له لعلاقة المشابهة مع قرينة مانعة من إرادة معناه الأصلي.
شبَّه تعالى الغيبة بأكل لحم الأخ حال كونه ميتًا، وإذا كان الإنسان يكره لحم الإنسان فضلًا عن كونه أخًا، وفضلًا عن كونه ميتًا وجب عليه أن يكره الغيبة بمثل هذه الكراهة أو أشد، بجامع الشناعة والفظاعة المتعلقة في هذين الفعلين.

(٢) الاستفهام التقريري الذي لا يقع إلا على أمر مسلَّم عند المخاطب، فجعلك للشيء في حيز الاستفهام التقريري يقتضي أنك تدعي أنه لا ينكره المخاطب. التحرير والتنوير (٢٦/٢٥٥).

(٣) للإشعار بتفظيع حالة ما شبه به وحالة من ارتضاه لنفسه؛ فلذلك لم يقل: أيتحمل أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، بل قال: أيحب أحدكم. التحرير والتنوير (٢٦/٢٥٥-٢٥٦).

(٤) انظر: الكشاف (٤/٣٧٣)، تفسير البيضاوي (٥/١٣٦)، تفسير النسفي (٣/٣٥٦)، البحر المحيط في التفسير (٩/٥٢٠).

(٥) الطباق: الجمع بين الشيء وضده في الكلام، وهو نوعان: طباق الإيجاب: وهو ما لم يختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا. وطباق السلب: وهو ما اختلف فيه الضدان إيجابًا وسلبًا. انظر ذلك مفصلًا في (تحقيقنا لإتمام الدراية لقراء النقاية) (٢/٢٢٩-٢٣٢).

وذلك أنها تشتمل على مفسدة ضعف في أخوة الإسلام. وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة؛ ولأن فيها الاشتغال بأحوال الناس، وذلك يلهي الإنسان عن الاشتغال بالمهم النافع له، وترك ما لا يعنيه(١).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كنى عن الغيبة بأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله، ثم لم يقتصر على ذلك حتى جعله ميتًا، ثم جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة؛ فهذه أربع دلالات واقعة على ما قصدت له مطابقة للمعنى الذي وردت من أجله؛ فأما جعل الغيبة كأكل الإنسان لحم إنسان آخر مثله فشديد المناسبة جدًا؛ لأن الغيبة إنما هي ذكر مثالب الناس، وتمزيق أعراضهم، وتمزيق العرض مماثل لأكل الإنسان لحم من يغتابه؛ لأن أكل اللحم تمزيق على الحقيقة، وأما جعله كلحم الأخ فلما في الغيبة من الكراهة؛ لأن العقل والشرع مجتمعان على استكراهها، آمران بتركها والبعد عنها، ولما كانت كذلك جعلت بمنزلة لحم الأخ في كراهته، ومن المعلوم أن لحم الإنسان مستكره عند إنسان آخر، إلا أنه لا يكون مثل كراهته لحم أخيه، فهذا القول مبالغة في استكراه الغيبة، وأما جعل اللحم ميتًا فمن أجل أن المغتاب لا يشعر بغيبته ولا يحس بها، وأما جعله ما هو في الغاية من الكراهة موصولًا بالمحبة فلما جبلت عليه النفوس من الميل إلى الغيبة والشَّهوة لها مع العلم بقبحها؛ فانظر أيها المتأمل إلى هذه الكناية تجدها من أشد الكنايات شبهًا؛ لأنك إذا نظرت إلى كل واحدة من تلك الدلالات الأربع التي أشرنا إليها وجدتها مناسبة لما قصدت له"(٢).

وعلى هذا فيجب الكف عن ذكر الناس بما يكرهون، سواء كان ذلك فيهم، أو ليس فيهم، واعلم أنك إذا نشرت عيوب أخيك فإن الله ﷻ سيسلط عليك من ينشر عيوبك، جزاءً وفاقًا(٣).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٦/٢٥٦).

(٢) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر (٢/١٩١).

(٣) انظر: تفسير الحجرات والحديد، محمد بن صالح العثيمين (ص:٥٢).

وقد جاء في الحديث: ((**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه: لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته**))(١).

وفي رواية: ((**يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه: لا تؤذوا المسلمين، ولا تعيروهم، ولا تتبعوا عوراتهم؛ فإنه من يتبع عثرات أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله**))(٢).

وقال بعضهم: أدركنا السلف وهم لا يرون العبادة في الصوم ولا في الصلاة، ولكن في الكف عن أعراض الناس. وقال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إذا أردت أن تذكر عيوب صاحبك فاذكر عيوبك(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، فقلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس، ويقعون في أعراضهم**))(٤).

---

(١) الحديث مروي عن البراء، وعن أبي برزة الأسلمي. حديث البراء: أخرجه ابن أبي الدنيا في (الصمت) [١٦٧]، وأبو يعلى [١٦٧٥]، والروياني [٣٠٥]، وتمام [٢٤٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٢١٣]. قال الهيثمي (٨/٩٣): "رواه أبو يعلى، ورجاله ثقات". حديث أبي برزة: أخرجه أحمد [١٩٧٧٦]، وأبو داود [٤٨٨٠]، وابن أبي الدنيا في (الصمت) [١٦٨]، وأبو يعلى [٧٤٢٣]، والروياني [١٣١٢]. والبيهقي [٢١١٦٤].

(٢) الحديث مروي عن ابن عمر، وابن عباس. حديث ابن عمر: أخرجه الترمذي [٢٠٣٢] وقال: "حسن غريب. حديث ابن عباس: أخرجه الطبراني [١١٤٤٤]. قال الهيثمي (٨/٩٤): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ١٤٣)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/١٨).

(٤) أخرجه أحمد [١٣٣٤٠]، وأبو داود [٤٨٧٨]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [١٨٧]، والطبراني في (الأوسط) [٨]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٢٩٠]، والضياء [٢٢٨٦]. قال العراقي (ص:١٠٣٣): "أخرجه أبو داود مسندًا ومرسلًا، والمسند أصح".

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكل لحوم الناس يصدق على النميمة والغيبة"(١).

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: قلت للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: حسبك من صفية كذا وكذا. قال بعض الرواة: تعني قصيرة، فقال: ((**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**))، قالت: وحكيت له إنسانًا فقال: ((**ما أحب أني حكيت إنسانًا وأن لي كذا وكذا**))(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مزجته: أي: خالطته مخالطة يتغير بها طعمه أو ريحه؛ لشدة نتنها وقبحها. وهذا الحديث من أعظم الزواجر عن الغيبة أو أعظمها، وما أعلم شيئًا من الأحاديث يبلغ في الذم لها هذا المبلغ. ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝﴾ [النجم:٣-٤]. نسأل الله الكريم لطفه والعافية من كل مكروه"(٣).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فارتفعت ريح جيفةٍ منتنة، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أتدرون ما هذه الريح؟ هذه ريح الذين يغتابون المؤمنين**))(٤).

وعن القاسم بن عبد الرحمن الشامي، سمعت ابن أُمِّ عَبْدٍ [يعني: ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ] يقول: من اغتيب عنده مؤمن فنصره جزاه الله بها خيرًا في الدنيا والآخرة، ومن اغتيب عنده مؤمن فلم ينصره جزاه الله بها في الدنيا والآخرة شرًّا، وما التقم أحد لقمة

---

(١) فتح الباري (١٠/٤٧١).

(٢) تقدم.

(٣) الأذكار (ص:٣٣٨).

(٤) أخرجه أحمد [١٤٧٨٤]، والبخاري في (الأدب) [٧٣٢]، وابن أبي الدنيا في (ذم الغيبة) [٦٩]، وفي (الصمت) [٢١٦]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [١٨٣]. قال الهيثمي: (٨/٩١): "رواه أحمد، ورجاله ثقات". وقال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٠/٤٧٠): أخرجه أحمد والبخاري في (الأدب المفرد) بسند حسن.

شرًّا من اغتياب مؤمن، إن قال فيه ما يعلم، فقد اغتابه، وإن قال فيه بما لا يعلم فقد بهته[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا**))، ويشير إلى صدره ثلاث مرات. ((**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**))[2].

وعن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب**))[3].

وعن سعيد بن زيد رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**إن من أربى الربا: الاستطالة في عرض المسلم بغير حق**))[4].

وقد ورد في النميمة من الآيات والأحاديث ما يدل على أنها من كبائر الذنوب. قال ﷻ: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة:١]، وقال ﷻ: ﴿هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم:١١]، أي: غيَّاب، أو مغتاب للناس. ﴿مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ ساع بالكلام بين الناس على وجه الإفساد بينهم. و(يهمز) و(يلمز) و(يعيب) واحد. قال أهل التأويل: (الهماز): الذي

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٧٣٤] بإسناد صحيح. انظر: صحيح الأدب (ص:٢٧٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٣) صحيح البخاري [١٠٥، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧]، مسلم [١٦٧٩].

(٤) تقدم.

يأكل لحوم الناس، ويقال: هم المشاؤون بالنميمة، المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء العيب. قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والنَّمُّ: إظهار الحديث بالوشاية، والنميمة: الوشاية[1].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يدخل الجنة نمام**))[2]. وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يدخل الجنة قتَّات**))[3]. و(القتات): النمام، كما تقدم.

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: مر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يعذبان، وما يعذبان في كبير**))، ثم قال: ((**بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة**))، ثم دعا بجريدة، فكسرها كسرتين، فوضع على كل قبر منهما كسرة، فقيل له: يا رسول الله، لم فعلت هذا؟ قال: ((**لعله أن يخفف عنهما ما لم تيبسا**))، أو: ((**إلى أن ييبسا**))[4].

وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: إن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ألا أنبئكم ما الْعَضْهُ؟ هي النَّمِيمَة الْقَالَةُ بين النَّاس**))، وإن محمدًا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الرجل يَصْدُقُ حتى يكتب صِدِّيقًا، ويكذب حتى يكتب كَذَّابًا**))[5].

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٤٩)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٧٢). المفردات، مادة: (نم) (ص:٨٢٥).

(٢) صحيح مسلم (١٦٨) [١٠٥].

(٣) صحيح البخاري [٦٠٥٦]، مسلم (١٦٩) [١٠٥].

(٤) صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. ((وما يعذبان في كبير)) قد ذكر العلماء فيه تأويلين، أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما. والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأويلًا ثالثًا، أي: ليس بأكبر الكبائر. (لا يستتر) روى ثلاث روايات: (يستتر) و(يستنزه) و(يستبرئ) وكلها صحيحة، ومعناها: لا يتجنبه ويتحرز منه. شرح النووي على صحيح مسلم (٣/٢٠١- ٢٠٢)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢/٦٤).

(٥) صحيح مسلم [٢٦٠٦]. هذه اللفظة رووها على وجهين، أحدهما: (الْعِضَه) -بكسر العين وفتح الضاد المعجمة على وزن العدة والزنة-. والثاني: (الْعَضْه) -بفتح العين وإسكان الضاد على وزن الوجه-. وهذا الثاني هو الأشهر في روايات بلادنا، والأشهر في كتب الحديث، وكتب غريبه، والأول أشهر في كتب=

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله: ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**))(١).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إنَّما كان ذو الوجهين شرَّ الناس؛ لأنَّ حالَه حالُ المنافقين؛ إذ هو مُتملِّق بالباطل والكذب، يُدْخِل الفسادَ بين الناس، والشُّرور، والتقاطع، والعداوة، والبغضاء"(٢).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذي الوجهين: إنه من شرار الناس فسببه ظاهر؛ لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، ويظهر لها أنه منها في خير أو شر، وهي مداهنة محرمة"(٣).

وَعَدَّ ابنُ حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الزواجر) ذا الوجهين صاحب كبيرة فقال: "الكبيرة الثالثة والخمسون بعد المائتين: كلامُ ذي اللِّسانين، وهو ذو الوجهين الذي لا يكون عند الله وجيهًا"(٤).

وقال الخادمي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذو اللسانين الذي يتكلم بين الْمُتَعَادِيَيْنِ المتخاصمين؛ إيقادًا لنيران الخصومة، وإيقاظًا للهب الفتنة(٥).

ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الناس بقصد الإفساد، وهو حرام؛ لأنه وسيلة لإفساد ذات البين، والله لا يحب الفساد. ومن صور التحريش: النميمة. جاء في

=اللغة. ونقل القاضي أنه رواية أكثر شيوخهم، وتقدير الحديث والله أعلم: (ألا أنبئكم ما العضه الفاحش الغليظ التحريم). شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٩/١٦)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣٩/٨).

(١) صحيح البخاري [٣٤٩٤، ٦٠٥٨]، مسلم [٢٥٢٦].

(٢) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٤٧٨/٦).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٨٠/١٦).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣٩/٢).

(٥) بريقة محمودية (٣/ ٢٣٩).

الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**))، قالوا: بلى، قال: ((**صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**))[1].

ثالثًا: البهتان والإفك والتمييز بينهما وبين الغيبة:

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث السابق: ((**وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**)): -بفتح الهاء المخففة وتشديد التاء- على الخطاب. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الغيبة: ذكر الغائب بما فيه مما يكرهه، وإذا لم يكن ذلك فيه كان بهتانًا، والبهت: الكذب الذي يتحير منه ويعجب من إفراطه"[2]. فَرَمْيُ البريء بَهْتٌ له. يقال: بَهَتُّهُ بَهْتًا وَبَهَتًا وَبُهْتَانًا إذا قال عليه ما لم يفعلْه. وهو بَهَّاتٌ والمقول له مَبْهُوتٌ. ويقال: بَهِتَ الرَّجل -بالكسر بوزن علم- إذا دَهِشَ وتَحَيَّر. وبَهُتَ (بِالضَّمِّ) ظرف مثلُه، وأفصح منهما: بُهِتَ، كما قال الله جَلَّ: ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة:٢٥٨]؛ لأنَّه يقال: رجل مَبْهُوت، ولا يقال: بَاهِتٌ ولا بَهِيت. قاله الكِسَائي[3].

وقد قيل: إن البهتان: الكذب الذي يدهش ويوقع في الفضيحة، كالرمي بالزنا ونحوه، فهو أخص من مطلق الكذب؛ لأن البهتان لا بدَّ أن يكون معه فضيحة، بخلاف الكذب فإنه أعم من أن يكون معه فضيحة أو لا.

وقد جاء في الحديث: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا**

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٩١٩]، والترمذي [٢٥٠٩]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٠٩٢].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٥٨٧).

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٣٨١)، وانظر: مادة: (بهت) في (الصحاح)، للجوهري (١/٢٤٤)، تهذيب اللغة، للأزهري (٦/١٣٢).

أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف)) الحديث(1). فقوله: (تفترونه): أي: تختلقونه وتتقولونه من عند أنفسكم.

وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٢].

والبهتان إنما يكون في الباطل كما قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل البهت: أن يقال له الباطل في وجهه"(2). وقال صاحب (العين) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البَهْت: استقبالك بأمر تَقْذِفُه به وهو منه بريء لا يعلمه"(3). وقد يكون البهت في غيبة.

قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الغيبة ثلاثة أوجه كلها في كتاب الله تعالى: الغيبة والإفك والبهتان.

فأما الغيبة فهي أن تقول في أخيك ما هو فيه.

وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلغك عنه.

وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه(4).

وعن شعبة قال: سمعت معاوية بن قُرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: لو مر بك رجل أقطع، فقلت: هذا أقطع كان غيبة. قال شعبة: فذكرته لأبي إسحاق فقال: صدق(5).

---

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٢/١٦).

(٣) العين (٣٥/٤)، وانظر: تهذيب اللغة (١٣٢/٦)، عمدة القاري (١٥٤/١).

(٤) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣٣٤/٥)، تفسير القرطبي (٣٣٥/١٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٣٠٧/٢٢)، المحرر الوجيز (١٥١/٥)، المجالسة وجواهر العلم (٣٤٣/٦).

رابعًا: قذف المحصنات:

إن من آفات اللسان المنكرة، والمتوعد عليها بالعذاب في الآخرة، وهي من كبائر الذنوب: قذف المحصنات المؤمنات الغافلات.

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٢٣ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝٢٤ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ۝٢٥﴾ [النور:٢٣-٢٥].

وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))[(١)].

قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ﴾، أي: العفائف مما رمين به من الفاحشة. ﴿الْغَافِلَاتِ﴾ عنها على الإطلاق بحيث لم يخطر ببالهن شيء منها[(٢)]، ولا من مقدماتها أصلًا. ففيها من الدلالة على كمال النزاهة ما ليس في (المحصنات)، أي: السليمات الصدور التقيات القلوب عن كل سوء. ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾، أي: المتصفات بالإيمان بكل ما يجب أن يؤمن به من الواجبات والمحظورات وغيرها، إيمانًا حقيقيًّا تفصيليًّا كما ينبئ عنه تأخير المؤمنات عما قبلها مع أصالة وصف الايمان[(٣)].

قال الإمام النووي رحمه الله: "والمراد بالمحصنات هنا: العفائف، وبالغافلات: الغافلات عن الفواحش وما قذفن به"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

(٢) قال في (التعريفات) (ص:١٦٢): "الغفلة عن الشيء: هي ألا يخطر ذلك بباله".

(٣) انظر: تفسير أبي السعود (٦/١٦٥).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٨٤).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و"ناب ذكر رمي النساء عن ذكر رمي الرجال، وأجمع المسلمون أن حكم المحصنين في القذف كحكم المحصنات قياسًا واستدلالًا، وأن من قذف حرًّا عفيفًا مؤمنًا عليه الحد ثمانون كمن قذف حرة مؤمنة. وجاءت الأخبار عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتغليظ في رمى المحصنات، وأن ذلك من الكبائر. قال المهلب: إنما سماها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موبقات؛ لأن الله تعالى إذا أراد أن يأخذ عبده بها أوبقه في نار جهنم"[1].

ومن شأن كثير من الظلمة أنهم مع ظلمهم يستطيلون بألسنتهم على من ظلموه، وينالون من عرضه. وقد قال الله ﷻ: ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [النساء:١٤٨]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا هو البهت البين أن يحكى أو ينقل عن المؤمنين والمؤمنات ما لم يفعلوه، على سبيل العيب والتنقص لهم"[2].

وقد جاء في الحديث: عن سعيد بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن من أربى الربا: الاستطالة في عرض المسلم بغير حق**))[3].

و(الاستطالة): إطالة اللسان. وأصل التطاول: استحقار الناس والترفع عليهم، والوقيعة فيهم. بنحو قذف أو سب. وأصل الربا: الزيادة والكثرة لغة، وأما شرعًا فهو معروف بأنواعه المحرمة في كتب الفقه، وإنما يكون هذا أشدها تحريمًا؛ لأن العرض عند أرباب الكمال أعز على النفس من المال.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٤٨٩)، وانظر: عمدة القاري (٢٤/٢٨).

(٢) تفسير ابن كثير (٦/٤٨٠).

(٣) أخرجه أحمد [١٦٥١]، وأبو داود [٤٨٧٦]، والبزار [١٢٦٤]، والطبراني [٣٥٧]، والبيهقي [٢١١٢٧]، والضياء [١١٠٧]. قال الهيثمي (٨/١٥٠): "رواه أحمد، والبزار ورجال أحمد رجال الصحيح غير نوفل بن مساحق، وهو ثقة".

قال البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والاستطالة في عرض المسلم: أن يتناول منه أكثر مما يستحقه على ما قال له أو أكثر مما رخص له فيه وعده من عداده، ثم فضله على سائر أفراده؛ لأنه أكثر مضرة وأشد فسادًا؛ فإن العرض شرعًا وعقلًا أعز على النفس من المال، وأعظم منه خطرًا.

وقد قالوا: إن عرض الإنسان كلحمه، وأنه كما يحرم أكل لحمه تحرم الاستطالة في عرضه.

(بغير حق) على حل استباحة العرض في مواضع مخصوصة، كجرح الشاهد، وذكر مساوئ الخاطب والمبتدعة والفسقة على قصد التحذير.

وقول الدائن في المماطل: (مطلني حقي)، ونحو ذلك مما هو مبين في الفروع[1].

ويتبين مما تقدم أن قذف المحصنات المؤمنات الغافلات من صور الكذب التي تتناول العرض، وهو من الضرورات الخمس التي أتت الشريعة برعايتها والمحافظة عليها؛ ولذلك كان الطعن في العرض عظيم الخطر والأثر؛ لأن العرض عند أرباب الكمال أعز على النفس من المال -كما تقدم-.

خامسًا: المجادلة بالباطل:

١ - التحذير من المجادلة بالباطل:

إن من أعظم آفات اللسان: الجدل بالباطل؛ فهو يورث الفرقة والتقاطع والتدابر بين المسلمين، وهو من أسباب إيغار صدور بعضهم على بعض، والباعث عليه: الاعتداد بالذات، ونصرة النفس، والتعصب، واتباع الهوى.

كما أن الجدال الباطل من أسباب الإضلال، والإيغال في الضلال.

إنَّ الجدل إذا لم يكن قائمًا على أساس من العلم والموضوعية، أو كانت الغاية منه: الانتصار للنفس، وأيضًا إذا لم يكن من يتصدى لإظهار الحق حاضر الذهن، وبعيد

---

(١) انظر: مرقاة المفاتيح (٨/ ٣١٥٨)، فيض القدير (٢/ ٥٣١).

النظر، وقادرًا على إقامة الحجة على خصمه، وكان عاجزًا عن ردِّه إلى مسلمات عقلية متفق عليها، فإنه جدل مذموم، يلبس الحق بالباطل، ويصدُّ عن الهداية، قال الله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ۝ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [الحج:٣- ٤]، ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ۝ ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [الحج:٨-٩]، وقال ﷻ: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ﴾ [غافر:٣٥]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر:٥٦].

والدعاة هم وُرَّاث الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ يدعون إلى هذا الدين بالحكمة الموعظة الحسنة، ويجادلون بالتي هي أحسن، بأنفع مسالك الجدل وأحكمها، وهم في ذلك مخلصون لله ﷻ، ولا غاية لهم إلا إظهار الحق وبيانه، واستنقاذ الخصم من دركات الجهل إلى نور المعرفة.

يقول الجويني رَحِمَهُ اللَّهُ: "ثم من الجدال ما يكون محمودًا مرضيًّا، ومنه ما يكون مذمومًا محرَّمًا؛ فالمذموم منه ما يكون لدفع الحق، أو تحقيق العناد، أو ليلبس الحق بالباطل، أو لما لا يطلب به تعرف ولا تقرب، أو للممارة وطلب الجاه والتقدم.. إلى غير ذلك من الوجوه المنهي عنها، وهي التي نصَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في كتابه على تحريمها، فقال: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]، وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤].. وغيرهما من الآيات"[(١)].

قال الألوسي رَحِمَهُ اللَّهُ في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾: "يشير إلى أهل الجدل من الفلاسفة؛ فإنهم يجادلون في ذات الله تعالى وصفاته ﷻ كذلك عند التحقيق؛ لأنهم لا يعتبرون كلام الرسل

---

(١) الكافية في الجدل، للجويني (ص:٢٢- ٢٣).

عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ولا الكتب المنزلة من السماء، وأكثر علومهم مشوب بآفة الوهم، ومع هذا فشؤون الله جل وعلا طور ما وراء طور العقل"[1]. بمعنى أن العقل لا يستقل بإدراكها؛ لقصوره؛ ولأنها خارج حدوده، ومن هنا كانت حاجته إلى نور إلهي يستضيء به، وهو نور الوحي والنبوة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾ [المائدة:١٥]، فقد سدت أبواب الوصول إلَّا على متبع للرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة:١٦].

فالذين يتبعون نهج الفلاسفة دون الاستضاءة بنور الوحي فإنهم يضلون عن الحقِّ، ويناقض بعضهم بعضًا، فيهدم اللاحق منهم ما أتى به السابق، بل قد يهدم الواحد منهم قوله السابق، وعقولهم في ظلمات بعضها فوق بعض، وما سطروه مبني على أوهام وخيالات ونظريات لم تثبت.

ومن الجدل المذموم: جدال الكفار في آيات الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [غافر:٤]، يعني: في آياته الظاهرة، وحججه البينة، فهو جدال لردِّ الحقِّ، والترويج للباطل، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في آية أخرى: ﴿وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنْذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف:٥٦]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾ [غافر:٥].

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "واتفق العلماء على أن مدارسة العلم والمناظرة فيه ليست من الجدال المنهي عنه. واتفقوا على أن المجادلة في إنكار المنكر وإقامة حدود الدين ليست من المنهي عنه، فالمنهي عنه هو ما يجر إلى المغاضبة والمشاتمة..الخ"[2].

---

(١) روح المعاني (٢١/١١٤).

(٢) التحرير والتنوير (٢/٢٣٥).

قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن المشورة والمناظرة بابا رحمة، ومفتاحا بركة لا يضل معهما رأي ولا يفقد معهما حزم"[(١)].

ومن الجدل المذموم: جدل قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ [نوح:٣٢].

أراد قوم نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ أن يتهربوا من المناظرة بعد أن ألزمهم بالحجج، وأنهم ليسوا مستعدين للاقتناع بالحجج مهما كانت دامغة؛ حيث إنهم قد أصموا آذانهم عن السماع، فلم تعد تنفعهم قوة الحجة، ولا وضوح الدليل. فتحدوه أن يأتيهم بما توعدهم به من عقاب، وهو لا يملك إنزال العقاب، ولا يستطيع رفعه إن نزل، ولم تنفعهم النصيحة، فكانوا من المغرقين.

وقال الله ﷻ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأنعام:٢٥].

فقوله ﷻ: ﴿أَكِنَّةً﴾، أي: أغطية؛ لئلَّا يفقهوا القرآن، ﴿وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾، أي: صممًا عن السماع النافع، فهُم كما قال ﷻ: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧١]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾، أي: مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات لا يؤمنوا بها. فلا فَهْم عندهم، ولا إنصاف، كما قال ﷻ: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [الأنفال:٢٣]. وقوله: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ﴾، أي: يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل"[(٢)].

وهو تمثيل معرب عن كمال جهلهم بشؤون النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وفرط نبو قلوبهم عن فهم القرآن الكريم، ومج أسماعهم له، وقد أصمها الله ﷻ. ﴿وَإِنْ يَرَوْا﴾، أي:

---

(١) أدب الدنيا والدين، للماوردي (ص:٣٠٠).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٢٤٧).

يشاهدوا ويبصروا: ﴿كُلَّ آيَةٍ﴾، أي: معجزة دالَّة على صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. ﴿لَا يُؤْمِنُوا بِهَا﴾؛ لفرط عنادهم، واستحكام التقليد فيهم.

ويقول الله ﷻ: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد:١٣]، أي: يخاصمون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الله ﷻ وصفاته، وهو شديد القوة، أو الأخذ، أو شديد الإهلاك بالمحل، وهو القحط.

وفي الحديث: ((**ما ضَلَّ قوم بعد هُدًى كانوا عليه إلَّا أُوتوا الجدل**))، ثم تلا هذه الآية: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف:٥٨]))(١).

إنَّ الجدل بالباطل هو الذي لا يعتمد صاحبه على سندٍ علميٍّ أو برهانٍ منطقي، وإنما يعتمد على العصبية، والاعتداد بالذَّات والرأي، وهذا النَّوع من الجدل هو الجدل المذموم المبين في قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج:٣]، وقوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج:٨]، وقوله ﷻ: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١].

٢ – أسباب الجدال بالباطل:

ذكر الله ﷻ الجدل على أنه من طبيعة الإنسان؛ فلذلك كان التوجيه إلى جدلٍ نافع، والبعد عن الجدال الذي بمعنى: المراء والمنازعة(٢)، فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ

(١) أخرجه أحمد [٢٢١٦٤]، وابن ماجه [٤٨]، والترمذي [٣٢٥٣]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: الآجري في (الشريعة) [١٠٩]، والحاكم [٣٦٧٤] وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٠٨٠].

(٢) قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "حقيقة المراء: طعنك في كلام غيرك؛ لإظهار خلل فيه لغير غرض سوى تحقير قائله وإظهار مزيتك عليه. والجدال هو ما يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والخصومة: لجاج في الكلام؛ ليستوفي به مالا أو غيره، ويكون تارة ابتداء وتارة اعتراضا، والمراء لا يكون إلا اعتراضا، والكل قبيح إذا لم يكن لإظهار الحق وبيانه وإدحاض الباطل وهدم أركانه" سبل السلام (٢/٦٧٤).

شَيْءٍ جَدَلًا﴾ [الكهف:٥٤]، أي: مراء وخصومة ومنازعة، وبها يقطعون الطريق على أنفسهم. فتارة يجادلون الأنبياء في العقائد والتوحيد، وتارة يجادل في النبوة، وتارة يجادلون في الكتب المنزلة ويقولون: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١]، وتارة يجادلون في المتشابهات كما سبق، وتارة يجادلون في التفسير والتأويل، وتارة في الفروع إلى غير ذلك.

والجدال بالباطل قد يكون بسبب فساد النظر الذي يؤدي إلى الجهل المركب، وهو أشد خطرًا من الجهل البسيط؛ لأن المجادل يعتقد أنه قد بنى معتقده على مقدمات ونتائج وترتيب منطقي. وهي في الحقيقة مقدمات فاسدة، أو تتضمن اختلالًا في النظم والترتيب يدركه أرباب البصائر؛ ولذلك قيل: البلاهة أدنى إلى الخلاص من فطانة بتراء، والعمى أقرب إلى السلامة من بصيرة حولاء.

وقد يكون بسبب خوف المجادل على النفس أو المصالح والجاه ونحو ذلك. ومرجع ذلك إلى سعة حيلته، واتباعه المصالح والأهواء، فلو أن نفسه شرفت عن الدينار، واشتاقت إلى الدار الآخرة، لارتقت إلى المعالي، وأصبح الحق أمامها واضحًا جليًّا.

ويمكن حمل ما ورد عن علماء المسلمين من تحريم للجدل على اللجاجة بالباطل التي لمسوا شرها، وتحققوا من جريرتها، وليس على مطلق الجدل، فما يغير قومًا خطب أفدح من التنافر الذي يتسبب به اللجاج بالباطل، وترك العمل.

فمقصد الفقهاء من المنع أو التحريم إنما هو هذا، أعني: الجدل العقيم الذي يمزق وحدة الجماعة، ويصرف العقل عن الفهم، حيث يختلط الفهم على العامة، ويلتبس الحق، وحيث يأتي ذلك المجادل بالباطل إلى الحق الواضح فيضفي عليه من الغموض، ويترك الغامض ولا يرفع عنه الخفاء، وبناء على ذلك فقد كان قصد الفقهاء: إنقاذ العقل من ضلالة تغشاه، فتحجب عنه الحقيقة، ويعيذونه أن يخبط في النهار المبين خبط عشواء.

والحاصل أن الجدال يكون بالباطل إذا كان الباعث الأمور التالية:

أ. اتباع الهوى، ونصرة النفس.

ب. الخضوع للإملاءات، وعدم التجرد للحق من نحو: رغبة المجادل في الحصول على أجر مادي في مقابل تقييده أو تغاضيه أو سكوته عمَّا يراه حقًّا، ومقابل إفساحه المجال للخصم ليتمادى في الخروج عن ضوابط الجدال والمناظرة.

ج. التحاسد والتجاحد.

د. عدم الرد إلى الأدلة النقلية القاطعة، وإلى المسلمات العقلية التي لا يختلف بها، فلا بد أن يكون الجدال المحمود قائمًا على الحجج البينة، والأدلة الواضحة.

هـ. فساد النظر القائم على جهل مركب.

و. غرور العلم الذي يمنع المجادل من قبول الحقِّ.

ز. خوف المجادل على النفس أو على المصالح والجاه.

ح. عدم الالتزام بآداب الجدل والحوار.

ط. إذا كان القصد من الجدال: الترويج للباطل من خلال إعلام موجَّهٍ –مثلًا–.

ي. إذا كان القصد من الجدال: دحض حَقٍّ واضحٍ لا يخفى، أو تقرير باطل والدفاع عنه.

٣ – شروط المجادل:

اشترط العلماء فيمن يتصدَّى للجدل:

أ. سلامة العقل وذكاؤه.

ب. قوَّة الإيمان والفضيلة.

ج. عدم التَّأثر بالآراء.

د. أن تكون الغاية من الجدل: الوصول إلى الحقِّ.

هـ. الالتزام بآداب الجدل والحوار.

ويتحصل من ذلك أن الجدل له ضوابط وحدود، ويحتاج إلى العلم والحكمة والأدب، والقراءة الدقيقة للواقع، وفهم مقاصد التشريع، وفقه المآلات.

*** ***

وقد توسعت في بيان (آفات اللسان) في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار)، ثم أفردت الموضوع بالبحث في مصنف مستقل؛ لأهميته، كما توسعت في بيان صوره.

سادسًا: الوقاية من آفات اللسان والعلاج:

١ - التبصر بخطورة وآفات وعقوبة من تَقَوَّل على الله ﷻ بغير علم.

٢ - ملازمة الصادقين، والتخلق بأخلاق أهل العلم والصلاح والفضل.

٣ - البعد عن الكاذبين، وأهل الريب والمعاصي.

٤ - الحذر من التهاون في أمر الكذب؛ لأجل إرضاء الناس أو إضحاكهم.

٥ - حفظ اللسان من الكذب والغيبة والنميمة وسائر أنواع العصيان.

٦ - كف السمع عن الإصغاء إلى كل مكروه؛ لأن كل ما حرم قوله حرم الإصغاء إليه: ولذلك سوى الله ﷻ بين السمع وأكل السحت فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾ [المائدة:٤٢](١).

٧ - يجب على المغتاب أن يبادر إلى التوبة بشروطها فيقلع ويندم؛ خوفًا من الله ﷻ؛ ليخرج من حقه، ثم يستحل المغتاب؛ ليحله فيخرج عن مظلمته. وينبغي أن يستحله وهو حزين متأسف نادم على فعله؛ إذ المرائي قد يستحل؛ ليظهر من نفسه الورع، وفي الباطن لا يكون نادمًا، فيكون قد قارف معصية أخرى. وقال الحسن: يكفيه

(١) إحياء علوم الدين (٢٣٥/١)، موعظة المؤمنين (ص:٦١).

الاستغفار عن الاستحلال[1]. وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والأصح أنه لا بد من الاستحلال"[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه المسألة فيها قولان للعلماء هما روايتان عن الإمام أحمد، وهما هل يكفي في التوبة من الغيبة الاستغفار للمغتاب أم لا بد من إعلامه وتحلله.

قال: والصحيح أنه لا يحتاج إلى إعلامه بل يكفيه الاستغفار له وذكره بمحاسن ما فيه في المواطن التي اغتابه فيها. وهذا اختيار ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره. قال والذين قالوا لا بد من إعلامه جعلوا الغيبة كالحقوق المالية، والفرق بينهما ظاهر، فإن في الحقوق المالية ينتفع المظلوم بعود نظير مظلمته إليه، فإن شاء أخذها وإن شاء تصدق بها.

وأما في الغيبة فلا يمكن ذلك ولا يحصل له بإعلامه إلا عكس مقصد الشارع، فإنه يوغر صدره ويؤذيه إذا سمع ما رمي به، ولعله يهيج عداوته ولا يصفو له أبدا. وما كان هذا سبيله فالشارع الحكيم لا يبيحه ولا يجيزه، فضلا عن أن يوجبه ويأمر به. ومدار الشريعة على تعطيل المفاسد وتقليلها لا على تحصيلها وتكميلها. انتهى. وهو كما ترى في غاية التحقيق والله ولي التوفيق"[3].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/١٥٣)، موعظة المؤمنين (ص: ٢٠١).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣/٣٢).

(٣) الوابل الصيب، لابن القيم (ص:١٤١- ١٤٢)، وانظر: غذاء الألباب (١/١١٤). وحاصل اختلاف العلماء في حق الذي اغتاب، هل يلزمه استحلال من اغتيب، مع الاستغفار له، أم يكفيه الاستغفار؟ الأول: إذا لم يعلم من اغتيب فيكفي الاستغفار، وهو مذهب الشافعية، والحنابلة، وقول للحنفية؛ ولأن إعلامه ربما يجر فتنة، وفي إعلامه إدخال غم عليه. فإن علم فلا بد من استحلاله مع الاستغفار له. الثاني: يكفي الاستغفار سواء علم الذي اغتيب أم لم يعلم، ولا يجب استحلاله، وهو قول الطحاوي من الحنفية. والمالكية على أنه لا بد من استحلال المغتاب إن كان موجودا، فإن لم يجده، أو أحدا من ورثته. فإن لم يجده، أو أحدًا من ورثته استغفر له. وفي استحلال الورثة خلاف بين الفقهاء. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٤/٤٢).

٨ – استحباب الوضوء من الكلام القبيح:

قال الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يستحب الوضوء من الضحك في الصلاة ومن الكلام القبيح[١]؛ لما روي عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: لأن أتوضأ من الكلمة الخبيثة أحب إلي من أن أتوضأ من الطعام الطيب[٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحمله الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ على الوضوء الشرعي الذي هو غسل الأعضاء المعروفة، وكذلك حملها ابن المنذر وجماعة من أصحابنا.

وقال ابن الصباغ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الأشبه أنهم أرادوا غسل الفم، وكذا حملها المتولي على غسل الفم، وحكى الشاشي في المعتمد كلام ابن الصباغ، ثم قال: وهذا بعيد، بل ظاهر كلام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه أراد الوضوء الشرعي، قال: والمعنى يدل عليه؛ لأن غسل الفم لا يؤثر فيما جرى من الكلام، وإنما يؤثر فيه الوضوء الشرعي، والغرض منه تكفير الخطايا، كما ثبت في الأحاديث، فحصل أن الصحيح أو الصواب استحباب الوضوء الشرعي من الكلام القبيح، كالغيبة، والنميمة، والكذب، والقذف، وقول الزور، والفحش، وأشباهها"[٣].

٩ – الاحتراز عن سماع النمام، ونهيه عن ذلك ونصحه.

١٠ – اجتناب سوء الظن.

١١ – التثبت من النقل، وعدم التسرع في الحكم. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

١٢ – العلاج الإجمالي والتفصيلي للغيبة والنميمة:

---

(١) المهذب في فقه الإمام الشافعي (١/٥٣)، المجموع شرح المهذب (٢/٦٢).

(٢) أخرجه عبد الرزاق [٤٦٩]، وابن أبي شيبة [١٤٢٥]، والطبراني [٩٢٢٢]، قال الهيثمي (١/٢٥٤): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله موثقون".

(٣) انظر ذلك في (المجموع شرح المهذب) (٢/٦٢).

تقدم أن من آفات اللسان: الغيبة والنميمة. وعلاج الغيبة والنميمة إما إجمالي بأن يعلم المغتاب أو النمام بأنَّه قد تعرَّض بسبب ذلك لسخط الله تعالى وعقوبته، وأنه قد يحبط عمله. وبأن يتدبّر المرء في عيوبه، ويجتهد في التَّطهُّر منها، وأن يعلم أنَّ تأذِّي غيره بالغيبة أو بالنَّميمة كتأذّيه بها فكيف يرضى لغيره ما يتأذى به؟ وأما التّفصيليّ فيتلخَّص في النَّظر في بواعث الغيبة أو النميمة، وقطعه من أصله؛ إذ علاج العلَّة إنما يكون بقطع سببها، وألا يعتقد المرء في أخيه سوءًا، وأن يبادر إلى التَّوبة بشروطها(١).

١٣ - الاحتراز عن المخاصمة بغير الحق؛ نصرة للنفس.

١٤ - معرفة خطر الكذب عمومًا وآثاره، ومعرفة خطورة الكذب على رسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وآفاته على وجه الخصوص.

١٥ - دراسة الأسانيد؛ لمعرفة الصحيح من الضعيف والموضوع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "العلمُ إما نقلٌ مصدق، وإما استدلال محقق، والمنقول إما عن المعصوم، وإما عن غير المعصوم"(٢). وقال أيضًا: "الإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة.."(٣). وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ اللَّهُ: "حدث الزهري يومًا بحديث، فقلت: هاته بلا إسناد، فقال: أترقى السطحَ بلا سلم؟"(٤).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ: "مثل الذي يطلب أمر دينه بلا إسناد كمثل الذي يرتقي السطح بلا سلم"(٥).

---

(١) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٣٠).

(٢) مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص:٧٦)، مجموع الفتاوى (١٣/٣٤٤).

(٣) منهاج السنة النبوية، لابن تيمية (٤/١١)، وانظر: الإسناد من الدين، للشيخ عبد الفتاح أبو غدة (ص:٣٠).

(٤) انظر: تدريب الراوي، للسيوطي (٢/٢٣٣)، جامع التحصيل (ص:٥٧)،

(٥) أدب الإملاء والاستملاء (ص:٦)، فتح المغيث، للسخاوي (٣/٣٣١)، تدريب الراوي (٢/٦٠٥).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الإسنادُ من الدين، ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء، فإذا قيل له: من حدثكَ؟ بقي"(١).

وقيل للإمام يحي بن معين رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو في مرض موته: ماذا تشتهي؟ قال: بيتٌ خَالي، وإسنادٌ عالي.

فالإسناد من أهم خصائص الأمة المحمدية، وهو الشرط الأول في كل منقول.

ولا بد لطالب العلم من الاهتمام بعلم مصطلح الحديث، والجرح والتعديل؛ لمعرفة حال الرجال، والحكم على الحديث.

١٦ – التثبت في النقل:

ينبغي على طالب العلم أن لا يتعجل بالنقل أو التحديث دون تثبت، وأن لا يروي عن الضعفاء والمتهمين. قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّث بكلِّ ما سَمِعَ**))(٢). وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن كذبًا علي ليس ككذب على أحد، من كذب علي متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار**))(٣).

وقال عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بحسب المرء من الكذب أن يحدث بكل ما سمع(٤).

---

(١) أي: بقيَ ساكتًا منقطعًا مفحمًا. انظر: الإلماع، للقاضي عياض (ص:١٩٤)، مقدمة ابن الصلاح (ص:١٥٠)، التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح (ص:٢٥٧)، الجامع لأخلاق الراوي (٢/٢٠٠)، الشذا الفياح (٢/٤١٩)، الكفاية في علم الرواية (ص:٣٩٣)، فتح المغيث (٣/٣٣١)، أدب الإملاء (ص:٧)، منهاج السنة النبوية (٧/٣٦٠)، معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري (ص:٦).
والإسناد العالي الذي قلّت رجاله، وضده النازل.

(٢) صحيح مسلم (١/١٠) [٤].

(٣) صحيح البخاري [١٢٩١]، مسلم [٤].

(٤) ونحوه عن عبد الله. صحيح مسلم [٥].

وقال ﷺ: ((**سيكون في آخر أمتي أناس يُحَدِّثُونَكُمْ ما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم**))(١).

وعن سفيان بن حسين، قال: سألني إياس بن معاوية، فقال: إني أراك قد كلفت بعلم القرآن، فاقرأ علي سورة، وفسر حتى أنظر فيما علمت، قال: ففعلت، فقال لي: احفظ علي ما أقول لك: إياك وَالشَّنَاعَةَ في الحديث، فإنه قلما حملها أحد إلا ذَلَّ في نفسه، وَكُذِّبَ في حديثه(٢).

والشناعة: القبح. ومعنى كلامه أنه حذره أن يحدث بالأحاديث المنكرة التي يشنع على صاحبها وينكر وَيَقْبُحُ حال صاحبها فيكذب أو يستراب في رواياته فتسقط منزلته ويذل في نفسه -والله أعلم-(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ((**يكون في آخر الزمان دجالون كذابون، يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم، ولا آباؤكم، فإياكم وإياهم، لا يضلونكم، ولا يفتنونكم**))(٤).

قال ابن سيرين رحمه الله: إن هذا العلم دين، فانظروا عَمَّن تأخذون دينكم(٥). وعنه أنه قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة، قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم. وعن سفيان بن عيينة عن مسعر قال: سمعت سعد بن إبراهيم يقول: لا يحدث عن رسول الله ﷺ إلا الثقات(٦).

---

(١) صحيح مسلم [٦].

(٢) مقدمة صحيح مسلم (١/١١).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١/ ٧٦).

(٤) صحيح مسلم [٧].

(٥) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

(٦) المصدر السابق (١/١٥).

العقبة الثالثة والخمسون

الظلم

أولًا: تعريف الظلم:

١- تعريف الظلم في اللغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا ومَظْلِمَة. وأصله: وضع الشيء في غير موضعه"(١). وقال ابن فارس رَحِمَهُ اللَّهُ: "الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تَعَدِّيًا. فالأول: الظلمة، والجمع ظلمات. والظَّلَامُ: اسم الظلمة، وقد أظلم المكان إظلامًا.

والأصل الآخر: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا. والأصل: وضع الشيء في غير موضعه"(٢).

"والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصوب ولا تَظْلِمْ عنه، أي: لا تَجُرْ عنه. وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، يعني: أن الله تعالى هو المحيي المميت الرزاق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به غيره فذلك أَعْظَمُ الظُّلْم، لأنه جعل النعمة لغير ربها. يقال: ظَلَمَه يَظْلِمُهُ ظَلْمًا وظُلْمًا ومَظْلِمة"(٣).

ومن الألفاظ ذات الصلة: الجور(٤)، والعتو(٥)، والزيغ(٦)، والبغي(٧). ومنها: الغلو، الغلو، والشطط، والعدوان، والطغيان، والفجور، والإجحاف، والاستبداد، والتسلط،

---

(١) الصحاح، مادة: (ظلم) (١٩٧٧/٥).

(٢) انظر: مقاييس اللغة، مادة: (ظلم) (٤٦٩/٣)، وانظر: مادة: (ظلم) في (المفردات)، للراغب (ص:٥٣٧).

(٣) لسان العرب، مادة: (ظلم) (٣٧٣/١٢)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٢٣/١٠-٢٤).

(٤) سيأتي بيانه.

(٥) وهو في اللغة: مجاوزة القَدْرِ في الظُّلم. انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٦٣/٤)، زاد المسير (٣١٦/٣).

(٦) يقال: زاغ عن الطريق يزوغ ويزيغ، والياء أفصح انظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة: (فجر) (١٤٧/٢)، جمهرة اللغة (٨٢٠/٢).

(٧) وهو في اللغة: الظلم، وأصله: الفساد، وتجاوز الحد، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي. انظر: تفسير الرازي (١٩٣/٥)، غرائب القرآن (٤٧١/١)، البحر المحيط في التفسير (٤٧٨/١).

والقهر، والتجبر، والتَّحكم، والهيمنة، والاعتداء، والإفساد، والافتراء، والتحامل، والتعسف، والهضم، والإجرام، والضيم. إلى غير ذلك.

٢ – تعريفه في الاصطلاح:

عرفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور. وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد(١).

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان(٢) أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز؛ ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه: ظالم، وفي إبليس: ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد"(٣).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظلم هو التصرف في ملك الغير وذلك في حق الله تعالى محال؛ لأنه المالك المطلق"(٤).

وعرفه الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع(١).

---

(١) التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٤)، وانظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (ص:٧٣).

(٢) وقد جاء في القرآن إطلاق الظلم على النقص في قوله ﷻ: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾ [الكهف:٣٣]. أضواء البيان (٣/٢٦٧). قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومدار الظلم على النقص كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا﴾. ويدور على أمرين: إما منع واجب للغير، وإما تحميله ما لا يجب عليه. مثال الأول: أن تمنع شخصًا من دين عليك فلا توفّيه، أو تماطل به؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مطل الغني ظلم)). صحيح البخاري [٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٤٠٠] مسلم [١٥٦٤]. ومثال الثاني: كأن تدعي عليه دينًا وتأتي بشهادة زور فيحكم لك به". شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح العثيمين (ص:٢٤٥).

(٣) المفردات، مادة: (ظلم) (ص:٥٣٧)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٣١).

(٤) التفسير الكبير (٢٢/١٤٩).

---

(١) الكليات (ص:٥٩٤).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظلم المطلق: أخذ ما ليس له أخذه ولا شيء منه من مال أو دم أو عرض"(١).

وقد تطابقت الشرائع على قبحه، واتفقت جميع الملل على رعاية حفظ الأنفس، فالأنساب، فالأعراض، فالعقول، فالأموال. والظلم يقع في هذه أو في بعضها. وأعلاه: الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وهو المراد بالظلم في أكثر الآيات: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤](٢).

ويدخل فيه: ظلم الإنسان لنفسه بارتكاب المعاصي؛ إذ العصاة ظُلَّام أنفسهم، وأقبح أنواعه: ظلم من ليس له ناصر إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى(٣).

ومنه أخذت المظلمة، وهي كما قال الحافظ: اسم لما أخذ بغير حق. والظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي(٤).

وفي (منار القاري): "أما المظلمة شرعًا فإنها التعدي على حقوق الآخرين، سواء كان ذلك بأخذ أموالهم بالباطل، أو بانتهاك أعراضهم، ويدخل في المظالم كل الاعتداءات المالية والجسمية والأخلاقية وغيرها، وكل الجنايات وجميع المخالفات الشرعية والذنوب، وإن لم تتعد إلى الغير؛ لأن فاعلها يظلم نفسه، ويتعدى عليها بتعريضها للعقوبة الإلهية"(٥).

---

(١) شرح حديث لبيك اللهم لبيك (ص:١٠٣).

(٢) ولذا كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم بمعنى الشرك. انظر: أضواء البيان (٧/٢٠٠).

(٣) فيض القدير (١/١٣٤).

(٤) فتح الباري (٥/٩٥).

(٥) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/٣٦١).

ثانيًا: التحذير من الظلم وبيان عاقبته وكونه من العقبات:

إنَّ التمادي في الظلم من أسباب الضلال، فقد يحرم الظالم الهداية، ويزداد إيغالًا في الضلال، وانهماكًا في المعاصي، ولا يهتدي إلى سبيل الرشاد؛ لأنَّ الظلم قد أعمى بصيرته، فظلم نفسه، وظلم غيره.

ولا ريب أن الظالمين يعملون في دأب على قهر الناس وإضلالهم، فمن الناس من يُفْتَن ويَضِل عن الحق؛ طمعًا في مكانة أو منصب أو جاه أو مال أو عمل، أو خوفًا على النفس أو المال أو الأهل أو المكانة أو العمل. ومنهم من يثبت على الحق ولا يزيغ، ويصبر على ما أصابه من البلاء.

قال الله ﷻ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله ﷻ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: "الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]. وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل"[(١)].

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم، ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا"[(٢)].

والظالم يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الظلم، وإثم الضلال، وإثم الإضلال.

ولا شك أن الظلم والقهر والاستبداد، هو من ابتلاء الله ﷻ للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والظلم إنما يحمل ضعاف النفوس على الانقياد للباطل؛ طلبًا للسلامة،

---

(١) الكشاف (٢/٥٥٤).

(٢) فتح القدير (٣/١٢٨).

وإذعانًا لسلطان القوة، أو طمعًا في مكانة أو جاه أو مال -كما تقدم-، فيسقطون في أوحال الضلال، كما قال الله ﷻ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

وقد صرف الخوف الكثيرين عن اتباع موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:٨٣].

فمن الناس من أذعن لفرعون؛ خوفًا، ومنهم من كتم إيمانه كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر:٢٨].

قال الله ﷻ في بيان أن الظلم من أسباب الضلال عن الحق والخذلان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤]. "وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية؛ لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا"(١). وهذه الطريق هي التي قد اختاروها لأنفسهم، وأوغلوا السير فيها.

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعنى نفي أن يهديهم طريقًا: إن كان طريقا يوم القيامة فهو واضح: أي: لا يهديهم طريقًا بوصلهم إلى مكان إلا طريقًا يوصل إلى جهنم. ويجوز أن يراد من الطريق: الآيات في الدنيا، كقوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. فنفي هديهم إليه إنذار بأن الكفر والظلم من شأنهما أن يخيما على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه؛ ليحذر المتلبس بالكفر والظلم من التوغل فيهما، فلعله أن يصبح ولا مخلص له منهما. ونفي هدى الله إياهم على هذا الوجه مجاز عقلي في نفي تيسير أسباب الهدى بحسب قانون حصول الأسباب وحصول آثارها بعدها. وعلى أي الاحتمالين فتوبة الكافر الظالم بالإيمان مقبولة، وكثيرًا ما آمن الكافرون الظالمون وحسن إيمانهم"(٢).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٢١٥).

(٢) التحرير والتنوير (٦/ ٤٧- ٤٨).

و"جريمة الظلم أم الرذائل كلها؛ لأنها تشمل ظلم المرء لنفسه بدنًا وعقلًا ودينًا ودنيا، وظلمه للناس أفرادًا وجماعة وأمة، فكل ما سبق من الرذائل فهو داخل في معناها؛ ولذلك جعل إهلاك أولئك القرون عقابًا على الظلم"(١).

إنه ليس شيءٌ أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الظلم والعدوان، فلا يكون الرقي والعمران حيث يسود الظلم والاستبداد، وتهيمن ثقافة الاستبداد على وسائل التعليم.

ومن يتأمَّلُ واقعَ المسلمين وما أصاب الأمة من الفقر والتخلف، يعلم أن سطوة الظالم ويده وصولجانه من وراء ذلك.

إن الخضوع المطلق لسلطان الاستبداد، وجعل السلطة -والحالة هذه- المرجع الأخير في العلم والفكر بحيث لا يرى إلا بمنظارها يؤول إلى تخلف المجتمع، وانغماس كثيرين في أوحال الضلال. وقد قال الله ﷻ عن المتبعين لفرعون وهم على غير بصيرة: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٤-٥٦].

والمجتمعات التي يحكمها الجهل والاستبداد إنما تحمل ضعاف النفوس على متابعة الضَّلال، والانغماس في أوحاله.

والواقع يشهد لذلك الانحدار الفكري بسبب ذلك؛ فإن العصور الوسطى -مثلًا- والتي كانت السلطة هي المرجع الأخير في شؤون العلم كانت عصورًا متخلفة خلت من كل إبداع.

والظلم يجلب السخائم والإِحَن(٢)، ويسبب المحن، والجور يسلب النعم، ويوقع البلايا والنِّقم، وقد قيل: (الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش). وقد كتب بعض

---

(١) تفسير المنار (١٢/ ١٨٨- ١٨٩).

(٢) السخيمة: الحقد والضغينة والموجدة في النفس. و(الإحنة): الحقد والضغن، جمع، إحن يقال: إن الإحن تجر المحن.

عُمَّال عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خَرِبَت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالًا يَرُمُّهَا به فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد، قد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فَحَصِّنْهَا بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنه مَرَمَّتُهَا، والسلام[1].

وقد حرَّم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الظلم على نفسه، وجعله محرمًا، وأخبر أنه لا يحب الظالمين، وحذَّر من الظُّلم في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتوعَّد الظلمة بالخزي في الدنيا، وبالعذاب في الآخرة.

ومن تأمل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي وردت في هذا المعنى وجدها تحمل النهي المغلظ، والوعيد الشديد، وسوء العاقبة في الدنيا المؤذن بنهاية دولة الظلم، ثم سوء المآل في الآخرة.

فأين الذين التحفوا بالأمن والدَّعَة، واستمتعوا بالثروةِ والسَّعةِ، من الأمم الظالمة الغابرة، لقد نزلت بهم الفواجع، وحلَّتْ بهم الصواعق والقوارع، فهل تعِي لهم حِسًّا، أو تسمع لهم ركزًا؟!

قال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال الله ﷻ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧].

وقال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢].

وقال الله ﷻ على لسان هابيل: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

---

(١) أخرجه الدينوري في (المجالسة) [٢٢٨٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٣٠٥).

وقال الله ﷻ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

وقال الله ﷻ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وقال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٩].

وقال الله ﷻ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦٢].

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وقال الله ﷻ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٧٧].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:١٣].

وقال الله ﷻ: ﴿فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٣٩].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

وقال الله ﷻ: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وقال الله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وقال الله ﷻ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٧].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل:٣٣-٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل:٨٥].

وقال ﷻ: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم:٣٨].

وقال ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وقال ﷻ: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

وقال ﷻ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ⑪ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ⑫ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ⑬ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ⑭ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ⑮﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقال ﷻ: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥].

وقال ﷻ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨].

وقال ﷻ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧].

وقال ﷻ: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

وقال ﷻ: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وقال ﷻ: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

وقال ﷻ: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

وقال ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٤].

وقال ﷻ: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤].

وقال ﷻ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

وقال ﷻ: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وقال ﷻ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢].

وقال ﷻ: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى:٢١-٢٢].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

وقال ﷻ: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤].

وقال ﷻ: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر:١٦-١٧].

وقال ﷻ: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١]. والآيات في التحذير من الظلم، وبيان عاقبته، وأنواعه كثيرة(١).

---

(١) انظر: المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم (الظلم وأنواعه) (٢/٧٥٧-٧٦٥).

وجاء في (الصحيح): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما روى عن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى أنه قال: **((يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا))**(١)، يعني: أنه تعالى حرم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره(٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((الظلم ظلمات يوم القيامة))**(٣).

وفي رواية: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم))**(٤).

وعن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه))**، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢](٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من كانت عنده مَظْلِمَة لأخيه فَلْيَتَحَلَّله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يُؤْخَذَ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات أخيه فطرحت عليه))**(٦).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((أتدرون ما المفلس؟))** قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: **((إن المفلس من أمتي يأتي يوم**

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٦/٢).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٧]، مسلم [٢٥٧٩].

(٤) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

(٥) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٦) صحيح البخاري [٦٥٣٤].

القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار))(١).

ولما كثرت المظالم، وامتلأت بالقضايا المحاكم، وانتشرت الرشوة، وشاع شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، أصاب الأمة ما أصابها من البلاء والفقر والتخلف. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠].

وفي الحديث: **((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب))**(٢).

وفي رواية: **((إذا رأوا المنكر))**(٣).

وفي رواية: **((ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب))**(٤).

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: **((لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج**

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨١].

(٢) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

(٣) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٤) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

مثل هذه))، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((**نعم إذا كثر الخبث**))[1].

ثالثًا: أسباب الظلم:

ومن أسباب الظلم: الكبر، والبطر، والفخر، والغرور، والبخل، والحرص، والجشع، والطمع، والكنود، والبغي، والغفلة، والادعاء الكاذب، واتباع الهوى.

قال الله ﷻ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

قال ﷻ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ۝٤ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝٥ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ۝٦﴾ [القصص:٤-٦].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

ومن أسباب الظلم: الجهل والجحود: وقد بيَّن الله ﷻ أنَّ أهل العلم ينتفعون بالآيات، أما الجهل فهو سببُ الكفر والجحود والظلم. قال الله ﷻ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وبيَّن الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنَّ العلم سبب في الهداية إلى الحقِّ، فقال ﷻ: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأصل كل خير: هو العلم والعدل، وأصل كل شر: هو الجهل والظلم"(١).

ومن أسباب الظلم: الغضب في غير الحقِّ؛ فهو مفتاحُ كلِّ شرٍّ، فهو مفتاح للقتل، والنزاع والشقاق، والطلاق، والظلم بجميع أنواعه.

ومن أسباب الظلم: الكذب وقول الزور -كما تقدم-.

رابعًا: أنواع الظلم:

أما أنواع الظلم فقد قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: قال بعض الحكماء الظلم ثلاثة.

أحدها: بين الإنسان وبين الله، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: ظلم بينه وبين الناس.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه. وهذه الثلاثة في الحقيقة للنفس(٢).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو نوعان:

أحدهما: ظلم النفس، وأعظمه: الشرك، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألهه، فهو وضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون، كما قال ﷻ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ثم يليه: المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر.

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (المفردات)، مادة: (ظلم) (ص:٥٣٧- ٥٣٨)، بصائر ذوي التمييز (٣/٥٤٠- ٥٤٤).

والثاني: ظلم العبد لغيره، وهو المذكور في هذا الحديث، وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في خطبته في حجة الوداع: ((**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**))"[1].

قال سلمان الفارسي لجرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا جرير! أتدري ما ظلمة النَّار؟ قال: قلت: لا. قال: فإنه ظلم الناس بعضُهم بعضًا في الأرض[2].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**))[3].

وقد رُوِيَ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد فيقتص الله بعضهم من بعض**))[4].

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٦). والحديث في (صحيح البخاري) [١٠٥، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧]، و(مسلم) [١٦٧٩].

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣٣٥-٣٣٦)، تاريخ دمشق (٢١/٤٣٨)، تاريخ الإسلام (٢/٢٨٦)، المجالسة وجواهر العلم (٣/٢٠٥)، إحياء علوم الدين (٣/٣٤١).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٠، ٦٥٣٥].

(٤) أخرجه الطيالسي [٢٢٢٣]، والبزار [٦٤٩٣]، قال الهيثمي (١٠/٣٤٨): "رواه البزار عن شيخه: أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقية رجاله قد وثقوا على ضعفهم". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٩).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأصل الظلم: وضع الشيء في غير موضعه، ومن جعل العبادة لغير الله ﷻ فهو أظلم الظالمين"[(١)].

وقال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظلم ثلاثة من الأنواع والأقسام؛ فظلم لا يغفره الله ﷻ، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه.

فأما الأول: وهو الظلم الذي لا يغفره الله ﷻ فالشرك، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وأما الثاني: وهو الظلم الذي يغفره الله ﷻ فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:١٣٥]، قالوا: نكرة في سياق الشرط فعم كل ما فيه ظلم النفس. وقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾ فهذا لا يدخل فيه الشرك الأكبر: قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على الصحب، وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟! قال: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"[(٢)].

وأما الثالث: وهو الظلم الذي لا يتركه الله ﷻ فظلم العباد بعضهم بعضًا حتى يدير لبعضهم من بعض علم من هذا ما نقله الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن بعض المفسرين أن الظلم المطلق هو الكفر المطلق. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فلا شفيع لهم غدًا. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]، والظلم المقيد قد يختص بظلم العبد نفسه، وظلم بعضهم بعضًا، فالأول من الثاني مغفور إن شاء الله ﷻ.

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤٣/٢).

(٢) الحديث في الصحيحين، صحيح البخاري [٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]، مسلم [١٢٤].

والثاني[١] تنصب له موازين العدل، فمن سلم من أصناف الظلم فله الأمن التام ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه فله الأمن ولا بد أن يدخل الجنة"[٢].

ومن الناس من يظلم نفسه بالجهل والمعاصي، وتعدي حدود الله ﷻ، قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَـٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

ومن الظلم: صحبة أهل الشرِّ والفساد، وموافقة حال أهل الباطل الذين يخوضون في آيات الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، والتردد على أماكن الشبهات والمجالس التي يخوض الناس فيها بالباطل، ولا يأمن فيها على نفسه، ومجالسة من كان مبتدعًا، داعيًا إلى بدعته، مظهرًا لها، فلا يجالس وقت بدعته ودعوته، ولا يسمع منه إلا إذا كان في حال الذِّكرى والمناقشة والمناورة والبحث عن الحقِّ؛ لأن مجالسته —والحالة هذه- بمثابة التشريع له كما قال الله ﷻ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]. وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

فقوله ﷻ: ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾، أي: بعد أن تذكر النهي. "فتعم الآية كل ظالم، فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس؛ لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكاره عليهم بالقول"[٣].

---

(١) والثاني الذي هو ظلم العبد لغيره من التصنيف الثالث الذي ذكره أولًا.

(٢) فيض القدير (٤/٢٩٥).

(٣) تفسير ابن باديس (ص:٢٣١).

ومن الناس من يظلم أولاده وأهله فلا يأمرهم بمعروف، ولا ينهاهم عن منكر، ولا يحملهم على ما فيه صلاح حالهم من العلم والعمل والعون والإرشاد.

ومنهم من يظلم زوجته بضربها بغير حق، أو التقصير في حقها، من صداقها ونفقتها وكسوتها(١)، أو تظلمه هي بتقصيرها في حقه، أو تظلم أولادها بتقصيرها في حقهم.

فمن الظلم: ظلم الزوجة للزوج، والزوج للزوجة، أو ظلم إحدى الزوجات أو الأولاد بالتميز بينهم في العطايا والمنح، أمَّا محبة إحدى الزوجات، أو أحد الأولاد أكثر من غيره، فقد ذهب الفقهاء إلى أنَّ الإنسان لا يؤاخذ إذا مال قلبُه إلى إحدى زوجاته، وأحبها أكثر من غيرها، وكذا إذا أحبَّ أحد أولاده أكثر من الآخرين؛ لأنَّ المحبة من الأمور القلبيَّة التي ليس للإنسان فيها خيار، ولا قدرة له على التحكم فيها؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم لنسائه فيعدل ويقول: ((**اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**))(٢). قال الترمذي -في تفسير قوله: ((**فيما تملك ولا أملك**))- يعني به: الحب والمودة.

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "والحديث يدل على أن المحبة وميل القلب أمر غير مقدور للعبد، بل هو من الله ﷻ لا يملكه العبد"(٣).

وإنما يحرم عليه أن يفضل المحبوب على غيره بالعطايا، أو بغيرها من الأمور التي يملكها الإنسان بغير مسوغ؛ لقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَن تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩].

---

(١) وهو داخل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عقوبته وعرضه)) وسيأتي.

(٢) أخرجه إسحاق بن راهويه [١٣٧٠]، وأحمد [٢٥١١١]، والترمذي [١١٤٠]، وقال: حديث عائشة هكذا رواه غير واحد، عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم، ورواه حماد بن زيد، وغير واحد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم، وهذا أصح من حديث حماد بن سلمة.

(٣) سبل السلام، محمد بن إسماعيل الصنعاني (٢/٢٣٨).

ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من كان له امرأتان يميل لإحداهما جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل**))[1]. قال العلماء: المراد الميل في القسم والإنفاق لا في المحبة؛ لما عرفت من أنها مما لا يملكه العبد. ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التسوية بين الأولاد بالعطايا ونحوها لبشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[2]: ((**أكل ولدك نحلت مثله**))، قال: لا، قال: ((**فارجعه**))"[3].

وفي رواية قال: ((**فاردده**))[4].

وفي رواية فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**))، قال: لا، قال: ((**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**))، قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة[5].

وفي رواية: قال: ((**فلا تشهدني إذًا، فإني لا أشهد على جور**))[6].

وفي رواية: ((**لا تشهدني على جور**))[7].

---

(١) أخرجه الطيالسي [٢٥٧٦]، وإسحاق بن راهويه [١٠٠]، وأحمد [٧٩٣٦]، والدارمي [٢٢٥٢]، وابن ماجه [١٩٦٩]، وأبو داود [٢١٣٣]، والبزار [٩٥٥١]، والنسائي [٣٩٤٢]، وابن حبان [٤٢٠٧]، والحاكم [٢٧٥٩]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٤٠]. قال العراقي (ص:٤٨٧): "أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة: قال أبو داود وابن حبان (فمال مع إحداهما)، وقال الترمذي: (فلم يعدل بينهما)".

(٢) صحيح البخاري [٢٥٨٦]، مسلم [١٦٢٣]. قال العلامة السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: "النُّحل: -بضم فسكون-: مصدر نحلته، أي: أعطيته. ويطلق على المُعْطِي أيضًا. والنحلة -بكسر فسكون- وجوز الضم بمعنى: العطية. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "النُّحل: العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق. يقال: نَحَلَه يَنْحَلُه نُحْلًا -بالضم-. والنِّحْلَة -بالكسر-: العطية". حاشية السندي على سنن النسائي (٦/٢٥٨)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (نَحَلَ) (٥/٢٩). وقوله: (فارجعه) يدل على جواز الرجوع في الهبة للولد. ولعل من لا يقول به يحمل على أنه رجع قبل أن يتم الأمر بالقبض من جهته، ونحو ذلك.

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٦/ ١٨٩).

(٤) صحيح مسلم (١٠) [١٦٢٣].

(٥) صحيح مسلم (١٣) [١٦٢٣].

(٦) صحيح مسلم (١٤) [١٦٢٣].

(٧) صحيح البخاري [٢٦٥٠] مسلم (١٦) [١٦٢٣].

وفي رواية قال: ((**فأشهد على هذا غيري**))(١).

وفي رواية قال: ((**فإني لا أشهد**))(٢).

وفي رواية قال: ((**فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق**))(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما قوله: ((**نحلت**)) فمعناه: وهبت.

وفي هذا الحديث أنه ينبغي أن يسوي بين أولاده في الهبة، ويهب لكل واحد منهم مثل الآخر، ولا يفضل، ويسوي بين الذكر والأنثى. وقال بعض أصحابنا: يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والصحيح المشهور أنه يسوي بينهما؛ لظاهر الحديث، فلو فضل بعضهم، أو وهب لبعضهم دون بعض، فمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه مكروه وليس بحرام، والهبة صحيحة.

وقال طاووس وعروة ومجاهد والثوري وأحمد وإسحاق وداود رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هو حرام، واحتجوا برواية: ((**لا أشهد على جور**)) وبغيرها من ألفاظ الحديث"(٤).

وفي رواية: ((**اعدلوا بين أولادكم في النَّحْل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في الْبِرِّ والعطف**))(٥).

---

(١) صحيح مسلم (١٧) [١٦٢٣].

(٢) صحيح مسلم (١٨) [١٦٢٣].

(٣) صحيح مسلم (١٩) [١٦٢٣]، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١١/٦٥).

(٤) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١١/٦٥- ٦٧)، وانظر: المعتصر من المختصر من مشكل الآثار (٢/٦٤)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة (١٣/٣٧٠)، الشرح الممتع على زاد المستقنع (١١/٤٨).

(٥) أخرجه ابن حبان [٥١٠٤]، كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [٧٠]، وتمام [٢٧٣]، والبيهقي في (الكبرى) (الكبرى) [١٢٠٠٣]. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فيض القدير) (١/٥٥٧): "إسناده حسن".

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن انتظام المعاش والمعاد إنما يدور مع العدل، والتفاضل بينهم يجرُّ إلى الشحناء والتباغض، ومحبة بعضهم له وبغض بعضهم إياه، وينشأ عن ذلك العقوق ومنع الحقوق"(١).

ومن الناس من يظلم أقاربه بقطع الصلة، أو الإساءة إليهم بقول أو فعل.

لا تكون الصلة على وجه المكافأة، وإنما ابتغاء وجه الله ﷻ، ولا يقتصر في صلته على من يبادلونه الصلة، فقد قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**))(٢)، أي: إن الذي يصل غيره مكافأةً له على ما قدم من صلة، ومقابلةً له بمثل ما فعل ليس بواصل حقيقة؛ لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع فهم ثلاث درجات؛ (مواصل ومكافئ وقاطع)؛ فالواصل: من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ: الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع: الذي يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سمي من جازاه: مكافئًا، والله أعلم"(٣). وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: ((**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**))(٤). ففي

---

(١) فيض القدير (١/ ٥٥٧).

(٢) صحيح البخاري [٥٩٩١].

(٣) فتح الباري (١٠/ ٤٢٤).

(٤) صحيح مسلم [٢٥٥٨]. و(تسفهم): بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء. و(الملّ): -بفتح الميم وتشديد اللام- هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، بل ينال أجر الصلة والتحمل للأذى، وبالمقابل ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه.

الحديث: الحث على صلة ذي الرحم الذي هذه صفته، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فعسى أن ينقلب حاله. قال الله ﷻ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

ومن أخلاق النبي ﷺ أنه: ((**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**))[(١)] فهو (يعفو)، أي: في الباطن (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة[(٢)].

ومن الناس من يظلم إخوانه بترك نصرتهم نصرتهم، وعدم نصحهم أو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ومن العلماء من يظلم الناس بكتمانه مع حاجتهم إلى البيان، أو بمداهنته وتلبيسه، فمن أعظم الظلم وأشنعه: ظلم العلماء للأمة الذين ينافقون ويداهنون، ويكتمون من أجل عرض من الدنيا.

وما التبس الحقُّ على كثيرين إلا بسبب ركون بعض من المنتسبين لطلب العلم إلى الظالمين ومداهنتهم، وتأثر العامَّة بهم؛ فلذلك حذَّر الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى من ذلك أيما تحذير فقال ﷻ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

فهذه الآية الكريمة أصل عظيم في النَّهي عن الوقوف مع الظالم وتأييده، وقد ذهب أكثر المفسِّرين في تفسيرها إلى أنَّ الله ﷻ ينهى المؤمنين عن مجرَّد الميل إلى الظالمين، وهو معنى قلبي خفي، له مظاهره وآثاره، ومعلوم أنَّ ذلك يقتضي من باب أولى النهي عمَّا فوق ذلك من الموالاة للظالم وتأييده في أعماله، ونصرته وإعانته.

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) انظر: المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٢٢١-٢٢٦).

وقد جاء عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم[١].

وجاء رجل خياط إلى سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: إني رجل أخيط ثياب السلطان هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط[٢].

وقال أبو بكر الْمَرْوَذِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما حبسوا أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في السجن جاءه السجان، فقال: يا أبا عبد الله الحديث الذي روي في الظلمة وأعوانهم صحيح؟ قال: نعم، قال السجان: فأنا من أعوان الظلمة؟ قال له: أعوان الظلمة من يأخذ شعرك، ويغسل ثوبك، ويصلح طعامك، ويبيع ويشتري منك، فأما أنت فمن الظلمة أنفسهم[٣].

ومن الظلم: الحكم بغير ما أنزل الله ﷻ، والجور في الحكم، قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

والجَوْر هو الظلم والميل، وهو نقيض العدل. يقال: جار عليه يجور جورًا في الحكم: أي: ظَلَمَ ومال عن الحق. وجارَ المسافر عن الطريق: مال عنها وانحرف.

فالجور ضد القصد، أو الميل عنه، أو تركه في السير، وكل ما مال فقد جار. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجور: الميل عن القصد. يقال: جارَ عن الطريق، وجارَ عليه في الحكم"[٤].

---

(١) سير أعلام النبلاء (٤/٢٣٢)، صفة الصفوة (١/٣٤٦)، الكبائر، للذهبي (ص:١١٢)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٠٢)، وفيات الأعيان (٢/٣٧٨).

(٢) الكبائر، للذهبي (ص:١١٢)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٠٢).

(٣) انظر: سير السلف، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ١٠٥٩)، صيد الخاطر (ص:٤٣٥).

(٤) الصحاح، مادة: (جور) (٢/ ٦١٧).

نعوذ بالله من الجور، ومن الحور بعد الكور(١).

ولا شك أن الجور سبب في شيوع الفساد، ومتابعة الضلال بالنسبة لكثيرين من ضعاف النفوس؛ ولذلك فإن الجائر في الحكم إنما يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الجور، وإثم الضلال، وإثم الإضلال.

وقد أرسل الله ﷻ رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى العالمين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وليخرجوا النّاس من ظلمات الجهل والجور والنزاع والخلاف إلى نور الهداية والعدل، فأنزل الكتب هدى ورحمة ونورًا وشفاء وعدلًا؛ ليقوم الناس بالقسط، فيسيروا على صراط الله المستقيم، وشرعه القويم. قال الله ﷻ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأخبر أنه جل ذكره أرسل الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ وأنزل الكتاب والميزان؛ لأجل قيام الناس بالقسط. وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق، فالكتاب يهدي، والسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا؛ ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد كما قال من قال من السلف: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء. وقالوا في قوله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] أقوالًا تجمع العلماء والأمراء؛ ولهذا نصَّ الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية؛ إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله ﷻ. وكان نواب رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن

---

(١) أي: من النقصان بعد الزيادة. وفي الدعاء: ((نعوذ بالله من الحور بعد الكور)) [وسيأتي] إذ ينبغي للسالك والمريد أن يكون طالبًا للمزيد، ولذا قيل: من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ومن استوى يوماه فهو مغبون، والمراد زيادة العلم والعمل لا المال والجاه والأهل، كما قال، ونعم من قال: (زيادة المرء في دنياه نقصان***وربحه غير محض الخير خسران). مرقاة المفاتيح (٣/٩٣٠).

أسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين، وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم"[1].

ووردت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالعدل وترغب فيه، وتمدح من يقوم به. والعدل يشمل العدل في الحكم والقضاء، فقد فرض على الحكام والقضاة العدل في الحكم، وعدم الجور والظلم فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وقال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠].

وقد نهى عن الظلم، وحذَّر من عاقبته ومآله، وتوعد في آيات كثيرة الظالمين بالعذاب الشديد في الآخرة، والظلم يشمل الجور في الحكم.

وجاء في الحديث: الوعيد بالعذاب الشديد في نار جهنم للذين لا يحكمون بالحق والعدل، كما صحَّ عن ابن بريدة، عن أبيه، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**))[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٥٧- ١٥٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٣١٥]، وأبو داود [٣٥٧٣]، والترمذي [١٣٢٢]، والنسائي في (الكبرى) [٥٨٩١]، والروياني [٦٦]، والطبراني في (الكبير) [١١٥٤]، والأوسط [٣٦١٦]، والحاكم [٧٠١٢] وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن الكبرى) [٢٠٣٥٤]. قال العراقي (ص:٧٨): "أخرجه=

وفي رواية: عن ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة؛ قاض قضى بالهوى فهو في النار، وقاضي قضى بغير علم فهو في النار، وقاضي قضى بالحق فهو في الجنة))**(١).

وفي جاء الوعيد الشديد لمن تولى أمارة أو ائتمن على أمر من سائر أمور المسلمين ولم يكن أهلًا لذلك، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: **((ويلٌ للأُمَرَاء، ويلٌ للعُرَفَاء، ويلٌ للأُمَنَاء، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يوم القيامة أَنَّ ذَوَائِبَهُمْ كانت مُعَلَّقَةً بالثُّرَيَّا، يَتَذَبْذَبُونَ بين السَّمَاء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء))**(٢).

وعن سعيد المَقْبُرِيِّ عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((إنَّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامَةً يوم القيامة، فنعمَ المُرْضِعَة، وبئست الفَاطِمَة))**(٣).

وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ))**(٤).

وفي لفظ: **((مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ))**(٥).

=أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح"، وقال الهيثمي (٤/١٩٥): "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح".

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٨٠١]، والقضاعي [٣١٧]، والديلمي [٤٦٩٥]. قال الهيثمي (٤/١٩٣): "رواه الطبراني في (الأوسط) و(الكبير)، ورجال الكبير ثقات. ورواه أبو يعلى بنحوه".

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦٤٦]، وأحمد [٨٦٢٧]، قال الهيثمي (٥/٢٠٠): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٦٢١٧]، وابن حبان [٤٤٨٣]، والحاكم [٧٠١٦] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي [٢٠٢٢٤].

(٣) صحيح البخاري [٧١٤٨].

(٤) صحيح البخاري [٧١٥٠]، مسلم [١٤٢].

(٥) صحيح البخاري [٧١٥١]، مسلم [١٤٢].

والغش -بالكسر- ضد النصح، ويتحقق غشه بظلمه لهم، بأخذ أموالهم، وسفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، واحتجابه عن خلتهم وحاجتهم، وحبسه عنهم ما جعله الله لهم من مال الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى المعين للمصارف، وترك تعريفهم بما يجب عليهم من أمر دينهم ودنياهم، وإهمال الحدود وردع أهل الفساد وإضاعة الجهاد، وغير ذلك مما فيه مصالح العباد. ومن ذلك توليته لمن لا يحوطهم ولا يراقب أمر الله فيهم وتوليته من غيره أرضى لله عنه مع وجوده(١).

والنصيحة فرض على الوالي لرعيته، وقد قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الأمير الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته**))(٢).

وقد جاء في الحديث عن أبي الْمَلِيح أن عبيد الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه، فقال له معقل: إني مُحَدِّثُك بحديث لولا أني في الموت لم أُحَدِّثْك به، سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ما من أمير يَلِي أمر المسلمين، ثم لا يَجْهَدُ لهم، وَيَنْصَحُ، إلا لم يدخل معهم الجنة**))(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومعناه بَيِّن في التحذير من غش المسلمين لمن قلَّده الله شيئًا من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه خليفة لمصلحتهم، وجعله واسطة بينه وبينهم في تدبير أمورهم في دينهم ودنياهم. فإذا خان فيما اؤتمن عليه، ولم ينصح فيما قُلِّده واستخلف عليه، إما بتضييع لتعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، والقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم، والذب عنها لكل مُتصَدٍّ لإدخال داخِلَةٍ فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوذتهم ومجاهدة

---

(١) سبل السلام (٢/٦٦٦).

(٢) صحيح البخاري [٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥٢٠٠، ٧١٣٨]، مسلم [١٨٢٩].

(٣) صحيح مسلم [١٤٢].

عدوهم، أو ترك سيرة العدل فيهم فقد غشهم. وقد نبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذلك من كبائر الذنوب الموبقة المباعدة عن الجنة"(١).

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**))(٢)، أي: من غدر صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثير.

وقال عمرو بن مُرَّةَ لمعاوية: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ما من إمام يُغْلِقُ بابه دون ذوي الحاجة، وَالخَلَّة، والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خَلَّتِه، وحاجته، وَمَسْكَنَتِه**))، فجعل معاوية رجلًا على حوائج الناس(٣).

وفي رواية: عن أبي مريم الأزدي قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من وَلَّاهُ الله عز وجل شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم، وَخَلَّتِهِمْ وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وَخَلَّتِهِ، وفقره**))(٤).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ما من أمير عَشَرَةٍ إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا، لا يَفُكُّهُ إلا العدل أو يُوبِقُهُ الْجَوْرُ**))(٥).

---

(١) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (١/ ٢٩٥).

(٢) صحيح مسلم [١٧٣٨].

(٣) أخرجه أحمد [١٨٠٣٣]، والترمذي [١٣٣٢]، واللفظ له. وقال: "غريب، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، وعمرو بن مرة الجهني يكنى أبا مريم". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٥٦٦]، وعند أحمد بلفظ: ((ما من إمام أو وال)). وعند أبي يعلى بلفظ: ((ما من أمير ولا وال)).

(٤) أخرجه أبو داود [٢٩٤٨]، والحارث [٦٠٩]، والطبراني [٨٣٢]، والحاكم [٧٠٢٧]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٥) قال الهيثمي (٤/١٩٢- ١٩٣): "رواه أحمد [٩٥٧٣]، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى [٦٦١٤]، إلا أنه قال: ((حتى يفك عنه العدل أو يوبقه الجور)). وقوله: (ما من أمير عشرة) أي: فما فوقها.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن ضيع من استرعاه الله أمرهم أو خانهم أو ظلمهم؛ فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة؟ وهذا الحديث بيان وعيد شديد على أئمة الجور"(١).

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام، قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن الله يُعَذِّبُ الذين يُعَذِّبُونَ الناس في الدنيا**))(٢).

قال بعض الأدباء: ليس لِلْجَائِرِ جَار، ولا تَعْمُرُ له دَار. وقال بعض البلغاء: أقرب الأشياء: صَرْعَةُ الظَّلُوم، وأَنْفَذُ السِّهَام: دعوةُ الْمَظْلُوم(٣).

وقال نبي الرحمة صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اللهم، من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فَرَفَقَ بهم، فَارْفُقْ به**))(٤).

وقال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ويلٌ لِدَيَّانِ مَنْ في الأرض مِنْ دَيَّانِ مَنْ في السَّماء، يوْمَ يلقونه، إلَّا مَنْ أمَرَ بالعدل، وقَضَى بالحقِّ، ولم يقضِ على هوًى، ولا على قَرَابَة، ولا على رَغَبٍ ولا رَهَبٍ، وجعلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآةً بين عَيْنَيْه(٥).

ومن الظلم: المماطلة بحق الغير مع القدرة على الوفاء، وفي الحديث: ((**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**))(٦).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٢١٩).

(٢) صحيح مسلم [٢٦١٣]. و(الأنباط) هم فلاحو العجم.

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين (ص:١٤٠).

(٤) صحيح مسلم [١٨٢٨].

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٢٩٦٢]، وأحمد في (الزهد) [٦٦٣]، والبيهقي [٢٠٣٥٩]، وابن عساكر (٥٦/١٣١).

(٦) صحيح البخاري [٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٤٠٠]، مسلم [١٥٦٤].

ومن الظلم: أكل أموال الناس بالباطل، والتطاول على أموال اليتامى والضعفاء والبسطاء والعامة الذين لا يستطيعون حيلة لاسترداد حقوقهم، وقتل النفس المحرم قتلها ظلمًا بغير حق. قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠][(١)]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٢٩-٣٠].

أي: ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل بالوجه الذي لم يبحه الله ولم يشرعه. من نحو: السرقة، والخيانة، والغصب، والقمار، وعقود الربا[(٢)].

ومن الظلم: المكس، بفتح الميم وسكون الكاف بعدها مهملة، وهو من يتولى الضرائب التي تؤخذ من الناس بغير حق. قال في (القاموس): مكس في البيع يمكس إذا جبى مالًا. والمكس: النقص والظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، أو درهم كان يأخذه المصَدِّقُ[(٣)] بعد فراغه من الصدقة. انتهى[(٤)].

قال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المَكْسُ: انتقاص الثمن في البياعة، ومنه اشتقاق المكَّاس؛ لأنه يستنقصه[(٥)]. وقال ابن الأثير: المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وهو العَشَّار[(٦)].

(١) قد فصلتُ القول في بيان خطر أكل مال اليتيم بغير حق في كتاب: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار).

(٢) انظر: الكشاف (١/٢٣٣)، (١/٥٠٢)، الطبري (٨/ ٢١٦).

(٣) أي: الجابي.

(٤) نيل الأوطار (٧/١٣٢)، القاموس المحيط، مادة: (مكس) (ص:٥٧٥).

(٥) العين، مادة: (مكس) (٥/ ٣١٧).

(٦) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكس) (٤/٣٤٩).

والْمُمَاكَسَة مفاعلة من المكس من حَدِّ ضَرَبَ[1]، وهو اسْتِنْقَاصُ الثَّمَن[2].

وفي (شرح السنة): "صاحب المكس هو الذي يأخذ من التجار إذا مروا مكسًا باسم العشر، فأما الساعي الذي يأخذ الصدقة، ومن يأخذ من أهل الذمة العشر الذي صولحوا عليه فهو محتسب ما لم يتعد فيأثم بالتعدي والظلم انتهى"[3].

ويطلق على الضَّريبة والجباية والرُّسوم والعشور والخراج والمغارم ونحو ذلك، وقد غلب استعمال الْمَكْس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلمًا عند البيع والشراء[4].

وقد قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في المرأة الغامدية التي زنت فرجمت: ((**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**))[5].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه أن المكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات، وذلك لكثرة مطالبات الناس له، وظلاماتهم عنده، وَتَكَرُّرِ ذلك منه، وَانْتِهَاكِهِ للناس، وأخذ أموالهم بغير حقها، وصرفها في غير وجهها"[6].

وعده الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ من الكبائر. قال: "والمكاس من فيه شبه من قاطع الطريق، وهو من اللصوص. وجابي المكس وكاتبه وشاهده وآخذه من جندي وشيخ وصاحب رواية شركاء في الوزر آكلون للسحت والحرام"[7].

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ اللَّهُ: "جباية المكوس، والدخول في شيء من توابعها كالكتابة عليها لا بقصد حفظ حقوق الناس إلى أن ترد إليهم إن تيسر) وهو داخل في قوله جَلَّ: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ

---

(١) يقال: (مَكَسَ) في البيع من باب ضَرَب. ومَاكَسَ مماكَسَة ومِكَاسًا.

(٢) طلبة الطلبة (ص:١٤٥).

(٣) شرح السنة، البغوي (١٠/٦٠-٦١)، ونحوه في (معالم السنن) (٣/٥)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤١٢).

(٤) المصباح المنير، مادة: (مكس) (٢/٥٧٧).

(٥) صحيح مسلم [١٦٩٥].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٠٣).

(٧) الكبائر، للذهبي (ص:١١٦).

لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢]. والمكاس بسائر أنواعه: من جابي المكس وكاتبه وشاهده ووازنه وكائله وغيرهم من أكبر أعوان الظلمة، بل هم من الظلمة بأنفسهم، فإنهم يأخذون ما لا يستحقونه، ويدفعونه لمن لا يستحقه؛ ولهذا لا يدخل صاحب مكس الجنة؛ لأن لحمه ينبت من حرام كما يأتي[1]. وأيضًا فلأنهم تقلدوا بمظالم العباد، ومن أين للمكاس يوم القيامة أن يؤدي الناس ما أخذ منهم؟ إنما يأخذون من حسناته إن كان له حسنات، وهو داخل في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: ((**أتدرون ما المفلس؟**))، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ((**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار**))[2].

(١) رُوِي عن ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن شماسة التجيبي، عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((لا يدخل الجنة صاحب مكس)) وإسناده فيه ضعف؛ لضعف محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد رواه بالعنعنة. والحديث أخرجه أحمد [١٧٢٩٤]، والدارمي [١٧٠٨]، وأبو داود [٢٩٣٧]، وأبو يعلى [١٧٥٦]، وابن الجارود [٣٣٩]، وابن خزيمة [٢٣٣٣]، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) [٣٠٦٢]، والطبراني [٨٧٨]، والحاكم [١٤٦٩] وقال: "صحيح على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٧٥]. قال في (المقاصد) (ص: ٧٢٩) ونحوه في (الكشف) (٢/ ٤٥٨) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعًا، وصححه ابن خزيمة والحاكم. وروي كذلك بإسناد فيه ضعف عن أبي الخير قال: عرض مسلمة بن مخلد -وكان أميرا على مصر- على رويفع بن ثابت أن يوليه العشور، فقال: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((إن صاحب المكس في النار)). أخرجه أحمد [١٧٠٠١]، والطبراني [٤٤٩٣]. قال الهيثمي (٣/٨٨): "رواه أحمد، والطبراني في الكبير بنحوه، إلا أنه قال: ((صاحب المكس في النار)) - يعني: العاشر. وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام".

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٩٨- ٢٩٩)، والحديث في (صحيح مسلم) [٢٥٨١] وقد تقدم.

"وقد ذكر الفقهاء وأهل اللّغة صورًا كثيرة للمكس:

منها: ما كان يفعله أهل الجاهليَّة، وهي دراهم كانت تؤخذ من البائع في الأسواق.

ومنها: دراهم كان يأخذها عامل الزَّكاة لنفسه، بعد أن يأخذ الزَّكاة.

ومن ذلك: دراهم كانت تُؤخذ من التُّجَّار إذا مرُّوا، وكانوا يقدِّرونها على الأحمال أو الرُّؤوس أو نحو ذلك.

ومن ذلك: ما يأخذه الولاة باسم العشر، ويتأوَّلون فيه معنى الزَّكاة والصَّدقات.

ومنها: الضَّرائب الَّتي تؤخذ من التُّجَّار أو من عامَّة النَّاس بغير حقٍّ.

ومنها: الرّشوة الَّتي تُؤخذ في الحكم والشَّهادات والشَّفاعات وغيرها باسم الهديَّة.

وهذه الصُّور كلُّها تدخل في المكس المحرَّم؛ لما في ذلك من أكل أموال النَّاس بالباطل"[(١)].

والحاصل: أن المكس من كبائر الذنوب، والماكس هو الذي يأخذ أموال الناس ظلمًا، وهو من التسيب، وسوء استخدام للمال العام.

وقد كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عبد الله بن عون القاري أن اركب إلى البيت الذي يقال له: (بيت المكس) فاهدمه، ثم احمله إلى البحر فانسفه فيه نسفًا. قال أبو عبيد: وقد رأيته بين مصر والرملة[(٢)].

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عدي بن أرطاة أن ضع عن الناس الفدية، وضع عن الناس المائدة، وضع عن الناس المكس، وليس بالمكس، ولكنه البخس الذي قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]، فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه، ومن لم يأتك بها فالله حسيبه[(٣)].

---

(١) رفع اللبس عن حكم المكس، مقالة للأستاذ الدكتور عبد المجيد جمعة.

(٢) انظر: كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٦٣٢)، المعرفة والتاريخ (١/٦٠٧)، أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية (١/٣٣١-٣٣٢)، مطالب أولي النهى (٢/٦١٩).

(٣) كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٦٣٢)، أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية (١/٣٣١).

ومن الظلم: أن يستأجر أجيرًا في عمل ولا يعطيه أجرته؛ لما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**))[1].

فمن أعظم الظلم: ظلم الأجراء والمستخدمين ببخسهم حقوقهم، أو تأخير أجرهم، أو إهانتهم بقول أو فعل.

وفي الحديث: ((**لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وعِرْضَه**)) قال سفيان: عرضه يقول: مطلتني وعقوبته الحبس[2].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(اللَّيُّ): بفتح اللام وتشديد الياء وهو المطل. و(الواجد) بالجيم: الْمُوسِر. قال العلماء: يُحِلُّ عِرْضَهُ بأن يقول ظلمني ومطلني، وعقوبته: الحبس والتعزير"[3].

ومن الظلم: ظلم المعاهَد أو انتقاصه، أو تكليفه فوق طاقته كما جاء في الحديث: ((**ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**))[4].

---

(١) صحيح البخاري [٢٢٢٧، ٢٢٧٠].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٩١٢]، وأحمد [١٧٩٤٦]، والبخاري مُعلقًا (٣/١١٨)، وابن ماجه [٢٤٢٧]، وأبو داود [٣٦٢٨]، والنسائي [٤٦٨٩]، وابن حبان [٥٠٨٩]، والطبراني [٧٢٤٩]، والحاكم [٧٠٦٥] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١١٢٧٩].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/٢٢٧).

(٤) أخرجه أبو داود [٣٠٥٢] وإسناده لا بأس به. انظر: اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، للزركشي (ص:٣٣)، المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:٦١٦). وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٨٧٣١]. وزاد: ((ألا ومن قتل معاهدا له ذمة الله وذمة رسوله حرم الله عليه ريح الجنة ، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفا)).

ومن أعظم الظلم كذلك ما جاء مبينًا في الآيات، فمن ذلك: الصد عن بيوت الله ﷻ، وكتمان الشهادة عند طلبها والحاجة إليها، وقول الزور، وافتراء الكذب على الله ﷻ، والإعراض عن آياته:

إن من أعظم الظالمين جرمًا: من يصدُّ عن بيوت الله ﷻ، ويمنع ذكر الله ﷻ، ودروس العلم النافع، وإقامة الصلوات، وغيرها من الطاعات. قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤]، أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله ﷻ عن ذكر الله ﷻ فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

﴿وَسَعَى﴾، أي: اجتهد وبذل وسعه. ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة[1].

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٠].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٦٣).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف:٧].

ومن الظلم: موالاة من استحب الكفر على الإيمان. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

ومن الظلم: الإصرار على المعاصي. قال الله ﷻ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

ومن أعظم الظلم: مؤاخذة غير الجاني، والاقتصاص من غير الباغي، يقول الله ﷻ في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف:٧٩]، أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب المسيء.

ودرجات الظلم متفاوتة، والجزاء من جنس العمل، ومن ظلم ظُلم، ومن أساء ندم.

والظلم محرَّمٌ -ولو كان شيئًا يسيرًا- كما جاء في الحديث: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**)) فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال:

((**وإن قضيبا من أراك**))(١). وفي رواية: قالها ثلاث مرات(٢). قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "قالها ثلاث مرات: زيادة في التنفير؛ لئلا يتهاون بالشيء اليسير، ولا فرق بين قليل الحق وكثيره في التحريم، أما في الإثم فالظاهر أنه ليس من اقتطع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة كمن اقتطع الدرهم والدرهمين، وهذا خرج مخرج المبالغة في المنع وتعظيم الأمر وتهويله، بدليل تأكيد تحريم الجنة وإيجاب النار، وأحدهما يستلزم الآخر، والحال يقتضي هذا التأكيد؛ لأن فاعل ذلك أبلغ في الاعتداء الغاية حيث اقتطع حق امرئ لم يكن له فيه سبيل، واستخف بحرمة واجبة الرعاية وهي حرمة الإسلام، وأقدم على اليمين الفاجرة"(٣).

وفي الحديث: ((**من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو عليها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**))، فأنزل الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧]. قال: فدخل الأشعث بن قيس، وقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا: كذا وكذا، قال: فِيَّ أنزلت كانت لي بئر في أرض ابن عم لي، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بينتك أو يمينه**)) فقلت: إذًا يحلف يا رسول الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من حلف على يمين صَبْرٍ، يقتطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**))(٤). وقد تقدم بيانه.

وفي الرواية الأخرى: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الحضرمي: يا رسول الله، إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الْكِنْدِيُّ: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله

---

(١) صحيح مسلم [١٣٧].

(٢) انظر: السنن المأثورة للشافعي، للمزني [٥٤٥]، مسند الإمام أحمد [٥٧]، شرح مشكل الآثار [٤٤٨].

(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٤/ ٢٥).

(٤) صحيح البخاري [٢٣٥٦، ٤٥٤٩، ٦٦٥٩، ٦٦٧٦]، مسلم [١٣٨].

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحضرمي: ((**ألك بينة؟**))، قال: لا، قال: ((**فلك يمينه**))، قال: يا رسول الله، إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: ((**ليس لك منه إلا ذلك**))، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أدبر: ((**أما لئن حلف على ماله لِيأْكُلَهُ ظلمًا، لَيلْقَيَنَّ اللهَ وهو عنه مُعْرِض**))[1].

ومن أعظم الظلم: أخذ شيء من الأرض بغير حق كما جاء في الحديث: عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من ظلم من الأرض شيئًا طُوِّقَهُ من سبع أرضين**))[2].

وفي رواية عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يأخذ أحد شبرًا من الأرض بغير حقه، إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**))[3].

وعن محمد بن إبراهيم، أن أبا سلمة، حدثه، وكان بينه وبين قومه خصومة في أرض، وأنه دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فذكر ذلك لها، فقالت: يا أبا سلمة: اجتنب الأرض؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من ظلم قيد شبر من الأرض، طوقه من سبع أرضين**))[4].

ولا يقف الظلم في الإسلام على ظلم المرء لنفسه وإخوانه من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات الأخرى.

فكما يحرم على كل مكلف أن يظلم غيره من أبناء جنسه، فكذلك يحرم عليه إيذاء الحيوان وتعذيبه والقسوة عليه، وهو من أسباب ولوج النار في الآخرة كما جاء في

---

(١) صحيح مسلم [١٣٩].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٥٢]، مسلم [١٦١٠].

(٣) صحيح مسلم [١٦١١].

(٤) صحيح البخاري [٢٤٥٣، ٣١٩٥]، مسلم [١٦١٢].

الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**))(١).

ومن أعظم الظلم المتوعد عليه بالعذاب في الآخرة: المصور المضاهي بتصويره ما صوره ربه ﷻ في خلقه كما جاء في الحديث: عن أبي زرعة، قال: دخلت مع أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دار مروان فرأى فيها تصاوير، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله تعالى: ((**ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة**))(٢)، أي: ولا أحد أظلم ممن قصد أن يصنع كخلقي. وهذا التشبيه لا عموم له، يعني: كخلقي من بعض الوجوه في فعل الصورة لا من كل وجه. واستشكل التعبير بأظلم بأن الكافر أظلم. وأجيب بأنه إذا صور الصنم للعبادة كان كافرًا فهو هو، ويزيد عذابه على سائر الكفار بقبح كفره(٣).

جاء في (شرح صحيح البخاري)، لابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "المصور المضاهي بتصويره ذلك منطو على تمثيله نفسه بخالقه، فلا خلق أعظم كفرًا منه فهو بذلك أشدهم عذابًا وأعظم عقابًا، وأما من صور صورة غير مضاه ما خلق ربه، وإن كان بفعله مخطئًا، فغير داخل في معنى من ضاهى ربه بتصويره"(٤).

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتمثال هو الصورة الممثلة، أي: الْمُجَسَّمَة مثل شيء من الأجسام، فكان النحاتون يعملون لسليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ صورًا مختلفة كصور موهومة للملائكة، وللحيوان مثل الأسود، ولم تكن التماثيل المجسمة محرمة الاستعمال في الشرائع السابقة، وقد حرمها الإسلام؛ لأن الإسلام أمعن في قطع دابر الإشراك؛ لشدة تمكن الإشراك من نفوس العرب وغيرهم. وكان معظم الأصنام تماثيل،

(١) صحيح البخاري [٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢]، مسلم [٢٢٤٢].
(٢) صحيح البخاري [٥٩٥٣، ٧٥٥٩]، مسلم [٢١١١].
(٣) فيض القدير (٤/٤٨١).
(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/ ١٧٤-١٧٥).

فحرم الإسلام اتخاذها لذلك، ولم يكن تحريمها لأجل اشتمالها على مفسدة في ذاتها، ولكن لكونها كانت ذريعة للإشراك"[1].

خامسًا: الوقاية من آفات الظلم والعلاج:

والعلم بأسباب الوقاية قد يردع الظالم عن التمادي في ظلمه، ويصبر المظلوم ويواسيه، فمن أسباب الوقاية:

١ - رسوخ العقيدة والإيمان بقضاء الله تعالى وقدره في نفس المظلوم:

إن المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله تعالى خير وأبقى.

ورُبَّ مِحْنَةٍ أورثت مِنْحَةً، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِدِ الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

وصيانة الإيمان تسهم في استئصال آفات اليأس والقنوط التي قد تصيب المظلوم بسبب ما يقع عليه من الظلم، ونورَ الإيمان يدفعُ عن المسلمِ ما ينتابُه من صنوفِ الوحشة، وما ينالُه من النوازل. وهو قائمٌ على ركائزَ من الثقةِ بالله ﷻ، والتوكلِ عليه. ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣].

---

(١) باختصار عن (التحرير والتنوير) (٢٢/ ١٦٢).

والظلم لا يدوم ولا يطول، بل سيضمحل ويزول، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]. و((**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**))[1].

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الذنوب منها ما يعجل الله تعالى عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت على المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات وركوب الذل من الظلمة للخلق"[2].

٢ – العلم بحقيقة الدنيا.

٣ – الاستعانة بالله ﷻ، والصبر على ما يصب المظلوم من الشدة والبلاء:

وقد أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ نبيه الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر واحتمال الأذى؛ حتى ينصر الله ﷻ عباده المؤمنين كما وعدهم، ويهلك الطغاة والظالمين.

وفي ذلك تعليم للعباد على الصبر واحتمال الإيذاء؛ فإن من سنن الله تعالى في عباده الابتلاء؛ ليتحقق في المسلم معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله تعالى. قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واصْبِرْ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وسيأتي حديث: ((**إنكم ستجدون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني**))، يعني: أني أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة"[3]. وقال الله ﷻ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧]. وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك، عن أسيد

---

(١) تقدم.

(٢) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٩/١٥).

(٣) الكشاف (٢/ ٣٧٥)، بتصرف يسير، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٦/١١٤).

بن حضير، أن رجلًا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلانًا؟ قال: ((**ستلقون بعدي أثرة**(١)**، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**))(٢).

وفي رواية: عن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال لنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها**)) قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: ((**أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم**))(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتة جاهلية**))(٤).

وعن جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ وهو مريض، فقلنا: حدثنا أصلحك الله، بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال: دعانا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فبايعناه، فكان فيما أَخَذَ علينا: ((**أن بَايَعَنَا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله**))، قال: ((**إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان**))(٥).

قال ابن بطال رَحِمَهُٱللَّهُ: "في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم. والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلِّب طاعته لازمة، ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترى قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لأصحابه: ((**سترون بعدى أثرةً وأمورًا**

---

(١) قال العلامة القاري رَحِمَهُٱللَّهُ في (المرقاة): (أثرة) بفتح الهمزة والمثلثة في جميع النسخ الموجودة. وفي القاموس: (أثرة) بضم الهمزة وسكون الثاء وبفتحهما أيضًا. وفي (شرح مسلم للنووي) الأثرة: بفتح الهمزة والثاء. ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء وبكسر الهمزة وإسكان الثاء ثلاث لغات. مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٩٧).

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٢]، مسلم [١٨٤٥].

(٣) صحيح البخاري [٧٠٥٢].

(٤) صحيح البخاري [٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣]، مسلم [١٨٤٩].

(٥) صحيح البخاري [٧٠٥٥، ٧٠٥٦]، مسلم [١٧٠٩].

تنكروها)) فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق، ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم، والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور"(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالما عسوفًا فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه. والمراد بالأثرة: استئثار الأمراء بأموال بيت المال"(٢).

وقال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق"(٣).

وقد أوصى الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامهم بالصبر على أئمة الجور كما أخبر الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٨]، يعني: أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم بالصبر، والاستعانة بالله ﷻ.

وقال سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

وبين الله سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ في كتابه الكريم في آيات كثيرة أنه أوحى إلى رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أن العاقبة والنصر لهم على أعدائهم، وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧-٨).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٣٢).

(٣) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٢٠٣).

قال الله ﷻ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال ﷻ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال ﷻ: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].. إلى غير ذلك من الآيات.

٤ - حسن ظنِّ المظلوم بالله ﷻ.

٥ - أن ينظر المظلوم إلى ما أعده الله ﷻ لعباده الصابرين من الأجر الجزيل والثواب العظيم في الآخرة.

٦ - أن يدرك المظلوم أن الجزع لا يرفع البلاء.

٧ - أن تكون العلاقات بين البشر مؤسسة على المحبة والمودة والأخوة، وتسود فيها معاني الفضيلة والرحمة، وذلك لا يكون إلا بالعقيدة السليمة، والتربية الصحيحة، والتشريعات القويمة.

٨ - التحرر من الصفات المذمومة كالطمع، والجشع، وحظوظ النفس، والتنافس على حطام الدنيا.

٩ - مكافحة الجريمة من خلال التبصير والتنوير، وتطبيق الحدود الرادعة، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الرعية، ومكافحة العنصرية والطائفية:

قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

قال الله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٣٣ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٣٤﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

وقال ﷻ: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

وقال ﷻ: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**))[(١)].

والظلم لا يدفع بالظلم، وإنما بتحقيق العدل، وأخذ الظالم بظلمه.

وقد أرسل الله سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ الرسل عَلَيۡهِمُ‌ٱلسَّلَامُ للناس؛ ليرفعوا عن الناس الظلم[(٢)]، وليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلا بد أن يكون الناس سواسية في الخضوع لسلطة القانون من غير تمييز كما جاء في الحديث عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهَا أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد،

---

(١) تقدم.

(٢) قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۝١٠ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ۝١١﴾ [الشعراء:١٠-١١].

حِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**))[(١)].

فلا بدَّ العدل والصدق في سائر الحدود والأحكام والمعاملات من غير تمييز، ولا محاباة. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

وقال ﷻ: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال الله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢].

العدل: وضع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، والقسط: العدل، وبه قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد.

١٠ – أن يستشعر الراعي المسؤولية المنوطة به. جاء في الحديث: ((**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته**))[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٢) صحيح البخاري [٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٣٨]، صحيح مسلم [١٨٢٩].

١١ – الإنكار على الظالم:

قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

((من رأى منكم منكرا فَلْيُغَيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان))[١]. وقد تقدم حديث: **((إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب))**.

١٢ – المطالعة الدَّائمة لسيرة النَّبي ﷺ، وسيرة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، والسَّلف الصَّالح، وما كانوا عليه من الزُّهد والورع والتَّقوى والعدل بين الرعية في القضاء والحكم.

١٣ – القضاء المناهج الإلحادية، والإمدادات السرطانية للمذاهب المضلة التي تعمل على التشكيك في الأصول والثوابت.

١٤ – أن تكون التشريعات قائمة على حفظ كرامة الإنسان وحقوقه ومكتسباته.

١٥ – الدعاء على الظالم:

إن الدعاء أعظم وأمضى سلاح يملكه المظلوم، ولو يعلم الظالم قوة وأثر هذا السلاح ما تجرأ على الظلم، وقد جاء في الحديث: عن معاذ رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ، قال: **((إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب))**[٢].

---

(١) صحيح مسلم [٤٩].

(٢) صحيح البخاري [١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧]، صحيح مسلم [١٩].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل مولى له يدعى هُنَيًّا على الحِمَى، فقال: ((**يا هُنَيُّ اضْمُمْ جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة..**)) الحديث(١).

وفي رواية: ((**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تحمل على الغمام، يقول الله جل جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**))(٢).

ودل الحديث على أن الله سبحانه يمهل الظالم ولا يهمله. قال الله ﷻ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا: وفيه تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة(٣).

وفي رواية: ((**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تصعد إلى السماء كأنها شَرَار**))(٤).

قوله: ((**كأنها شرار**)): كناية عن سرعة الوصول؛ لأنه مضطر في دعائه وقد قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢].

---

(١) صحيح البخاري [٣٠٥٩]. و(الحمى) موضعا يعينه الحاكم ويخصصه لرعي مواشي الزكاة وغيرها مما يرجع ملكه إلى بيت مال المسلمين ويمنع عامة الناس من الرعي فيه.

(٢) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء) [١٨٢٩]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٩٨]، والدينوري في (المجالسة) [٣١٧٣]، والطبراني [٣٧١٨]. قال الهيثمي (١٥٢/١٠): "فيه من لم أعرفه". لكن قال المنذري (١٣٠/٣): "لا بأس بإسناده في المتابعات". وأخرجه أيضًا: القضاعي [٧٣٣]. وللحديث أطراف أخرى.

(٣) فيض القدير (١/ ١٤١).

(٤) أخرجه الحاكم [٨١]، وقال: "رواة هذا الحديث متفق على الاحتجاج بهم". ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٠٧].

وكلما قوي الظلم قوي تأثيره في النفس، فاشتدت ضراعة المظلوم، فقويت استجابته. والشرر: ما تطاير من النار في الهواء. شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرر من النار(1).

وفي رواية: ((**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كانت من فاجر ففجوره على نفسه**))(2).

١٦ - الاستعاذة بالله تعالى من الظلم:

كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّ وَجَلَّ من الظلم كما جاء في أكثر من حديث، منها: قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم، أو أظلم**))(3).

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن سلم من ظلم غيره وسلم الناس من ظلمه فقد عوفي، وعوفي الناس منه. وكان بعض السلف يدعو: اللهم سلمني وسلم مني"(4).

وعن أم سلمة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا خرج من بيته قال: ((**بسم الله تَوَكَّلْتُ على الله، اللهم إنِّي أعوذ بك أن أضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ، أو أُزَلَّ، أو أظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ**))(5).

---

(1) فيض القدير (١/١٤٢).

(2) أخرجه الطيالسي [٢٤٥٠]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٧٤]، وأحمد [٨٧٩٥]، قال الهيثمي (١٠/١٥١): "إسناده حسن". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٨٨]، والطبراني في (الدعاء) [١٣١٨]، والشهاب القضاعي [٣١٥]. والحديث في سنده: أبو معشر، وهو ضعيف؛ لسوء حفظه، لكن حديثة يصلح للمتابعة، وهذا منه؛ ولذا حسنه الهيثمي، وابن حجر في (الفتح) (٣/٣٦٠).

(3) أخرجه أحمد [٨٠٥٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٧٨]، وابن ماجه [٣٨٤٢]، وأبو داود [١٥٤٤]، والبزار [٨٢١٦]، والنسائي [٥٤٦٠]، وابن حبان [١٠٣٠]، والحاكم [١٩٨٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٥٠].

(4) شرح حديث لبيك اللهم لبيك (ص:١٠٢).

(5) أخرجه الطيالسي [١٧١٢]، وأحمد [٢٦٦١٦]، وابن ماجه [٣٨٨٤]، والترمذي [٣٤٢٧]، وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: النسائي [٥٤٨٦]، والحاكم [١٩٠٧]، والبيهقي [١٠٣٠٩] وأخرجه غير=

والخروج من البيت مظنة الظلم بسبب الاختلاط بالناس على اختلاف مشاربهم، وتعدد أهوائهم؛ فلذلك استحب للمسلم أن يستعيذ بالله ﷻ من أن يظلم أو يقع عليه ظلم.

قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الإنسان إذا خرج من منزله لا بد أن يعاشر الناس، ويزاول الأمور، فيخاف أن يعدل عن الصراط المستقيم، فإما أن يكون في أمر الدين، فلا يخلو من يَضل أو يُضل، وإما يكون في أمر الدنيا، فإما بسبب جريان المعاملة معهم بأن يظلم أو يُظلم، وإما بسبب الاختلاط والمصاحبة، فإما أن يجهل أو يُجهل عليه، فاستعيذ من هذه الأحوال كلها بلفظ سلس موجز، وروعي المطابقة المعنوية، والمشاكلة اللفظية"[(١)].

وعن عبد الله بن سَرْجِس، قال: ((**كان رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **إذا سافر يَتعَوَّذُ من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور**[(٢)]**، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال**))[(٣)]. والأحاديث في الاستعاذة بالله ﷻ من الظلم كثيرة.

ومن خير الدعاء: أن يسأل العبدُ ربَّه ﷻ أن يجنبه الظلمَ وأسبابَه، وأن يكونَ في عداد الظالمين. قال الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٨٥ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ۝٨٦﴾ [يونس:٨٥-٨٦]. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٤].

١٧ - تحقيق الأمان في المجتمع بين الرعية بحيث يأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه.

=واحد. قال الإمام النووي: "حديث صحيح، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. قال الترمذي: حديث صحيح. وفي رواية الترمذي: ((إنا نعوذ بك من أن نزل، أو نضل، أو نظلم، أو نظلم، أو نجهل، أو يجهل علينا)) بلفظ الجمع". الأذكار (ص:٢٢-٢٣).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (١٩٠٤/٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٦٩٤/٤)، فيض القدير (٥/ ١٢٣).

(٢) تقدم بيانه.

(٣) صحيح مسلم [١٣٤٣].

١٨ – تحقيق التّكافل بين النّاس، فيأخذ غنيهم بيد فقيرهم، وقويهم بيد ضعيفهم، ويصبح الجميع إخوة متحابين.

١٩ – مكافحة البطالة؛ لأن العمل يشغل الإنسان، ويسد حاجته، ويعالج أمراضًا يسببها الفراغ، منها التطلع إلى ما عند الآخرين، وربما يؤول ذلك إلى الحسد، والسعي إلى إزالة النعمة عن البعض.

٢٠ – المسارعة الى الأعمال الصالحة، ولا سيما في زمان انتشار الظلم والفساد، وغلبة الهوى على النفوس والطباع؛ فإن الثبات على الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم.

٢١ – الحلم، والصبر، وكظم الغيظ، واستحضار ما جاء في ذلك من الفضل.

٢٢ – أن يحذر المكلف أسباب الظلم.

٢٣ – أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، ويجتنب أسباب الغضب.

٢٤ – التبصير بآثار الظلم، وعواقبه المهلكة.

٢٥ – نصرة المظلوم:

ونصرة المسلم أمر مطلوب، وهو من الإيمان؛ لأن الأخوة في الله ﷻ ركيزة من ركائز هذا الدين، ورابطة وثيقة تسمو على سائر العلاقات التي تربط بين الناس؛ لأنها مبنية على العقيدة، وهي أوثق الروابط وأقواها. قال الله ﷻ: ﴿إنما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

والإخوة في الدين رابطة متينة توجب على المرء السعي في خير أخيه من خلال النصح والإرشاد والتعاون على البر والتقوى والعمل الصالح، وتحذيره من الظلم والبغي والشر، ومنعه من ذلك إن سلك طريقه، أو سعى إليه. قال الله ﷻ: ﴿وَإِنْ طَايِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ [الحجرات: ٩-١٠].

وفي الحديث: ((**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**))(١).

فقوله: ((**ولا يسلمه**)) أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه(٢).

وفي رواية: ((**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا**(٣)**، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا**))، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، ((**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**))(٤).

وفي رواية: ((**المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه**))(٥).

وقد جاء في غير موضع الأمر بنصرة المظلوم كما في حديث: البراء بن عازب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أمرنا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القَسَم، ورَدِّ السلام، وتشميت

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٤٢]، ومسلم [٥٨].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٩٧).

(٣) قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرحه لصحيح مسلم): "أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة والمحبة والرحمة والمواساة والمعاونة والنصيحة" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٥٣٢)، وانظر: طرح التثريب، للعراقي (٨/٩٧)، فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٨٣).

(٤) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٥) أخرجه الترمذي [١٩٢٧]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٨٨٩١].

العاطس، ونهانا عن: آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير، والديباج، وَالقَسِّيِّ، والإستبرق[(١)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**))، قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالما؟ قال: ((**تأخذ فوق يديه**))[(٢)].

وفي رواية: ((**تحجزه عن الظلم**))، أي: تمنعه منه وتحول بينه وبينه؛ فإن منعك إياه من الظلم نصر له على شيطانه الذي يغويه، وعلى نفسه الأمارة بالسوء.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والنصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نصر الظالم منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أداه ذلك إلى أن يقتص منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة"[(٣)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: الخذل: ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي"[(٤)].

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ((**ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية!**))، قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر، قال: ((**فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه**

---

(١) صحيح البخاري [١٢٣٩، ٢٤٤٥، ٥١٧٥، ٥٦٣٥، ٥٨٦٣، ٦٢٢٢]، مسلم [٢٠٦٦].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٦/٥٧٢).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٢٠).

ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره))[1].

وتكون النصرة بالنفس والمال والدعاء والجاه.

٢٦ – العفو والتسامح:

إن من الأخلاق التي تورث المحبة: العفو، والتسامح.

ومن العفو ما يكون له أثر على المعتدِي قد يحمله على التوبة والإنابة وترك الاعتداء.

وقد جعل الله ﷻ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله ﷻ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله ﷻ إلَّا من امتلك زمام نفسه. والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل.

ومن أخلاق النبي صَلَّى ٱللَّٰهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ أنه: ((**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**))[2] فهو (يعفو)، أي: في الباطن (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ۝٤٠ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ۝٤١ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤٢ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ۝٤٣﴾

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٤].

(٢) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

[الشورى:٤٠-٤٣]: "قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله ﷻ: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة:٤٥]؛ ولهذا قال ها هنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: لا يضيع ذلك عند الله كما صح في الحديث: ((**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**))(١)، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة"(٢).

٢٧ — التوبة والاستغفار:

ذكر أكثر الفقهاء والمفسرين أن للتوبة أربعة شروط: الإقلاع عن المعصية حالًا، والندم على فعلها في الماضي، والعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا. والإقلاع عن الذنب لا يتم إلا برد الحقوق إلى أهلها، أو باستحلالهم منها في حالة القدرة، وهذا كما يلزم في حقوق العباد يلزم كذلك في حقوق الله تعالى، كدفع الزكوات، والكفارات إلى مستحقيها.

وقد تقدم حديث: ((**من كانت عنده مَظْلِمَة لأخيه فَلْيَتَحَلَّلْه منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يُؤْخَذَ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات أخيه فطرحت عليه**))(٣).

٢٨ - أن تتوفر في القاضي الشروط التي ذكرها أهل العلم حتى يكون أهلًا للقضاء من نحو: العدالة والعلم، والفطنة، والأهلية لاستنباط الأحكام من مصادر التشريع، والأمانة، والصدق، والتقوى، والإخلاص، والقوة، والعفة، والحلم ويتجنب الغضب، والرحمة .. إلى غير ذلك.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١١- ٢١٢).

(٣) صحيح البخاري [٦٥٣٤].

٢٩ – سلامة القاضي من الآفات الجسدية التي تؤثر على الحكم، وأن يسلم من اتباع الهوى، أو الميل لعصبية، أو لمحبة، أو لانتقام، أو لطمع، ونحو ذلك.

٣٠ – القضاء بين العباد بالحق والعدل.

٣١ – أن يبذل القاضي الجهد، ويستفرغ الوسع في معرفة الحكم الشرعي، وأن يبحث في الأدلة، ويطلع على القضايا قبل الفصل في الحكم اطلاعًا وافيًا لا تردد فيه ولا ريب.

٣٢ – أن يستشعر القاضي مكانة القضاء، وأثر الحكم.

٣٣ – أن يتجنَّب القاضي أن يعنف أحد الخصمين دون الآخر.

٣٤ – أن يحرص على حفظ الحقوق، وإقامة العدل، والإصلاح بين المتخاصمين، وصيانة الأنفس والأعراض والأموال.

٣٥ – أن لا يميل القاضي ولو بأدنى ميل إلى أحد الخصمين؛ لكونه مثلًا قريبًا له، أو صديقًا، أو صاحب جاه تُرجى منفعته، أو رئاسة تُخاف سلطته.

٣٦ – أن يكون القاضي ذا حصانة، ويتمتع بالاستقلال، ولا يتأثر بالسياسة.

٣٧ – أن يدرأ القاضي الحدودَ بالشبهات.

٣٨ – أن لا يقبل القاضي شفاعة في حدٍّ من حدود الله تعالى.

٣٩ – أن لا يقبل القاضي رشوة.

٤٠ – أن يطالع سيرة السلف ومن تبعهم بإحسان ومدى تورعهم في القضاء، وخوفهم الله ﷻ.

٤١ – أن يكون العلماء عونًا للقاضي أو الحاكم ينصحون، ويرشدون، ويُقَوِّمُون، ولا يسكتون عن إظهار الحق، ودحض الباطل، ولا ينافقون أو يداهنون لأجل عرض زائل، أو حظٍّ من حظوظ الدنيا.

وقد جاء في الحديث عن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**الدين النصيحة**))، قلنا: لمن؟ قال: ((**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**))[1].

وعن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ**))[2].

وعن طارق بن شهاب أن رجلًا سأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضع رِجْلَهُ في الْغَرْزِ[3]، أَيُّ: الجهاد أفضل قال: ((**كلمة حق عند سلطان جائر**))[4].

٤٢ – أن يعتزل القاضي الأمر إذا وجد أنه غير قادر على إقامة العدل، وكان عاجزًا عن الإنصاف في الحكم، أو لا يتمتع بالاستقلال بالحكم.

---

(١) صحيح مسلم [٥٥].

(٢) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢].

(٣) (الغرز) هو بفتح الغين المعجمة ثم راء ساكنة ثم زاي، وهو ركاب كور البعير إذا كان من جلد أو خشب. وقيل: هو الكور مطلقًا، كالركاب للسرج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٩٧). قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: الغرز لا يكون إلا في الرحال على الجمال، وهو بمنزلة الركاب من السروج من جمل وغيره. الاستذكار (٨/٥٢٧).

(٤) أخرجه أحمد [١٨٨٢٨]، والنسائي [٤٢٠٩]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٤٢٧]، والضياء في (المختارة) [١٢٢]. قال المنذري (٣/١٥٨) بعد عزوه للنسائي: "إسناده صحيح".

العقبة الرابعة والخمسون

الفتن

أولًا: تعريف الفتنة:

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: جماع معنى الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان، وأصلها مأخوذ من قولك: فَتَنْتُ الفِضّةَ والذَّهَبَ إذا أذبتهما بالنار؛ ليتميز الرَّدِيء من الجَيِّد[1].

وفي (الصحاح): "فَتَنْتُ الذهب، إذا أدخلته النار؛ لتنظر ما جودته. ودينارٌ مَفْتونٌ. ويسمَّى الصائغُ: الفتَّان"[2].

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فتنت الذهب بالنار: امتحنته بها. والفتان: الشيطان"[3].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أصل الفتن: "إدخال الذهب النار؛ لتظهر جودته من رداءته، واستعمل في إدخال الإنسان النار. وفي العذاب. قال الله ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]، ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٤]، أي: عذابكم. وتارة يسمون ما يحصل عنه العذاب فيستعمل فيه. نحو قوله: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩]، وتارة في الاختبار نحو: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]، وجعلت الفتنة كالبلاء في أنهما يستعملان فيما يدفع إليه الإنسان من شدة ورخاء، وهما في الشدة أظهر معنى وأكثر استعمالًا، وقد قال فيهما: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]"[4]. وعن ابن الأعرابي أنه قال: الفتنة: الاختبار، والفتنة: المحنة، والفتنة: المال، والفتنة: الأولاد، والفتنة: الكفر، والفتنة: اختلاف الناس بالآراء، والفتنة: الإحراق بالنار. وقيل: الفتنة: الغلو في التأويل المظلم[5]،

---

(١) تهذيب اللغة، مادة: (فتن) (٢١١/١٤).

(٢) الصحاح، للجوهري، مادة: (فتن) (٢١٧٥/٦).

(٣) مجمل اللغة، مادة: (فتن) (٧١١/١).

(٤) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (فتن) (ص: ٦٢٣-٦٢٥).

(٥) انظر: تفسير غريب ما في الصحيحين لأبي عبد الله الحميدي (ص:٥٠٤).

يقال: فلان مفتون يطلب الدنيا، أي: قد غلا في طلبها، وجماع الفتنة في كلام العرب: الابتلاء والامتحان. وقوله: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]، أي: أخلصناك إخلاصًا.

ويقال: فتنت الرجل إذا أزلته عما كان عليه. ومنه قول الله ﷻ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:٧٣]، أي: ليزيلونك[1].

وقال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفتنة: هي ما يتبين بها حال الإنسان من الخير والشر يقال: فتنت الذهب بالنار: إذا جربته بها لتعلم أنه خالص أو مشوب، ومنه الفتانة: وهي الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة"[2].

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفتنة في اللغة: الاستهتار بالشيء والغلو فيه، يقال: فلان مفتون بطلب الدنيا، أي: قد غلا في طلبها وتجاوز القدر"[3].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفتنة: ما يتبين به حال الإنسان من الخير والشر، يقال: فتنت الذهب بالنار، إذا أحرقته بها؛ لتعلم أنه خالص أو مشوب، ومنه: الفتانة، وهو الحجر الذي يجرب به الذهب والفضة"[4].

وقد ذكروا من معاني الفتنة في القرآن الكريم[5]:

١ – الشرك: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة:١٩٣]، يعني: حتى لا يكون شركٌ بالله ﷻ. ذكره غير واحد من المفسرين كالطبري في غير موضع، وابن أبي حاتم، وابن كثير، والواحدي، والبغوي، والزمخشري، وغيرهم.

---

(١) تهذيب اللغة، للأزهري، مادة: (فتن) (١٤/ ٢١٣).
(٢) الكليات (ص:٦٩٢).
(٣) التفسير الكبير (٧/ ١٤٥).
(٤) التعريفات (ص:١٦٥).
(٥) انظر: التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة (ص:١٧٩ (ص:١٧٩ – ١٨٢)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/١٦٧– ١٦٩)، الكليات (ص:٦٩٢).

وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حتى لا يفتن الناس فتنة كفر"[(١)].

ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء:٩١]، يعني: كلما دعاهم قومهم إلى الشرك بالله ﷻ ارتدُّوا فصاروا مشركين مثلهم[(٢)].

٢ – الكفر: ومن ذلك ما قيل في أن المراد من الفتنة في قوله ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]: الكفر[(٣)].

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال علماؤنا في قوله ﷻ: ﴿أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فيه ثلاثة أقوال: الأول: الكفر. الثاني: العقوبة. الثالث: بلية يظهر بها ما في قلوبهم من النفاق. وهذه الأقوال صحيحة كلها، ولكن متعلقاتها مختلفة، فهنالك مخالفة توجب الكفر، وذلك فيما يتعلق بالعقائد، وهنالك مخالفة هي معصية، وذلك فيما يتعلق بأعمال الجوارح"[(٤)].

ونحو ذلك ما قيل في تفسير: ﴿لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ﴾ [التوبة:٤٨]، ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧][(٥)]،

---

(١) معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٢/٤١٣).

(٢) تفسير الطبري (٨/٢٦–٢٧)، الكشف والبيان (٣/٣٥٨)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/٩٣)، الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص:٢٨١)، تفسير السمعاني (١/٤٦١)، تفسير البغوي (١/٦٧٤).

(٣) انظر: تفسير الطبري (١٩/٢٣١)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٨/٢٦٥٧)، بحر العلوم (٢/٥٢٧)، تفسير مقاتل (٣/٢١١).

(٤) أحكام القرآن (٣/ ٤٣١).

(٥) قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكر المفسرون في تفسير هذه الفتنة وجوهًا: أولها: قال الأصم: إنهم متى أوقعوا تلك المتشابهات في الدين، صار بعضهم مخالفًا للبعض في الدين، وذلك يفضي إلى التقاتل والهرج والمرج فذاك هو الفتنة. وثانيها: أن التمسك بذلك المتشابه يقرر البدعة والباطل في قلبه فيصير مفتونًا بذلك الباطل عاكفًا عليه لا ينقطع عنه بحيلة البتة. وثالثها: أن الفتنة في الدين هو الضلال عنه ومعلوم أنه لا فتنة ولا فساد أعظم من الفتنة في الدين والفساد فيه" التفسير الكبير (٧/١٤٥).

﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد:١٤]، أي: كفرتم(١).

٣ - الحيرة والضَّلال والإضلال: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤١]، أي: ضلالته في الدنيا، وعقوبته في الآخرة(٢).

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ۝١٦١ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ ۝١٦٢ إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ۝١٦٣﴾ [الصافات:١٦١-١٦٣]. فقوله: ﴿بِفَاتِنِينَ﴾، أي: بمُضِلِّينَ(٣). قال أبو جعفر النحاس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أهل التفسير مجمعون فيما علمته على أن المعنى: ما أنتم بمضلّين أحدًا إلا من قدَّر الله ﷻ عليه أن يضلّ"(٤).

٤ - القتل أو الأسر: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [النساء:١٠١].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: إن خشيتم أن يفتنكم الذين كفروا في صلاتكم. وفتنتهم إياهم فيها: حملهم عليهم وهم فيها ساجدون حتى يقتلوهم أو يأسروهم، فيمنعوهم من إقامتها وأدائها، ويحولوا بينهم وبين عبادة الله وإخلاص التوحيد له"(٥).

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٤/ ١٦٧).

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٦/١٨٢)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١١٣٣)، الدر المنثور (٣/٧٩)، الوجيز، للواحدي (ص:٣١٩)، النسفي (١/٤٤٧)، فتح القدير (٢/٤٨)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨٢)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٦٨).

(٣) انظر: معاني القرآن، للفراء (٢/٣٩٤)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:٣٧٥)، حجج القرآن (ص:٢٩)، غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٣/٥٨) غريب الحديث، للحربي (٣/٩٣٧)، تهذيب اللغة (١٤/٢١٢).

(٤) إعراب القرآن، لأبي جعفر النَّحَّاس (٣/ ٢٩٩).

(٥) تفسير الطبري (٩/١٢٣)، وانظر: بحر العلوم (١/٣٣٢)، الوجيز، للواحدي (ص:٢٨٥)، تفسير مقاتل (١/٤٠٣)، تفسير السمعاني (١/٤٧٢)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨١)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٦٨). وعند البغوي (٢/٢٧٤)، والخازن (١/٤١٨): ﴿أَنْ يَفْتِنَكُمُ﴾ "أي: يغتالكم ويقتلكم".

ونحوه قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس:٨٣]، أي: يقتلهم[(١)]. وقيل: ﴿أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾، أي: يعذبهم أو يقتلهم[(٢)].

٥ - الصد عن الهداية: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة:٤٩]، يعني: أن يصدُّوك[(٣)].

وقيل: يريد به يردوك إلى أهوائهم، فإن كل من صرف من الحق إلى الباطل فقد فتن، ومنه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء:٧٣]. والفتنة هاهنا في كلامهم التي تميل عن الحق وتلقي في الباطل. وكان صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: ((**أعوذ بك من فتنة المَحْيَا**))[(٤)].

٦ - الابتلاء والاختبار: ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقد تقدم تفسير قوله ﷻ: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ [طه:٤٠]، أي: بلوناك.

ومن ذلك: ﴿قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ﴾ [طه:٨٥]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ﴾ [الدخان:١٧]، أي: ابتليناهم.

٧ - العذاب: وهو من الابتلاء، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠]،

---

(١) تفسير مقاتل (٢/٢٤٥)، بحر العلوم (٢/١٢٨)، الوسيط (٢/١٠٨)، تفسير البغوي (١/٦٨٧)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٦/٤٣٣٠)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨١)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٦٨).

(٢) انظر: البحر المحيط في التفسير (٦/٩٥)، غريب القرآن، لابن قتيبة (ص:١٩٨).

(٣) تفسير القرطبي (٦/٢١٣)، تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة (ص:٢٦٠)، تفسير مقاتل (١/٤٨٣)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨١)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٦٨).

(٤) تفسير الرازي (١٢/٣٧٤)، وانظر: الوسيط (٢/١٩٦)، ابن عادل (٧/٣٧٣). والحديث في (صحيح البخاري) [٨٣٢، ١٣٧٧، ٢٨٢٣، ٦٣٦٧]، مسلم [٥٨٨، ٥٨٩، ٥٩٠، ٢٧٠٦].

يعني: من بعد ما عُذِّبوا وأُوذوا على الإيمان بمكة[1]. قال العلامة أبو شامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فتنهم الكافر بالإكراه على النطق بكلمة الكفر وقلوبهم مطمئنة بالإيمان، وذلك نحو ما جرى لعمار بن ياسر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وأصحابه رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ بمكة، وهو موافق للآية الأولى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا﴾ [النحل:٤١][2].

وقد تقدم من كلام الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ﴾ [الذاريات:١٤]، أن المراد به: العذاب.

ومن ذلك أيضًا: قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠]، يعني: جعل عذاب الناس في الدنيا ﴿كَعَذَابِ اللَّهِ﴾ في الآخرة.

ومن العذاب: الحرق بالنار: قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [البروج:١٠]. قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: أحرقوا المؤمنين والمؤمنات، يقال: فتنت الشيء، أحرقته، والفَتِين: حجارة سود كأنها محرقة[3].

٨ - إيقاع الخلاف: ومن ذلك ما قيل في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ﴾ [التوبة:٤٧].

---

(١) انظر: تفسير مقاتل (٢/ ٤٨٩)، الوسيط (٣/٨٧)، الوجيز (ص:٦٢١)، تفسير البغوي (٣/٩٩)، تفسير أبي السعود (٥/١٤٤)، روح المعاني (٧/٤٧٤)، تفسير ابن جزي (١/٤٣٧)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨٠)، معاني القرآن، للفراء (٢/١١٣)، بصائر ذوي التمييز (٤/١٦٧).

(٢) إبراز المعاني من حرز الأماني (ص:٥٦٠).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٥/٣٠٨). وانظر: تفسير الطبري (٢٤/٣٤٤)، تفسير الرازي (٣١/١١٣)، تفسير القرطبي (١٩/٢٩٥)، فتح القدير (٥/٥٠١)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨١).

فقوله ﷻ: ﴿يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ﴾، أي: يحاولون أن يفتنوكم بإيقاع الخلاف فيما بينكم، وإلقاء الرعب في قلوبكم، وإفساد نياتكم(١).

٩ - المعذرة: كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:٢٣]، أي: لم تكن حجتهم ومعذرتهم إلا قولهم: ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾(٢). ولكن تلك المعذرة لا تنفعهم. قال الله ﷻ: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧]، ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢].

١٠ – الجنون: كما في قوله ﷻ: ﴿بِأَيِّكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ [القلم:٦]، يعني: المجنون(٣).

١١ - الوقوع في الفتنة والانغماس في المعاصي: كما في قوله عَزَّوَجَلَّ في حق المنافقين: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [الحديد:١٤].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى: ﴿فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾: استعملتموها في الفتنة، وتربصتم بالنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمؤمنين الدوائر"(٤).

قال بعض السلف: أي: فتنتم أنفسكم باللذات والمعاصي والشهوات. ﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾، أي: أخرتم التوبة من وقت إلى وقت(٥). وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي:

---

(١) انظر: الكشاف (٢/٢٧٧)، تفسير أبي السعود (٤/٧١)، روح المعاني (٥/٣٠٣)، تفسير البيضاوي (٣/٨٣)، تفسير الإيجي (٢/٧١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١١/٢٩٩)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٧٣)، النكت والعيون (٢/١٠٢)، تفسير ابن جزي (١/٢٥٧)، الدر المنثور (٣/٢٥٨)، فتح القدير (٢/١٢٥)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨٢).

(٣) انظر: الكشاف (٤/ ٥٨٥)، البحر المحيط في التفسير (١٠/٢٣٧)، روح المعاني (١٥/٢٩).

(٤) معاني القرآن وإعرابه (٥/ ١٢٤).

(٥) تفسير ابن كثير (٨/ ١٨).

أهلكتموها بالنفاق والكفر، واستعملتموها في المعاصي والشهوات، وكلها فتنة"[1]. وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: أهلكتموها وأضللتموها بالنفاق"[2].

١٢ - الفضيحة: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة:٤١].

قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل: فضيحته. وقيل أيضا: كفره، ويجوز أن يكون: اختباره بما يظهر به أمره"[3].

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد ذكروا في تفسير الفتنة وجوها:

أحدها: أن الفتنة هي العذاب، قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ﴾ [الذاريات:١٣]، أي: يعذبون، فالمراد هاهنا: أنه يريد عذابه لكفره ونفاقه.

وثانيها: الفتنة الفضيحة، يعني: ومن يرد الله فضيحته.

الثالث: فتنته: إضلاله، والمراد من الإضلال الحكم بضلاله، وتسميته ضالًا.

ورابعها: الفتنة الاختبار، يعني: من يرد الله اختباره فيما يبتليه من التكاليف، ثم إنه يتركها ولا يقوم بأدائها فلن تملك له من الله ﷻ ثوابًا ولا نفعًا"[4].

١٣ - العبرة: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]، ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥][5].

---

(١) تفسير البغوي (٥/ ٣٠).

(٢) تفسير ابن جزي (٢/ ٣٤٦).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢/ ١٧٦)، وانظر: بحر العلوم (١/ ٣٩١)، تفسير البيضاوي (٢/ ١٢٧)، البحر المحيط في التفسير (٤/ ٢٦٢)، تفسير أبي السعود (٣/ ٣٨).

(٤) تفسير الرازي (١١/ ٣٦٠).

(٥) انظر: تفسير القرطبي (٦/ ٢١٣)، بحر العلوم (١/ ٣٩٦).

قال ابن قتيبة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: يعتبرون أمرهم بأمرنا، فإذا رأونا في ضرٍّ وبلاء ورأوا أنفسهم في غبطة ورخاء ظنُّوا أنهم على حق، ونحن على باطل. وكذلك قوله ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ [الأنعام:٥٣]"(١).

١٤ - التسليط: ومن ذلك ما قيل في قوله ﷻ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٨٥]، أي: لا تسلَّط علينا فرعون وقومه فيقولون: لولا أنَّا أمثل منهم ما سُلِّطْنا عليهم، فيكون ذلك فتنة لهم. وقوله: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:٥]، أي: لا تسلطهم علينا حتى يعذبونا أو يفتنونا عن ديننا أو يفتتنوا بنا ويقولوا: لو كان هؤلاء على الحق لما أصيبوا(٢).

ثانيًا: التحذير من الفتن وبيان كونها من المضلات:

تقدم أن جماع معنى الفتنة هو الابتلاء والامتحان، ويقع في النفس، والمال، والعرض، والأولاد، وبسبب النساء، والمخالطة، والثقافات الوافدة، والإعلام المضلل، والظلم والاستبداد، ويقع الافتتان بالدنيا بسبب التنافس على حطامها.

ومن يتأمل واقع المسلمين يجد أنهم يمرون بفتن عظيمة، ومحن جسيمة، تعاظم خطرُها، وتطاير شَرَرُها، تنوّعت أسبابها، واختلفت موضوعاتها.

والابتلاء سنة الله تعالى في خلقه حتى يتحقق فيهم معنى التكليف المتفرع عن العبودية لله ﷻ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ

---

(١) تأويل مشكل القرآن (ص: ٢٦١).

(٢) تفسير أبي السعود (١٧١/٤)، وانظر: فتح القدير (٥٣٠/٢)، السراج المنير (٢٦٣/٤)، تفسير عبد الرزاق (١٧٨/٢)، تفسير الطبري (١٦٩/١٥)، (٣١٩/٢٣-٣٢٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٩٧٦/٦)، (٣٣٤٩/١٠)، النكت والعيون (٤٤٦/٢)، (٥١٨/٥)، تفسير ابن كثير (٢٨٩/٤)، (٨٨/٨)، الدر المنثور (٣٨٢/٤)، (١٢٩/٨)، التصاريف لتفسير القرآن (ص:١٨٢).

﴿الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١].

والفتنة بهذا المعنى هي الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب، وقد قال الله ﷻ: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران:١٧٩].

وقال ﷻ: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٧].

وقال ﷻ: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١-٣].

وقال ﷻ: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت:١١].

ومن آثار الفتنة: ضلال الكثيرين، ولا تظهر فتنةٌ إلا وينتكس رجال، ويسقطُ آخرون:

قال الله ﷻ: ﴿كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا﴾ [النساء:٩١]، أي: كلما عرض لهم بلاء هلكوا فيه[1].

وقال ﷻ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

وقال ﷻ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الحج:١١].

ومن آثار الفتنة: الصدُّ والإضلال:

قال الله ﷻ: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

---

(١) تفسير الطبري (٨/ ٢٨)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣/ ١٠٢٩).

وقال ﷻ: ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾ [النحل:٢٥].

ومن آثار الفتنة: اشتباه الحق بالباطل، وظهور الفساد:

قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾ [الأنفال:٧٣]، أي: شبهة في الحق والباطل، وظهور الفساد في الأرض[١].

وأما ما جاء في التحذير من الفتن: فقد قال الله ﷻ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال:٢٥]، وقال: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فهذا تنبيه بالغ في التحذير من الفتن.

وأما ما جاء في إقبال الفتن ونزولها كمواقع القطر: فقد أخرج مسلم عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**بادروا بالأعمال فتنًا كقطع الليل المظلم، يصبح الرجل مؤمنًا ويمسي كافرًا، أو يمسي مؤمنًا ويصبح كافرًا، يبيع دينه بعرض من الدنيا**))[٢].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معنى الحديث: الحث على المبادرة إلى الأعمال الصالحة قبل تعذرها والاشتغال عنها بما يحدث من الفتن الشاغلة المتكاثرة المتراكمة كتراكم ظلام الليل المظلم لا المقمر. ووصف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نوعًا من شدائد تلك الفتن، وهو أنه يمسي مؤمنًا ثم يصبح كافرًا أو عكسه (شك الراوي)، وهذا لعظم الفتن ينقلب الإنسان في اليوم الواحد هذا الانقلاب والله أعلم"[٣].

---

(١) تفسير الطبري (١٤/٨٦- ٨٧)، وانظر: تفسير الرازي (١٥/ ٥١٨).

(٢) صحيح مسلم [١١٨].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: ((**بادروا بالأعمال ستًّا: طلوع الشمس من مغربها، أو الدخان، أو الدجال، أو الدابة، أو خاصة أحدكم أو أمر العامة**))(١).

قال القرطبي رَحِمَهُٱللَّهُ في (المفهم): "قوله: قوله: ((**خاصة أحدكم**)): يعني: الموانع التي تخصه مما يمنع العمل، كالمرض، والكِبَر، والفقر المنسي، والغنى المطغي، والعيال والأولاد، والهموم والأنكاد، والفتن والمحن.. إلى غير ذلك مما لا يتمكن الإنسان مع شيء منه من عمل صالح، ولا يسلم له، وهذا المعنى هو الذي فصله في حديث آخر، حيث قال: ((**اغتنم خمسًا قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وغناك قبل فقرك، حياتك قبل موتك**))(٢).

قوله: ((**أمر العامة**)): يعني: الاشتغال بهم فيما لا يتوجه على الإنسان فرضه؛ فإنهم يفسدون من يقصد إصلاحهم، ويهلكون من يريد حياتهم، لا سيما في مثل هذه الأزمان التي قد مرجت فيها عهودهم، وخانت أماناتهم، وغلبت عليهم الجهالات والأهواء، وأعانهم الظلمة والسفهاء"(٣).

فإذا كانت الفتن واقعة لا محالة فإن الاستعداد لها يكون بالعلم والعمل، والعلم يبصر المسلم بصور الفتن وأنواعها، فلا يسقط فيها، بل يبادر إلى الأعمال الصالحة، ويسأل الله تعالى السلامة والعافية.

والمراد من هذا أن هذه الأشياء كلها تعوق عن الأعمال، فبعضها يشغل عنه، إما في خاصة الإنسان، كفقره وغناه ومرضه وهرمه وموته، وبعضها عام، كقيام الساعة،

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٤٧].

(٢) تقدم تخريجه.

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٣٠٨/٧-٣٠٩).

وخروج الدجال، وكذلك الفتن المزعجة كما جاء في حديث: ((**بادروا بالأعمال فتنا كقطع الليل المظلم**))(1).

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: ((**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**)) وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((**نعم إذا كثر الخبث**))(2).

وعن أسامة بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أشرف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُطُمٍ من آطَام المدينة، فقال: ((**هل ترون ما أرى؟ إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر**))(3).

و(الْأُطُمُ): بضم الهمزة والطاء هو القصر والحصن، وجمعه: آطام، ومعنى: (أشرف): علا وارتفع. والتشبيه بمواقع القطر في الكثرة والعموم، أي: إنها كثيرة وتعم الناس لا تختص بها طائفة. وهذا إشارة إلى الحروب الجارية بين المسلمين والتي يقتل بعضهم فيها بعضًا(4).

وعن كُرْزِ بن عَلْقَمَةَ الْخُزَاعِيِّ، قال: قال رجل: يا رسول الله، هل للإسلام من منتهى؟ قال: ((**نعم، أيما أهل بيت من العرب أو العجم أراد الله بهم خيرًا أدخل عليهم الإسلام، ثم تقع الفتن كأنها الظُّلَلُ، ثم تعودون فيها أَسَاوِدَ صُبًّا، يضرب بعضكم رقاب بعض**))(5).

---

(1) جامع العلوم والحكم (2/ 388).

(2) صحيح البخاري [3346، 3598، 7059، 7135]، مسلم [2880].

(3) صحيح البخاري [1878، 2467]، مسلم [2885].

(4) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (18/7-8).

(5) أخرجه الطيالسي [1386]، والحميدي [584]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [7]، وابن أبي شيبة [37126]، وأحمد [15917]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [2305]، وابن حبان [5956]، والطبراني [442]، والحاكم [8403]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الهيثمي (7/305): "رواه أحمد، والبزار، والطبراني بأسانيد، وأحدها رجاله رجال الصحيح".

وقوله: ((**أَسَاوِدَ صُبًّا**))[١]، يعني: الحَيَّةَ السوداء إذا أراد أن ينْهَشَ ارتفعَ ثم انْصَبَّ، فهو يرتفع ثم يميل ويلتوي وقت النهش؛ ليكون أنكى في اللدغ، وأشد صبًّا للسم.

وقد أطلع الله ﷻ رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على كثير من البلايا والفتن التي ستبتلى بها الأمة الإسلامية في مُقْبِل الزمان؛ ولذلك فإنَّ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أطال في تحديث الصحابة عن تلك الفتن، وبيانِ المخرج منها[٢]، فعن أبي زيد عمرو بن أخطب، قال: ((**صلى بنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفجر، وصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، فنزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى حضرت العصر، ثم نزل فصلى، ثم صعد المنبر، فخطبنا حتى غربت الشمس، فأخبرنا بما كان وبما هو كائن**)). فأعلمنا أحفظنا[٣].

وعن حذيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ((**قام فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقامًا، ما ترك شيئًا يكون في مقامه ذلك إلى قيام الساعة، إلا حدث به، حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه، قد علمه أصحابي هؤلاء، وإنه ليكون منه الشيء قد نسيته فأراه فأذكره، كما يذكر الرجل وجه الرجل إذا غاب عنه، ثم إذا رآه عرفه**))[٤].

وقد اجتهدَ كثيرٌ من الصحابة في التعرفِ على الفتن التي ستعصف بالأمةِ، وتبيَّنَ طريقَ النجاةِ منها، ومن هؤلاءِ، بل في مقدمتهم: حذيفةُ بن اليمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ فقد صحَّ عنه أنه رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: ((**أخبرني رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بما هو كائن إلى أن تقوم الساعة**))[٥].

---

(١) قال الحافظ: والأساود جمع أسود. قال أبو عبيد: هي حية فيها سواد، وهي أخبث الحيات ويقال له: أَسْوَدُ سَالِخٌ؛ لأنه يَسْلُخُ جِلْدَهُ كُلَّ عام. انظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٤٨/٦)، وانظر: تهذيب اللغة (٢٤/١٣)، النهاية في غريب الحديث (٥/٣).

(٢) انظر: القيامة الصغرى (ص:١٦٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٨٩٢].

(٤) صحيح مسلم (٢٣) [٢٨٩١].

(٥) صحيح مسلم (٢٤) [٢٨٩١].

وقال: والله إني لأعلم الناس بكل فتنة هي كائنة، فيما بيني وبين الساعة، وما بي إلا أن يكون رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَسَرَّ إلي في ذلك شيئا، لم يُحَدِّثْهُ غيري، ولكن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: وهو يُحَدِّثُ مجلسًا أنا فيه عن الفتن، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وهو يعد الفتن: ((**منهن ثلاث لا يَكَدْنَ يَذَرْنَ شيئًا، وَمِنْهُنَّ فتن كرياح الصيف منها صغار ومنها كبار**))(١). وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من مضلات الفتن ومسبباتها، فقال: ((**إن مما أخشى عليكم: شهوات الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى**))(٢).

وفي رواية: ((**ومضلات الفتن**))(٣).

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لأحَدِّثَنَّكم حديثًا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من أشراط الساعة: أن يَقِلَّ العلم، ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، وَيَقِلَّ الرجال، حتى يكون لخمسين امرأة القَيِّمُ الواحد**))(٤).

والسببُ في قلَّة الرجالِ، وكثرة النساء كما جاء ذلك مبنيًا في بعض الأحاديث: الحروبُ التي تقعُ في ذلكَ الزمان. وقد كَثُرَ في الأحاديث إخبارُ الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بكثرة القتل في آخر الزمان، وليس المرادُ به قتلَ المسلمينَ للكفار، وإنما هو قتلُ بعض

---

(١) صحيح مسلم (٢٢) [٢٨٩١]. قوله: (لا يكدن يذرن شيئا)، أي: لعظمهن، وقوله: (فتن كرياح الصيف)، أي: فيها بعض الشدة، وإنما خص الصيف؛ لأن رياح الشتاء أقوى. انظر: كشف المشكل (٣٩٩/١).

(٢) أخرجه أحمد [١٩٧٧٣]، والبزار [٣٨٤٤]، والطبراني في (الصغير) [٥١١]. قال المنذري (١٠١/٣): "بعض أسانيدهم رجاله ثقات". وقال الهيثمي (١٨٨/١): "رجاله رجال الصحيح؛ لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو الحارث بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢/٢)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٧١].

(٣) أخرجه أحمد [١٩٧٧٢]. قال الهيثمي (٧/ ٣٠٥-٣٠٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

(٤) صحيح البخاري [٨١].

المسلمين لبعض، وفي كثيرٍ من الأحيان لا تُعرفُ أسبابُ ذلك القتل ولا أهدافُه[1]. ففي الحديث: ((**إن بين يدي الساعة لأيَّامًا، يَنْزِلُ فيها الجهلُ، ويُرْفَعُ فيها العلمُ، ويَكْثُرُ فيها الهَرْجُ، والهرج: القتل**))[2].

وعن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن بين يدي الساعة الهرج، قالوا: وما الهرج؟ قال: القتل، إنه ليس بقتلكم المشركين، ولكن قتل بعضكم بعضًا، حتى يقتل الرجل جاره، ويقتل أخاه، ويقتل عمه، ويقتل ابن عمه، قالوا: ومعنا عقولنا يومئذ؟ قال: إنه لتنزع عقول أهل ذلك الزمان، ويخلف له هباء من الناس؟ يحسب أكثرهم أنهم على شيء، وليسوا على شيء**))[3].

وفي رواية: ((**فكسروا قسيَّكم، وقطِّعوا أوتاركم، واضربوا سيوفكم بالحجارة، فإن دخل على أحد منكم بيته فليكن كخير ابني آدم**))[4].

وعند الحاكم: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**إياك والفتن لا يَشْخَصْ لها أحد، فو الله ما شَخَصَ منها أحد إلا نسفته كما ينسف السَّيْلُ الدِّمَنَ، إنها مُشْبِهَةٌ مُقْبِلَةً،**

---

(١) القيامة الصغرى (ص:١٦٦-١٦٧).

(٢) صحيح البخاري [٧٠٦٢، ٧٠٦٤، ٧٠٦٦]، مسلم [٢٦٧٢].

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٦٨]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٨٤]، وأحمد [١٩٤٩٢]، وابن ماجه [٣٩٥٩]، والبزار [٣٧٣٨٤] عن أسيد بن المتشمس قال: حدثنا أبو موسى حدثنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكره. قال البوصيري في (الزوائد) (٨/٧٠): "رواه أبو بكر ابن أبي شيبة ومسدد، ورواته ثقات". و((يخلف)): أي: يقوم، ((هباء من النَّاس)) أي: ناس بمنزلة الغبار، أي: حثالة من الناس وأراذلهم.

(٤) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٣]، وابن أبي شيبة [٣٧١٢٢]، وأحمد [١٩٦٦٣]، وابن ماجه [٣٩٦١]، وأبو داود [٤٢٥٩]، والترمذي [٢٢٠٤]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: الروياني [٥٨٥]، وابن حبان [٥٩٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥٦٣]، والحاكم [٨٣٦٠]، والبيهقي [١٦٨٠٠] عن أبي موسى.

حتى يقول الجاهل: هذه تُشْبِهُ مُقْبِلَةً، وتَتَبَيَّنَ مُدْبِرَةً، فإذا رأيتموها، فاجتمعوا في بيوتكم، واكسروا سيوفكم، وقطعوا أوتاركم، وغطوا وجوهكم))[1].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: (تُشْبِهُ مُقْبِلَة، وتَتَبَيَّنَ مُدْبِرَة): "أي: أنها إذا أقبلت شَبَّهَتْ على القوم وأَرَتْهُمْ أنهم على الحق حتى يدخلوا فيها ويركبوا منها ما لا يجوز، فإذا أدبرت وانقضت بان أمرها، فعلم من دخل فيها أنه كان على الخطأ"[2].

والشبهة: الالتباس. وأمور مُشْتَبِهة ومُشَبِّهَة: مشكلة يشبه بعضها بعضًا[3].

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن يُشْرِفْ لها تَسْتَشْرِفْه، ومن وجد ملجأ أو مَعَاذًا فليعذ به**)) وفي لفظ: ((**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا**))[4]. فقوله: ((**مَنْ تَشَرَّفَ لَهَا**)): بفتح المثناة والمعجمة وتشديد الراء، أي: تَطَلَّعَ لها بأن يَتَصَدَّى ويَتَعَرَّضَ لها ولا يُعْرِضُ عنها.

قوله: ((**تستشرفه**)) أي: تهلكه بأن يُشْرِفَ منها على الهلاك. يقال: اسْتَشْرَفْتُ الشَّيْءَ: عَلَوْتُهُ وَأَشْرَفْتُ عليه. يريد مَن انْتَصَبَ لها انْتَصَبَتْ له، ومن أعرض عنها أعرضت عنه. وحاصله أن من طَلَعَ فيها بِشَخْصِهِ قَابَلَتْهُ بِشَرِّهَا. ويحتمل أن يكون المراد: مَنْ خَاطَرَ فيها بنفسه أَهْلَكَتْهُ، ونحوه قول القائل: مَنْ غَالَبَهَا غَلَبَتْه[5].

---

(١) أخرجه معمر في (جامعه) [١٣٧٩]، ونعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٧٩]، والحاكم [٨٣٨٥]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٢٧٣/١). و(الدِّمن): السماد المتلبد والبعر.

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (شبه) (٤٤٢/٢).

(٣) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (شبه) (١٩٣/٤)، لسان العرب (٥٠٤/١٣).

(٤) صحيح البخاري [٣٦٠١، ٧٠٨١، ٧٠٨٢]، مسلم [٢٨٨٦].

(٥) فتح الباري، لابن حجر (٣١/١٣).

وعن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا جلوسًا عند عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: أَيُّكُمْ يحفظ قول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الفتنة؟ قلت أنا كما قاله: قال: إنك عليه أو عليها لجريء، قلت: ((**فتنة الرجل في أهله وماله وولده وجاره، تكفرها الصلاة والصوم والصدقة، والأمر والنهي**))، قال: ليس هذا أريد، ولكن الفتنة التي تموج كما يموج البحر، قال: ليس عليك منها بأس يا أمير المؤمنين، إن بينك وبينها بابًا مغلقا، قال: أيكسر أم يفتح؟ قال: يكسر، قال: إذًا لا يغلق أبدًا، قلنا: أكان عمر يعلم الباب؟ قال: نعم، كما أن دون الغدِ اللَّيْلَةَ، إني حدثته بحديث ليس بالأغاليط فهبنا أن نسأل حذيفة، فأمرنا مسروقًا فسأله، فقال: الباب عمر(١).

وكأنه مَثَّلَ الْفِتَنَ بِدَارٍ، ومَثَّلَ حياة عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببابٍ لها مغلق، ومَثَّلَ موته بفتح ذلك الباب، فما دامت حياة عمر موجودة فهي الباب المغلق، فإذا مات عصف بالناس رياحُ الفتن، وانفتح ذلك الباب فخرج ما في تلك الدَّار. وكأن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قد علم أن عمرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقتل شهيدًا، ولكنه كره أن يخاطبه بالقتل(٢).

وفي (المرقاة): أن الكلام لم يكن من باب الصريح، بل من قبيل الرمز والتلويح، لكن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ممن لا يخفى عليه الإشارة فضلًا عن العبارة، بل هو أيضًا من أصحاب الأسرار وأرباب الأنوار(٣).

وقال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**تُعْرَضُ الفتن على القلوب كالحصير عودًا عودًا، فَأَيُّ قلب أُشْرِبَهَا، نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سوداء، وَأَيُّ قلب أنكرها، نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا**

(١) صحيح البخاري [٥٢٥، ١٤٣٥، ١٨٩٥، ٣٥٨٦، ٧٠٩٦]، مسلم [١٤٤].
(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٧٥)، فتح الباري، لابن حجر (٦/ ٦٠٦).
(٣) انظر: مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٨/٣٤٢٧).

تضره فتنة ما دامت السموات والأرض، والآخر أسود مِرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا، لا يعرف معروفًا، ولا ينكر منكرًا، إلا ما أُشْرِبَ من هواه))(١).

شَبَّهَ القلب الذي لا يَعِي خيرًا بالكوز الْمُنْحَرِفِ الذي لا يثبت الماء فيه. ذلك أن الرجل إذا تبع هواه، وارتكب المعاصي، دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمةٌ، وإذا صار كذلك افْتُتِنَ وزال عنه نور الإسلام. والقلب مثلُ الكوز فإذا انْكَبَّ انْصَبَّ ما فيه ولم يدخله شيء بعد ذلك(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ويل للعرب من شر قد اقترب، أفلح من كف يده**))(٣).

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: "والإمساك فِي الفتنة سنة ماضية واجب لزومها فإن ابتليت فقدم نفسك دون دينك ولا تعن عَلَى فتنة بيد ولا لسان ولكن اكفف يدك ولسانك وهواك والله المعين"(٤).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء، فصار الأكابر رَحِمَهُمُ اللَّهُ عاجزين عن إطفاء الفتنة وكف أهلها. وهذا شأن الفتن كما قال

---

(١) صحيح مسلم [١٤٤]. ((مربادًا)): بكسر الميم وبالدال المشددة: من ارْبَادَّ كَاحْمَارَّ، أي: صار كلون الرماد، من الرُّبْدَة لون بين السواد وَالْغُبْرَة، وهو حال أو منصوب على الذم. و((مجخيًا)): بضم ميم وسكون جيم وخاء مكسورة وياء آخر الحروف مشددة، وقد تخفف. وفي (النهاية): وروي بتقديم الخاء على الجيم، أي: مائلًا منكوسًا. مرقاة المفاتيح (٣٣٧٨/٨)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (خجى) (١٢/٢).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٧٣).

(٣) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [٣٤٤]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٥٢]، وأحمد [٩٦٩١] بإسناد صحيح، وأبو داود [٤٢٤٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦٥/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٤٥]، والديلمي [٧١٤٢].

(٤) طبقات الحنابلة (٢٧/١)، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل (ص:٨٩).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥]. وإذا وقعت الفتنة لم يسلم من التلوث بها إلا من عصمه الله"(١).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا قال: بينما نحن حول رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، إذ ذكر الفتنة، فقال: ((**إذا رأيتم الناس قد مرجت عهودهم، وخفت أماناتهم، وكانوا هكذا**)) وشبك بين أصابعه، قال: فقمت إليه، فقلت: كيف أفعل عند ذلك، جعلني الله فداك؟ قال: ((**الزم بيتك، واملك عليك لسانك، وخذ بما تعرف، ودع ما تنكر، وعليك بأمر خاصة نفسك، ودع عنك أمر العامة**))(٢).

وعند أبي داود بلفظ: ((**كيف بكم وبزمان**)) أو ((**يوشك أن يأتي زمان يغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم، وأماناتهم، واختلفوا، فكانوا هكذا**))، وشبك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: ((**تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم**)). قال أبو داود: هكذا روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ من غير وجه(٣).

وكذلك روي عن طائفة من الصحابة في قوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [المائدة:١٠٥] قالوا: لم يأت تأويلها بعد، إنما تأويلها في آخر الزمان(٤).

---

(١) منهاج السنة النبوية (٤/٣٤٣).

(٢) أخرجه أحمد من غير وجه، وابن ماجة [٣٩٥٧]، وأبو داود [٤٣٤٣]، والنسائي في (الكبرى) [٩٩٦٢]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٢٠٥]، والطبراني (٩/١٣)، [٤]، وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٧٥٨] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. والحديث قد روي عن عبد الله بن عمرو، عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، من غير وجه. قال العراقي (ص:٦٩٨): "أخرجه أبو داود والنسائي في اليوم والليلة بإسناد حسن".

(٣) سنن أبي داود [٤٣٤٢].

(٤) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٢٥٢).

وروي عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: فما دامت قلوبكم واحدة، وأهواؤكم واحدة، ولم تُلبَسوا شيعًا، ولم يَذُق بعضكم بأس بعض، فأمروا وانهوا. فإذا اختلفت القلوب والأهواء، وأُلبستم شيعًا، وذاق بعضكم بأس بعض، فامرؤ ونفسه، فعند ذلك جاء تأويل هذه الآية[1].

وتحتاج الأمة في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتحذر من خطيب مصقع[2]، وواعظ جاهل يشوّه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف. روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل"[3]. و"كان الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت"[4].

وقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))[5].

وعند (أبي يعلى): عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم اللسان**))[6].

(١) انظر: تفسير الطبري (١١/١٤٤)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٢٧)، تفسير ابن كثير (٣/٢١٤)، الدر المنثور (٣/٢١٦)، السنن الكبرى، للبيهقي [٢٠١٩٤].

(٢) يقال: (خطيب مِصْقَع) بكسر الميم، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) بالسين مثل مصقع.

(٣) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (٧/١٢٢)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٤/٣٢١)، وأبو نعيم في (الحلية) (٩/٢٤).

(٤) المجالسة (٦/٨٦).

(٥) تقدم.

(٦) تقدم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء"(٢).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"(٣).

"وقد كان يقال: إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير"(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله ﷻ، ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وايم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة، إذا شبت رأيت صاحب الدنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط، ووالله لئن تشبث بالدنيا وحدب عليها ليوشك أن تلفظه وتقضى منه"(٥).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٠).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٤٣).

(٣) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص:٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (٢/١٨)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص:١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٦/٤٥٠).

(٥) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٢/٣٣٦).

وقد كان حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكثر من سؤال الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الفتن حتى لا يقع فيها، ففي الصحيح عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: كان الناس يسألون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت يا رسول الله: إنا كنا في جاهلية وشر، فجاءنا الله بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: ((**نعم**)) قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: ((**نعم، وفيه دَخَنٌ**))، قلت: وما دخنه؟ قال: ((**قوم يهدون بغير هَدْيِي، تَعْرِفُ منهم وَتُنْكِرُ**))، قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر؟ قال: ((**نعم، دعاة إلى أبواب جهنم، من أجابهم إليها قذفوه فيها**))، قلت: يا رسول الله، صفهم لنا؟ فقال: ((**هم من جلدتنا، ويتكلمون بألسنتنا**))، قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم يكن لهم جماعة ولا إمام؟ قال ((**فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تَعَضَّ بأصل شجرة، حتى يدركك الموت وأنت على ذلك**))[1].

و(الدَّخَنُ) أصله: أن تكون في لون الدَّابَّةِ كُدُورَةٌ إلى سواد. قالوا: والمراد هنا أن لا تصفو القلوب بعضها لبعض، ولا يزولُ خُبْثُهَا، ولا ترجع إلى ما كانت عليه من الصفاء[2].

وقوله: ((**دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها**)) قال العلماء: هؤلاء من كان من الأمراء يدعو إلى بدعة أو ضلال. وفي حديث حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ هذا: لزوم جماعة المسلمين وإمامهم، ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي، من أخذ الأموال وغير ذلك، فتجب طاعته في غير معصية[3].

---

(١) صحيح البخاري [٣٦٠٦، ٧٠٨٤]، مسلم [١٨٤٧].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٣٦- ٢٣٧).

(٣) انظر: المصدر السابق (١٢/ ٢٣٧).

وفي حديث العِرْبَاض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أمرَ الرسولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالتمسكِ بالإسلام، وطاعةِ الإمام، والتزامِ سنَّةِ الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وسنةِ خلفائِه الراشدينَ المهديينَ من بعده، فعن العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: ((**أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**))(١).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في خطبته: ((**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**))(٢).

فأرشدَ الرسولُ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أمَّتَه إلى كيفيةِ التصرفِ في مثلِ هذه الفتن، حيث يخفى الحقُّ، وتضطربُ الأمور، فقد دعا الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى اجتنابِ الصراعِ والقتالِ في مثلِ هذه الحال، والاعتزالِ في مكانٍ ناءٍ، يرعى الرجلُ الغنمَ في قممِ الجبال، فإن وصلت إليه سيوفُ المتحاربين، فقد أُمِرَ بأن يمتنعَ عن الدفاعِ عن نفسه، ولو كان في هذا هلاكُه(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [١٧١٤٥]، والدارمي [٩٦]، وابن ماجه [٤٣]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٤٢٠١]، وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) [٦١٨]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(٢) صحيح مسلم [٨٦٧].

(٣) القيامة الصغرى (ص:١٧٢).

وقد جاء في الحديث: عن المقداد بن الأسود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: ايم الله، لقد سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر فواها**))(١).

وعن أبي بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إنها ستكون فتن: ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها، والماشي فيها خير من الساعي إليها. ألا، فإذا نزلت أو وقعت، فمن كان له إبل فليلحق بإبله، ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه**))، قال فقال رجل: يا رسول الله أرأيت من لم يكن له إبل ولا غنم ولا أرض؟ قال: ((**يعمد إلى سيفه فيدق على حده بحجر، ثم لينج إن استطاع النجاء، اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟ اللهم هل بلغت؟**)) قال: فقال رجل: يا رسول الله أرأيت إن أكرهت حتى ينطلق بي إلى أحد الصفين، أو إحدى الفئتين، فضربني رجل بسيفه، أو يجيء سهم فيقتلني؟ قال: ((**يبوء بإثمه وإثمك، ويكون من أصحاب النار**))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**والذي نفسي بيده لَيأْتِيَنَّ على الناس زمان لا يدري القاتل في أَيِّ شيء قَتَلَ ، ولا يدري المقتول على أيِّ شيء قُتِلَ**))(٣).

وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كما في الحديث الذي رواه أبو بكرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في**

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٦٣]، والبزار [٢١١٢]، والطبراني [٥٩٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/١٧٥). قال البزار: "وإسناده إسناد حسن". و(واها) كلمة معناها التلهف، وقد توضع للإعجاب بالشيء.

(٢) صحيح مسلم [٢٨٨٧].

(٣) صحيح مسلم [٢٩٠٨].

النار))، فقلت يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول قال: ((**إنه كان حريصًا على قتل صاحبه))**[(١)]. فهذا تحذير بالغ من حمل السلاح عند الفتنة واختلاط الحق.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد اختلف العلماء في قتال الفتنة، فقالت طائفة: لا يقاتل في فتن المسلمين، وإن دخلوا عليه بيته وطلبوا قتله فلا يجوز له المدافعة عن نفسه؛ لأن الطالب متأول، وهذا مذهب أبي بكرة الصحابي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره. وقال ابن عمر وعمران بن الحصين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وغيرهما: لا يدخل فيها، لكن إن قصد دفع عن نفسه فهذان المذهبان متفقان على ترك الدخول في جميع فتن الإسلام. وقال معظم الصحابة والتابعين وعامة علماء الإسلام: يجب نصر المحق في الفتن، والقيام معه بمقاتلة الباغين كما قال ﷻ: ﴿فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي﴾ الآية [الحجرات:٩]. وهذا هو الصحيح.

وتُتَأَوَّلُ الأحاديث على من لم يظهر له المحق، أو على طائفتين ظالمتين لا تأويل لواحدة منهما، ولو كان كما قال الأولون لظهر الفساد، واستطال أهل البغي والمبطلون -والله أعلم-"[(٢)].

وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصواب أن يقال: إن الفتنة أصلها: الابتلاء وإنكار المنكر واجب على كل من قدر عليه، فمن أعان المحق أصاب، ومن أعان المخطئ أخطأ، وإن أشكل الأمر فهي الحالة التي ورد النهي عن القتال فيها"[(٣)].

ولا شك أنَّ تبينَ الحقِ والصوابِ في مثلِ هذه الظروفِ التي تقعُ فيها الفتن، وتظهرُ فيها الأهواءُ صعبٌ جدًّا، والأقربُ إلى السلامةِ هو البعدُ والاعتزال؛ كيلا يصيبَ المسلمُ دمًا حرامًا، ولا يؤذي مسلمًا -والله أعلمُ بالصواب-[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١٠)، وانظر: نيل الأوطار (٣٩٣/٥).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (٣١/١٣)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩١/٢٤).

(٤) القيامة الصغرى (ص:١٧٤).

ومن علاماتِ الساعة: كثرة الفتن، وتكالب أمم الكفر على هذه الأمة، ففي الحديث: عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يوشك الأمم أن تداعى عليكم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها**))، فقال قائل: ومن قلة نحن يومئذ؟ قال: ((**بل أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء السيل، وَلَيَنْزِعَنَّ الله من صدور عدوكم المهابة منكم، وليقذفن الله في قلوبكم الْوَهْنَ**))، فقال قائل: يا رسول الله، وما الْوَهْنُ؟ قَالَ: ((**حُبُّ الدُّنيا، وكراهية الموت**))[1].

و(الْوَهْنَ): الضعف، وكأنه أراد بالوهن ما يوجبه ؛ ولذلك فسره بحب الدنيا وكراهة الموت، وهما متلازمان فكأنهما شيء واحد، يدعوهم إلى إعطاء الدنية في الدين من العدو المبين، ونسأل الله العافية فقد ابتلينا بذلك[2]، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي الحديث: قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**إن أمتكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخرها بلاء، وأمور تنكرونها، وتجيء فتنة فَيُرَقِّقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تنكشف وتجيء الفتنة، فيقول المؤمن: هذه هذه، فمن أحب أن يزحزح عن النار، ويدخل الجنة، فَلْتَأْتِهِ مَنِيَّتُه وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يُؤْتَى إليه**))[3].

---

(١) أخرجه الطيالسي [١٠٨٥]، وابن أبي شيبة [٣٧٢٤٧]، وأحمد [٢٢٣٩٧] بسند حسن، وأبو داود [٤٢٩٧]، والروياني [٦٥٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/ ١٨٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٨٧]، والديلمي [٨٩٧٧].

(٢) مرقاة المفاتيح (٨/ ٣٣٦٦).

(٣) صحيح مسلم [١٨٤٤]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: "((وتجيء فتنة فيرقق بعضها بعضا)) هذه اللفظة رويت على أوجه، أحدها: وهو الذي نقله القاضي عن جمهور الرواة: (يرقق) بضم الياء وفتح الراء وبقافين، أي يصير بعضها رقيقًا، أي: خفيفًا؛ لعظم ما بعده، فالثاني يجعل الأول رقيقًا. وقيل: معناه يشبه بعضها بعضًا. وقيل: يدور بعضها في بعض ويذهب ويجيء. وقيل: معناه: يسوق بعضها إلى بعض بتحسينها وتسويلها. والوجه الثاني: (فيرفق) بفتح الياء وإسكان الراء وبعدها فاء مضمومة. والثالث: (فيدفق) بالدال المهملة الساكنة وبالفاء المكسورة، أي: يدفع ويصب، والدفق: الصب. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه)) هذا من جوامع كلمه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،=

إنَّ اعتصامَ هذه الأمة بدينها ووحدتها حاجزٌ يقفُ دون مطامعِ أعدائها، فمهما كان مكرُ الأعداء وقوتُهم فإنهم لن ينالوا من هذه الأمة نيلًا إذا كان أبناؤُها متحدين(١)، ومتمسكين بكتاب الله ﷻ وسنة رسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال الله ﷻ: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وواضحٌ من الحديثِ السابقِ أنَّ وحدة الأمة عِصمةٌ لها من أعدائها، فإذا أصبح بأسها بينها، ووقعت الفرقة والاختصام فيما بينها سلَّطَ الله عليها أعداءَها، وتلك نتيجةٌ حتميةٌ؛ لأن قوتها في هذه الحال لا تتجهُ إلى الأعداء، بل إلى نفسها، فتدمِّرُ نفسَها بنفسِها، مما يُطْمِعُ أعداءَها فيها(٢).

وفي هذا الحديث الشريف فائدة اجتماعية عظيمة، حيث يُذكرُ فيه الداءُ وأسبابُه، وفيه معجزةٌ بالإخبار عما سيكون من الأمور المغيَّبة. أليس هذا العصر الذي نحن فيه هو ذلك اليوم؟! حيث ترى فيه المسلمين أشلاءَ ممزقة، وما عيبُهم من قلَّة العدد. وإنَّ من الثابت المقرَّر في النواميس الطبيعية أنَّ الإفراطَ في حبِّ الدنيا، والتهافتَ على شهواتِها، يحرمان الإنسان من التمتع بها، وأنَّ الغلوَّ في المحافظة على الحياةِ تكون عاقبتُه زيادة التَّعرض للهلاك.

وأخبرَ النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه يقعُ في هذه الأمة من أنواع البلاءِ الخسفُ والقذفُ والمسخ بسبب تعاطيها للذنوب والمعاصي، واستعلان ذلك فيها، كشرب الخمرِ، ولبس الرجال الحرير، وتعاطي الزنا، وأكل الربا، وشهادةِ الزور، وكتمان شهادة الحق، ونحو ذلك من الفساد الذي يصلُ إلى درجة استحلال الحرام.

=وبديع حكمه، وهذه قاعدة مهمة فينبغي الاعتناء بها، وأن الإنسان يلزم أن لا يفعل مع الناس إلا ما يحب أن يفعلوه معه". شرح النووي على صحيح مسلم (٢٣٣/١٢).

(١) انظر: القيامة الصغرى (ص: ١٨٦).

(٢) انظر: المصدر السابق (ص: ١٨٦).

وقد جاء في الحديث: ((**لَيَكُونَنَّ من أُمَّتِي أَقْوَامٌ يَسْتَحِلُّونَ الحِرَ**[١] **والحَرِير، والخمرَ وَالمعازف**[٢]**، ولَيَنْزِلَنَّ أقوامٌ إلى جَنْبِ عَلَم، يَرُوحُ عليهم بِسَارِحَةٍ**[٣] **لهم، يأتيهم –يعني: الفقير– لحاجة فيقولون: ارجع إلينا غدًا، فَيُبَيِّتُهُمُ الله**[٤]**، ويَضَعُ العَلَم**[٥]**، ويَمْسَخُ آخرين قردةً وخنازيرَ إلى يوم القيامة**))[٦].

ومما أخبرَ به النبيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بعضِ ما سيحدثُ من التَّحلل ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**صنفان من أهل النار لم أرهما: قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مميلات مائلات، رؤوسهن كأسنمة البخت المائلة**[٧]**، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**))[٨].

وهذا من معجزاتِ النبوة، وقد وقعَ كما أخبر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فتجدُ من النساء من تسترُ بعضَ جسدها وتكشفُ بعضه، أو تلبسُ ثوبًا رقيقًا يصفُ جسدها.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "أراد اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف الذي يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم عاريات في الحقيقة"[٩].

---

(١) أي: يستحلون الفروج والزنا، وما ذاك إلا لكثرة ما يدعو إلى ذلك من الدعاية والإعلام، وكثرة الوسائل الموصلة إليه.

(٢) أي: آلات اللهو والطرب.

(٣) أي: بغنم.

(٤) أي: يهلكهم في الليل.

(٥) أي: يدكُّ الجبلَ ويوقِعُه على رؤوسهم.

(٦) صحيح البخاري [٥٥٩٠].

(٧) يعني: يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو عصابة أو نحوها، حتى يظن الرائي أنه كله شعر.

(٨) صحيح مسلم [٢١٢٨].

(٩) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٣/٢٠٤).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يريد كاسية بالثياب الواصفة لأجسامهن لغير أزواجهن، ومن يحرم عليه النظر إلى ذلك منهن، وهن عاريات في الحقيقة فربما عوقبت في الآخرة بالتعري الذى كانت إليه مائلة في الدنيا، مباهية بحسنها"(١).

وقيل: (كاسيات): أي: في نعمة الله ﷻ. (عاريات): من شكرها.

وقيل: يسترن بعض بدنهن ويكشفن بعضه؛ إظهارًا لجمالهن، وإبرازًا لكمالهن.

وقيل: يلبسن ثوبًا رقيقًا يصف بدنهن وإن كن كاسيات للثياب عاريات في الحقيقة، أو كاسيات بالحلى والحلي، عاريات من لباس التقوى(٢).

وفي سماع ابن القاسم من (جامع الْعَتَبِيِّة) قال مالك: بلغني أن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ نهى النساء عن لبس الْقَبَاطِيِّ. قال ابن رشد في (شرحه): هي ثياب ضيقة تلتصق بالجسم لضيقها فتبدو ثخانة لابستها من نحافتها، وتبدي ما يستحسن منها، امتثالًا لقوله ﷻ: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: ٣١]اهـ(٣).

وعن عبد الله بن يسار، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ الْمُتَرَجِّلَة، والدَّيُّوث**))(٤).

والمرأة المترجِّلة هي التي تتشبه بالرجال في لباسهم وهيئاتهم؛ لأن هذا التشبه يخرج المرأة طبيعتها، وعن النوعية المقصودة التي تميزها عن الرجل، أما التشبه بالرجال في العلم والرأي فمحمود لا مذموم.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣/ ١١٦- ١١٧).

(٢) انظر: مرقاة المفاتيح (٦/ ٢٣٠٢).

(٣) التحرير والتنوير (١٨/٢٠٧).

(٤) أخرجه أحمد [٦١٨٠]، والبزار [٦٠٥٠]، والنسائي [٢٥٦٢]، وأبو يعلى [٥٥٥٦]، والروياني [١٤٠٠]، [١٤٠٠]، والطبراني في (الكبير) [١٣١٨٠]، و(الأوسط) [٢٤٤٣]، والحاكم [٢٤٤]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. قال الهيثمي (٨/١٤٨): "رواه البزار بإسنادين ورجالهما ثقات".

وأنواعُ الفتن متعددة، فمنها: فتنة المال والولد -كما تقدم-؛ لأن محبة المال والولد من الغرائز التي يعرض للناس فيها الإسراف والإفراط إذا لم تُهَذَّبْ بهداية الدين، ولم تُشَذَّبْ(١) بحسن التربية والتعليم، قال الله ﷻ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨].

والمحبة التي لا ترتبط بالعقيدة محبَّة لا تدوم ولا تثمر. قال الله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن:١٤]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [التغابن:١٥].

فالأزواج والأولاد قد يكونون مشغلة وملهاة عن ذكر الله ﷻ، وعن صالح الأعمال، كما أنهم قد يكونون دافعًا للتقصير في الحقوق والواجبات.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

قيل: أَعْلَم اللهُ تعالى أن الأموال والأولاد من جميع ما يقع بهم في الفتنة، وهذا عامٌّ يعمُّ جميع الأولاد؛ فإن الإنسان مفتون بولده؛ لأنه ربما عصى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بسببه، وباشر الفعل الحرام لأجله، كغصب مال الغير وغيره(٢).

فيقع الافتتان بالدنيا بسبب التنافس على حطامها.

وقد تقدم بيان ذلك في عقبة: (حب الدنيا والتنافس على حطامها)، وعقبة: (الإسراف في المباحات).

---

(١) أصله من النَّخلة الطَّويلة التي شُذِّبَ عنها جريدها: أي: قطع وفرق، فهو تشبيه بما يشذَّب من الشّجر؛ لأنَّه يطول بذلك ويسرع في شطاطه. و(الشطط) -بفتحتين- مجاوزة القدر في كل شيء.

(٢) انظر: تفسير الرازي (٣٠/٥٥٦)، تفسير ابن عادل (١٩/١٣٦).

وقد جاء في الحديث: عن كعب بن عياض، قال: سمعت النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن لكل أمة فتنة، وفتنة أمتي المال**))[1].

وقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**والله ما الفقر أخشى عليكم**))، يعني: ما أخاف عليكم الفقر، فالدنيا ستفتح. ((**ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوا كما تنافسوها، وتهلككم كما أهلكتكم**))[2].

وقال الله ﷻ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥].

فهذا المال الذي كسبه من حرام، فهو زائل، فإن أنفقه على نفسه لم يؤجر عليه، ولم يورث سعادة باقية، وإن بذله في صدقة أو نحوها لم يقبل منه،

وإن أبقاه لم يبارك له فيه، وإن مات وتركه كان زاده إلى النار، وربَّ وراث أحسن فيه، واتقى الله ﷻ فيه، فصار على الجامع غُرْمُه، وعلى الوارث غنمه[3].

ومن أنواع الفتن: ما له صله بالإعلام والثقافات الوافدة -كما تقدم بيانه-.

وقد يقع الافتتان بسبب مخالطة الأشرار والمضلين، أو الإقامة في بلد يجاهر أهله بالمعاصي. وقد يقع الافتتان بسبب الإصغاء إلى الشائعات التي لا حقيقة لها دون تثبت.

ومن أشد أنواع الفتنة: فتنة النساء: قال الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ

---

(١) أخرجه أحمد [١٧٤٧١]، والترمذي [٢٣٣٦]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٥١٦]، والنسائي في (الكبرى) [١١٧٩٥]، وابن حبان [٣٢٢٣]، والطبراني في (الكبير [٤٠٤]، و(الأوسط) [٣٢٩٥]، والحاكم [٧٨٩٦] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١١١٢]، أبو نعيم في (المعرفة) [٥٨٢٦]، والشهاب [١٠٢٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٢٧].

(٢) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥].

(٣) زيادته ونماؤه وفاضل قيمته.

اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر الله تعالى عما زين للناس في هذه الحياة الدنيا من أنواع الملاذ من النساء والبنين، فبدأ بالنساء؛ لأن الفتنة بهن أشد، كما ثبت في (الصحيح): عن أسامة بن زيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**ما تركت بعدي فِتْنَةً أَضَرَّ على الرجال من النساء**))[1]. فأما إذا كان القصد بهن الإعفاف وكثرة الأولاد، فهذا مطلوب مرغوب فيه مندوب إليه، كما وردت الأحاديث بالترغيب في التزويج والاستكثار منه"[2].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي حديث أسامة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن فتنة النساء أعظم الفتن مخافة على العباد؛ لأنه عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ عمم جميع الفتن بقوله: ((**ما تركت بعدى فتنة أضر على الرجال من النساء**))، ويشهد لصحة هذا الحديث قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ﴾ الآية، فقدم النساء على جميع الشهوات. فالمحنة بالنساء أعظم المحن على قدر الفتنة بهن، وقد أخبر الله ﷻ مع ذلك أن منهن لنا عدوًا، فينبغي للمؤمن الاعتصام بالله، والرغبة إليه في النجاة من فتنتهن، والسلامة من شرهن"[3].

---

(١) صحيح البخاري [٥٠٩٦]، مسلم [٢٧٤٠، ٢٧٤١]. وفي (المرقاة) (٥/٢٠٤٤): "لأن الطباع كثيرًا تميل إليهن، وتقع في الحرام لأجلهن، وتسعى للقتال والعداوة بسببهن، وأقل ذلك أن ترغب في الدنيا، وأي فساد أعظم من هذا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة". وقد قيل: "لا أحد أقدر على سلب عقول الرجال من المرأة؛ لقوة تأثيرها العاطفي، وسحر جمالها ودلالها وإغرائها" منار القاري (١/٣٢٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٢/١٩) بتصرف يسير.

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٧/ ١٨٨- ١٨٩).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن شهوات الحس غالبة على الآدمي، وأبلغ الشهوات الحسية الميل إلى النساء، والعقل كاللجام المانع عما لا يصلح، فالمحاربة بين الحس والعقل ما تنقطع، إلا أن التوفيق إذا أعان صان"(١).

وكما أن المرأة فتنة للرجل فكذلك الرجل يكون كذلك فتنة للمرأة. قال الله ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان:٢٠]، فالرجل فتنة للمرأة، والمرأة فتنة للرجل، والغني فتنة للفقير، والفقير فتنة للغني، والفاجر فتنة للبر، والبر فتنة للفاجر، والكافر فتنة للمؤمن، والمؤمن فتنة للكافر كما قال ﷻ: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام:٥٣]، وقال ﷻ: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]، فجعل كل ما يصيب الإنسان من شر أو خير فتنة، يعني: أنه محنة يمتحن بها، فإن أصيب بخير امتحن به شكره، وإن أصيب بشر امتحن به صبره. وفتنة السراء أشد من فتنة الضراء(٢).

فمن الفتن: فتنة الناس بعضهم بعضًا، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا عام في جميع الخلق، امتحن بعضهم ببعض، فامتحن الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ بالمرسل إليهم ودعوتهم إلى الحق والصبر على أذاهم. وتحمل المشاق في تبليغهم رسالات ربهم، وامتحن المرسل إليهم بالرسل، وهل يطيعونهم، وينصرونهم، ويصدقونهم، أم يكفرون بهم، ويردون عليهم، ويقاتلونهم؟ وامتحن العلماء بالجهال، هل يعلمونهم، وينصحونهم، ويصبرون على تعليمهم ونصحهم، وإرشادهم، ولوازم ذلك؟ وامتحن الجهال بالعلماء، هل يطيعونهم، ويهتدون بهم؟ وامتحن الملوك بالرعية، والرعية بالملوك، وامتحن الأغنياء بالفقراء، والفقراء بالأغنياء، وامتحن الضعفاء بالأقوياء، والأقوياء بالضعفاء، والسادة بالأتباع والأتباع بالسادة، وامتحن المالك بمملوكه، ومملوكه به، وامتحن الرجل بامرأته وامرأته به، وامتحن الرجال بالنساء والنساء بالرجال، والمؤمنين بالكفار ولكفار بالمؤمنين. وامتحن الآمرين

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (١٩/٤).

(٢) اختيار الأولى في شرح حديث اختصام الملأ الأعلى، لابن رجب (ص:١٢٢-١٢٣).

بالمعروف بمن يأمرونهم، وامتحن المأمورين بهم، ولذلك كان فقراء المؤمنين وضعفاؤهم، من أتباع الرسل، فتنة لأغنيائهم ورؤسائهم، امتنعوا من الإيمان بعد معرفتهم بصدق الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وقالوا: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ﴾ [الأحقاف:١١] هؤلاء. وقالوا لنوح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ [الشعراء:١١١]. قال ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ [الأنعام:٥٣]. فإذا رأى الشريف الرئيس المسكين الذليل قد سبقه إلى الإيمان، ومتابعة الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى وأنف أن يسلم، فيكون مثله، وقال: أسلم فأكون أنا وهذا الوضيع على حد سواء؟"(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**)). وفي حديث ابن بشار: ((**لينظر كيف تعملون**))(٢).

وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**واتقوا النساء**)) قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "خصص بعد ما عمم؛ إيذانًا بأن الفتنة بهن أعظم الفتن الدنيوية"(٣).

ويقع الافتتان بسبب موت العلماء، وتصدر الجهال لمنابر الدعوة، وقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فضلوا وأضلوا**))(٤).

---

(١) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان (ص:١٦٠-١٦١).
(٢) صحيح مسلم [٢٧٤٢].
(٣) فيض القدير (١٧٩/٢).
(٤) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

وقد تقدم أن من الفتن: فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون.

وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل -كما تقدم-.

وقد قال سفيان الثوري رَحِمَهُ اللَّهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"(١).

ومن أعظم أنواع الافتتان تأثيرًا وانتشارًا في واقعنا المعاصر: الافتتان بالمذاهب الغربية الهدامة كما بيناه من قبل. وكذلك من الفتنة: تسلط الأعداء على مقدرات الأمة.

ومن الفتنة: مولاة الكافرين كما قال الله ﷻ: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران:٢٨].

﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء:١٣٨-١٣٩].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا﴾ [النساء:١٤٤].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [المائدة:٥١-٥٢].

---

(١) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص:٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (١٨/٢)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص:١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

ومن الناس من يفتن بثناء الناس عليه، ويغترُّ بستر الله تعالى عليه، ويستدرج بنعمه، وكل هذه عقوبات وإهانات، وهي من فتنة الله تعالى لعباده، ويظن الجاهل أنها كرامة.

ثالثًا: موقف المسلم من الفتن والوقاية من آفاتها والعلاج:

١ – الاستقامة والثبات على دين الله ﷻ في سائر الأحوال، في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرَّخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء.

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه ﷻ الثبات كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: ((**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**))، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: ((**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**))(١).

وقد نجى الله ﷻ يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ من فتنة النساء بما حصَّن به نفسه من قبل من الإيمان والتقوى كما قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٤٠٥]، وأحمد [١٢١٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٦٨٣]، والترمذي [٢١٤٠]، وقال: "وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٢٥]، والبزار [٧٥٠٨]، وأبو يعلى [٣٦٨٧]، والآجري في (الشريعة) [٧٣١]، والحاكم [١٩٢٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٤٢]، والضياء [٢٢٢٢]، وقال: "إسناده صحيح". وقال الهيثمي (١٧٦/١٠) عن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رفعه: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح".

٢ – أن يستعيذ المسلم من الفتن ما ظهر منها وما بطن:

وقد كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله تعالى من الفتن، وأمر أمته باتخاذ أسباب الوقاية من الفتن، واللجوء إلى الله ﷻ والدعاء والاستعاذة به سبحانه خير أسباب الوقاية من الفتن:

ففي الصحيح: ((**تَعَوَّذُوا بالله من الفتن، ما ظهر منها وما بطن**))(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**تَعَوَّذُوا بالله من جَهْدِ البلاء، ودَرَكِ الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء**))(٢).

وعن مصعب بن سعد، عن أبيه، قال: تعوذوا بكلمات كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعوذ بهن: ((**اللهم إني أعوذ بك من الجبن، وأعوذ بك من البخل، وأعوذ بك من أن أرد إلى أرذل العمر، وأعوذ بك من فتنة الدنيا، وعذاب القبر**))(٣).

وكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول في دعائه: ((**اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون**))(٤).

٣ – غرس العقيدة الصحيحة في نفوس الناشئة، وتعليم الناس أصول الاعتقاد، وما حَدَّثَ به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أحاديث في الفتن محذِّرًا من الخوض فيها، ومبينًا لآثارها، وكيفية التعامل مع كل حادثة، وإزالة اللبس والاشتباه عن العامة، والتحذير من دعاة الفتنة، ورد شبه أهل الباطل.

ومن أصول العقيدة: تحقيق التوحيد الخاص لله عَزَّ وَجَلَّ، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى وقَدَرِه، قال الله ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٦٧].

(٢) صحيح البخاري [٦٦١٦].

(٣) صحيح البخاري [٦٣٧٤].

(٤) الحديث رواه غير واحد، وهو مروي عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد:٢٢]، وقال ﷻ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١].

٤ – الاعتصام بكتاب الله ﷻ، وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وترك التنازع والاختلاف، ولزوم الجماعة:

قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران:١٠٣]، ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال:٤٦].

وفي الحديث قال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تَرَكْتُ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ**))(١).

وقال ﷻ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور:٦٣]. قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: "إذا وقعت الفتنة فأطفئوها بالتقوى، قالوا: وما التقوى؟ قال: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله"(٢).

---

(١) أخرجه مالك في (الموطأ) [٣٣٣٨]، وهو عند الحاكم من رواية ابن عباس [٣١٨]، وقال: وقد احتج البخاري بأحاديث عكرمة واحتج مسلم بأبي أويس، وسائر رواته متفق عليهم، وهذا الحديث لخطبة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متفق على إخراجه في الصحيح: ((يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله، وأنتم مسؤولون عني، فما أنتم قائلون؟)) وذكر الاعتصام بالسنة في هذه الخطبة غريب ويحتاج إليها. وقد وجدت له شاهدا من حديث أبي هريرة. قال الذهبي: احتج البخاري بعكرمة واحتج مسلم بأبي أويس عبد الله، وله أصل في الصحيح. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (الكبرى) [٢٠٣٣٦].

(٢) الرسالة التبوكية (ص:١٣).

٥ - الحرصُ على العبادة أيَّام الفتن:

إن من الأمور التي يدفع بها المسلم الفتن: الحرص على العبادة، وقد بين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فضل العبادة أيَّام الفتنة، واختلاط الأمور. فقال: ((**العبادة في الْهَرْجِ كهجرة إِلَيَّ**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المراد بالهرج هنا: الفتنة، واختلاط أمور الناس. وسبب كثرة فضل العبادة فيه أن الناس يغفلون عنها ويشتغلون عنها، ولا يتفرغ لها إلا أفراد"(٢) [يعني: قليلون].

وقد جاء في الحديث: عن معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**))(٣).

وأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الغرباء في آخر الزمان الذين يصلحون إذا فسد الناس. وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بدأ الإسلام غريبًا، وسيعود كما بدأ غريبًا، فطوبى للغرباء**))(٤).

وإذا عمت الفتن اشتغلت القلوب، وإذا تعبد حينئذ متعبد دلَّ على قوة اشتغال قلبه بالله عَزَّ وَجَلَّ فيكثر أجره(٥).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وجهُ تمثيله بالهجرة: أنَّ الزمنَ الأوَّل كان الناسُ يفرونَ فيه من دار الكفر وأهله إلى دار الإيمان وأهله، فإذا وقعت الفتنُ تَعَيَّنَ على المرء

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٤٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/٨٨-٨٩).

(٣) صحيح البخاري [٣٦٤١]، مسلم [١٠٣٧]. وفي (صحيح مسلم) [١٩٢٠] عن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ نحوه.

(٤) صحيح مسلم [١٤٥].

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/ ٤٢).

أن يفرَّ بدينه من الفتنة إلى العبادة، ويهجرَ أولئك القوم، وتلك الحالة، وهو أحدُ أقسام الهجرة"(١).

وقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاثًّا أُمَّتَه على المبادرة والمسارعة إلى الخيرات قبل فوات الأوان: ((**بَادِرُوا بِالْأَعْمَالِ فِتَنًا كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ..**))(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فالمتمسك بالعبادة في ذلك الوقت، والمنقطع إليها، المعتزل عن الناس، أجره كأجر المهاجر إلى النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ لأنه يناسبه من حيث إن المهاجر فرَّ بدينه عمن يصده عنه إلى الاعتصام بالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكذلك هو المنقطع للعبادة فرَّ من الناس بدينه إلى الاعتصام بعبادة ربه ﷻ، فهو على التحقيق قد هاجر إلى ربه، وفر من جميع خلقه"(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في بيان ما ينبغي أن يحرص عليه المسلم وقت الفتن: "وليتخذ وردًا من (الأذكار) في النهار ووقت النوم، وليصبر على ما يعرض له من الموانع والصوارف، فإنه لا يلبث أن يؤيده الله ﷻ بروح منه، ويكتب الإيمان في قلبه. وليحرص على إكمال الفرائض من الصلوات الخمس باطنة وظاهرة؛ فإنها عمود الدين. وليكن هِجِّيراه(٤): (لا حول ولا قوة إلا بالله)؛ فإنها بها تحمل الأثقال، وتكابد الأهوال، وينال رفيع الأحوال. ولا يسأم من الدعاء والطلب؛ فإن العبد يستجاب له ما لم يعجل، فيقول: قد دعوت ودعوت فلم يستجب لي. وليعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا، ولم ينل أحد شيئًا من خَتْمِ الخيْرِ نَبِيٌّ فمن دونه إلا بالصبر"(٥).

٦ – البعد عن الذنوب والمعاصي، وهجر مجالس اللهو واللغو والغيبة والنميمة:

---

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٩/٥٣).
(٢) تقدم.
(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/٣٠٩).
(٤) أي: كلامه ودأبه وشأنه ودَيْدَنه.
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/١٣٧)، أمراض القلب (ص:٢٧).

فما نزل بلاء إلا بذنب كما قال الله ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

٧ – أن يحرص المسلم على الكسب الطيب وإن قل.

٨ – التبين والتبصر في تحري الحق، والحلم والأناة، والصبر على البلاء:

قال حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((**إذا أحب أحدكم أن يعلم أصابته الفتنة أم لا، فلينظر فإن كان رأى حلالًا كان يراه حرامًا فقد أصابته الفتنة، وإن كان يرى حرامًا كان يراه حلالًا فقد أصابته**))[١]. وعند حلول الفتنِ تزيغ أبصارٌ عن الحقِّ، وتبصره أخرى، وفيها تتبدل الأحوال، وتختبر عقول الرجال، ويمتحن الإيمانُ أيما امتحان. وفي زماننا فتنٌ كثيرةٌ عاصفةٌ لا يَسْلَمُ من شرها إلا من ثَبَّتَه اللهُ ﷻ فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، واحترز عن النفاق والمداهنة، كما جاء في الحديث: ((**إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، إن السعيد لمن جنب الفتن، ولمن ابتلي فصبر**))[٢]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ﴾ [غافر:٥٥]. قال ابن تيمية: "فأمره بالصبر، وأخبره أن وعد الله حق، وأمره أن يستغفر لذنبه. ولا تقع فتنة إلا من ترك ما أمر الله به، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أمر بالحق، وأمر بالصبر، فالفتنة إما من ترك الحق، وإما من ترك الصبر"[٣].

وفي الحديث: ((**ستلقون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني**))[٤].

---

(١) أخرجه نعيم بن حماد في (الفتن) [١٣٠]، وابن أبي شيبة [٣٧٣٤٣]، والحاكم [٨٤٤٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (١/٢٧٢).

(٢) تقدم.

(٣) الاستقامة (ص:٣٨-٣٩).

(٤) صحيح البخاري [٢٣٧٦، ٢٣٧٧، ٣١٤٧، ٣١٦٣، ٣٧٩٢، ٣٧٩٣، ٣٧٩٤، ٤٣٣٠، ٤٣٣١، ٧٠٥٧]، مسلم [١٠٥٩، ١٠٦١، ١٨٤٥].

يعني: أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق، فاصبروا على ما يسومكم به أمراء الجور، حتى تلقوني يوم القيامة على الحوض، فتنصفون ممن ظلمكم، وتجازون على صبركم.

إن التروي والأناة والتبصر كل ذلك مما يجعل المسلم يبصر حقائق الأمور، ويقفُ على أبعادها وعواقبها، كما قال عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في وصف الروم: ((**إنهم لأحلم الناس عند فتنة، وأسرعهم إفاقة بعد مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين ويتيم وضعيف، وخامسة حسنة جميلة: وأمنعهم من ظلم الملوك**))، قال ذلك عقب سماعه قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**))(١).

٩ – الحذرُ من الشائعات والروايات الواهية ونقل الأخبار المكذوبة: قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**كفى بالمرء كذبًا أن يُحدِّثَ بكلِّ ما سَمِعَ**))(٢). أي: إذا لم يتثبت؛ لأنه يسمع عادةً الصدقَ والكذب، فإذا حدَّثَ بكلِّ ما سمعَ لا محالةَ يكذب. وقد أمر الله بالتثبُّت في النقل، ولا سيما في أخبار المجاهيل والفساق كما قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات:٦].

١٠ – البعد عن التعرض للفتن والخوض فيها حتى يأمن المسلم على نفسه من آفاتها وآثارها: وقد تقدم قول حذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ((**إياك والفتن لا يَشْخَصْ لها أحد، فو الله ما شَخَصَ منها أحد إلا نسفته كما ينسف السَّيْلُ الدِّمَنَ**)).

١١ – أن يرد ما التبس وأشكل فهمه إلى العلماء الرَّاسخين. فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣].

فهذا تنبيه بالغ إلى العباد في عدم الخوض فيما لا علم لهم به، وما لا يدركون آثاره. فإذا جاءهم أمر من الأمور المهمة ولا سيما في المصالح العامة المتصلة بالأمن أو

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٩٨].

(٢) تقدم.

الخوف، فينبغي أن لا يتعجلوا في حكم من غير تبين ولا تثبت، بل يردونه إلى الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وإلى العلماء الراسخين من أهل العلم والرأي والنصح والبصيرة والرزانة، الذين يعرفون المسائل ومقاصدها وأبعادها وآثارها، فيدركون المصالح وضدها. وفيه النهي عن العجلة والتسرع في الحكم، وفي نشر الأخبار وإشاعتها، والأمر بالتأمل قبل الكلام والنظر.

ومن صفات مرضى القلوب: التعجل في النقل من غير تبين ولا تثبت ولا نظر، ومن صفاتهم: الإرجاف، والكذب أو التحريف. قال الله ﷻ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ [النساء:٨٣].

وقد تقدم أن الفتنةُ إذا أقبلَت عرفَها العلماءُ، فإذا أدبَرَت عرفَها العامةُ ولكن بعد الفوات.

١٢ - التَّمييز بين العلماء الرَّبانيين العاملين وبين من سواهم من المضلِّين.

١٣ - أن يحرص العلماء على البيان عند حاجة الناس، وأن يحذروا العامة من الرؤساء الجهال، كما تقدم بيان ذلك في عقبة (كتمان الحق).

١٤ – مناصحة أئمة المسلمين وعامتهم:

جاء في (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ): "باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الدين النصيحة: لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم، وقوله ﷻ: ﴿إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [التوبة:٩١]. حدثنا مسدد، قال: حدثنا يحي، عن إسماعيل، قال: حدثني قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**بايعت رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **على إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والنصح لكل مسلم**))"[(١)]. وعن تميم الداري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**الدين النصيحة**)) قلنا: لمن؟ قال: ((**لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**))[(٢)].

---

(١) صحيح البخاري (٢١/١) [٥٧].

(٢) صحيح مسلم [٥٥].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنصيحة فرض يجزئ فيه من قام به، ويسقط عن الباقين، والنصيحة لازمة على قدر الطاقة إذا علم الناصح أنه يقبل نصحه ويطاع أمره، وأمن على نفسه المكروه. وأما إن خشي الأذى فهو في سعة منها.

قال أبو بكر الآجري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يكون ناصحًا لله ﷻ ولرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولأئمة المسلمين وعامتهم إلا من بدأ بالنصيحة لنفسه، واجتهد في طلب العلم والفقه، ليعرف به ما يجب عليه، ويعلم عداوة الشيطان له وكيف الحذر منه، ويعلم قبيح ما تميل إليه النفس حتى يخالفها بعلم.

وأما النصيحة لأئمة المسلمين: فهي على قدر الجاه والمنزلة عندهم، فإذا أمن من ضرهم فعليه أن ينصحهم، فإذا خشى على نفسه فحسبه أن يغير بقلبه، وإن علم أنه لا يقدر على نصحهم فلا يدخل عليهم، فإنه يغشهم ويزيدهم فتنة ويذهب دينه معهم.

وقد قال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ربما دخل العالم على الملك ومعه شيء من دينه فيخرج وليس معه شيء، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يصدقه في كذبه، ويمدحه في وجهه.

وقد جاء في الحديث: عن كعب بن عُجْرَةَ أنه قال: قال لي رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ**))"(١).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النصيحة كلمة يعبر بها عن جملة هي إرادة الخير للمنصوح له، قال: وأصل النصح في اللغة: الخلوص، يقال: نصحت العسل: إذا خلصته من

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٢٩-١٣١) بتصرف يسير. والحديث قد تقدم.

الشمع. فمعنى النصيحة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: صحة الاعتقاد في وحدانيته، وإخلاص النية في عبادته والنصيحة لكتاب الله الإيمان به والعمل بما فيه.

والنصيحة لرسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: التصديق بنبوته، وبذل الطاعة له فيما أمر به ونهى عنه.

والنصيحة لأئمة المؤمنين: أن يطيعهم في الحق، وأن لا يرى الخروج عليهم بالسيف إذا جاروا.

والنصيحة لعامة المسلمين: إرشادهم إلى مصالحهم(١).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق، وطاعتهم فيه، وأمرهم به، وتنبيهم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه، ولم يبلغهم من حقوق المسلمين وترك الخروج عليهم، وَتَأَلُّفُ قلوب الناس لطاعتهم. قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم، والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وأن لا يُغَرُّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدْعَى لهم بالصلاح"(٢).

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا أراد الله بالأمير خيرًا جعل له وزير صدق، إن نسي ذكره، وإن ذكر أعانه، وإذا أراد الله به غير ذلك جعل له وزير سوء، إن نسي لم يذكره، وإن ذكر لم يعنه**))(٣). قال أبو نُعَيْم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن نَصَحَ الولاة والأمراء اهْتَدَى، ومن

---

(١) معالم السنن (٤/ ١٢٦). وانظر المعنى مفصلا في (تعظيم قدر الصلاة)، لأبي عبد الله محمد بن نصر المروزي (٢/٦٩١)، (جامع العلوم والحكم) (١/٢٢٠-٢٢٥).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٣٨).

(٣) أخرجه أحمد [٢٤٤١٤]، وأبو داود [٢٩٣٢]. قال الإمام النووي في (رياض الصالحين) (ص:٢٢٧): "رواه أبو داود بإسناد جيد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البزار [٢٦١]، قال الهيثمي (٥/٢١٠): "رواه أحمد، والبزار، ورجال البزار رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٤٩٤]، والبيهقي [٢٠٣٢٠].

غَشَّهُمْ غَوَى واعْتَدَى"[1]. قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وأما مناصحة ولاة الأمر فلم يختلف العلماء في وجوبها إذا كان السلطان يسمعها ويقبلها. ولما رأى العلماء أنهم لا يقبلون نصيحًا، ولا يريدون من جلسائهم إلا ما وافق هواهم زاد البعد عنهم والفرار منهم"[2].

وعن زيد بن ثابت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ثلاث لا يُغِلُّ**[3] **عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم الجماعة**))[4].

١٥ – الإخلاص لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في سائر الأقوال والأعمال.

---

(١) فضيلة العادلين (ص:١٣٩) .

(٢) الاستذكار (٥٧٩/٨).

(٣) قوله: ((لا يغل)) قال أبو عبيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يُروى يَغِلُّ ويُغِلُّ. فمن قال: (يَغِلُّ) –بالفَتْح– فإنه يجعلُه من الغِلّ، وهو الضِّغْنُ والشَّحْناء. ومن قال: (يُغِلُّ) بضمِّ الياء جعله من الخيانة من الإغلال". غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١٩٩/١–٢٠٠). قال أبو سليمان: "أما وجه الكلام وإعرابه فعلى ما ذكره أبو عبيد. وأما تأويله ومعناه فإنه يريد –والله أعلم–: أن هذه الخلال الثلاث مما لا يخالج القلب ريب أنهن بر وطاعة؛ لأنها من المعروف الذي تعرفه النفوس وتسكن إليه القلوب". غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٥٨٥/١). وقال ابن الأثير: "(يُغِلُّ) هو من الإغلال: الخيانة في كل شيء. ويروى (يغل) بفتح الياء، من الغل وهو الحقد والشحناء: أي: لا يدخله حقد يزيله عن الحق. وروي (يغل) بالتخفيف، من الوغول: الدخول في الشر. والمعنى أن هذه الخلال الثلاث تستصلح بها القلوب، فمن تمسك بها طهر قلبه من الخيانة والدغل والشر". النهاية في غريب الحديث والأثر (غلل) (٣٨١/٣).

(٤) أخرجه الطيالسي [٦١٦]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجة [٢٣٠]، وفي (الزوائد) (٣٢/١): "إسناده صحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٦٨٠]. قال الهيثمي (٢٤٧/١٠): "روى ابن ماجه بعضه. رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله وثقوا" وللحديث طرق أخرى فقد روي عن أبي سعيد الخدري، وابن مسعود، ومعاذ بن جبل، والنعمان بن بشير، وجبير بن مطعم، وأبي الدرداء، وأبي قرصافة جندرة بن خيشنة، وغيرهم من الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ. وبعض أسانيدهم صحيح كما ذكر المنذري في (الترغيب والترهيب) (٢٣/١).

١٦ – البعد والحذر من دعاة الفتنة وأئمة الضلال، وأصحاب البدع والأهواء ومناهجهم: قال ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨] –كما تقدم في غير موضع–.

١٧ – البصيرة التامة بحقيقة الحياة الدنيا، وإيثار الحياة الباقية على الحياة الفانية.

١٨ – البصيرة التامة بحقيقة الإنسان وضعفه وحاجته ومآله.

١٩ – التفقه في الدين ومجالسة العلماء الربانيين؛ فإن الأخذ عنهم يورث استقامة في الفكر والسلوك.

٢٠ – تجنُّب صحبة المضلِّين والمبطلين، والحرص على صحبة أهل الصلاح والعدل والاستقامة.

العقبة الخامسة والخمسون

المكر والخداع

أولًا: التحذير من المكر والخداع وبيان كونهما من أسباب الضلال والإضلال:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(المكر): الاحتيال والخديعة، وقد مكر به فهو (ماكرٌ) و(مَكَّار)"(١).

وخدَعَهُ يَخْدَعُهُ خِدْعًا مثلُ: سَحَرَهُ يَسْحَرُهُ سِحْرًا، أي: خَتَلَهُ وأراد به المكروه من حيث لا يعلم. والاسم: الخديعَة. والخَدْعَةُ المرةُ الواحدة. والانخِداع: الرِّضا بالخَدْع. والتَّخادُع: التَّشَبُّه بالمخدوع. والخُدْعَة: الرَّجلُ المخدوع"(٢).

والخداع يشبه الكيد إلا أن ثمة فرقًا بينهما. قال العسكري: "الفرق بين الخدع والكيد: أن الخدع هو إظهار ما يبطن خلافه، أراد اجتلاب نفع أو دفع ضر، ولا يقتضي أن يكون بعد تدبر ونظر وفكر. ألا ترى أنه يقال: خدعه في البيع: إذا غشه من جشع، وأوهمه الانصاف"(٣).

وقال: "المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر إلا أن الكيد أقوى من المكر.."(٤).

وقيل: المكر: إرادَة الماكر فِعْل السُّوء بالمَمْكُور به في غفلة منه عما يراد به، وعدم حذرِه من شرٍّ يأتيه من جهة الماكِر. أما الخداع فهو تدبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ يقوم به المخادع؛ لإيقاعِ الضررِ والشرِّ بالمخدوع من حيث لم يحذر ويتنبه، كأن يرقب المخدوع قدوم السوء من بابٍ فيفجأه من باب آخر.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (مكر) (٢/٨١٩)، وانظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (مكر) (٥/٣٤٥)، مجمل اللغة (١/٨٣٨).

(٢) الصحاح، مادة: (خدع) (٣/١٢٠١)، العين (١/ ١١٥).

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٥٨).

(٤) انظر: المصدر السابق (ص:٢٦٠).

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو يقول: ((**ربِّ أَعِنّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ..**)) الحديث[1].

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "(مكر الله): إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه. وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة وهي مردودة. والمعنى: ألحق مكرك بأعدائي لا بي. وأصل المكر: الخداع. يقال: مكر يمكر مكرًا"[2].

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "المكر والخديعة: متقاربان، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره، وذلك ضربان:

أحدهما: مذموم: وهو الأشهر عند الناس والأكثر، وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالمخدوع، وهو الذي قصده النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ((**المكر والخديعة في النَّار**))[3]. والمعنى: أنهما يؤديان بقاصدهما إلى النار.

والثاني: على عكس ذلك، وهو أن يقصد فاعلهما إلى استجرار المخدوع والممكور به إلى مصلحة لهما، كما يفعل بالصبي إذا امتنع من تعلم خير.

وقد قال بعض الحكماء: المكر والخديعة محتاج إليهما في هذا العالم، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ولا يميل إلى الحق ولا يقبله؛ لمنافاته لطبعه، فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة كما يخدع الطفل عن الثدي عند الفطام. وليس هذا حث على تعاطي الخبث، بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وعبد بن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١]، وقال: "حسن صحيح".
وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١٠٣٦٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٦٠٧]، وابن حبان [٩٤٧]، والطبراني في (الدعاء) [١٤١١]، والحاكم [١٩١٠]، وقال: "صحيح الإسناد".

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكر) (٤/ ٣٤٩).

(٣) سيأتي تخريجه.

ولكون المكر والخديعة ضربين: سيئًا وحسنًا قال الله ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٢-٤٣].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [النحل:٤٥].

فخصَّ في هذه الآيات: السيء من المكر؛ تنبيهًا على جواز المكر الحسن(١)، فقال ﷻ: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

وأما الكيد: فإرادة متضمنة لاستتار ما يراد عمن يراد به، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر، ومتى قصد به الشر فمذموم، ومتى قصد به خير فمحمود، وعلى الوجه المحمود.

قال ﷻ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦].

وعلى ذلك الاستدراج منه أيضًا نحو قوله ﷻ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].."(٢).

وما يعنيا هنا: المكر المذموم، والمتوعد عليه بالعذاب في الآخرة، فهو من أسباب الضلال؛ لأن عاقبة المكر السيء ترجع بالوبال على صاحبه، وهو من أسباب الإضلال؛ لأن الماكر إنما يعمل جاهدًا على إخفاء الحق، والتلبيس والتضليل.

ومن الآيات التي تدلُّ على ثبوت العذاب في الآخرة عقوبة للمكر والخداع والغش قوله ﷻ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ

(١) يجوز المكر بمن يجوز إدخال الأذى عليه، وهم الكفار والمحاربون، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الحرب خدعة)). جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٦٥). والحديث متفق عليه.

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٥٤- ٢٥٥).

دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل:٩٢]. وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:٩٤].

قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾، أي: مكرًا وخديعة وغشًّا وخيانة(١).

وقال الزمخشري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، "أي: مفسدة ودغلًا"(٢). وقال الواحدي: أي: غشًّا وخديعة(٣). وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أي: مكرًا وخديعة"(٤).

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: ﴿دَخَلًا﴾: "مكرًا وخيانة"(٥). قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: ﴿دَخَلًا﴾: مكرًا وخيانة هو من تفسير قتادة وسعيد بن جبير. أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال: خيانة وغدرًا. وأخرجه بن أبي حاتم من طريق سعيد بن جبير قال: يعني: مكرًا وخديعة. وقال الفراء رَحِمَهُ اللَّهُ: يعني: خيانة(٦).

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ اللَّهُ: (الدخل): كل أمر كان على فساد(٧).

وقال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: معنى الآية: لا تجعلوا أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم توفون بالعهد لمن عاهدتموه دخلًا، أي: خديعة وغدرًا؛ ليطمئنوا إليكم وأنتم تضمرون لهم الغدر. انتهى"(٨).

---

(١) بصائر ذوي التمييز، بصيرة في (الدخل) (٢/٥٩٠).

(٢) الكشاف (٢/٦٣١). قال الجوهري: "(الدَغَل) –بالتحريك-: الفَسادُ، مثل: (الدَخَل)" الصحاح، مادة: (دغل) (٤/١٦٩٧).

(٣) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص:٦١٧)، وانظر: تفسير النيسابوري (٤/٣٠١).

(٤) الصحاح، مادة: (دخل) (٤/١٦٩٦).

(٥) صحيح البخاري (٨/١٣٧).

(٦) في (معاني القرآن)، للفراء (٢/١١٣): ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾: "دَغَلا وخديعة".

(٧) في (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة (١/٣٦٧): "كل شيء وأمر لم يصح فهو دخل".

(٨) فتح الباري، لابن حجر (١١/٥٥٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٣/١٩٣)، وانظر: تفسير الطبري (١٧/٢٨٦)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧/٢٣٠٠)، الدر المنثور (٥/١٦٣).

والخداع من صفات المنافقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. قال الواحدي رَحِمَهُٱللَّهُ: أي: يعملون عمل المخادع بما يظهرونه ويبطنون خلافه. ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: مجازيهم جزاءَ خداعهم، وذلك أنَّهم يُعطون نورًا كما يُعطى المؤمنون، فإذا مضوا قليلًا أطفئ نورهم وبقوا في الظُّلمة"[١].

والمكر المذموم مراتب، أعلاها: ما يحمل على الكفر بالله ﷻ، ويكون سببًا في الضلال والإضلال، وقد دلَّت النصوص على ثبوت العذاب في الآخرة عقوبةً لهذا المكر كما في قوله ﷻ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٣-١٢٤].

قال أبو جعفر رَحِمَهُٱللَّهُ: "يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءَها مجرميها، يعني: أهل الشرك بالله ﷻ والمعصية له. ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، بغرور من القول، أو بباطل من الفعل، بدين الله ﷻ وأنبيائه عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾: أي ما يحيق مكرهم ذلك إلا بأنفسهم؛ لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدِّهم عن سبيله. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول: لا يدرون ما قد أعدَّ الله ﷻ لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وعتوِّهم على الله يتمادَوْن"[٢].

ولو نظروا بعين البصيرة إلى سوء فعلهم وعاقبتهم لردعهم ذلك عن قبيح فعلهم، ولكنها لا تَعمى الأبصارُ ولكنْ تعمَى القلوبُ التي في الصُّدور.

وقال الزمخشري رَحِمَهُٱللَّهُ: "وكما جعلنا في (مكة) صناديدها؛ ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، كذلك ﴿جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ لذلك. ومعناه: خليناهم؛ ليمكروا، وما

---

(١) الوجيز، للواحدي (ص:٢٩٧).

(٢) تفسير الطبري (١٢/٩٣).

كففناهم عن المكر. وخص الأكابر؛ لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس"(١).

ومن أنواع المكر المتوعد عليها بالعذاب: مكرُ السَّيِّئات. قال الله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "يخبر تعالى عن حِلْمِه وإمْهَاله وإنْظَارِه العصاة الذين يعملون السيئات، ويَدْعُونَ إليها، ويمكرون بالناس في دُعَائِهِم إيَّاهُم وحَمْلِهِمْ عليها، مع قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم"(٢).

فدلت الآيات على أن الوعيد قد ينال الذي يمكُرُونَ السَّيِّئات في الدنيا، فيعاجلهم الله ﷻ بالعقوبة، فلا يأمنون أن يأتيهم العذب في تقلبهم بالليل أو النهار، أو في سعيهم في المعايش، وأثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ أي: توقع للهلاك ومخافة له، فإنه يكون أبلغ وأشد، أو على عجل، أو يعاقبهم بالنقص من أموالهم وثمارهم.

ولهم العذاب الشديد في الآخرة كما أخبر الله ﷻ في آية أخرى، حيث قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]، أي: الذين يحتالون بالمكر والخديعة؛ لإطفاء نور الله ﷻ، والكيد للإسلام والمسلمين، وإفساد صلاح الأمة، وقيام عمرانها: لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم.

---

(١) الكشاف (٦٣/٢).

(٢) تفسير ابن كثير (٥٧٥/٤).

ولما توعدهم الله ﷻ بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفق، وأن الله ﷻ سيبطله، فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويضرون بسببه في الآخرة، فقال: ﴿وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر؛ فإنه ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقال الله ﷻ مبينًا عِظَم خطرِ المكر: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِندَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦].

والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا الله ﷻ شيئًا، وإنما ضروا أنفسهم.

وفي الحديث: ((**المكر والخديعة في النّار**))[1].

---

(١) الحديث له طرق كثيرة لا يخلو كل واحد منها من ضعف، فقد روي من حديث: قيس بن سعد، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، والحسن. والحديث يقوى بمجموع طرقه؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (٣٥٦/٤): "وأما حديث: ((الخديعة في النار)) فرويناه في (الكامل)، لابن عدي من حديث: قيس بن سعد بن عبادة، قال: لولا إني سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((المكر والخديعة في النار)) لكنت من أمكر الناس، وإسناده لا بأس به. وأخرجه الطبراني في (الصغير) من حديث: بن مسعود. والحاكم في (المستدرك) من حديث: أنس. وإسحاق بن راهويه في (مسنده) من حديث: أبي هريرة، وفي إسناد كل منهما مقال، لكن مجموعهما يدل على أن للمتن أصلًا. وقد رواه بن المبارك في (البر والصلة) عن عوف عن الحسن، قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فذكره". انتهى. وقال الشيخ الألباني: "فالحديث بمجموع ذلك صحيح". سلسلة الأحاديث الصحيحة [١٠٥٧]. وقد علقه البخاري في (صحيحه) بصيغة الجزم. فقال في كتاب (البيوع): باب النجش، ومن قال: (لا يجوز ذلك البيع)، وقال ابن أبي أوفى: الناجش: آكل ربا خائن، وهو خداع باطل لا يحل. قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الخديعة في النار)) صحيح البخاري (٦٩/٣).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يعني: صاحب المكر والخداع لا يكون تقيًّا ولا خائفًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع، وذا لا يكون في تقى، وكل خلة جانبت التقى فهي في النَّار"(١).

وقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**أهلُ النَّارِ خمسة: الضَّعِيفُ الذي لا زَبْرَ له، الّذين هم فيكم تَبعًا لا يَبْتَغُونَ أهلًا ولا مالًا، والخائِنُ الذي لا يَخْفَى له طَمَعٌ، وإن دَقَّ إلا خانَه، ورجلٌ لا يُصْبِحُ ولا يُمْسِي إلا وهو يُخَادِعُكَ عن أَهلك ومالِكَ**)). وذكر: ((**الْبُخلَ أو الكَذِب. والشِّنْظِير: الْفَحَّاش**))(٢).

وعن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ستكون أئمة من بعدى يقولون فلا يُرَدُّ عليهم قولهم، يَتَقَاحَمُونَ في النَّارِ كما تَتَقَاحَمُ الْقِرَدَة**))(٣).

---

(١) فيض القدير (٦/٢٧٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٨٦٥]. ((لا زبر له)) أي: لا عقل له يزبره، ويمنعه مما لا ينبغي. أي: إنسان ضعيف، ولكنه إمعة منافق يسير وراء أصحاب الرياسة؛ ليأخذ منهم، فهو ضعيف لكن ليس عنده عقل يأمره بالصحيح، ولا يحاول أن يفكر مثل الناس، لو أساء الناس قلدهم، أو كانوا مجرمين فهو مثلهم، أو طيبين قلدهم، فهو يقلد الناس فحسب ليعطوا له حسنة، هذا الإنسان من أهل النار مع أنه ضعيف، لكنه من شر الخلق. ((لا يتبعون)) مخفف ومشدد من الاتباع، أي: يتبعون ويتبعون. ((الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلًا ولا مالًا)) يعني: يعيش في الدنيا لا يريد أي شيء، عاش نكرة ومات نكرة، ويوم القيامة يحشر مع هؤلاء الذي كان يتبعهم في الدنيا. ((والخائن الذي لا يخفى له طمع)) أي: لا يبالي هل يأكل من حلال أو حرام، يأخذ الشيء من حله أو من حرمته، ولا يهمه. ((وذكر البخل أو الكذب)) هكذا هو في أكثر النسخ أو الكذب وفي بعضها والكذب والأول هو المشهور في نسخ بلادنا. ((الشنظير)) فسره في الحديث بأنه الفحاش، وهو السيء الخلق.

(٣) أخرجه أبو يعلى [٧٣٨٢]، والطبراني في (الكبير) [٩٢٥]، و(الأوسط) [٥٣١١]، وأبو الشيخ الأصبهاني في (الأمثال) [٢٧١]، وابن عساكر (١٦٨/٥٩). قال الهيثمي (٢٣٦/٥): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، وأبو يعلى، ورجاله ثقات".

قوله: ((**ستكون أئمة من بعدي يقولون**))، أي: المنكر من القول، بدليل قوله: ((**فلا يرد عليهم قولهم**))؛ مهابة لهم، وخوفًا من بطشهم.

((**يَتَقَاحَمُونَ في النَّار**))، أي: يقعون فيها كما يقتحم الإنسانُ الأمرَ العظيم. و(تَقَحَّمَهُ): إذا رمى نفسَه فيه من غير رَوِيَّة وتَثبُّت. ويحتمل أن الضمير في (يتقاحمون) للأئمة ولمن لم يرد عليهم؛ مداهنة، وتهاونًا بالدين. وهذا الوعيد الشديد بسبب ما يقع من هؤلاء من المكر والخداع والتلبيس والتضليل.

قال بعض أهل العلم: إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغة تامة صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوًّا خفيًّا، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا جليًّا، فمن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن. فقلَّ أن ترى محتالًا مكارًا مخادعًا إلا على وجهه مسخة قردٍ، وأن ترى شرهًا نهمًا إلا على وجهه مسخة كلبٍ، فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط[(١)].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذمَّ الله ﷻ أهل الخداع والمكر، وأخبر أن المنافقين يخادعونه وهو يخادعهم. وأخبر عنهم بمخالفة ظواهرهم لبواطنهم وسرائرهم لعلانيتهم.

وثبت عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طَلَّقَ امرأته ثلاثًا أيُحِلُّهَا له رجل؟ فقال: ((**من يُخَادِعِ اللهَ يُخَادِعْه**))[(٢)].

---

(١) انظر: فيض القدير (٦/٢٧٥)، التنوير شرح الجامع الصغير، للصنعاني (٦/٣٩١)، إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/٢٦٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [١٠٧٧٩]، وابن أبي شيبة [١٧٧٨٩]، والبيهقي في (الكبرى) [١٤٩٨١].

وصحَّ عن ابن عباس وأنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنهما سئلا عن العينة، فقالا: إن الله لا يخدع[1].

وقد عاقب الله ﷻ المتحيلين على المساكين وقت الجذاذ بإهلاك ثمارهم حتى أصبحت كالصريم.

وصح أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**البَيِّعَان بالخِيَار ما لم يَتفرَّقَا إلا أن تكون صفقة خيار، ولا يَحِلُّ له أن يفارق صاحبه؛ خَشْيَةَ أن يَسْتَقِيلَه**))[2]. وصح عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ النهي لمن عليه الزكاة أن يجمع بين متفرق، أو يفرق بين مجتمع؛ خشية الصدقة[3].

والأدلة في منع الحيل وإبطالها كثيرة جدًّا[4]. ومجرد تسميتها حيله يؤذن بدفعها وإبطالها؛ فإن التحيل عل عمومه قبيح شرعًا وعقلًا. وهذا المتحيل لإسقاط فرض من فرائض الله ﷻ، أو تحليل ما حرّمه الله سبحانه هو ناصب لنفسه في مدافعة ما شرعه الله سبحانه لعباده، مريد لأن يجعل ما حرّمه الله ﷻ حلالًا، وما أحلَّه حرامًا. فهو من هذه الحيثية معاندٌ لله ﷻ، مخادع لعباده، مندرج تحت عموم قوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩]. وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ

---

(١) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (١٢٨/٣)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٣٣/١٨). وقد حرم الشارع الوسائل المفضية إلى الربا كبيع (العِيْنة) –بكسر العين المهملة ثم ياء تحتية ساكنة ثم نون– في قول أكثر أهل العلم. وهي أن يبيع سلعة بثمن مؤجل لشخص، ثم يعود ويشتريها من الشخص نفسه بثمن حاضر أقل من الثمن المؤجل. فهذا نوع من المعاملات الربوية ذات التحايل على الشرع.

(٢) أخرجه أحمد [٦٧٢١]، وأبو داود [٣٤٥٦]، والترمذي [١٢٤٧]، وقال: "حسن". كما أخرجه النسائي [٤٤٨٣].

(٣) جاء في (الصحيح) عن ثمامة أن أنسًا رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حدَّثه: أن أبا بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كتب له التي فرض رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة)) صحيح البخاري [١٤٥٠، ٦٩٥٥].

(٤) قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: إن الحيل المحرمة مخادعة لله، ومخادعة الله حرام. انظر ذلك مفصلًا في (إعلام الموقعين) (١٢٨/٣).

وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]"[١].

ولقد ذمَّ الله ﷻ اليهود على تحايلهم على الحرام فقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، فلقد حرَّم على اليهود أن يعملوا في السبت شيئًا، فكان بعضهم يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهرًا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فإذا كان يوم الأحد، جاءوا فأخذوا ما تجمع في الحفيرة من حيتان، وقالوا: إنما صدناه يوم الأحد، فعوقبوا بالمسخ قردة؛ لأنهم استحلوا الحرام بالحيلة[٢].

وقد أخرج ابن بطة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))**[٣].

ومعنى أدنى الحيل، أي: أسهلها وأقربها، كما في الْمُطَلِّق ثلاثًا، فمن السهل عليه أن يعطي مالًا لمن ينكح مطلقته؛ ليحلها له، بخلاف الطريق الشرعي التي هي نكاح الرغبة، فإنها يصعب معها عودها إليه. وكذلك من أراد أن يقرض ألفًا بألف وخمسمائة، فمن أدنى الحيل أن يعطيه ألفا إلا درهما باسم القرض، ويبيعه خِرْقَةً تساوي درهمًا بخمسمائة درهم ودرهم، فإنها من أدنى الحيل إلى الربا وأسهلها، وكذلك حيلة اليهود بنصب الشباك يوم الجمعة وأخذ ما وقع فيها يوم السبت من أسهل الحيل. وكذلك إذابتهم الشحم وبيعه وأكل ثمنه"[٤].

---

(١) ولاية الله والطريق إليها، للشوكاني (ص:٣٥٥).

(٢) إعلام الموقعين (١٢٩/٣)، وانظر: إغاثة اللهفان (٣٤٤/١)، تفسير الطبري (١٧١/٢)، تفسير ابن كثير (٢٩١/١).

(٣) أخرجه ابن بطة في (إبطال الحيل) (ص:٤٦). قال الحافظ ابن كثير ﷺ (٤٩٣/٣): "إسناده جيد". وانظر: الدر المنثور (٥٩٢/٣).

(٤) إعلام الموقعين (١٣١/٣).

وقد حرم الشارع الوسائل المفضية إلى الحرام، كبيع (العِيْنة) في قول أكثر أهل العلم؛ فإنه موصل إلى الربا -كما تقدم-.

والحاصل أن المتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة، والأعمال تابعة لمقاصدها ونياتها، وأنه ليس للعبد من ظاهر قوله وعمله إلا ما نواه وأبطنه، لا ما أعلنه وأظهره، فمن نوى الربا بعقد البيع في الربويات وأدى إلى الربا كان مرابيًا، وكل عمل قصد به التوصل إلى تفويت حقٍّ كان محرَّمًا[1].

ومن أنواع الخداع: ما يفعله بعض التجار من الترويج لسلعته بالأيمان الكاذبة، فمن الأحاديث التي تفيدُ الوعيد الشديد في حقِّ المخادع في البيع ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل**)). ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران: ٧٧][2].

وقد تقدم بيان ذلك في (الكذب للنفس في المعاملات ونحوها وتأكيده بالأيمان الكاذبة).

ومن أنواع الخداع: ما تستخدمه بعض النساء من أدوات لتغيير الخلق بقصد التدليس والمخادعة كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لعن الله الوَاصِلَةَ والمُسْتَوْصِلَة، والوَاشِمَة والمُسْتَوْشِمَة**))[3].

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨/٣٣٤- ٣٣٥)، فتح الباري، لابن حجر (١٢/٣٢٨).

(٢) صحيح البخاري [٢٣٥٨، ٧٢١٢]، مسلم [١٠٨].

(٣) صحيح البخاري [٥٩٣٧، ٥٩٤٠، ٥٩٤٧]، مسلم [٢١٢٤].

قوله: (لعن الله الواصلة) هي التي تصل الشعر بشعر آخر سواء اتصل بشعرها أو بشعر غيرها. (والمستوصلة) التي تأمر من يفعل بها ذلك، وكذلك الواشمة والمستوشمة. و(الوشم): غرز الإبرة في الوجه ثم يحشى كحلًا أو غيره. واللعنة على الشيء تدل على تحريمه، وعلة التحريم ما فيه من التدليس والتلبيس بتغير خلق الله ﷻ والمخادعة.

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه؛ لأنه ليس بوصل، ولا لمعنى مقصود من الوصل، وإنما هو للتجمل والتحسين"(١). ومراده من المعنى المناسب هو ما في ذلك من الخداع للزوج، فما كان لونه مغايرًا للون الشعر فلا خداع فيه(٢).

ثانيًا: الوقاية من آفات المكر والخداع والعلاج:

١ - مجاهدة النفس، والتنقيب عن عيوبها النفس، وتطهيرها من الطمع، والجشع، والشح، والحرص الذي يفضي إلى الوقوع في الإثم، ومن سائر الصفات الذميمة:

قال بكر بن عبد الله المزنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا رأيتم الرجل مولعًا بعيوب النَّاس ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به"(٣).

٢ - الحذر من مسبباتِ الخداع والمكر، كالافتتانِ بالدنيا والتنافسِ على حطامها، واتباعِ الهوى، والحسدِ، والبخلِ، والشحِ، والحرصِ، والطغيانِ، وتجاوزِ الحدود، وحبِّ المال، والبطرِ، والمنعِ، والطغيانِ، وتجاوز الحدودِ إلى غير ذلك.

٣ - مخالفة الشَّيطان، والحذر من وساوسه ومداخله.

(١) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (٦/٣٢٨).
(٢) سبل السلام (٢/ ٢١٢).
(٣) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا [١٩٩]، ذم الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا [٦٢]، صفة الصفوة (٢/١٤٧).

٤ – الالتجاء إلى الله ﷻ، ولزوم طريق الهداية، وكثرة الدعاء، وأن يسأل العبد ربه ﷻ دائمًا الاستقامة والثبات على دينه في سائر الأحوال، في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرَّخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله ﷻ في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء. وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه ﷻ الثبات كما جاء في الحديث عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: ((**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**))، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: ((**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**))[1].

وقد أرشد الله ﷻ العباد إلى أن من خير الدعاء أن يقول السالك: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

فمن أعظم أسباب العافية والوقاية من آفات الأمن من المكر: التقوى والاستجابة لأمر الله ﷻ وللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

٥ – مجالسة الصالحين، وإيثارهم في المعاملات؛ فإن الرجل الصالح ناصح، ومحبٌّ للخير، ولا يمكر بصاحبه، ولا يغشه، ولا يخدعه.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٤٠٥]، وأحمد [١٢١٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٦٨٣]، والترمذي [٢١٤٠]، وقال: "وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٢٥]، والبزار [٧٥٠٨]، وأبو يعلى [٣٦٨٧]، والآجري في (الشريعة) [٧٣١]، والحاكم [١٩٢٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٤٢]، والضياء [٢٢٢٢]، وقال: "إسناده صحيح". وقال الهيثمي (١٧٦/١٠) عن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رفعه: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح".

٦ — ملازمة العلماء الربانيين، والتفقه في الدين؛ فإن العالم الرباني يدلُّ على الخير، ويحذِّر من الشَّرِّ، وينصحُ الأمة، ويحرصُ على هداية الناس وصلاحهم.

٧ – التحلي بمكارم الأخلاق والصفات الحميدة:

إن من صفات المؤمن الباحث عن الحق، والسالك طريق الهداية أنه يقظٌ، وحذر، ووقاف، ومتثبت لا يتعجل، يتحرَّى الحلال، ويحترز عن الحرام، والمؤمن ليس بذي مكر ولا فطنة للشر، ولا يخدَعُ الناس، بل هو صادق، ومحبٌّ للخير، لكنه قد ينخدع في أمور الدنيا؛ لسلامة صدره، وحسن ظنه، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**المؤمن غِرٌّ كريم، والفاجرُ خِبٌّ لَئِيم**))[1].

قوله: ((**غِرٌّ كريم**)) أي: ليس بذي مكر ولا فطنة للشر، فهو ينخدع؛ لسلامة صدره، وحسن ظنه، وينخدع؛ لانقياده ولينه. و(الخب) –بفتح الخاء المعجمة وتكسر– هو الخداع الساعي بين الناس بالشر والفساد. فالمؤمن غر كريم؛ لأن خلق الإيمان يعطى المعاملة بالظاهر. والمنافق خب لئيم، أي: على نفسه حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها[2].

وإذا أصاب المؤمن من مكر الماكرين ما أصابه فينبغي أن يحتسب الأجر عند الله ﷻ، وأن يكون على حذر من ذلك في مستقبل أيامه، فلا يأمن لفاجر خبيث قد بدا

(١) أخرجه أحمد [٩١١٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤١٨]، وأبو داود [٤٧٩٠]، والترمذي [١٩٦٤]، وابن أبي الدنيا في (مكارم الأخلاق) [١١]، والبزار [٨٦٢١]، وأبو يعلى [٦٠٠٨]، وابن الأعرابي في (معجمه) [٦٩٦]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١٥٩]، والحاكم [١٢٨]، والقضاعي [١٣٣]، والبيهقي [٢٠٨٠٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٥٠٦]، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) [٩٨٤]. قال المنذري (٢٥٩/٣): "[قال الحافظ]: لم يضعفه أبو داود، ورواته ثقات، سوى بشر بن رافع، وقد وثق. وقال ابن الجوزي (١٠٩/٢): فيه بشر بن رافع، قال ابن حبان: روى أشياء موضوعة كأنه المتَعَمِّدُ لها، لكن روي من طرق آخر لا بأس بها اهـ. وحكم القزويني بوضعه، ورد عليه ابن حجر، وقال: هو لا ينزل عن درجة الحسن وأطال" فيض القدير (٢٥٤/٦).

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٢٥٩/٣)، وانظر: معالم السنن (٤/ ١٠٨)، فيض القدير (٦/ ٢٥٤).

خبثه، وظهر مكره، ولا ينخدع من جهة واحدة مرتين، ولا يصدق الكاذب الذي ظهر كذبه مرة ثانية. وهذا معنى قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحد مرتين**))(١).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللهُ: "هذا يروى على وجهين من الإعراب، أحدهما: بضم الغين على مذهب الخبر، ومعناه: أن المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يؤتى من ناحية الغفلة، فَيُخْدَعُ مرّة بعد أخرى، وهو لا يفطن بذلك ولا يشعر به.

وقيل: إنه أراد به: الخداع في أمر الاخرة دون أمر الدنيا.

والوجه الآخر: أن يكون الرواية بكسر الغين على مذهب النهي. يقول: لا يُخْدَعَنَّ المؤمن، ولا يُؤْتَيَنَّ من ناحية الغفلة، فيقع في مكروه أو شر وهو لا يشعر. وليكن متيقظًا حذرًا، وهذا قد يصلح أن يكون في أمر الدنيا والآخرة معًا -والله أعلم-"(٢).

٨ - أن لا يغتر السالك بما يحصلُ له من زيادة المال، وأن لا يغتر بالإمهال، بل يسارع في كل حال إلى شكر الله عَزَّ وَجَلَّ، ويجتنب العجب والكبر وسائر الأخلاق السيئة، ويكون بين الخوف والرجاء، مسلمًا لأمر الله تعالى في كل حال من الشدة أو الرخاء، وتحت حكم القضاء.

والله عَزَّ وَجَلَّ قد يمهل العبد، ويمكنه من أعراض الدنيا؛ ابتلاء له كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وقد ذكر الراغب رَحِمَهُ اللهُ أن اختيار الله تعالى للعباد تارة بالمسار؛ ليشكروا وتارة بالمضار؛ ليصبروا، فالمنحة والمحنة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمحنة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر؛ ولهذا قال علي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من وسع عليه دنياه فلم يعلم

---

(١) صحيح البخاري [٦١٣٣]، مسلم [٢٩٩٨].

(٢) معالم السنن (١١٩/٤).

أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله"(١). يعني: من وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليه الدنيا وهو غير شاكر لله تعالى.

وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له. ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤]. قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا(٢).

٩ - الصبر على الابتلاء.

١٠ - شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، والنظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله ﷻ، كما قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

١١ - النظر بعين البصيرة إلى عاقبة المكر والخداع وآثاره ومضاره:

ومن سنن الله ﷻ أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]. أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

وينبغي أن يكون السالك أن لا يأمن مكر الله تعالى؛ فإن الأمن من مكر الله تعالى كبيرة من الكبائر(٣)، وأن يستحضر قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل**

---

(١) تفسير الراغب (١/١٨٥)، المفردات (ص: ١٤٦)، بصائر ذوي التمييز (٢/٢٧٤- ٢٧٥)، روح المعاني (٩/٤٥).

(٢) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٤/١٢٩١)، تفسير ابن كثير (٣/٢٥٦)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٤٥)، روح المعاني (٤/١٤٤).

(٣) انظر: روح المعاني (٧/ ٣٠٦).

عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة))[1]. وفي (صحيح مسلم): ((**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة**))[2].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ففيه التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن إليها؛ مخافة من انقلاب الحال"[3].

وفي الحديث: ((**لن يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((**لا، ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ ورحمة**))[4].

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأمن من مكر الله ﷻ يكون بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال ﷻ: ﴿وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣]. وفي الحديث: ((**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**))، ثم تلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤][5]، أي: آيسون من النجاة وكل خير سديد، ولهم

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٨، ٤٢٠٢، ٤٢٠٧]، مسلم [١١٢].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٥١].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٢٦).

(٤) صحيح البخاري [٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٦].

(٥) أخرجه أحمد [١٧٣١١]، والطبراني في (الكبير) [٩١٣]، والبيهقي في (الشعب) [٤٢٢٠]. قال العراقي في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٧٧): "رواه أحمد والطبراني والبيهقي في (الشعب) بسند حسن".

الحسرة والحزن والخزي؛ لاغترارهم بترادف النعمة عليهم مع مقابلتهم لها بمزيد الإعراض والإدبار"(١).

وقد عدَّ الذهبيُّ(٢) وابنُ حجر الهيتمي الأمنَ من مكرِ الله تعالى من الكبائر(٣).

والأمن من مكر الله ﷻ كبيرة عند الشافعية. وقال الحنفية: إنه كفر كاليأس؛ لقوله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

قال الخادمي الحنفي رَحِمَهُ اللَّهُ في (بريقة محمودية): "(واليأس من رحمة الله تعالى) كفر؛ لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون (والأمن من عذابه وسخطه) أي غضبه؛ لأنه لا يأمن من مكر الله إلا القوم الخاسرون"(٤).

وفي (حاشية العطار): "استدل على أن يأس الرحمة من الكبائر بما ظاهره أنه كفر. وفي (عقائد الحنفية) أن الإياس من روح الله تعالى كفر، وأن الأمن من مكر الله تعالى كفر. فإن أرادوا الإياس لإنكار سعة الرحمة الذنوب، وبالأمن اعتقاد أن لا مكر فكل منهما كفر وفاقًا؛ لأنه ردَّ القرآن، وإن أرادوا أن من استعظم ذنوبه فاستبعد العفو عنها استبعادًا يدخل في حدِّ اليأس أو غلب عليه من الرجاء ما دخل به في حدِّ الأمن فالأقرب أن كلا منهما كبيرة لا كفر"(٥).

وفي (حاشية الغرر البهية): "كل من القنوط وأمن المكر كبيرة يجب الخروج منه.."(٦).

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص:١٤٥).

(٢) انظر: الكبائر، للذهبي (ص: ٢٢٧).

(٣) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٤٥).

(٤) بريقة محمودية (١/٢٢٤).

(٥) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (٢/١٨٨)، وانظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، مع حاشية الإمام عبد الحميد الشرواني، وحاشية الإمام أحمد بن قاسم العبادي (٣/٩٥).

(٦) الغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٢/٨٠).

وقد جاء في الحديث: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم:٣٢]، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله ﷻ، قال الله ﷻ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، واليأس من روح الله ﷻ قال الله ﷻ: ﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، والأمن من مكر الله ﷻ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]..الحديث(٢).

ومعنى قوله ﷻ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]، أي: عذابه وجزاءه على مكرهم. وقيل مكره: استدراجه بالنِّعمة والصِّحَّة(٣).

قال الرازي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وسمى هذا العذاب مكرًا توسعًا؛ لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به، فسمى العذاب مكرًا لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، وبين أنه لا يأمن من نزول عذاب الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على هذا الوجه إلا القوم الخاسرون، وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر، وفي الآخرة في أشد العذاب"(٤).

وقال الله ﷻ في التحذير من الأمن من مكره ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى

---

(١) أخرجه معمر بن راشد في (جامعه) [١٩٧٠١]، والطبراني في (الكبير) [٨٧٨٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠١٩]، قال الهيثمي (١/١٠٤): "وفي رواية: أكبر الكبائر، وإسناده صحيح".

(٢) أخرجه الطبراني [١٣٠٢٣]. قال الهيثمي (٧/١١٥- ١١٦): "رواه الطبراني، وإسناده حسن".

(٣) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٥٤)، البحر المحيط في التفسير (٥/١٢١).

(٤) مفاتيح الغيب (١٤/٣٢٢).

أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

ومن أقوال السلف في ذمِّ الأمن من المكر ما أخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن رافع قال: من الأمن لمكر الله ﷻ: إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله تعالى المغفرة.

وأخرج ابن أبي حاتم عن هشام بن عروة قال: كتب رجل إلى صاحب له: وإذا رضيت من الله شيئًا يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر؛ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون(١).

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن(٢).

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ في (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر): قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا. وقال ابن أبي مليكة: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى‌ٱللَّهُ‌عَلَيْهِ‌وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة؛ لقول الله ﷻ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥](٣).

---

(١) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٩)، الدر المنثور (٣/٥٠٧-٥٠٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

(٣) صحيح البخاري (١/ ١٨).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وإنما هذا، والله أعلم؛ لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخشوا على أنفسهم أن يكونوا في حيز من داهن ونافق"(١).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله ﷻ وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف؛ لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه، وضد الخوف: الأمن، كما أن ضد الرجاء: اليأس. وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له"(٢).

"وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم؛ لأنهم لم يأمنوا مكر الله"(٣).

ويتبين مما تقدم أن من مضار الأمن من المكر: الاغترار بالأعمال، والاتكاء عليها، والاسترسال في المعاصي والتعود عليها من غير خوف من الله تعالى، ومن غير تأنيب للنفس وتهذيب لها.

ومن مضار الأمن من المكر: مقابلة ترادف النِّعَم بالكفران، ومزيد من الإعراض.

ومن مضار الأمن من المكر: أن العبد لا يأمن سوء الخاتمة.

ومن مضار الأمن من المكر: أنه طريق إلى العذاب في نار جهنم.

١٢ – أن يجمع السالك بين الخوف والرجاء:

إن الخوف والرجاء هما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله عَزَّوَجَلَّ بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة بِبَذْر النار. يقول الله ﷻ: ((**وعِزَّتي لا أجمعُ على عبدي**

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/ ١٠٩).
(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٢).
(٣) المصدر السابق (٤/ ١٧٠)، وانظر: موعظة المؤمنين (ص:٢٩٢).

خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة))[1].

ولا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله؛ فيكونَ من الذين قال الله ﷻ فيهم: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُمُ الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل[2].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القلب في سيره إلى الله ﷻ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا

---

(١) الحديث مروي عن الحسن مرسلا، وعن أبي هريرة. حديث الحسن أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٧]، والبزار [٨٠٢٨]، عن الحسن مرسلا. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٨]، والبزار [٨٠٢٩]، وابن حبان [٦٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٥٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١٤٢٨]. قال الهيثمي (٣٠٨/١٠): "رواهما البزار، عن شيخه: محمد بن يحي بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث". وقال العراقي (ص:١٥١٠): "أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في (الزهد)، وابن أبي الدنيا في كتاب: (الخائفين) من رواية الحسن مرسلا".

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/ ٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه"(١).

وجاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل على شَابٍّ وهو في الموت، فقال: ((**كيف تَجِدُكَ؟**))، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمَنَهُ مما يخاف**))(٢).

١٣ - أن يحذر سوء الخاتمة. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**))(٣). نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

---

(١) مدارج السالكين (١/٥١٣)، وانظر: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، مطلب في معنى المحتضر، إبراهيم بن يوسف البولوي، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ (ص:٣٥)، المحبة صورها وأحكامها، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٢٦-٢٧).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن عبيد بن عمير مرسلا. حديث أنس: أخرجه عبد بن حميد [١٣٧٠]، وابن ماجه [٤٢٦١]، والترمذي [٩٨٣]، والبزار [٦٨٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٨٣٤]، وأبو يعلى [٣٣٠٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٩٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٠]، والضياء [١٥٨٧]. حديث عبيد بن عمير: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧١]. قال المنذري (٤/١٣٥): "رواه الترمذي، وقال: حديث غريب، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، كلهم من رواية جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس. قال الحافظ: إسناده حسن؛ فإن جعفرا صدوق صالح احتج به مسلم، ووثقه النسائي، وتكلم فيه الدارقطني وغيره". وفي (تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج)، لابن الملقن (١/٥٨٣): "رواه الترمذي بإسناد جيد، وقال: غريب، وأن بعضهم رواه مرسلا".

(٣) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

وفي الختام فإني قد أعددتُ كتابًا مفصَّلًا ومكملًا وعلى نهج هذا المصنَّف في بيان الموبقات وسبل الوقاية منها، لمن أراد الاستزادة في فقه المهلكات، وبيان خطرها وآثارها، حتى يكون السالك على بصيرة وبينة، وسميته: (نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار)، سائلًا المولى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ القبول، إنه أكرم مسؤول. كما أنني تناولت (المنجيات من العذاب) في كتاب مستقل لم أتمه بعد.

تم بحمد الله

كان الفراغ من كتاب (العقبات) في يوم الجمعة السادس من جمادى الأولى سنة [١٤٣٨] للهجرة

وقد أضفت إليه عقبتين، وكان الفراغ من ذلك في يوم الخميس العاشر من ذي القعدة [١٤٣٨] للهجرة.

أسأل الله تعالى القبول، وأن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، وأن ينفعني به يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلَّم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

فهرس المصادر والمراجع

١. إبراز المعاني من حرز الأماني، لأبي شامة، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢. إتمام الدراية لقراء النقاية، للسيوطي، تحقيق: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، د. عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، دار الضياء، الكويت [١٤٣٧هـ].
٣. آثار ابن باديس، دار ومكتبة الشركة الجزائرية [١٣٨٨هـ].
٤. آثار محمد البشير الإبراهيمي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٧م].
٥. اجتماع الجيوش، لابن قيم الجوزية، مطابع الفرزدق، الرياض [١٤٠٨هـ].
٦. الاجتهاد، للجويني، دار القلم، دارة العلوم الثقافية، دمشق ، بيروت [١٤٠٨هـ].
٧. أحكام القرآن، لأبي بكر بن العربي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٨. إحياء علوم الدين، لأبي حامد الغزالي، دار المعرفة، بيروت.
٩. أخبار الشيوخ وأخلاقهم، لأبي بكر المرُّوذي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٢٦هـ].
١٠. الاختيارين، للأخفش الأصغر، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٤٢٠هـ].
١١. أخلاق العلماء، للآجري، رئاسة إدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، السعودية.
١٢. آداب الشافعي ومناقبه، لأبي محمد عبد الرحمن الرازي ابن أبي حاتم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
١٣. الآداب الشرعية والمنح المرعية، لابن مفلح، عالم الكتب.
١٤. آداب الفتوى والمفتي والمستفتي، للإمام النووي، دار الفكر، دمشق [١٤٠٨].
١٥. أدب الدنيا والدين، لأبي الحسن الماوردي، دار مكتبة الحياة، بدون طبعة [١٩٨٦م].
١٦. أدب الطلب ومنتهى الأرب، للشوكاني، دار ابن حزم، لبنان [١٤١٩هـ].
١٧. أدب المفتي والمستفتي، لابن الصلاح، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤٢٣هـ].
١٨. الأذكار، للإمام النووي، دار الفكر، بيروت [١٤١٤هـ].
١٩. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، لأحمد بن محمد القسطلاني، المطبعة الأميرية، مصر [١٣٢٣هـ]
٢٠. إرشاد الفحول، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتاب العربي [١٤١٩هـ].
٢١. الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد، لصالح الفوزان، دار ابن الجوزي [١٤٢٠هـ].
٢٢. أساليب الخطاب في القرآن لكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف، الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].
٢٣. الاستذكار، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢١هـ].

٢٤. الاستقامة، لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود، المدينة المنورة [١٤٠٣هـ].
٢٥. الأشباه والنظائر، لابن نجيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٢٦. الأصمعيات، دار المعارف، مصر [١٩٩٣م].
٢٧. أصناف المغرورين، لأبي حامد الغزالي، مكتبة القرآن للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر.
٢٨. إعانة الطالبين على حل ألفاظ فتح المعين، للدمياطي، دار الفكر [١٤١٨هـ].
٢٩. إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، لصالح الفوزان، مؤسسة الرسالة [١٤٢٣هـ].
٣٠. الاعتصام، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٢هـ].
٣١. إعلام الموقعين عن رب العالمين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١١هـ].
٣٢. الأعمال الكاملة، للدكتور محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة.
٣٣. إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان، لابن القيم، المكتب الإسلامي، بيروت، لبنان، مكتبة فرقد الخاني، الرياض، المملكة العربية السعودية [١٤٠٨هـ].
٣٤. إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن قيم الجوزية، مكتبة المعارف، الرياض.
٣٥. آفات على الطريق، للدكتور السيد محمد نوح، دار الوفاء للطباعة، مصر، المنصورة [١٤٣٣هـ].
٣٦. الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٣٧. اقتضاء الصراط المستقيم، لابن تيمية، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٨. إكفار الملحدين في ضروريات الدين، محمد أنور شاه الكشميري الهندي، المجلس العلمي، باكستان [١٤٢٤هـ].
٣٩. الإكليل في استنباط التنزيل، للسيوطي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠١هـ].
٤٠. إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض، تحقيق: الأستاذ الدكتور يحي إسماعيل، دار الوفاء، المنصورة، مصر [١٤١٩هـ].
٤١. الإلماع، للقاضي عياض، دار التراث، المكتبة العتيقة، القاهرة/تونس [١٣٧٩هـ].
٤٢. الأمثال المولدة، لمحمد بن العباس الخوارزمي، المجمع الثقافي، أبو ظبي [١٤٢٤هـ].
٤٣. الأمثال في القرآن، لابن قيم الجوزية، الصحابة، طنطا [١٤٠٦هـ].
٤٤. إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، لإسماعيل بن محمد أمين الباباني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٤٥. الإيضاح لقوانين الاصطلاح في الجدل والمناظرة، لابن الجوزي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٥هـ].
٤٦. إيقاظ همم أولي الأبصار، لصالح بن محمد العمري المعروف بالفلاني المالكي، دار المعرفة، بيروت.
٤٧. الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة، دار الهدى، القاهرة.
٤٨. بحر الدموع، لابن الجوزي، دار الفجر للتراث [١٤٢٥هـ].
٤٩. بحر الفوائد المشهور بمعاني الأخبار، لأبي بكر محمد بن أبي إسحاق الكلاباذي البخاري الحنفي، دار

الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٠هـ].
٥٠. البحر المحيط، للزركشي، دار الكتبي [١٤١٤هـ].
٥١. بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي، مكتبة مدبولي، القاهرة [١٤١٣هـ].
٥٢. البداية والنهاية، لابن كثير، دار إحياء التراث العربي [١٤٠٨هـ].
٥٣. بدائع الفوائد، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت.
٥٤. بريقة محمودية، لأبي سعيد محمد بن محمد بن مصطفى الخادمي الحنفي، مطبعة الحلبي [١٣٤٨هـ].
٥٥. بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، للفيروزآبادي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة [١٣٩٣هـ].
٥٦. بصائر للمسلم المعاصر، لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.
٥٧. بغية المرتاد، لابن تيمية، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، [١٤١٥هـ].
٥٨. بهجة المحافل، ليحيى بن أبي بكر العامري الحرضي، دار صادر، بيروت.
٥٩. البيان والتبيين، للجاحظ، دار ومكتبة الهلال، بيروت [١٤٢٣هـ].
٦٠. تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، للذهبي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٣هـ].
٦١. تاريخ الجدل، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، القاهرة [١٣٥٤هـ].
٦٢. التاريخ الكبير، لمحمد بن إسماعيل البخاري، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد.
٦٣. تاريخ بغداد، للخطيب البغدادي دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٦٤. تاريخ دمشق، لابن عساكر، دار الفكر [١٤١٥هـ].
٦٥. تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام، لابن فرحون، مكتبة الكليات الأزهرية [١٤٠٦هـ].
٦٦. التبصرة، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٦هـ].
٦٧. التبيان في آداب حملة القرآن، للنووي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٤هـ].
٦٨. تحرير التحبير، لابن أبي الإصبع العدواني، الجمهورية العربية المتحدة، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث الإسلامي.
٦٩. التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية [١٩٨٤هـ].
٧٠. التحفة العراقية في الأعمال القلبية، لابن تيمية، المطبعة السلفية، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٧١. تحفة المحتاج في شرح المنهاج، لابن حجر الهيتمي، المكتبة التجارية الكبرى، بدون طبعة [١٣٥٧هـ].
٧٢. تحفة المودود بأحكام المولود، لابن القيم، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩١هـ].
٧٣. تذكرة الحفاظ، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٩هـ].
٧٤. التذكرة الحمدونية، لمحمد بن الحسن بن حمدون، دار صادر، بيروت [١٤١٧هـ].
٧٥. تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين محمد بن إبراهيم ابن جماعة الكناني الشافعي، دار البشائر الإسلامية، بيروت [١٤٣٣هـ].

٧٦. التذكرة في الفقه الشافعي، لابن الملقن، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٧هـ].
٧٧. التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، دار المعرفة، بيروت [١٤٠٦هـ].
٧٨. تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير، لأبي الحسن علي بن أحمد الحَرَالِّي الأندلسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط [١٤١٨هـ].
٧٩. الترغيب والترهيب، للمنذري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
٨٠. تسلية أهل المصائب، لمحمد بن محمد، شمس الدين المنبجي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].
٨١. التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه، ليحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، الشركة التونسية للتوزيع [١٩٧٩م].
٨٢. التعريفات، للجرجاني، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
٨٣. تغليق التعليق، لابن حجر، المكتب الإسلامي، دار عمار، بيروت، عمان/الأردن [١٤٠٥هـ].
٨٤. تفسير ابن أبي حاتم، مكتبة نزار مصطفى الباز، الرياض [١٤١٩هـ].
٨٥. تفسير ابن باديس، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٦هـ].
٨٦. تفسير ابن عادل (اللباب في علوم الكتاب)، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، بيروت [١٤١٩هـ].
٨٧. تفسير ابن عجيبة (البحر المديد في تفسير القرآن المجيد)، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي، القاهرة [١٤١٩هـ].
٨٨. تفسير ابن عطية (المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز)، طبع دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٣هـ].
٨٩. تفسير ابن فورك، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية [١٤٣٠هـ].
٩٠. تفسير أبي السعود (إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم)، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٩١. تفسير البحر المحيط، لأبي حيان، دار الفكر، بيروت [١٤٢٠هـ].
٩٢. تفسير البغوي (معالم التنزيل في تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٠هـ].
٩٣. تفسير البقاعي (نظم الدرر)، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
٩٤. تفسير البيضاوي، دار الفكر، بيروت [١٤١٦].
٩٥. تفسير الثعالبي (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت.
٩٦. تفسير الثعلبي (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
٩٧. تفسير الحجرات والحديد، محمد بن صالح العثيمين، دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض [١٤٢٥هـ].
٩٨. تفسير الزمخشري (الكشاف)، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٧هـ].
٩٩. تفسير السيوطي (الدر المنثور)، دار الفكر، بيروت [١٩٩٣].
١٠٠. تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم، القاهرة [١٩٩٧م].
١٠١. تفسير الطبري (جامع البيان في تأويل القرآن)، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].
١٠٢. تفسير الفاتحة والبقرة، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤٢٣هـ].

١٠٣. تفسير القاسمي (محاسن التأويل)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٨هـ].
١٠٤. تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، دار طيبة للنشر والتوزيع [١٤٢٠هـ].
١٠٥. التفسير القرآني للقرآن، لعبد الكريم الخطيب، دار الفكر العربي، القاهرة.
١٠٦. تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن)، دار الشعب، القاهرة [١٣٧٢].
١٠٧. تفسير القشيري (لطائف الإشارات)، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر.
١٠٨. التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)، لفخر الدين الرازي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن النسخة الأصلية من المطبعة البهية المصرية [١٣٠٢هـ].
١٠٩. تفسير المراغي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر [١٣٦٥هـ].
١١٠. تفسير المنار، لمحمد رشيد بن علي رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب [١٩٩٠م].
١١١. تفسير المهايمي (تبصير الرحمن وتيسير المنان)، طبعة بولاق بمصر.
١١٢. تفسير النسفي، دار الكلم الطيب، بيروت [١٤١٩هـ].
١١٣. تفسير النيسابوري (غرائب القرآن ورغائب الفرقان)، دار الكتب العلميه، بيروت [١٤١٦هـ]
١١٤. تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس، المكتبة العصرية [٢٠٠٢].
١١٥. تفسير جزء عم، لمحمد عبده، الجمعية الخيرية الإسلامية، مطبعة مصر، الطبعة الثالثة [١٣٤١هـ].
١١٦. تفسير مجاهد، دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر [١٤١٠هـ]
١١٧. التقرير والتحبير، لابن أمير حاج، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١١٨. التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه، للدكتور الشيخ محمد الحسن ولد الددو، وزارة الأوقاف، مكتب الشؤون الفنية، الكويت[١٤٣٦هـ].
١١٩. التكفير وضوابطه، للدكتور منقذ بن محمود السقار، رابطة العالم الإسلامي.
١٢٠. تلبيس إبليس، لابن الجوزي، دار الفكر، بيروت [١٤٢١هـ].
١٢١. التمثيل والمحاضرة، للثعالبي، الدار العربية للكتاب[١٤٠١هـ].
١٢٢. تمهيد للفلسفة، للأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة [١٩٩٤].
١٢٣. تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين، لابن النحاس الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٧هـ].
١٢٤. تنبيه المغترين أواخر القرن العاشر على ما خالفوا فيه سلفهم الطاهر، لعبد الوهاب الشعراني، المكتبة التوفيقية، القاهرة.
١٢٥. التنوير شرح الجامع الصغير، محمد بن إسماعيل الصنعاني، مكتبة دار السلام، الرياض [١٤٣٢هـ].
١٢٦. تهافت الفلاسفة، للإمام الغزالي، الطبعة الرابعة، دار المعارف، القاهرة [١٣٨٥هـ].
١٢٧. تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق، لابن مسكويه، مكتبة الثقافة الدينية، مصر.
١٢٨. تهذيب الأسماء، للنووي، دار الكتب العلمية، بيروت.

١٢٩. تهذيب التهذيب، لابن حجر، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤].
١٣٠. تهذيب الكمال في أسماء الرجال، للمزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٠هـ].
١٣١. تهذيب اللغة، للأزهري، دار إحياء التراث العربي، بيروت [٢٠٠١م].
١٣٢. التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي، عالم الكتب، القاهرة [١٤١٠هـ].
١٣٣. تيسير التحرير، لمحمد أمين بن محمود البخاري المعروف بأمير بادشاه الحنفي، دار الفكر، بيروت.
١٣٤. تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد، لسليمان بن عبد الله عبد الوهاب، المكتب الإسلامي، بيروت، دمشق [١٤٢٣هـ].
١٣٥. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، لعبد الرحمن بن ناصر السعدي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٠هـ].
١٣٦. التيسير في القراءات السبع، لأبي عمرو الداني، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٠٤هـ].
١٣٧. جامع الرسائل، لابن تيمية، دار العطاء، الرياض [١٤٢٢هـ].
١٣٨. جامع العلوم والحكم، لابن رجب، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٣٩. جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية [١٤١٤هـ].
١٤٠. الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم، مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن، الهند [١٢٧١هـ].
١٤١. جمهرة الأمثال، لأبي هلال العسكري، دار الفكر، بيروت.
١٤٢. الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، دار العاصمة، السعودية [١٤١٩هـ].
١٤٣. الجواب الكافي لابن قيم الجوزية، دار المعرفة، المغرب [١٤١٨هـ].
١٤٤. جواهر القرآن، لأبي حامد الغزالي، دار إحياء العلوم، بيروت [١٤٠٦هـ].
١٤٥. حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، لابن عرفة الدسوقي المالكي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
١٤٦. حاشية السندي على سنن ابن ماجه، دار الجيل، بيروت، بدون طبعة.
١٤٧. حاشية السندي على سنن النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب [١٤٠٦هـ].
١٤٨. حاشية السيوطي على تفسير البيضاوي (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار)، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، المملكة العربية السعودية [١٤٢٤هـ].
١٤٩. حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي، دار صادر، بيروت.
١٥٠. حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة، مصطفى البابي الحلبي، مصر [١٣٥٣هـ].
١٥١. الحاوي للفتاوي، للسيوطي، دار الفكر، بيروت [١٤٢٤هـ].
١٥٢. حجة الله البالغة، لولي الله الدهلوي، دار الجيل، بيروت [١٤٢٦هـ].
١٥٣. الحجة في بيان المحجة، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني، دار الراية، الرياض [١٤١٩هـ].
١٥٤. حدائق الأنوار، لمحمد بن عمر الحميري الحضرمي، دار المنهاج، جدة [١٤١٩هـ].
١٥٥. الحضارة الإسلامية، لعبد الرحمن بن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق [١٤١٨هـ].
١٥٦. حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، لأبي نعيم الأصبهاني، السعادة [١٣٩٤هـ].

١٥٧. حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء، لأبي بكر الشاشي القفال، مؤسسة الرسالة، دار الأرقم، بيروت، عمان [١٩٨٠م].
١٥٨. حلية طالب العلم، لبكر بن عبد الله أبو زيد، دار العاصمة، الرياض [١٤١٦هـ].
١٥٩. الحماسة البصرية الحماسة البصرية، لعلي بن أبي الفرج، عالم الكتب، بيروت.
١٦٠. الحماسة المغربية، لأبي العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي، دار الفكر المعاصر، بيروت [١٩٩١م].
١٦١. الحوادث والبدع، لأبي شامة، مطبعة النهضة الحديثة بمكة [١٤٠١هـ].
١٦٢. الحيوان، للجاحظ، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
١٦٣. خزانة الأدب وغاية الأرب، لابن حجة الحموي، دار ومكتبة الهلال، بيروت [٢٠٠٤م].
١٦٤. خلاصة علم النفس، لأحمد فؤاد الأهواني، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة [١٩٥٣].
١٦٥. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون، للسمين الحلبي، دار القلم، دمشق.
١٦٦. درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية، جامعة محمد بن سعود الإسلامية، السعودية [١٤١١هـ].
١٦٧. درر السلوك في سياسة الملوك، لأبي الحسن علي بن محمد الشهير بالماوردي، دار الوطن، الرياض.
١٦٨. درر المعرفة من تفسير الإمام ابن عرفة، جمعها: نزار حمادي، دار الإمام ابن عرفة، تونس، ودار الضياء في الكويت [١٤٣٤هـ].
١٦٩. دستور العلماء، دار الكتب العلمية، لبنان [١٤٢١هـ].
١٧٠. دستور الوحدة الثقافية، للشيخ محمد الغزالي، دار القلم، دمشق.
١٧١. دلائل النبوة، للبيهقي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
١٧٢. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، محمد علي بن علان البكري، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
١٧٣. ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٧٤. ديوان المعاني، لأبي هلال العسكري، دار الجيل، بيروت.
١٧٥. ديوان امرئ القيس، دار المعرفة، بيروت [١٤٢٥هـ].
١٧٦. ديوان بشار بن برد، جمع وتحقيق وشرح العلامة محمد الطاهر بن عاشور، وزارة الثقافة، الجزائر [٢٠٠٧].
١٧٧. ديوان لبيد بن ربيعة العامري، دار المعرفة [١٤٢٥هـ].
١٧٨. الذخيرة، للقرافي، دار الغرب الإسلامي، بيروت [١٩٩٤م].
١٧٩. الذريعة إلى مكارم الشريعة، لأبي القاسم الراغب الأصفهاني، دار السلام، القاهرة [١٤٢٨هـ].
١٨٠. ذم الكلام وأهله، لأبي إسماعيل عبد الله الهروي، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة [١٤١٨هـ].
١٨١. ذم الهوى، لابن الجوزي، نسخة مصطفى عبد الواحد.
١٨٢. ربيع الأبرار ونصوص الأخيار، للزمخشري، مؤسسة الأعلمي، بيروت [١٤١٢هـ].

١٨٣. رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين، دار الفكر، بيروت [١٤١٢هـ].
١٨٤. الرد على المنطقيين، لابن تيمية، دار المعرفة، بيروت.
١٨٥. الرد على من أخلد إلى الأرض وجهل أن الاجتهاد في كل عصر فرض، للسيوطي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ميدان العتبة.
١٨٦. رسالة السجزي إلى أهل زبيد في الرد على من أنكر الحرف والصوت، لأبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم السجزي الوائلي البكري، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٢٣هـ].
١٨٧. الرسالة القشيرية، لعبد الكريم بن هوازن القشيري، دار المعارف، القاهرة.
١٨٨. الرسالة، للإمام الشافعي، مكتبه الحلبي، القاهرة [١٣٥٨هـ].
١٨٩. روح المعاني، لشهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].
١٩٠. الروح، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩١. الروض الأنف، لأبي القاسم عبد الرحمن السهيلي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٢١هـ].
١٩٢. روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، لأبي حاتم محمد بن حبان، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩٣. روضة المحبين ونزهة المشتاقين، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٣هـ].
١٩٤. زاد المسير في علم التفسير، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤٢٢هـ].
١٩٥. زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم الجوزية، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].
١٩٦. الزهد والرقائق، لابن المبارك، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٩٧. الزهد والورع والعبادة، لابن تيمية، مكتبة المنار، الأردن [١٤٠٧هـ].
١٩٨. زهر الآداب وثمر الألباب، لإبراهيم بن علي الحصري القيرواني، دار الجيل، بيروت.
١٩٩. زهر الأكم في الأمثال والحكم، للحسن بن مسعود، نور الدين اليوسي، الشركة الجديدة، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب [١٤٠١هـ].
٢٠٠. الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي، دار الفكر [١٤٠٧هـ].
٢٠١. سبل الهدى والرشاد، لمحمد بن يوسف الصالحي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٤هـ].
٢٠٢. سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، ومصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].
٢٠٣. السراج المنير، للخطيب الشربيني الشافعي، مطبعة بولاق (الأميرية)، القاهرة [١٢٨٥هـ].
٢٠٤. سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها، لمحمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض.
٢٠٥. سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة وأثرها السيئ في الأمة، لمحمد ناصر الدين الألباني، دار المعارف، الرياض [١٤١٢هـ].

٢٠٦. سير أعلام النبلاء، للذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٣هـ].
٢٠٧. سيرة ابن إسحاق، دار الفكر، بيروت [١٣٩٨هـ].
٢٠٨. السيرة النبوية، لابن كثير، دار المعرفة، بيروت [١٣٩٥هـ].
٢٠٩. السيل الجرار المتدفق على حدائق الأزهار، لمحمد بن علي الشوكاني اليمني، دار ابن حزم.
٢١٠. شجرة المعارف، عز الدين بن عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٤هـ].
٢١١. الشذا الفياح، لإبراهيم بن موسى، مكتبة الرشد [١٤١٨هـ].
٢١٢. شرح ابن عباد على الحكم، مركز الأهرام، القاهرة [١٤٠٨هـ].
٢١٣. شرح السنة، للبغوي، المكتب الإسلامي، دمشق، بيروت [١٤٠٣هـ].
٢١٤. شرح الشيخ محمد بن عبد الله الجرداني الدمياطي الشافعي على الأربعين النووية، مكتبة محمد علي صبيح بميدان الأزهر الشريف بالقاهرة.
٢١٥. شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن)، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة، الرياض) [١٤١٧هـ].
٢١٦. شرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية [١٤١٨هـ].
٢١٧. شرح الكوكب المنير، لأبي البقاء محمد بن أحمد الفتوحي، مكتبة العبيكان [١٤١٨هـ].
٢١٨. الشرح الممتع على زاد المستقنع، لمحمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي [١٤٢٢هـ].
٢١٩. شرح الورقات في أصول الفقه، جلال الدين المحلي، مكتبة العبيكان [١٤٢١هـ].
٢٢٠. شرح حديث جبريل في تعليم الدين، لعبد المحسن العباد البدر، مطبعة سفير، الرياض، [١٤٢٤هـ].
٢٢١. شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري، دار المعرفة، بيروت.
٢٢٢. شرح رياض الصالحين، لمحمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، الرياض [١٤٢٦هـ].
٢٢٣. شرح صحيح البخاري، لابن بطال، مكتبة الرشد، السعودية، الرياض [١٤٢٣هـ].
٢٢٤. شرح مختصر خليل للخرشي، دار الفكر، بيروت، بدون تاريخ.
٢٢٥. الشفا بتعريف حقوق المصطفى، للقاضي عياض، دار الفيحاء، عمان [١٤٠٧هـ].
٢٢٦. الشيطان خطواته وغاياته، رسالة ماجستير بكلية أصول الدين في الجامعة الإسلامية بغزة، لوائل عمر علي بشير [١٤٢٦هـ].
٢٢٧. صفة الصفوة، لابن الجوزي، دار الحديث، القاهرة [١٤٢١هـ].
٢٢٨. صفة الفتوى والمفتي والمستفتي، لأبي عبد الله أحمد بن حمدان بن شبيب بن حمدان النميري الحراني الحنبلي، المكتب الإسلامي، بيروت [١٣٩٧].
٢٢٩. صفة صلاة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، للألباني، مكتبة المعارف، الرياض.
٢٣٠. صفحات مشرقة من حياة السلف، سفيان الثوري، لأبي ياسر الزهراني، دار الخضيري، المدينة النبوية

المنورة.
٢٣١. صفحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل، لعبد الفتاح أبو غدة، مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب.
٢٣٢. الصوارف عن الحق، للدكتور حمد العثمان، دار الإمام أحمد.
٢٣٣. الصواعق المرسلة، لابن القيم، دار العاصمة، الرياض، المملكة العربية السعودية [١٤٠٨هـ].
٢٣٤. صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار القلم، دمشق [١٤٢٥هـ].
٢٣٥. طبقات الحنابلة، لأبي يعلى، دار المعرفة، بيروت.
٢٣٦. طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع [١٤١٣هـ].
٢٣٧. طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٧هـ].
٢٣٨. طبقات الشافعيين، لابن كثير، مكتبة الثقافة الدينية [١٤١٣هـ].
٢٣٩. الطبقات الكبرى، لابن سعد، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٠هـ].
٢٤٠. طرح التثريب في شرح التقريب، لأبي الفضل زين الدين عبد الرحيم بن الحسين العراقي، وأكمله ابنه، الطبعة المصرية القديمة.
٢٤١. عالم الجن والشياطين، للدكتور عمر بن سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٤هـ].
٢٤٢. العبر في خبر من غبر، للذهبي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٤٣. عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين، لابن قيم الجوزية، دار ابن كثير، دمشق [١٤٠٩هـ].
٢٤٤. العزلة، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة السلفية، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٢٤٥. عشرون حديثا من صحيح البخاري دراسة أسانيدها وشرح متونها، لعبد المحسن العباد البدر، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٠٩هـ].
٢٤٦. عقد الجيد في أحكام الاجتهاد والتقليد، للدهلوي، المطبعة السلفية، القاهرة [١٣٨٥].
٢٤٧. العقد الفريد، لابن عبد ربه الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٤هـ].
٢٤٨. العقل وفضله، لابن أبي الدنيا، دار الراية، الرياض [١٤٠٩].
٢٤٩. عمدة القاري شرح صحيح البخاري، لبدر الدين العيني، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٥٠. العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم، لابن الوزير، محمد بن إبراهيم بن علي بن المرتضى بن المفضل الحسني، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤١٥هـ].
٢٥١. عون المعبود، لمحمد شمس الحق العظيم آبادي أبو الطيب، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥].
٢٥٢. عيوب النفس، لمحمد بن الحسين النيسابوري السلمي، مكتبة الصحابة، طنطا.
٢٥٣. عيون الأخبار، لابن قتيبة الدينوري، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٢٥٤. غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي، مؤسسة قرطبة، مصر [١٤١٤هـ].
٢٥٥. غريب الحديث، لابن قتيبة الدينوري، مطبعة العاني، بغداد [١٣٩٧هـ].

٢٥٦. غمز عيون البصائر، لأحمد بن محمد الحموي الحنفي، دار الكتب العلمية [١٤٠٥هـ].
٢٥٧. فتاوى ابن الصلاح، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٧هـ].
٢٥٨. الفتاوى الفقهية الكبرى، لابن حجر الهيتمي، المكتبة الإسلامية.
٢٥٩. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر، دار المعرفة، بيروت [١٣٧٩هـ].
٢٦٠. فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب، مكتبة الغرباء الأثرية، المدينة النبوية [١٤١٧هـ].
٢٦١. فتح البيان في مقاصد القرآن، لمحمد صديق خان، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت [١٤١٢هـ].
٢٦٢. فتح المجيد، لعبد الرحمن بن حسن التميمي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة [١٣٧٧هـ].
٢٦٣. فتح المغيث، للسخاوي، مكتبة السنة، مصر [١٤٢٤هـ].
٢٦٤. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة.
٢٦٥. الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي بقم [١٤١٢هـ].
٢٦٦. فصل المقال، تحقيق: د. محمد عمارة، دار المعارف، القاهرة.
٢٦٧. الفصل في الملل والأهواء والنحل، لأبي محمد علي بن حزم، مكتبة الخانجي، القاهرة.
٢٦٨. فضائل الأعمال، للحافظ المقدسي، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة [١٤٠٧هـ].
٢٦٩. فقه الدعوة، للشيخ عبد الرحمن الميداني، دار القلم، دمشق.
٢٧٠. الفقيه والمتفقه، للخطيب البغدادي، دار ابن الجوزي، السعودية [١٤٢١هـ].
٢٧١. الفلسفة الإسلامية، للدكتور عبد المعطي بيومي، بتصرف، مكتبة كلية أصول الدين، جامعة الأزهر، القاهرة.
٢٧٢. فلسفة التربية الإسلامية، د. ماجد الكيلاني، مكتبة المنارة، مكة المكرمة، دار المنارة [١٤٠٧هـ].
٢٧٣. الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني، لأحمد بن غنيم النفراوي، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.
٢٧٤. الفوائد، لابن قيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٣٩٣هـ].
٢٧٥. في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق، القاهرة [١٤١٢هـ].
٢٧٦. فيض القدير شرح الجامع الصغير، لعبد الرؤوف المناوي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر [١٣٥٦].
٢٧٧. قاعدة في المحبة، لابن تيمية، مكتبة التراث الإسلامي، القاهرة.
٢٧٨. القائد إلى تصحيح العقائد، لعبد الرحمن بن يحيى المعلمي العتمي اليماني، المكتب الإسلامي [١٤٠٤هـ].
٢٧٩. قطف الثمر في بيان عقيدة أهل الأثر، لمحمد صديق خان، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية [١٤٢١هـ].
٢٨٠. قواعد الفقه، للبركتي، الصدف ببلشرز، كراتشي [١٤٠٧هـ].
٢٨١. القواعد والفوائد الأصولية، علاء الدين البعلي المعروف بابن اللحام، المكتبة العصرية [١٤٢٠هـ].
٢٨٢. قوت القلوب في معاملة المحبوب، لأبي طالب المكي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٦هـ].

٢٨٣. القول المفيد على كتاب التوحيد، محمد بن صالح العثيمين، دار ابن الجوزي، السعودية [١٤٢٤هـ].
٢٨٤. الكافية في الجدل، للجويني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة [١٣٩٩هـ].
٢٨٥. كتاب التوابين، لابن قدامة المقدسي، دار ابن حزم [١٤٢٤هـ].
٢٨٦. كتاب العلم، لمحمد بن صالح العثيمين، مكتبة نور الهدى، المملكة العربية السعودية.
٢٨٧. كتاب الفروع، لابن مفلح الحنبلي، مؤسسة الرسالة [١٤٢٤هـ].
٢٨٨. الكسب، لأبي عبد الله محمد بن الحسن الشيباني، عبد الهادي حرصوني، دمشق [١٤٠٠].
٢٨٩. كشاف القناع عن متن الإقناع، لمنصور بن يونس البهوتي الحنبلي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٢٩٠. كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، دار الكتاب الإسلامي، بدون طبعة، وبدون تاريخ.
٢٩١. كشف الظنون، لحاجي خليفة، مكتبة المثنى، بغداد [١٩٤١م].
٢٩٢. الكشكول، لمحمد بن حسين الحارثي العاملي الهمذاني، بهاء الدين، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٢٩٣. الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، بيروت.
٢٩٤. الكواكب الدراري في شرح صحيح البخاري، لمحمد بن يوسف الكرماني، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤٠١هـ].
٢٩٥. كيف نفهم الإسلام؟ للشيخ الغزالي، دار القلم، دمشق.
٢٩٦. لباب الآداب، للثعالبي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٧هـ].
٢٩٧. لمعة الاعتقاد، لابن قدامة، وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، السعودية [١٤٢٠هـ].
٢٩٨. المبدع في شرح المقنع، لابن مفلح، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٨هـ].
٢٩٩. المبسوط، لشمس الأئمة السرخسي، دار المعرفة، بيروت [١٤١٤هـ].
٣٠٠. متن الشاطبية (حرز الأماني ووجه التهاني)، مكتبة دار الهدى ودار الغوثاني [١٤٢٦هـ].
٣٠١. متن الطحاوية بتعليق الألباني، المكتب الإسلامي، بيروت [١٤١٤هـ].
٣٠٢. متن القصيدة النونية، لابن القيم، مكتبة ابن تيمية، القاهرة [١٤١٧هـ].
٣٠٣. مجاز القرآن، لأبي عبيدة، مكتبة الخانجي، القاهرة [١٣٨١هـ].
٣٠٤. المجالسة وجواهر العلم، لأبي بكر أحمد بن مروان الدينوري المالكي، دار ابن حزم، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٠٥. مجمع البحرين، لليازجي، المطبعة الأدبية، بيروت [١٣٠٢هـ].
٣٠٦. مجمل اللغة، لابن فارس، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٦هـ].
٣٠٧. مجموع الفتاوى، لابن تيمية، مجمع الملك فهد، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية [١٤١٦].
٣٠٨. مجموع رسائل الحافظ ابن رجب، دار الفاروق الحديثة للطباعة والنشر [١٤٢٥هـ].
٣٠٩. المجموع شرح المهذب، للإمام النووي، دار الفكر.
٣١٠. مجموع فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن صالح العثيمين، دار الوطن، دار الثريا [١٤١٣هـ].

٣١١. محاضرات الأدباء، للراغب الأصفهاني، دار الأرقم، بيروت [١٤٢٠هـ].
٣١٢. المحبة صورها وأحكامها، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الكويت، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ].
٣١٣. المحدث الفاصل، للرامهرمزي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].
٣١٤. المحرر الوجيز، لابن عطية، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٢٢هـ].
٣١٥. المحلى بالآثار، لابن حزم، دار الفكر، بيروت.
٣١٦. مختصر زوائد مسند البزار على الكتب الستة ومسند أحمد، لابن حجر العسقلاني، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت [١٤١٢هـ].
٣١٧. مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة المقدسي، مكتبة دار البيان، دمشق [١٣٩٨هـ].
٣١٨. المخصص، لابن سيده، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٤١٧هـ].
٣١٩. مدارج السالكين، لابن القيم، دار الكتاب العربي، بيروت [١٤١٦هـ].
٣٢٠. المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل، لعبد القادر بن أحمد بن بدران، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠١].
٣٢١. المدخل، لابن الحاج، دار التراث، بدون طبعة وبدون تاريخ.
٣٢٢. المدهش، لابن الجوزي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤٠٥هـ].
٣٢٣. مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، لأبي الحسن المباركفوري، إدارة البحوث العلمية والدعوة، والإفتاء، الجامعة السلفية، بنارس الهند [١٤٠٤هـ].
٣٢٤. المستصفى، لأبي حامد الغزالي، دار الكتب العلمية [١٤١٣هـ].
٣٢٥. المستطرف في كل فن مستطرف، لشهاب الدين الأبشيهي، عالم الكتب، بيروت [١٤١٩هـ].
٣٢٦. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية، لابن حجر العسقلاني، دار العاصمة، دار الغيث، السعودية [١٤١٩هـ].
٣٢٧. مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى، مصطفى بن سعد بن عبده السيوطي شهرة، الرحيباني مولدا، المكتب الإسلامي [١٤١٥هـ].
٣٢٨. معارج القدس، لأبي حامد الغزالي، طبع دار الآفاق الجديدة، بيروت.
٣٢٩. معالم السنن، لأبي سليمان الخطابي، المطبعة العلمية، حلب [١٣٥١هـ].
٣٣٠. معاني القرآن وإعرابه، للزجاج، عالم الكتب، بيروت [١٤٠٨هـ].
٣٣١. معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، لأبي الفتح العباسي، عالم الكتب، بيروت
٣٣٢. المعجزة الكبرى القرآن، لأبي زهرة، دار الفكر العربي، عباس العقاد، القاهرة.
٣٣٣. المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم، محمد بسام رشدي الزين، دار الفكر المعاصر، بيروت، ودار الفكر، دمشق [١٤٣١هـ].

٣٣٤. معجم مقاليد العلوم في الحدود والرسوم، للسيوطي، مكتبة الآداب، القاهرة [١٤٢٤هـ].
٣٣٥. معيار العلم، للإمام الغزالي، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، مصر [١٩٦١م].
٣٣٦. مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج، للخطيب الشربيني، دار الكتب العلمية [١٤١٥هـ].
٣٣٧. مفتاح دار السعادة، لابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٣٨. المفردات في غريب القرآن، للراغب الأصفهانى دار القلم، الدار الشامية، دمشق بيروت [١٤١٢هـ].
٣٣٩. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، لأبي العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، دار ابن كثير، ودار الكلم الطيب، دمشق، بيروت [١٤١٧هـ].
٣٤٠. مقدمة ابن خلدون، لابن خلدون، دار يعرب، دمشق [١٤٢٥هـ].
٣٤١. مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، مكتبة الحياة، بيروت،[١٤٩٠هـ].
٣٤٢. مكفرات الذنوب وموجبات الجنة، لعبد الرحمن بن علي الشيباني المعروف بابن الديبع، دار الاعتصام.
٣٤٣. الملخص الفقهي، لصالح الفوزان، دار العاصمة، الرياض [١٤٢٣هـ].
٣٤٤. منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، لحمزة محمد قاسم، مكتبة دار البيان، دمشق، والمؤيد، السعودية [١٤١٠هـ].
٣٤٥. منازل السائرين، لأبي إسماعيل عبد الله بن محمد الأنصاري الهروي، دار الكتب العلمية، بيروت.
٣٤٦. المنتقى شرح الموطإ، لأبي الوليد الباجي، مطبعة السعادة، مصر [١٣٣٢هـ].
٣٤٧. المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي، وزارة الأوقاف، الكويت [١٤٠٥هـ].
٣٤٨. المنفرجتان، لزكريا الأنصاري، زين الدين أبو يحيى السنيكي، دار الفضيلة، القاهرة.
٣٤٩. منهاج السنة النبوية لابن تيمية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية [١٤٠٦هـ].
٣٥٠. المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام النووي، دار إحياء التراث العربي، بيروت [١٣٩٢هـ].
٣٥١. المنهج المسلوك في سياسة الملوك، لعبد الرحمن بن نصر، مكتبة المنار، الزرقاء.
٣٥٢. المهذب في علم أصول الفقه المقارن، عبد الكريم النملة، مكتبة الرشد، الرياض [١٤٢٠هـ].
٣٥٣. الموافقات، للشاطبي، دار ابن عفان، السعودية [١٤١٧هـ].
٣٥٤. مواهب الجليل في شرح مختصر خليل، لشمس الدينا الحطاب الرُّعيني المالكي، دار الفكر [١٤١٢هـ].
٣٥٥. المواهب اللدنية، للقسطلاني المكتبة التوفيقية، القاهرة.
٣٥٦. موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل في رجال الحديث وعلله، عالم الكتب [١٤١٧هـ].
٣٥٧. موسوعة الأعمال الكاملة، للعلامة محمدالخضر حسين، جمعها وضبطها: ابن أخيه: المحامي علي الرضا الحسيني، الطبعة الأولى، دار النوادر [١٤٣١هـ].
٣٥٨. موسوعة الصحيح المسبور من التفسير بالمأثور، للأستاذ الدكتور حكمت بن بشير بن ياسين، المآثر للنشر والتوزيع والطباعة، المدينة النبوية [١٤٢٠هـ].
٣٥٩. الموسوعة الفقهية الكويتية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت [١٤٢٧هـ].

٣٦٠. ميزان العمل، للإمام الغزالي، دار المعارف، مصر [١٩٦٤هـ].

٣٦١. نزهة الأعين النواظر، لابن الجوزي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٠٤هـ].

٣٦٢. نصيحة الملوك، لأبي الحسن الماوردي، مكتبة الفلاح، الكويت [١٤٠٣هـ].

٣٦٣. نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، دار الوسيلة، جدة.

٣٦٤. نظرات في القرآن الكريم للشيخ محمد الغزالي، دار الكتب الإسلامية، عابدين، القاهرة. ودار نهضة مصر.

٣٦٥. نهاية الأرب في فنون الأدب، للنويري، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة [١٤٢٣هـ].

٣٦٦. نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج، للرملي، دار الفكر، بيروت [١٤٠٤هـ].

٣٦٧. نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، لم يطبع.

٣٦٨. هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، لابن قيم الجوزية، دار القلم، دار الشامية، جدة [١٤١٦هـ].

٣٦٩. الهداية إلى بلوغ النهاية، لأبي محمد مكي بن أبي طالب، مجموعة بحوث الكتاب والسنة، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الشارقة [١٤٢٩هـ].

٣٧٠. الوابل الصيب من الكلم الطيب، دار الحديث، القاهرة [١٩٩٩م].

٣٧١. الواضح في أصول الفقه، لأبي الوفاء علي بن عقيل البغدادي الحنبلي، مؤسسة الرسالة، بيروت [١٤٢٠هـ].

٣٧٢. وسائل الإقناع في القرآن الكريم، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٣٧٣. الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي، دار الكتب العلمية، بيروت [١٤١٥هـ].

٣٧٤. ولاية الله والطريق إليها، محمد بن علي الشوكاني، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

فهرس موضوعات الجزء الثاني

العقبة الحادية والثلاثون: فَقْد محبّة الله تعالى ورسوله............. ٥

أولًا: تعريف المحبة... ٧

ثانيًا: فَقْد محبَّة الله ورسوله عقبة مضلة................................. ١٠

ثالثًا: سبل الوقاية من آفات فَقْد محبَّة الله تعالى ورسوله والعلاج................ ١٣

العقبة الثانية والثلاثون: الرضا عن النفس......................... ١٧

أولًا: المراد من الرضا عن النفس من حيث كونه عقبة............................ ١٩

ثانيًا: إجمال أسباب الوقاية من آفة الرضا عن النفس والعلاج.................... ٢٢

العقبة الثالثة والثلاثون: التعصب..................................... ٢٧

أولًا: تعريف التعصب.. ٢٩

ثانيًا: مساوئ التعصب من حيث كونه عقبة................................ ٣٠

ثالثًا: الوقاية من آفات التعصب والعلاج.................................. ٣٥

العقبة الرابعة والثلاثون: العشق..................................... ٣٧

أولًا: تعريف العشق.. ٣٩

ثانيًا: أنواع العشق... ٤٠

ثالثًا: أسباب العشق وخطورته وآثاره....................................... ٤٠

رابعًا: سبل الوقاية من داء العشق والعلاج.................................. ٤٤

العقبة الخامسة والثلاثون: الغفلة...................................... ٥١

أولًا: تعريف الغفلة... ٥٣

ثانيًا: آثار الغفلة... ٥٤

ثالثًا: أسباب الغفلة... ٥٦

رابعًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج..٥٧
العقبة السادسة والثلاثون: عدم الاعتراف بالخطأ....................٦١
أولًا: المراد من التمادي في الخطأ من حيث كونه عقبة.........................٦٣
ثانيًا: بيان الأسباب..٦٦
ثالثًا: الوقاية والعلاج...٦٨
العقبة السابعة والثلاثون: اليأس والقنوط..........................٧١
أولًا: تعريف اليأس والقنوط..٧٣
ثانيًا: آفات اليأس والقنوط...٧٤
ثالثًا: حكم اليأس...٧٥
رابعًا: سبل الوقاية من هذا الداء وآفاته والعلاج................................٧٦
العقبة الثامنة والثلاثون: الخوف المذموم..........................٨٥
أولًا: تعريف الخوف..٨٧
ثانيًا: أنواع الخوف...٨٩
ثالثًا: الخوف من حيث كونه عقبة..٩٤
رابعًا: الوقاية من الخوف المذموم والعلاج.....................................٩٧
العقبة التاسعة والثلاثون: البيئة الفاسدة والتربية السيئة...١٠٣
أولًا: المراد من البيئة الفاسدة والتربية السيئة.................................١٠٥
ثانيًا: الوقاية من آفات البيئة الفاسدة والتربية السيئة والعلاج...................١٠٨
العقبة الأربعون: الإعلام المضلل.................................١١٣
أولًا: تعريف الإعلام..١١٥
ثانيًا: أهمية الإعلام وبيان خطره..١١٥
ثالثًا: الوقاية من آفات الإعلام المضلل والعلاج.................................١١٨
العقبة الحادية والأربعون: الفقر المنسي والغنى المطغي........١٢١

أولًا: المراد من الفقر المنسي والغنى المطغي.................................١٢٣
ثانيًا: الوقاية من آفات الفقر المنسي والغنى المطغي والعلاج..................١٢٩
العقبة الثانية والأربعون: الفتور................................١٣٧
أولًا: تعريف الفتور...١٣٩
ثانيًا: الفتور من أسباب الضلال...١٤٠
ثالثًا: أسباب الفتور...١٤٢
رابعًا: بيان أقسام الفتور...١٤٤
خامسًا: وسائل الوقاية والتحرر مما يعتري السالكين من الفتور..................١٤٤
العقبة الثالثة والأربعون: البطالة................................١٥٧
أولًا: تعريف البطالة...١٥٩
ثانيًا: الأسباب المفضية إلى البطالة..١٦٠
ثالثًا: وسائل الوقاية من البطالة وأخطارها والعلاج..........................١٦٢
العقبة الرابعة والأربعون: التسرع في الحكم على الأشياء........١٧٥
أولًا: المعنى المراد من التسرع في الحكم....................................١٧٧
ثانيًا: آفات التسرع في الحكم على الأشياء..................................١٧٧
ثالثًا: دوافع التسرع في الحكم مع عدم وضوح الرؤية...........................١٨٠
رابعًا: سبل الوقاية من التسرع في الحكم والعلاج..............................١٨١
العقبة الخامسة والأربعون: ترك المشورة........................١٨٣
أولًا: تعريف الشورى..١٨٥
ثانيًا: مشاورة العقلاء من أسباب سداد الرأي................................١٨٧
ثالثًا: آفات إغفال المشاورة..١٨٩
رابعًا: أدلة الشورى في القرآن الكريم.......................................١٩٠
خامسًا: الوقاية من آفات ترك المشورة والعلاج................................١٩٢

العقبة السادسة والأربعون: الطائفية والحزبية.................. ١٩٥
أولًا: المعنى المراد من الطَّائفية والحزبيَّة.................................. ١٩٧
ثانيًا: بيان خطر الطائفية وآفات العصبية الحزبية.............................. ١٩٧
ثالثًا: الوقاية من آفات الطائفية والحزبية والعلاج............................. ٢٠٣
العقبة السابعة والأربعون: التعلل بالابتلاءات..................... ٢٠٥
أولًا: تعريف الابتلاء.. ٢٠٧
ثانيًا: آفة التعلل بالابتلاءات.. ٢٠٩
ثالثًا: سبل الوقاية من آفة التعلل بالابتلاءات والعلاج........................ ٢١٣
العقبة الثامنة والأربعون: تفرق السبل.......................... ٢١٧
أولًا: المراد من تفرق السبل وبيان كونه عقبة................................ ٢١٩
ثانيًا: الوقاية من آفة تفرق السبل والعلاج.................................. ٢٢٣
العقبة التاسعة والأربعون: الاشتغال بالمفضول عن الفاضل..... ٢٢٥
أولًا: تعريف مراتب الأعمال.. ٢٢٧
ثانيًا: الاشتغال بالمفضول من حيث كونه عقبة في طريق الهداية............... ٢٢٧
ثالثًا: الوقاية من آفات هذه العقبة والعلاج.................................. ٢٢٩
العقبة الخمسون: الإسراف في المباحات......................... ٢٣١
أولًا: تعريف الإسراف... ٢٣٣
ثانيًا: الإسراف في المباحات من حيث كونه عائقًا............................ ٢٣٤
ثالثًا: سبل الوقاية والعلاج.. ٢٤٧
العقبة الحادية الخمسون: الاستدراج............................... ٢٤٩
أولًا: تعريف الاستدراج وبيان كونه من العقبات............................... ٢٥١
ثانيًا: الوقاية من خطر الاستدراج والعلاج.................................. ٢٥٧

العقبة الثانية والخمسون: آفات اللسان........................٢٥٩
توطئة في التحذير من آفات اللسان.................................٢٦١
صورة توضيحية لآفات اللسان..٢٧٤
أولًا: الكذب..٢٧٦
١ – تعريف الكذب..٢٧٦
٢ – خطورة الكذب...٢٧٧
٣ – صور الكذب..٢٨٣
أ. القول على الله بغير علم..٢٨٣
ب. الكذب على الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.......................................٢٨٦
ج. الكذب على الناس في المعاملات ونحوها.........................٢٨٨
د. المخاصمة بالباطل...٢٩٢
هـ. إشاعةُ الكذبِ ونَقْلُه –(السماعون للكذب)......................٢٩٤
و. قول الزور..٢٩٧
ثانيًا: الغيبة والنميمة...٣٠٠
١ – حد الغيبة..٣٠٠
٢ – صور الغيبة..٣٠٠
٣ – حال السلف في اجتنابهم الغيبة..................................٣٠٢
٤ – حدُّ النميمة..٣٠٤
٥ – صور النميمة...٣٠٥
٦ – النصوص الدالة على تحريم الغيبة والنميمة وبيان عاقبتهما...........٣٠٦
ثالثًا: البهتان والإفك والتمييز بينهما وبين الغيبة...................٣١٦
رابعًا: قذف المحصنات...٣١٨
خامسًا: المجادلة بالباطل...٣٢٠

١ – التحذير من المجادلة بالباطل.................................... ٣٢٠
٢ – أسباب الجدال بالباطل.................................... ٣٢٤
٣ – شروط المجادل.................................... ٣٢٦
سادسًا: الوقاية من آفات اللسان والعلاج.................................... ٣٢٧
العقبة الثالثة والخمسون: الظلم.................................... ٣٣٣
أولًا: تعريف الظلم.................................... ٣٣٥
ثانيًا: التحذير من الظلم وبيان عاقبته وكونه من العقبات.................................... ٣٣٨
ثالثًا: أسباب الظلم.................................... ٣٤٨
رابعًا: أنواع الظلم.................................... ٣٤٩
خامسًا: الوقاية من آفات الظلم والعلاج.................................... ٣٧٥
العقبة الرابعة والخمسون: الفتن.................................... ٣٩٣
أولًا: تعريف الفتنة.................................... ٣٩٥
ثانيًا: التحذير من الفتن وبيان كونها من المضلات.................................... ٤٠٣
ثالثًا: موقف المسلم من الفتن والوقاية من آفاتها والعلاج.................................... ٤٣١
العقبة الخامسة والخمسون: المكر والخداع.................................... ٤٤٣
أولًا: التحذير من المكر والخداع.................................... ٤٤٥
ثانيًا: الوقاية من آفات المكر والخداع والعلاج.................................... ٤٥٧

نهاية الجزء الثاني من كتاب عقبات في طريق الهداية

المؤلف في سطور

الاسم: عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

الميلاد: من مواليد مدينة حمص في سوريا.

محل الإقامة: الكويت، محافظة الفروانية، ضاحية عبد الله المبارك الصباح.

المؤهل والخبرات:

١ - حاصل على شهادة المعهد العلمي الشَّرعي التابع لجمعيَّة العلماء في مدينة (حمص) بتاريخ (١٥/١٢/١٤١٣هـ)، بتقدير: (امتياز). وعلى شهادة الثَّانوية الأزهريَّة (القسم الأدبي) من (القاهرة).

٢ - حاصل على درجة الإجازة العالية (الليسانس) من كليَّة أصول الدين بجامعة الأزهر في (القاهرة)، بتاريخ (٢) من ربيع الآخر [١٤١٨هـ]، (٦/أغسطس/١٩٩٧م) بتقدير: جيد جدًّا، قسم التفسير وعلوم القرآن.

٣ - حاصل على درجة دبلوم الدِّراسات العليا (الماجستير) في التَّفسير وعلوم القرآن، وذلك بعد مناقشة رسالة بعنوان: (الإقناع بين طريقة القرآن وعرض المفسِّر)، وذلك يوم الأربعاء الواقع في (٧/ذي الحجة/١٤٢٤هـ)، الموافق (٢٩/١/٢٠٠٤م). وقد طبعت رسالة الماجستير مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة بعنوان (وسائل الإقناع في القرآن) في دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٤ - حاصل على درجة الدكتوراه في التفسير وعلوم القرآن، بعد مناقشة رسالة بعنوان: (أساليب الخطاب في القرآن الكريم). دراسة تحليلية شاملة لأساليب الخطاب والطلب في القرآن الكريم. وذلك يوم السبت الواقع في (٣٠/٧/٢٠١١)، الموافق

(٢٩/شعبان/١٤٣٢هـ). وقد طبعت رسالة الدكتوراه في مجلدين مع تحقيقات وزيادات وتعديلات جديدة في وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

عمل إمامًا وخطيبًا ومدرِّسًا في (سوريا)، وكذلك في (الكويت) ولا يزال. وعمل مُوَجِّهًا فنيًّا في المراقبة الثَّقافية في وزارة الأوقاف إدارة مساجد محافظة (الفروانيَّة)، ثمَّ باحثًا شرعيًّا متفرغًا للبحث والدراسة والتحقيق [١٤] عامًا في (المراقبة الثقافية في إدارة مساجد محافظة الفروانية)، وإمامًا وخطيبًا في محافظة (الفروانيَّة) [١٥] عامًا، ولا يزال.

ومدرسًا في كلية التربية الأساسية في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية (الكويت – العارضية).

الكتب والمؤلفات:

١ – الإرشادات المنهجية إلى تفسير الآيات الكونية (إضاءات على تعريف التفسير العلمي وضوابطه، ومبادئه العشرة)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٢ – وسائل الإقناع في القرآن الكريم، دار الفتح للدراسات والنشر، عمان، الأردن [٢٠١٦م].

٣ – أساليب الخطاب في القرآن الكريم، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت، قطاع الشؤون الثقافية، مجلة الوعي الإسلامي، الإصدار مائة وأحد عشر، غراس للنشر والتوزيع، الكويت [١٤٣٦هـ].

٤ – أخطار تهدد الأسرة، وزارة الأوقاف، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الكويت [١٤٣٥هـ].

٥ – المحبة صورها وأحكامها، وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، مطبعة النظائر [١٤٣٧هـ]. أعيد طبع الكتاب بإصلاحات وإضافات وتحقيقات جديدة في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ، الموافق ٢٠١٨م]، الإصدار الثالث بإصلاحات جديدة، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٦ – عقبات في طريق الهداية، وسبل الوقاية منها، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. طبع في (دار اللؤلؤة)، المنصورة، مصر [١٤٣٩هـ]، الموافق [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٧ – دروس وعبر من رحلة سيد البشر ﷺ. كتيب. وزارة الأوقاف، دولة الكويت، إدارة مساجد محافظة الفروانية، الطبعة الأولى [١٤٣٩هـ]، [٢٠١٨م]، الإصدار الثاني، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٨ - نهج الأبرار في اجتناب ما توعد عليه بالنار. والكتاب يتناول موضوعات كثيرة من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٩ - سبيل الوصول إلى عنوان الأصول (في الأصول)، وهو شرح وتحقيق ودراسة لعنوان الأصول في أصول الفقه، لأبي حامد المطرزي. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٠ – الإرشاد إلى أسباب النجاة، لم يطبع.

١١ - آيات النداء في القرآن الكريم، دراسة تحليلية لآيات النداء تتناول (الأداة، والمنادَى، والمنادِي، وما ولي الأداة والمنادَى)، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٢ - تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، شرح وتحقيق كتاب الجنائز للفقير إلى رحمة ربِّه العلي إبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٣ – مذكرة في علوم القرآن. مقرر الفصل الثاني للعام الجامعي [٢٠١٧ – ٢٠١٦م] في الهيئة العامة للتعليم التطبيقي، قسم الدراسات الإسلامية، كلية التربية الأساسية، (الكويت – العارضية).

١٤ - آفات اللسان وسبل الوقاية والعلاج منها، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م]، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

١٥ – كتب عليكم الصيام، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، دولة الكويت [١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م].

١٦ - ثلاث رسائل في الفقه، للعلامة حسن الشرنبلالي المتوفى سنة [١٠٦٩هـ]، وهي على النحو التالي:

أ. دُرُّ الكُنوز فمن عمل بها بالسعادة يفوز. وهي منظومة في أحكام الصلاة.

ب. سعادة الماجد بعمارة المساجد.

ج. إتحاف ذوي الإتقان بحكم الرهان. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٧ - عنوان الأصول، لأبي حامد المطرزي. مع شرحنا له، مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٦هـ].

١٨ - أحكام الجنائز، لإبراهيم بن يوسف البولوي، توفي سنه [١٠٤١هـ]. مطبوع في دار الضياء، الكويت، الطبعة الأولى [١٤٣٥هـ].

١٩ – إتحاف المهتدين بمناقب أئمَّة الدِّين مختصر (تنوير بصائر المقلدين في مناقب الأئمَّة المجتهدين) للعلاَّمة الشيخ مرعي الحنبلي، للعلامة الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفى سنة [١١٠١هـ]، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٥هـ].

٢٠ – تحقيق ودراسة وشرح منظومتي الشهداء (أ. داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا، للإمام أحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي. وشرح منظومة الشهداء، للإمام علي بن محمَّد الأجهوري)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢١ – تحقيق ودراسة رسالتان في الأصول، لإسماعيل بن غنيم الجوهري المتوفى سنة [١١٦٥ هـ]. (أ. رسالة في جواز النسخ. ب. الكلم الجوامع في مسألة الأصولي لجمع الجوامع)، الطبعة الأولى، دار الضياء، الكويت [١٤٣٤هـ].

٢٢ – دراسة وتحقيق (سورة الفاتحة) من التيسير في التفسير المسمى ببحر علوم التفسير، لنجم الدين عمر بن محمد النسفي [٥٣٧هـ]، لم يطبع.

٢٣ – تحقيق ودراسة وشرح لكتاب: (إتمام الدراية شرح نقاية العلوم)، وهي خلاصة مختارة من أربعة عشر علمًا، للإمام جلال الدين السيوطي، المتوفى سنة [٩١١هـ]، دار الضياء، الكويت، طبع في مجلدين، وقد شارك في تحقيق (إتمام الدراية) الدكتور عبد الرقيب صالح الشامي، وفضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ.

٢٤ – الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة، العبيكان، الرياض [١٤٤٠هـ]، الموافق [٢٠١٩م].

٢٥ – الخيانة صورها وأحكامها وآثارها في ضوء الكتاب والسنة، العبيكان، الرياض [١٤٤١هـ]، الموافق [٢٠٢٠م].

الأبحاث:

١ – مبادئ التفسير العلمي لنصوص القرآن الكريم وضوابط التعريف، (محكم)، جامعة النيلين، السودان.

٢ – ضوابط التفسير العلمي فيما يخصُّ الظَّاهِرَةَ العلميَّةَ الكونيَّة والمفسِّرَ والنَّص.

٣ – الحوار والمناظرة والجدل من خلال نصوص القرآن الكريم.

٤ – فقه التمثيل بين الإقناع والإمتاع.

٥ – الأقْسَام بين تحقيق الخبر وتوجيه النظر.

٦ – التربية الوقائية من آفات التفكك الأسري.

الدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان

Abdkader199@yahoo.com